

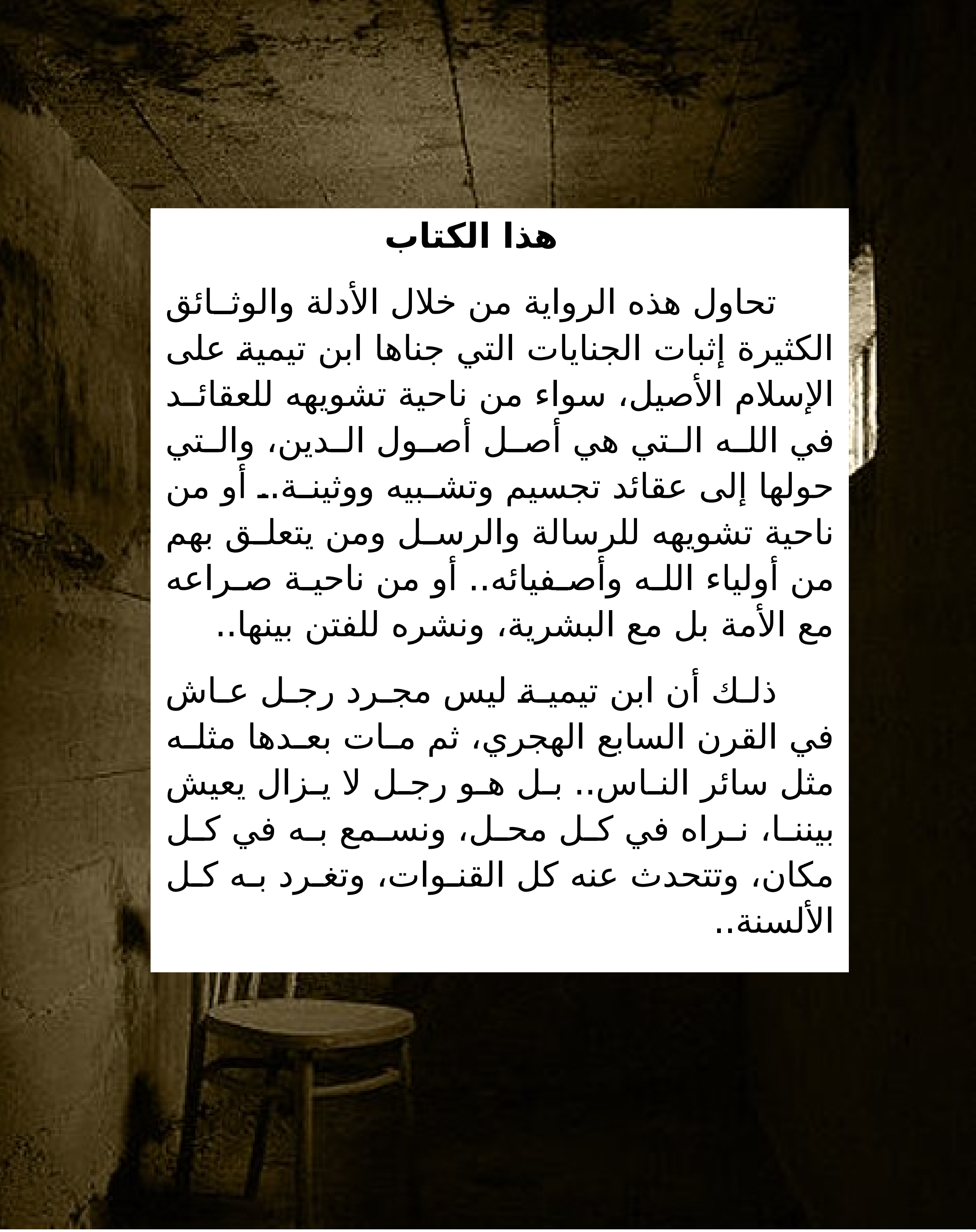
الدين .. والدجل

(١٢)

شيخ الإسلام في قفص الاتهام

رواية تعرض آراء ابن تيمية وآثارها الخطيرة على الأمة

د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

تحاول هذه الرواية من خلال الأدلة والوثـائق الكثيرة إثبات الجنايات التي جناها ابن تيمية على الإسلام الأصيل، سواء من ناحية تشويهه للعقائـد في اللـه الـتي هي أصـل أصـول الـدين، والـتي حولها إلى عقائد تجسيم وتشـبيه ووثينـة.. أو من ناحية تشويهه للرسالة والرسـل ومن يتعلـق بهم من أولياء اللـه وأصـفيائه.. أو من ناحيـة صـراعه مع الأمة بل مع البشرية، ونشره للفتن بينها..

ذلـك أن ابن تيميـة ليس مجـرد رجـل عـاش في القرن السابع الهجري، ثم مـات بعـدها مثلـه مثل سائر النـاس.. بـل هـو رجـل لا يـزال يعيش بيننـا، نـراه في كـل محـل، ونسـمع بـه في كـل مكان، وتتحدث عنه كل القنـوات، وتغـرد بـه كـل الألسنة..

الدين .. والدجل

(12)

شيخ الإسلام في قفص الاتهام

رواية تعرض آراء ابن تيمية وآثارها الخطيرة على الأمة

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2016 – 1436

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

لا يمكن للصادقين الذين يريدون أن يقفوا بحزم في مواجهة الدجل والدخن والتحريف الذي علق بهذا الدين، فحوله من دين سماحة إلى دين عنف، ومن دين رحمة إلى دين قسوة، ومن دين عقل إلى دين خرافة، ومن دين حضارة إلى دين تخلف؛ أن يقف صامتا أو حياديا أو سلبيا أمام شخصية محورية خطيرة كشخصية ابن تيمية.

فابن تيمية ليس مجرد رجل عاش في القرن السابع الهجري، ثم مات بعدها مثله مثل سائر الناس.. بل هو رجل لا يزال يعيش بيننا، نراه في كل محل، ونسمع به في كل مكان، وتتحدث عنه كل القنوات، وتغرد به كل الألسنة..

إننا نراه في كل كنيسة تحرق، أو مسجد يهدم، أو سوق تفجر، أو أعناق تقطع، أو أحرار يستعبدون.

ونسمعه في كل تلك القنوات التي حولت الدين إلى خرافة وشعوذة وبداوة.. وحولت عقول الملايين الذين يعلفون في مرعاها إلى بهائم لا عقول لها، وجمادات لا مشاعر لها، وإمعات لا هم لها إلا السير خلف راعي القطيع.. وراعي القطيع ليس سوى ابن تيمية وتلاميذ ابن تيمية.

وهكذا نلاحظه في مكتباتنا وجامعاتنا ومؤتمراتنا التي تسبح بحمده آناء الله وأطراف النهار.. فكلهم يخضعون له، ويسجدون بين يديه.. وويل ثم ويل لمن تسول له نفسه أن يفكر في الاعتراض عليه أو انتقاده أو الحط من قدره الذي لا يضاهيه أي قدر.

ولذلك فإن كلمة [شيخ الإسلام] التي صارت علما على ابن تيمية صادقة عليه صدقا مطلقا .. فالإسلام الذي نراه بعنفه وهمجيته وبداوته وتخلفه هو إسلام ابن تيمية، لا إسلام رسول الله ﷺ.. فابن تيمية هو شيخ هذا النوع من الإسلام، وهو منظره ورائده وله وحده الحق في الحديث عنه.

أما إسلام رسول الله ﷺ وإسلام أولئك الصادقين من أمتـه الذين أخذوا الدين من منابعه الأصيلة لا من منابعه المسمومة.. فهو إسلام مختلف تماما.. لأنه ينطلق من العقل لا من الخرافة، ومن القرآن لا من الهوى، ومن الصـادقين من السـابقين لا من اليهود وتلاميذ اليهود.

وبناء على هذا حاولت هذه الرواية أن تواجـه هـذا الإسـلام التيمي المزيف بالإسلام المحمدي الأصيل.. وأن تعقد المحاكمة لأطروحات ابن تيمية من خلال ذلك الإسلام المقدس الذي مثله كبار أعلام الأمة، والذين وقفوا في وجه ابن تيمية في عصرهم، وفي كل العصور.

وقـد حـاولت عـبر الأحـداث المختلفـة ــ الـتي لن أحكيهـا للقارئ حتى لا أفسد عليـه متعـة المتابعـة للأحـداث ــ أن أركـز على ثلاث تهم كبرى وجهت لابن تيمية، وتوجه لكل من تأثر بـه، وهي:

التهمة الأولى: تهمة التجسيم والتشبيه، والتي اتفق كل من انتقد ابن تيمية من العلمـاء المعاصـرين لـه أو غـيرهم على رميه بها، وهي تتعلق بذلك التحريـف الخطـير الـذي أجـراه ابن تيمية على عقائد الإسلام التنزيهية، حيث عمد إلى ذلـك الـتراث السلفي الحديثي الذي كاد يندثر في عصره، فأحياه، ونظـر لـه، وطلاه بكثير من الزخارف.. وذلك التراث الذي تركـه هـو الـذي أعاد له ابن عبد الوهاب الحياة.. ثم أعادت له السـلفية الحديثـة المزيد من الحيـاة.. فنسـيت عقيـدة التنزيـه، وتحـولت العقيـدة الإسـلامية في اللـه إلى عقيـدة تجسـيمية ممتلئـة بالتشـبيه والوثنية.

التهمة الثانية: تهمة النصب والعداوة، وهي تهمة تتعلـق بموقف ابن تيمية من رسل الله وأوليائه وأصفيائه الـذين أمرنـا بمحبتهم وتعظيمهم وتقـديم كـل صـنوف الـولاء لهم.. لكن ابن تيمية حـارب ذلـك كلـه.. فهـون من شـأن الأنبيـاء وجـوز عليهم المعاصي بأنواعهـا، بـل جـوز عليهم الكفـر نفسـه.. ثم راح إلى تلـك العلاقـات الـتي جمعت بين الأمـة ونبيهـا ﷺ ليقطعهـا، بـل

يحولها إلى بدعة وضلالة وشرك..

التهمة الثالثة: تهمة الصراع والفتنة، وهي التي لا نزال نعيش آثارها، وهي ما نشره ابن تيمية من قيم الصراع بين مذاهب الأمة ومدارسها وطوائفها وشعوبها وأديانها.. والتي أزالت عن الإسلام صورته السمحة الجميلة، وحولته إلى دين عنف وقتل ومصادرة للحريات.

وهذه التهم جميعا ترتبط بكل ما يرتبط بالدين من جميع جوانبه.. أما الأولى، فتتعلق بتشويه ابن تيمية للعقائد في الله التي هي أصل أصول الدين.. وأما الثانية فتتعلق بتشويهه للرسالة والرسل ومن يتعلق بهم من أولياء الله وأصفيائه.. وأما الثالثة، فتتعلق بصراعه مع الأمة بل مع البشرية، ونشره للفتن بينها..

وقد حاولنا في هذه الرواية أن نبرهن على ثبوت كل هذه التهم بالبينات والشواهد والأدلة والأمثلة المختلفة من خلال كتب ابن تيمية المعتمدة والمعروفة والتي يقر تلاميذه على نسبتها إليه.

وقد استفدنا أيضا من كل ذلك التراث العريض الذي ألفه من انتقد ابن تيمية من علماء المذاهب المختلفة، لذلك جعلنا المدعين على ابن تيمية في هذه الرواية هم أعلام تلك المذاهب الذين وقفوا في وجهه في حياته أو بعد مماته.

ولم نغفل ـ من باب الموضوعية والأمانة العلمية ـ أن نذكر المنتصرين لابن تيمية والمعظمين له، والذين نراهم في كل محل، ونسمع بهم عند كل حادث.

لذلك بدأنا الرواية بهم.. وبتعلقهم الشديد بابن تيمية وتعظيمهم له، وتعظيمهم لأنفسهم.. لغرضين:

الأول: لنبين تناقضهم في التعامل مع الشيعة والصوفية وغيرهما بحجة الغلو في أئمتهم ومشايخهم بينما هم يغالون في بعضهم بعضا.

الثاني: لنبني على ذلك الثناء الانتقادات التي ترد عن ذكر حجج العلماء المدعين على ابن تيمية.

وقد جعلنا في الرواية محاكمة ابن تيميـة محاكمـة غيابيـة، لأننا لا يهمنا جسـده ولا شخصـه، وإنمـا تهمنـا أفكـاره الخطـيرة التي لا نزال نتجرع آثارها.

ما قبل المحاكمة

في ذلك اليوم وصلتني دعـوة من بعض الجمعيـات الدينيـة في قريتي تطلب مني الحضور لندوة تنويرية يلقيهـا كبـار أعلام الدعوة في هذا العصر الـذين قـدموا من نجـد ومصـر والعـراق والهنــد وغيرهــا.. لــيزيلوا عن قريتنــا الأصــنام الــتي صــنعها الصوفية.. والبدع التي وضعها الفقهاء.

ولم يكن لي بد من الحضور مع أني لم أتعاف بعد من آثـار سـهام القحطـاني ونونيتـة، فقـد خشـيت أن تكـون لـدى هـؤلاء الدعاة الجدد سهام أخرى يخترقون بها بصـري أو قلـبي.. لكـني مـع ذلـك الرهـاب الـذي أصـابني لم أملـك إلا أن ألـبي الـدعوة خشية من أن أصـنف في زمـر المبتدعـة، وأحـرم من كثـير من المنافع الـتي تصـيبني جـراء انتمـائي للـدين الـذي فرضـته تلـك الجمعية علينا طوعا أو كرها.

في ذلك اليوم الـذي حضـر فيـه موعـد النـدوة عملت كـل وسـائل التسـتر حـتى لا يفطن لي صـاحبي الوهـابي التـائب، فيطلب مني أن يصـاحبني.. وأنـا لا أملـك أن أرد طلبـه، كمـا لا أملـك أن أتحكم في تصـرفاته أثنـاء النـدوة.. وحينهـا لن أخسـر علاقتي مع الجمعية فقط، بل قد أخسر روحي أيضا.

لكني ما إن خطوت الخطوات الأولى خارج الـبيت، وأحمـد الله على أن صاحبي لم يلتفت لي حتى وجدته قد سبقني، وهـو يقول: هيا أسرع.. فالندوة يوشك أن تبدأ..

تعجبت منه، وكيـف خـرج، ومن أين علم.. لكـني تظـاهرت بأنه لا علم لي بشيء.. وقلت: أي نـدوة تقصـد؟ أنـا ذاهب الآن إلى عملي.. عد إلى غرفتك.

قال: لا بأس.. ما دمت قررت عدم الـذهاب، فسـأذهب أنـا بدلا عنك.. أعطني الدعوة التي سلمت لك.

قلت: أي دعوة؟ لا أفهم ما تقول.

قال: تلك التي في جيبك الأيسر.. أدخل يدك في جيبك، وستجدها.

أصابني العجب مما قال، وأدخلت يدي من حيث لا أشعر، وأخرجت الدعوة، وسلمتها له.. وأنا أقول: لقد أصابني العجب منك، فكيف علمت بكل هذا مع أني لم أخبرك؟

قال: ألم تسمع قوله ﷺ: (تقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل)[1]؟

قلت: بلى.. صدق رسول الله ﷺ.. لكني لم أكن أظن أبدا أنه بقي على وجه الأرض من يكون بهذه الصفة..

قال: تلك لوثة من لوثات السلفية التي أصابتك كما أصابت كثيرا من الناس.. إنها تقطع رحمة الله عن عباده، وتجعلها محصورة في أزمنة دون أزمنة، أو أمكنة دون أمكنة، أو أشخاص دون أشخاص مع أن رحمة الله وسعت كل شيء، ولا يضيق بها شيء.

قلت: صدقت في هذا.. ولكن هل ستذهب معي حقا إلى تلك الندوة؟.. إنك لاشك ستختلف مع أصحابها، ولعله تكون في جعبتهم من السهام ما قد يصيبنا.. أنت أدرى بما أصابنا من القحطاني ونونيته.

قال: اطمئن.. هؤلاء المحاضرون يحرصون على أن يظهروا بمظهر الاعتدال.. ولذلك لن يفعلوا شيئا.. وقد أحضروا كاميرات معهم.. وهم ينقلون الندوة بتفاصيلها على قناتهم الفضائية مباشرة.. ولهذا لن يفعلوا ما قد يطيح بسمعتهم، ويحرق أوراقهم عند جمهورهم.

المؤيدون لابن تيمية

دخلنا قاعة المحاضرات الكبرى حيث تعقد الندوة، وقد رأينا الجماهير العريضة من الناس من سكان قريتنا وغيرها من القرى المجاورة.. فقد ساهم الكل في الدعاية لها من سلطات

[1] () قال الهيثمي في (المجمع) (10/268): (رواه الطبراني، وإسناده حسن)

دينيـة وسياسـية واقتصـادية وغيرهـا.. فالكـل كـان طامعـا في أفضال تلك الجمعية وكرمها.. والكل كذلك كان لـه من الرهـاب من سخط الجمعية وغضبها ما كنت أعاني منه.

ما هي إلا لحظات حتى تقدم رئيس الجمعيـة إلى المنصـة، وهو يقول: معاشر الحضور الكرام.. لقد شرفنا اليوم دعــاة من السـلف الصـالح.. من أهـل التوحيـد الـذي لا يخالطـه شـرك.. والسـنة الـتي لا تخالطهـا بدعـة.. والعقيـدة الصـحيحة الـتي لا تخالطها أوهام المبتدعة من المغضوب عليهم والضالين.

لقد جاءوا إليكم من أقصـى الأرض ليخرجـوا تلـك الأصـنام التي في قلوبكم أمدا بعيدا..

جـاءوا ليحطمـوا بمعـاول التوحيـد والسـنة الأصـنام الـتي تسمونها أولياء أو صالحين.. بينما هم في الحقيقة ليسـوا سـوى أدعياء ومضللين.

جـاءوا ليحطمـوا بمعـاول التوحيـد والسـنة الأصـنام الـتي تسـمونها علمـاء.. بينمـا هم في الحقيقـة ليسـوا سـوى جهلـة ضـالين مضـلين كـافرين رويبضـات زج بهم إبليس ليحـرف دين الله.

لقد جاء هؤلاء الدعاة يسيرون على أقدام رسل الله عليهم الصلاة والسلام.. لينقذوكم من جهنم التي تنتظركم إن بقي في قلوبكم أولئك العلمـاء أو الأوليـاء أو الصـالحين.. أو غـيرهم من الأصنام التي تعبدونها من دون الله.

لن أطيل عليكم.. سأترك لهم الحـديث.. فاسـمعوا وعـوا.. والويل ثم الويـل لمن تحـرك حركـة تفسـد عليهم مـا جــاءوا من أجلــه.. فنحن قــوم أعزنــا اللــه بالإســلام والســنة والسـلف.. ولن نخضـع أو نـذل لأي نجس يريـد أن يفسـد علينـا ديننا..

أصـابني الـرعب من تهديـده، كمـا أصـاب جميـع من كـانوا بجنبي ما عدا صاحبي الوهابي التائب الذي قهقـه بصـوت عـال،

حتى خفت عليه، ورحت أضع يدي على فمه، لأغلقه، خشــية أن يلتفت لنا البربهاري أو ابن بطة أو بعض الحازميين أو الحوينيين أو المدخليين.. وما أكثرهم، فقد كـان ظـاهرهم وبـاطنهم كافيـا لزرع الرعب في أشجع الشجعان وأعظم الأبطال.

وقد تعجبت من صاحبي الوهـابي الـذي لم يكن يبـالي بمـا يرى أو بما يسمع، فهمست له في أذنه: ألم يصبك الـرعب ممـا ترى وتسمع؟

فقال، وهو يبتسم: لقد كنت أخاف مثلك.. لكني بمجـرد أن تحـررت منهم صـاروا أهـون في عيـني من بيت العنكبـوب.. فلا تخف ولا تفزع.

عائض القرني:

بعد أن جلس رئيس الجمعية تقدم المسؤول عن التعريــف بالمحاضـرين إلى المنصـة، وقـال: سـيتقدم الآن علم من أعلام السـلف الصـالح.. مؤلـف الكتـاب المشـهور (على سـاحل ابن تيمية) الذي بين فيـه مكانـة شـيخ الإسـلام ابن تيميـة من خلال علمــه ومكانتــه بين العلمــاء.. وأثبت بالأدلــة القاطعــة أن شــيخ الإســلام هــو المــربى والمفســر والمحــدث والفقيــه والمنــاظر والمجاهد والعابد، وأن مثله كمثل بحر لجى لكنه عــذب، محيــط هادر لكنه فرات، وهل يستطيع المرء - ولو أجـاد السـباحة - أن يغوص فى أعماق البحر، أو أن يهبـط إلى قعـر المحيـط؟ كلا لا يستطيع، ولكنه يستطيع أن يطل إطلالة[1]..

تقـدم القــرني من المنصــة، وبعــد الخطبــة الطويلــة الــتي تعودوا تقديمها، بدأ محاضرته بقــول[2]: ابن تيميــة.. ومــا أدراك ما ابن تيمية؟ يكفي أن تعرفه بهذا الاسم؛ فــإذا قلت ابن تيميــة فكفى، ولا تــزد على ذلــك أوصــافاً، أهــل المعرفــة وأهــل العلم

1() النص مقتبس من مقدمــة كتــاب (على ســاحل ابن تيميــة) لعــائض القــرني ببعض التصرف الذي يقتضيه المقام، وهكذا بعض النصوص التي نوردها في هذا المقــام حــتى لا يقال بأننا نقولهم ما لم يقولوا.

2() النص مقتبس من كتاب (على ساحل ابن تيمية) بتصرف.

يعرفون من هو ابن تيمية من خلال آثارة وكتبه ورسائله وجهوده وثناء الناس عليه، وإنني أعلن – بالمناسبة – حبي لهذا الإمام العظيم؛ أحببته لصدقه وإخلاصه، لإيمانه وجهاده، أحببته لعلمه ويقينه، أحببته لعمقه ورسوخه:

أحبك لا تفسير عندي لصبوتي   أفسر ماذا؟ والهوى لا يفسر

منذ ثلاثين سنة وأنا أعيش مع هذا الإمام العظيم، من خلال تراثه المبارك الذي سرى في الأمة حتى قال بعضهم: ترجمت بعض دوائر المعارف للدولة العباسية بخمس وعشرين صفحة ولابن تيمية بأربعين صفحة.. فانظر إلى دولة عاشت ما يقارب الستمائة سنة، وحكمها سبع وثلاثون خليفة، ومع ذلك لم تحظ إلا بخمس وعشرين صفحة، وقارن بها هذا الفرد العلم الذي لم يتول أي منصب؛ لا وزارة، ولا إمارة، ولم يجمع تجارة، ومع ذلك ترحم له بأربعين صفحة.

أقول لكم أيها الجمهور الكرام.. يا تلاميذ شيخ الإسلام.. لتفخروا بشيخ هذا صفته.. إنني – مع كثرة مطالعاتتي وأبحاثي في تراث الملل والنحل- لا أعلم عالماً حظي بالتراجم والكتابة والاهتمام والانشغال بمثل ما حظي به، حتى إنه ليصدق عليه بيت المتنبي:

وتركك في الدنيا دوياً كأنما   تداول سمع المرء أنمله العشر

حتى إن بعض الباحثين ذكر أنه قد ألف في ابن تيمية أكثر من ثلاثة الآف كتاب ما بين رسالة وكتاب وبحث ورسالة دكتوراه وماجستير وبحوث جامعية.

فيا لهذه العظمة! ويا لفتح الله على العبد إذا فتح سبحانه وتعالى..!

كبر جميع الحضور.. وقد شجعه ذلك.. فراح يطنب في أوصافه، ويقرأ بين الحين والحين أبياتا من الشعر أو دررا من

النثر جعلت أكثر الحضور يصاب بسكر لا إفاقة منها.. وكانوا كلما زادوا في تكبيرهم زاد تعاظما وانتفاخا.. إلى أن انتهت المحاضرة، وقد كاد الجميع يسجدون لابن تيمية، ولمن يتاجر بابن تيمية.

بعد أن انتهي من محاضرته، قام بعض الحاضرين، وقال: شكرا جزيلا سيدنا الفاضل.. فقد أرشدتنا إلى علم يغنينا عن كل علم..

وقام آخر، يشكره ببعض الأبيات من الشعر.

وقام آخر، وسأله عن سر تسميه كتابه بهذا الاسم (على ساحل ابن تيمية)، فقال القرني بوجد أو تواجد: لقد ظللت طول عمري أسبح في بحر شيخ الإسلام ابن تيمية الذي مسح عني كل الركام الذي تراكم على عقلي وقلبي من اللوثات الجاهلية والشركية والقبورية والصوفية والحلولية والرافضية والمجوسية والتعطيلية والتفويضية وغيرها..

أيها الحضور الكريم.. لقد غسلني ابن تيمية من كل الصبغات الجاهلية.. وحولني إلى مسلم سني سلفي أثري..

لقد وضعني بهدوء كما يوضع الطفل الصغير في سرير الفرقة التي وعدها الله بالنجاة والنصرة والفوز في الدنيا والآخرة.

ولهذا ترونني في قمة السعادة.. فبصحبة ابن تيمية ننال خير الدنيا والآخرة.. فأنا بفضل الله زرت كل بلاد العالم مبشرا وداعية.. ونلت من بركات ذلك من حظوظ الدنيا ما لم ينله أهل الأهواء من المبتدعة والضالين والقبوريين والخرافيين.. ويمكنكم أن تزوروا اليوتيوب لتشاهدوا بعض قصوري التي رزقنيها الله بفضل نصرتي لشيخ الإسلام.. وأنا لا تهمني تلك القصور جميعا، لأن قلبي وعقلي مع القصور التي تنتظرني في الآخرة في صحبة شيخ الإسلام.

قال ذلك.. ثم التفت يمنة ويسرة يطالع وجوه الحاضرين،

ثم قال: اعلموا أيها الحضور الكريم أنني في جميع رحلاتي لا أتحدث إلا عن شيخ الإسلام.. ذلك أني رأيت أن التبشير به وحده كاف ليصبغ الأمة جميعا بالصابغ السني السلفي الأثري.. فمن أحب ابن تيمية وتمسك بهديه عصم من كل ضلالة.. ومن انحرف عن ابن تيمية انحرف عن كل هداية.

صاح بعض الحضور: وأين رسول الله ﷺ.. أليس هو عصمتنا من الضلالة؟

أمسك الشيخ أعصابه، ثم ابتسم ابتسامة صفراء، وقال: بلى.. رسول الله ﷺ هو عصمتنا من الضلالة.. ولكن يا قوم أنتم ترون الكل يزعم أنه ينهل من هدي رسول الله ﷺ.. ترون الصوفية والرافضة وغيرهم كلهم يدعون محبة رسول الله ﷺ واتباع هديه..

ولو أنني سرت في البلاد أبشر بما ذكرت لاختلط الأمر على الناس.. فلذلك رأيت أن المنهج السليم هو أن أعرف الناس بابن تيمية وتراثه العظيم.. لأنهم إن عرفوه عرفوا رسول الله ﷺ الحقيقي، لا الرسول المزيف الذي يعبده الصوفية والرافضة والقبورية وكل أصناف المبتدعة.

محمد حامد الفقي:

بعد أن أنهى القرني محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم رئيس الجمعية، وقال: سيتقدم الآن علم كبير من أعلام السلف الصالح.. إنه الحبر البحر الإمام المُحدّث.. مؤسس شُعب الأنصار للسنة.. والدفاع عنها ونشرها.. وقمع البدعة.. شيخ بلادِ الكنانة.. العلم الذي إذا زار الحرم المكي تفرغ له الكراسي.. ويتزاحم الطلاب على كرسيه.. إنه العلامة حامد الفقي المصري الذي انتقل بفضل شيخ الإسلام من الأشعرية والتصوف إلى العقيدة السنية.

لقد كان للشيخ دور كبير في نصرة الدعوة.. ونبذ البدع.. والأمر باتباع النبي ﷺ وفق نظرة السلف.. وقد أطنب في الرد على أهل الكفر والزندقة.. وأهل البدع والأهواء.. وكان شديداً

في فضح الصوفية المتسترة بستارِ الإسلام.. مبيناً انحرافاتها.. كاشفاً خفاياها.. فاضحاً تقيتها.. وله نشاطٌ خاص في نُصرة السنة المحمدية.. حتى أسس جماعة لهذا الغرض أسمها (جماعة أنصار السنة المحمدية)

وقد أشهر الشيخ حسامه – فوق ذلك - لبيان الحق.. وفضح الأكاذيب عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أو ما يطلقون عليها المناوئون بـ (الدعوة الوهابية).. وكان الأحرى أن يسموها باسم موسسها فتسمى باسمه المحمدية..

لقد ألف كتاباً سماه (أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب وغيرها)، قال في مقدمته: (الوهابية نسبة إلى الإمام المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب مجدد القرن الثاني عشر، وهي نسبة على غير القياس العربي والصحيح أن يقال المحمدية، لأن اسم صاحب هذه الدعوة والقائم بها هو محمد، لا عبدالوهاب)

لقد قال عنه بحق العلامة الكبير عبد الرحمن الوكيل: (لقد ظل إمام التوحيد الشيخ محمد حامد الفقي أكثر من أربعين عامًا مجاهدًا في سبيل الله، ظل يجالد قوى الشر الباغية في صبر، مارس الغلب على الخطوب واعتاد النصر على الأحداث، بإرادة تزلزل الدنيا حولها، وترجف الأرض من تحتها، فلا تميل عن قصد، ولا تجبن عن غاية، لم يكن يعرف في دعوته هذه الخوف من الناس، أو يلوذ به، إذ كان الخوف من الله آخذًا بمجامع قلبه، كان يسمي كل شيء باسمه الذي هو له، فلا يُداهن في القول ولا يداجي ولا يبالي ولا يعرف المجاملة أبدًا في الحق أو الجهر به، إذ كان يسمي المجاملة نفاقًا ومداهنة، ويسمي السكوت عن قول الحق ذلا وجبنا)

اسمحوا لي أيها الحضور الكريم لإطالتي في الثناء على شيخنا، فهو يستحق أكثر من ذلك.. ولولا ضيق الوقت لذكرت لكم من مآثره ما يجعلكم تدركون عظمة من ستتشنف آذانكم بسماعه.

تقدم الفقي، ورمى ببعض التراب على رأس المقدم، وهـو يقول: اسمح لي يا صديقي أن أطبق السنة في هـذا الموضـع.. فمع أن كل ما ذكرته صحيح.. إلا أنـه من السـنة أن ألقي عليـك بعض التراب.. ويمكنـك مسـحه بسـهولة.. وإيـاك أن تتـبرك بـه معتقدا أنه تراب سني.. فتصبح مشركا بذلك.

كبر البربهاري وابن بطـة وغيرهمـا من الحضـور تعجبـا من التزام الفقي الشديد بالسنة وخوفه من الشرك.

بعد مقدمته الطويلة، بدأ بقوله: ماذا عساي أن أضيف إلى مـا ذكـره أخي وصـديقي وتلميـذي عـائض القـرني.. لقـد أجـاد وأفاد.. ولكن مع ذلك فإن بحـر ابن تيميـة لا سـاحل لـه.. ولهـذا سأكتفي بتحديثكم عن خصلة من خصاله الكثيرة الـتي من اللـه بها عليه، أو هيأه بها ليؤدي دوره العظيم في حفظ الدين.

تلك الخصلة هي ذاكرته العجيبة القوية.. والتي شـهد لـه بهـا كـل من عرفـه، لقـد قـال جمـال الـدين السـرمري في أماليـه: (ومن عجائب زماننا في الحفظ: ابن تيميـة، كـان يمـرّ بالكتـاب مـرة مطالعـة، فينقش في ذهنـه، وينقلـه من مصـنفاته بلفظـه ومعناه. وحكى بعضهم عنه أنه قال: من سألني مستفيداً حققت لــه، ومن ســألني متعنتــاً ناقضــته، فلا يلبث أن ينقطــع فــأكفى مؤنته)[1]

وذكر الحافظ محمـد بن أحمـد بن عبـدالهادي في (العقـود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) بعض عجائب ذاكرته، فقال: انبهر أهل دمشق من فرط ذكائـه، وسـيلان ذهنـه، وقـوة حافظته، وسرعة إدراكه.. واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمـد بن تيميـة، وأنـه سـريع الحفـظ، وقـد جئت قاصـداً، لعلي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جـاء. فاقعـد عنـدنا، السـاعة يجيء يعـبر علينـا ذاهبـاً إلى الكتّـاب.. فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان، فقـال الخيـاط: هـذاك الصـبي الذي معه اللوح الكبير: هو أحمد بن تيمية. فناداه الشـيخ. فجـاء

1() البدر الطالع 1/70.

إليه.. فتناول الشيخ اللوح منه، فنظر فيه ثم قال لـه: امسـح يـا ولدي هذا، حتى أملي عليك شيئاً تكتبه، ففعل، فأملى عليــه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة عشر حـديثاً، وقـال لـه: اقـرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إيـاه. ثم دفعـه إليـه، وقال: اسمعه عليّ، فقرأه عليه عرضا كأحسـن مـا أنت سـامع. فقال له: يا ولدي، امسح هذا، ففعل. فأملى عليـه عـدة أسـانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظـر فيـه، كمـا فعـل أول مـرة. ثم أسمعه إياه كالأول. فقام الشـيخ وهـو يقـول: إن عـاش الصـبي ليكونن له شأن عظيم. فإن هذا لم يُرَ مثله.

أرأيتم كيـف صـار ابن تيميـة مضـرب المثـل عنـد أصـدقائه وأعدائه[1]، واعترف الكل لـه بأنـه أحفـظ من رأوا، وعـدوه من الأئمة الكبار في الحفـظ، وليس حفظـاً فقـط بـل حفظـاً بفهم، فكـان يسـابق حفظـه نظـره، وكـان يعطى الكتـاب في صـغره فيقرؤه مرة فينتفش في ذهنه، وذكر عن نفسه أنه يقرأ المجلد – بحمد الله – فيرسخ في ذهنـه، وبـذلك حفـظ كتـاب اللـه عـز وجل، وحفظ السنة المطهرة، وحفظ أقوال أهل العلم، وحفــظ الآثار، وحفظ التفاسـير، وحفـظ شـواهد اللغـة، فكـان إذا تكلم أغلق عينيه فسالت قريحته بنهر يتدفق من العلم النافع المبارك حتى قال فيه بعض الشعراء:

وقاد ذهن إذا سالت قريحته   يكاد يخشى عليه من تلهبه!

وقـد نفـع اللـه بهـذا الحفـظ؛ فقـد تـركت ذاكرتـه القويـة المباركة للأمة ميراثاً مباركاً من الكتب النافعة، وكان يملي عليه أحياناً بعض المجلدات من حفظه في السـفر وفي الحبس حيث لا توجد مكتبة لديـة فيـأتي بـالعجب العجـاب، وينقـل بعض كلام الأئمــة بنصــه وفصــه ثم يعلــق عليــه، وربمــا اســتدرك، وينقــل الأحاديث من حفظه وينسبها لأصـحابها، أمـا القـرآن فقـد سـال على طرف لسانه يأخذ ما شاء ويترك ما شاء، فقـد حفظـه من الصغر حتى أصبح كتاب الله عز وجل عنده كسورة الفاتحة، مع فهم ثاقب لما يحفظ، فليس ناقلاً فحسب كما هو شأن كثير من

1() النص التالي من الكتاب السابق بتصرف.

الناس يحفظ المعلومة ثم لا يتصرف فيها، بل كان يحفظها ويعيها وينزلها ويقدرها حق قدرها، ويوظفها في المكان المناسب، ويخرج مها ما شاء الله من الكنوز والعبر والعجائب، فيأتي بما يشده الألباب ويذهل العقول من الفوائد والدرر والنكات العلمية.

بقي المحاضر يعدد الغرائب من ذاكرة ابن تيمية حتى توهمنا أنه محيط بكل ما كتبته البشريه.. وأنه لا يعزب عنه منها شيء.

بعد انتهائه من محاضرته سأله بعض الحضور: هل كان ابن تيمية يحفظ علم الرجال والطبقات.. ففيه الأسماء الكثيرة مع تفاصيلها التي لا يمكن لعقل أن يستوعبها؟

أجاب الفقي بسرعة وبديهة: أجل.. فلشيخ الإسلام خبرة تامة بالرجال، وجرحهم وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه، الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث.

قام آخر، وقال: وهل كان ابن تيمية يحفظ كتب التفسير؟

أجاب الفقي بسرعة وبديهة: وأما التفسير فمسلم إليه. وله من استحضار الآيات من القرآن -وقت إقامة الدليل بها على المسألة- قوة عجيبة. وإذا رآه المقرئ تحير فيه. ولفرط إمامته في التفسير، وعظم اطلاعه. يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين. ويوهي أقوالاً عديدة. وينصر قولاً واحداً، موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث. ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل: نحواً من أربعة كراريس أو أزيد.

قام آخر، وقال: وهل كان ابن تيمية يحفظ كتب الملل والنحل؟

أجاب الفقي بسرعة وبديهة: أما حفظ شيخ الإسلام لكتب الملل والنحل.. فحدث ولا حرج.. فقد كان يحفظ التوراة والإنجيل والزبور.. ويحفظ الويدا والهابهارتا، والكيتا، والبوجاواسستها، والرامايانا، وغيرها.. وهي أعظم الكتب المقدسة لدى الهندوس.

ولهذا ترونه في كتبه ورسائله يذكر إجماع الطوائف في أي مسألة تطرح عليه.. ولولا حفظه لكتبها لما تجرأ على ذلك.. فهو الأمين الورع التقي الذي لا يستحل أن يتكلم في علم لا يحفظه.

سأله آخر: وهل كان يحفظ كتب الفلاسفة والمناطقة؟

قهقه الفقي قهقة طويلة، ثم قال: عجبا لك.. كيف تسألني عن ذلك بعد الذي ذكرت لكم.. أجل.. وكيف لا يحفظها.. لقد كان يحفظ كتب أبو قراط وسقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وأبيقور.. وغيرهم.. بل يحفظ كتب ألبير كامو، وبيرتراند راسل، وجان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار وغيرهم.. ولهذا تراه في كتبه يذكر الفلاسفة وأقوالهم وينكر عليهم، ولولا حفظه القوي لما استطاع ذلك.. فهو الأمين الورع التقي الذي لا يستحل أن يتكلم في علم لا يحفظه.

وهكذا سأله غير واحد عن كل علم من العلوم، وكان الفقي يجيبهم عن الكتب التي حفظها ابن تيمية فيه.. إلى أن خشينا أن يسأله بعض الثقلاء عن حفظ ابن تيمية للوح المحفوظ، فيذكر لنا أنه كان يحفظه عن ظهر قلب، وأنه كان يأخذ منه ما شاء، ويدع ما شاء.

عبد الرحمن الوكيل:

بعد أن أنهى الفقي محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم المقدم، وقد مسح التراب عنه، ثم قال: سيتقدم الآن علم من أعلام السلف الصالح الذي حارب التصوف طول حياته.. والذي يعتبر أول من قال من علماء جماعة (أنصار السنة المحمدية) بأن (التصوف كله شر). وكان له أثر كبير في ظهور

الكتابة العلمية عن التصوف في مجلة الهدي النبوي، الـتي ظـل يكتب بها قرابة ربع قرن محاربا للصوفية القبورية المشركة..

لقـد قـال فيـه الشـيخ سـيد رزق الطويـل: (لقـد كـان في أخلاقه نسيج وحدة سـمو في الخلـق وعفـة في اللسـان، طلـق المحيًّا منبسـط الأسـارير واسـع الثقافـة متنـوع المعرفـة أديبًـا، شاعرًا جزل الشعر قوي العبارة)

وقال عنه الشيخ محمد صادق عرنوس: (إن أخانـا الأسـتاذ النابغة عبـدالرحمن الوكيـل المعـروف بين قـراء الهـدي النبـوي بهــادم الطــواغيت قــد أصــبح أخصــائيًا في تشــريح التصــوف والإحاطة بوظائف أعضائه، والأستاذ الوكيل يتعلم وينبغ ليُمـرِّض ويشفي)

بعد أن انتهى من تقديمه صـعد الوكيـل إلى المنصـة، وقـد حاول المقدم أن يبتعد عنه خشية أن يضع عليه بعض التراب.

بعد مقدمة طويلـة كمن سـبقه من المحاضـرين راح يقـول: لقـد حـدثكم أخي العلامـة حامـد الفقي على حفظـه بمـا بهرنـا جميعـا.. أنـا سـأحدثكم عن ملكـة لا تقـل عن الحفـظ.. بـل قـد تفوقه.. وقد خص الله بها شـيخنا شـيخ الإسـلام دون غـيره من العلماء حتى يؤدي الرسالة التي كلف بهـا.. إنهـا ألمعيتـه.. فقـد كان لشيخ الإسلام القدح المعلى منها[1].. فـإذا كـانت الألمعيـة هي سرعة الخاطر وجودة الذهن، فإن ابن تيمية الأول في هــذا الباب عن أهـل العلم؛ فقـد كـان يفهم المسـألة بقـوةٍ وجـدارة، وكـان يعي مـا يقـرأ.. وكـان ينـتزع الفائـدة ويسـتنبط من النص استنباطاً عجيباً.. وكان إذا حـاور يفهم كلام محـاوره ويـرد عليـه في سـرعة الـبرق، وكـان إذا كتب يسـبق خـاطره قلمـه.. ومن ألمعيتـه أنـه كـان يـدرك الشـبهة في أسـرع وقت، ويـرد عليهـا ويزيف الزائف من الكلام، ويثبت الحق، ويميز بين المتشابهات، ويفــرق بين المختلفــات، وكــان يــوهم بعض الأئمــة في بعض الأبــواب من تخصصــاتهم، فأحيانــاً ينقــد بعض المحــدثين والمؤرخين،وبعض الفلاسفة وأهل المنطق، وعلماء الكلام، ويرد

---

[1] النص التالي من الكتاب السابق بتصرف.

عليهم في تخصصاتهم فـإذا هـو أفهم منهم بفنهم وبتخصصـهم.. ومن ألمعيته أنه إذا دخل في علم قلت لا يجيد إلا هذا العلم، ولا يحسن إلا هذا الباب، فيـأتي بـالعجب للعجـاب ويسـهل لـه هـذا المسلك الذي سلكه فيكون فرداً في بابه، ويكون وحيـد عصـره فيما نهجه وفيما أتخذه؛ فألمعيته محل الشـهود ومحـل الاعتبـار من الجميع حتى صار فرداً ووحيداً في هذا الباب.

بعــد أن أطنب في عجــائب ألمعيــة ابن تيميــة وقدراتــه الكبيرة كبر الجميع، ثم بدأ يسـألونه عن غـرائب ألمعيـة شـيخه فأجابهم إلى أن كادوا يسجدون لها.

عبد الرزاق العفيفي:

بعد أن أنهى الوكيل محاضرته، وأجاب عن أسـئلة الحضـور، تقدم المقدم، ثم قال: سـيتقدم الآن العـالم الجليـل، والسـلفي النبيــل عبــد الــرزاق بن عفيفي بن عطيــة النــوبي.. صــاحب البســطة في العلم والجســم.. وصــاحب الجمــال في المظهــر والمخبر.. إنه كما سترونه[1] قـوي البنيـة جسـيم مهيب طويـل القامـة عظيم الهامـة مسـتدير الوجـه قمحي اللـون لـه عينـان سـوداوان يعلوهمـا حاجبـان غزيـران ومن دون ذلـك فم واسـع ولحية كثة غلب البياض فيها علي السواد.. عريض الصـدر، بعيـد ما بين المنكبين، ضخم الكفين والقدمين ينم مظهره عن القـوة في غير شدة.. وهو مع ذلك حسـن الهيئـة، جميـل المظهـر في غير تكلف، لـه سـمت خـاص في لباسـه، يرتـدي ثوبـا فضفاضـا أشبه ما يكون بلباس أهل مصر، إلا أنه محاك على السنة.. فهو سلفى المظهر والشارة.

وهو فوق هذا المظهر صاحب بصيرة نافذة وفراسـة حـادة يعرف ذلك عنـه من خالطـه وأخـذ العلم على يديـه وممـا يـدلل ويؤكد على فراسة الشيخ أنه كان يتأمل وجوه تلاميذه ويتفرس فيهم فيعـرف المجـد من الخامـل والنابـه من الجاهـل فيخص هؤلاء بعلم قد لا يخص به أولئك.

---

[1] هذه الأوصاف منقولة من ترجمة له.

قال ذلك، ثم تقـدم العفيفي بقامتـه وهامتـه فكـبر الجميـع لرؤيتهم لطلعته البهية، وبعد مقدمة طويلـة، قـال: لقـد حـدثكم المحاضران السابقان عن ذاكرة شيخ الإسلام وألمعيته بما ملأنا بالعجب، وأما أنا فسأحدثكم عن أمر لا يقل عن ذلك.. إنه سـعة علمه[2].. فمن العلمــاء من بـــرع لكن في فن واحـــد، فمنهم المحـدث الجهبـذ في حديثـه، ومنهم العلامـة في فقهـه، ومنهم الفرد في تاريخه، ومنهم الأوحـد في أدبـه،ولكن ابن تيميـة كـان بحراً لا تكدره الدلاء:

فهو المنظر لأهل السنة في بـاب المعتقـد، وهـو المحـدث الناقل البصير الجهبذ في علم الحديث روايـة ودرايـة، وفي علم الرجـال، حـتى شـهد لـه المـزي – وكفى بـه شـاهداً – في هـذا الباب، وشـهد لـه الـذهبي وهـو فـرد زمانـه في هـذا التخصـص، فكان يجرح ويعدل ويميز بين الروايات ويعرف هذا الفن معرفة تامة دقيقة، وقد استولى على جميع أبوابه وعلى جميـع فصـوله وفنونه.

وهو في استنباط النص آية من آيات الله عز وجـل، فكـان يـورد الآيـة والحـديث ثم يـورد كلام أهـل العلم ممن سـبقه، ثم يأتي بكلام زائـد على كلامهم، وربمـا انتقـد كلامهم أو وافقـه أو عارضة أو سكت.

وكان أعجوبـة في التفسـير، يقـرأ – كمـا ذكـر عن نفسـه – أكثر من مائة تفسير في الآية، ثم يدعو الله ويتضرع إليـه فيفتح عليه سبحانه وتعالى علماً في الآية لم يكن مكتوباً من ذي قبل، وربمـا أملى في الآيـة الواحـدة كـراريس، ونقلـوا عنـه أنـه بقي سنوات طويلة في شـرح: ﴿إِنَّا أَرْسَـلْنَا نُوحًـا إِلَى قَوْمِـهِ﴾ [نـوح: 1]، وكان يأتي بالآية الواحدة ربما يذكرها بعد صـلاة العصـر في مجلسه فيغلق عينيه، ثم يذكر الأقوال والترجيحات والاختلافـات والنقولات وما قيل فيها، معترضاً وموجهاً ومصححاً ومقرراً حتى صلاة المغرب.

2() النص التالي من الكتاب السابق (على ساحل ابن تيمية بتصرف) بتصرف.

كما قرأ الفلسفة ورد على الفلاسفة وزيف كثيراً من اقوالهم وردها إلى الوحي، ورد على المناطقة وتغلب عليهم بالحجة وعلا عليهم بالبرهان، ورد على علماء الطوائف من رافضة ومعتزله وجهمية وأشاعرة وصوفية ودهرية ويهود ونصارى كل ذلك وهو معتصم بالدليل، سائر مع النص، متحاكم إلى الوحي.

وهكذا بقي العفيفي مدة من الزمن يحكي لنا من سعة علم ابن تيمية وإحاطته بكل شيء إلى أن احتقرنا علم كل علماء الدنيا أمام علمه.

ثم سئل أسئلة كثيرة في أصول العلم وفروعها وعلاقة ابن تيمية بها، فأجاب عنها جميعا، واعتبرها مجرد نقاط في بحر علمه الذي لا ساحل له.

إحسان إلهي ظهير:

بعد أن أنهى العفيفي محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم المقدم، ثم قال[1]: سيتقدم الآن عالم باكستاني من أولئك العلماء الذين حملوا لواء الحرب على أصحاب الفرق الضالة، وبينوا بالتحقيق والبحث الأصيل مدى ماهم فيه من انحراف عن سبيل الله وحياد عن سنة نبيه، وإن ادعوا الإسلام وملأوا مابين الخافقين نفاقاً وتقية.. إنه العلامة إحسان إلهي ظهير.

ذلك المجاهد المخلص الذي سعى وراء كل الفرق يرد على ضلالاتها.. ويجابهها في كل مكان وكل منتدى شأنه شأن كل مؤمن حقيقي الإيمان يعتقد في قرارة نفسه أن أدياناً تبنى على الكذب وتتستر خلف الترهات والأباطيل لجديرة بألا تصمد أمام النقاش وأن تتضعضع أمام سواطع الحق ونور الحقيقة.

ولهذا الأمر طفق يلقي المحاضرات، ويعقد المناقشات والمناظرات مع أصحاب الملل الضالة، ويصنف الكتب المعتمدة

1() ما نذكره من الثناء عليه هنا منقول بتصرف من مقال بعنوان: (نبذة مختصرة عن السيرة الذاتية للشيخ إحسان إلهي ظهير) لخالد بن سليمان الجبرين.

على مبدأ الموضوعية في النقل والمناقشة والتحقيق. وكثيراً ما كـان يـرد على المبطلين بـأقوالهم.. ويسـعى إلى كشـف مقاصدهم والإبانة عن انحـرافهم وضـلالهم وفي كـل ذلـك كـان يخرج من المعركة منتصراً يعضده الحق، وينصره الله تعالى.

لقـد قـال عنـه الشـيخ محمـد لقمـان السـلفي في مجلـة الدعوة (لقد عـرفت هـذا المجاهـد الـذي أوقـف حياتـه بـل بـاع نفسـه في سـبيل اللـه أكـثر من خمس وعشـرين سـنة عنـدما جمعتني به رحمه الله مقاعد الدراسـة في الجامعـة الإسـلامية، جلست معه جنباً إلى جنب لمدة أربع سنوات فعرفته طالباً ذكياً يفوق أقرانه في الدراسة، والبحث، والمنـاظرة! وجدتـه يحفـظ آلاف الأحاديث النبوية عن ظهـر قلب كـان يخـرج من الفصـل.. ويتبع مفتي الديار الشامية الشيخ ناصـر الـدين الألبـاني ويجلس أمامـه في فنـاء الجامعـة على الحصـى يسـأله في الحـديث ومصطلحه ورجاله ويتناقش معه، والشـيخ رحب الصـدر يسـمع منه، ويجيب على أسئلته وكأنه لمح في عينيه مـا سـيكون عليـه هذا الشاب النبيه من الشأن العظيم في سبيل الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله بالقلم واللسان)

قال ذلك، ثم تقدم إحسـان إلهي ظهـير إلى المنصـة، فكـبر الجميع وخاصة البربهاري وابن بطة لرؤيته، وبعد مقدمة طويلة، قال: لقد حدثكم المحاضرون السابقون عن ذاكرة شيخ الإسلام وألمعيته وسعة علمه.. وأنا سـأحدثكم بمـا أرى أني تلميـذ عليـه فيه.. إنه الهمة العلية(1).

فلم أر ولم أسمع طول حياتي عالماً بلغت به همته مثل ما بلغت همة ابن تيمية به، فقد اتعبته ولكنهـا أوصـلته إلى مـراقي الحمد، ومصاف الكرامة، وغاية المجد، وذروة الشـرف، وسـنام القبول في الأرض.

همتـه حركتـه إلى طلب العلم النـافع فلم يـرض بعلم دون علم، ولم يقنـع بتخصـص دون تخصـص، ولم يشـبع من فن دون فن، بل رسخ في الجميع، ومهر في الكل، واستحوذ على قصب

1() النص التالي من الكتاب السابق (على ساحل ابن تيمية بتصرف) بتصرف.

السبق في المعرفة.

تتجلى همته في العبادة، فقد كان خاشعاً منيباً مخيبتا متسنناً، كثير الأوراد صلاة وصياماً وذكراً ودعاء وقيام ليل وجهاداً وإخلاصاً وأنابه وتواضعاً وخشية لله عز وجل وغيرة وفي التأليف، فهو من العلماء الثلاثة الذين بلغوا الغاية في التأليف، وهم ابن الجوزي والسيوطي بالإضافة إليه، وقد كان أكثرهم تحقيقاً وتنقيحاً ورسوخاً وعمقاً ونفعاً وأثراً في الأمة، حتى قيل إن مؤلفاته بلغت بالرسائل والكتب أكثر من ألف مؤلف، ولو جمعت لكانت أكثر من خمسمائة مجلد، وقد ضاع منها الكثير.

كما تتجلى همته في الدعوة؛ فقد اشتغل بالدعوة الفردية، والدعوة الجماعية، ودعوة السلطان وحاشيته، ودعوة العامة، ودعوة الطوائف جميعاً، ودعوة غير المسلمين، فدعا بالكتابة والخطابة والدروس والمراسلة، ودعا وهو في الحبس، ودعا في المعركة، ودعا بالآيات البينات ودعا بالحجج القواطع، ودعا بالراهين الساطعة، والأدلة اللامعة، ودعا بالمناظر والمجاورة، ودعا مشافهة،ودعا كتابة؛ فكانت حياته دعوة من أولها إلى آخرها.

وقد شهد له بهذا كل فضلاء عصره وغيرهم، لقد قال عنه (ابن الوردي): (كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث)

وقال عنه (عماد الدين الواسطي): (فوالله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً)

وقال عنه (ابن دقيق العيد): (سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء)

وقال عنه (الحافظ المزي): (ما رأيت مثله،؟ ولا رأى هو مثل نفسه)

وهكذا بقي إحسان مدة من الزمن يحكي لنا عن همة ابن تيمية العالية، وإطباق العلماء على ذلك إلى أن احتقرنا كل همة

لم ترق لهمته، وأن لا يستحق أحد من الناس أن يكون أسوة وقدوة غيره.

ثم سئل أسئلة كثيرة عن الهمم العالية وعلاقة ابن تيمية بها، فأجاب عنها جميعا، واعتبرها مجرد درجات بسيطة أمام سلم همة ابن تيمية الذي لا يستطيع الصعود عليه غيره.

حمود بن عبد الله التويجري:

بعد أن أنهى إحسان إلهي ظهير محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم المقدم، ثم قال[1]: سيتقدم الآن عالم من بلاد التوحيد تصدى لكل من حاد عن سبيل الله من الكتاب المعاصرين، وجعل يرد عليهم بقلمه، منافحاً عن السنة، مدافعاً عن العقيدة الصحيحة؛ عقيدة أهل السنة والجماعة، وربما نشر ذلك في كتابات ومقالات في بعض الصحف المحلية والخارجية.

وقد بلغت مؤلفاته أكثر من خمسين مؤلفا.. منها (إثبات علو الله ومباينته لخلقه والرد على من زعم أن معية الله للخلق ذاتية).. ومنها (إيضاح المحجة في الرد على صاحب طنجة، رداً على أحمد بن محمد الغماري).. ومنها (الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي وبيان أخطائهم في المولد النبوي).. ومنها (إعلان النكير على المفتونين بالتصوير).. ومنها (الرد على من أجاز تهذيب اللحية).. ومنها (الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة).. ومنها (عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن).. ومنها (إقامة الدليل على المنع من الأناشيد الملحنة والتمثيل).. ومنها (الشهب المرمية لمحق المعازف والمزامير وسائر الملاهي بالأدلة النقلية والعقلية).. ومنها (دلائل الأثر على تحريم التمثيل بالشعر)

إنه العلامة الجليل حمود بن عبد الله التويجري الذي سيحدثنا الآن عن بعض ملكات ابن تيمية وما وهبه الله من فضله العظيم.

---

[1] ما نذكره من الثناء عليه هنا منقول بتصرف من ترجمة مفصلة له من: موقع شبكة سحاب السلفية.

قال ذلك، ثم تقدم التويجري إلى المنصة، فكبر الجميع وخاصة البربهاري وابن بطة وابن خزيمة لرؤيته، وبعد مقدمة طويلة، قال: لقد حدثكم المحاضرون السابقون عن ذاكرة شيخ الإسلام وألمعيته وسعة علمه وهمته العالية، وسأحدثكم أنا عن أهم شيء فيه، وهو (سنيته).. فقد كان ابن تيمية مظهرا للسنة قولاً وعملاً، في عباداته، في معاملاته، في كلامه، في أخذه وعطائه، في سلمه وحربه، في رضاه وغضبه، في تأليفه وفي رسائله، في خطبه ودروسه ومواعظه وحواره وجدله، فكان من نظر إليه ذكر الله عز وجل وتذكر سنة الرسول ﷺ، حتى قالوا ما رأينا أكثر عملاً بالسنة من ابن تيمية، ولا رأينا من لاحت عليه معالم السنة في كل حركة من حركاته من شيخ الإسلام، حتى إن من رآه تذكر رسول الهدى ﷺ، يذكرك به في لباسه، في عمامته، في قميصه، في نومه، في يقظته، في أكله وشربه في ذهابه وآياته، في مخالطته للناس وفي عزلته، مستمسكاً بالسنة حرفاً وجملة وأثراً أثراً.

وهكذا بقي التويجري مدة من الزمن يحكي لنا من استئثار ابن تيمية بالسنة واحتكاره لها إلى أن نفث في روعنا أنه لا يخالفه إلا مبتدع، ولا يتبغ غير سبيله إلا من سيصلى جهنم وبئس المصير.

ثم سئل أسئلة كثيرة حول تطبيق ابن تيمية للسنة وغرامه لها، فأجاب عنها جميعا، واعتبرها مجرد نقاط في بحر علمه الذي لا ساحل له.

عبد العزيز بن عبد الله بن باز:

بعد أن أنهى التويجري محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم المقدم، ثم قال: سيتقدم الآن العالم الجليل سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.. وهو تلميذ شيخ الإسلام النجيب [1].. ولا أستطيع مهما أوتيت من قوة أن أبين عظم مآثره وما آتاه الله من المواهب.. فسيرة هذا الإمام الفذ

---

[1] الأوصاف التالية من مقال بعنوان: جوانب من سيرة الإمام ابن باز من موقعه الرسمي على النت.

يصعب حصرها، بل يتعذر الإتيان عليها.. ولكن حسبي أن أقول: إن له القدح المعلى والنصيب الأوفى من كل الخصال الكريمة.. فالشيخ صبور على التعليم والتعلم حتى بعد أن كبر وأصبح مرجع المسلمين الأول، فلا تراه إلا مكبا على العلم متزودا من الفائدة سواء من بين طلابه أو في سيارته وهو في طريقه إلى العمل ونحو ذلك.. والشيخ صبور في تصديقه للناس وحله لمشكلاتهم وإجابته عن أسئلتهم وسعيه في الإصلاح بينهم، وحرصه على الشفاعة لهم.. والاعتدال سمة ملحوظة في سيرة الشيخ: في أحكامه، وفتاويه، وتعامله، بل في تبسمه وضحكه، فلا هو بالكز الغليظ ولا هو بالمسرف بالضحك من القهقهة، بل هو معتدل في مأكله ومشربه،.. والشيخ يهتم بصغار الأمور وكبارها، وذلك من أسرار عظمته وتميزه ففي الوقت الذي يقوم فيه بحلائل الأعمال، من مراسلات لكبار المسؤولين ومناصحة لرؤساء الدول، واستقبال للوفود من أعلى المستويات وقيام بالدروس والفتوى والرد على الأسئلة المتتابعة وترؤس الاجتماعات، سواء في الرابطة أو في هيئة كبار العلماء أو غيرها – تجده لا يهمل دقائق الأمور وصغارها بحجة اشتغاله بما هو أهم، بل تراه يعطي كل ذي حق حقه.. وهذا سر من أسرار عظمته وحلوله في سواد العين وسواد القلب عن الخاصة والعامة، فكل له كيانه الخاص وكل له شأنه عند نفسه.

تقدم ابن باز إلى المنصة يقوده بعضهم.. ثم قدم مقدمة طويلة كسائر من سبقه، ثم قال: كل ما حدثكم به ممن سبقني من المتحدثين قليل جدا بجانب ما سأحدثكم عنه.. ذلك أنه الأساس في عظمة شيخ الإسلام.. بل لولاه لكنا الآن نعقد المجالس والمؤتمرات في ذمه والتحذير منه.. لا شك أنكم عرفتم جوهر اهتمامنا به وتعظيمنا له.. إنه سلفيته الخالصة[1].. فابن تيمية هو إمام السلفية في عهده والعهود التي لحقته.. لقد كان على منهج السلف اعتقاداً وتعبداً وعملاً وجهاداً.. فهو السلفي بمعنى الكلمة، فلا يعرف في عهده ولا بعده من احتذى

1() النص التالي من الكتاب السابق (على ساحل ابن تيمية بتصرف) بتصرف.

حذو السلف أو اقتدى بالسلف أو اقتدى بالسلف حذو القذة كابن تيمية، فإنه قرر مذهبهم في المعتقد؛ في الأسماء والصفات، في توحيد الربوبية والألوهية، في اليوم الآخر، في القضاء والقدر، في الوعد والوعيد، وفي كل مسألة كبيرة أو صغيرة من المسائل كان على منهج السلف، ولم تعرف له مخالفة، وليس معصوماً لكنه رجاع إلى الحق، وكان مقصده أن يقرر مذهب السلف، وهو الذي نظره وأظهر للناس، وألف فيه وشرحه وبسطه وأوضحه وأزال الشبه عنه، ونفض الغبار الذي تراكم عليه في القرون التي تلت التابعين ورد على خصوم هذا المنهج، ودحض أقاويلهم، فأظهر هذا المنهج أيما إظهار، ونصره أيما نصر، وخدمه أيما خدمة، فصار معلوماً للخاص العام، وعلمه في دروسه وفي خطبه، ودعا إليه سراً وجهراً، حتى في مجالس الملوك، وفي ديوان السلطان، وفي بلاط الوزراء والأمراء، وفي مجامع القضاة فكان ينتصر لهذا المذهب ويغضب له، ويرى أنه الحق وأنه الأسلم والأعلم والأحكم، وكل رسائله ومؤلفاته وكتبه تشهد بذلك، فلو قلت: إن الناصر – حقيقة – لمذهب السلف من عصر ابن تيمية إلى الآن هو ابن تيمية لما ابتعدت عن الصواب، وكل من أتي بعده في الغالب من متبع السلف استفاد منه، ونهج نهجه، وانتفع بكتبه، وسار على منواله، فمن مقل ومستكثر، فرحم الله هذا إمام، ما أحسن تقريره لمذهب السلف، وما أوضح شرحه، وما أبسط عبارته، وما أحسن مقاله، وما أجمل تأليفه في هذا الباب، حتى إنا نقر – والحمد لله – بأننا استفدنا كل الفائدة من هذا الإمام في معرفة منهج السلف في المعتقد، وفي العبادات، وفي السنن، وفي كل شأن من شؤون الدين؛ فجزاه الله عنا خير الجزاء.

وهكذا بقي ابن باز مدة من الزمن يحكي لنا عن علم ابن تيمية بمذاهب السلف وآرائهم وتطبيقه لها ودفاعه عنها إلى أن علمنا علم اليقين أن السلف هم ابن تيمية وابن تيمية هو السلف، ولا يفرق بينهما إلا ضال مضل.

ثم سئل أسئلة كثيرة عن كـل ذلـك، فأجـاب عنهـا جميعـا، واعتبرها مجرد نقاط في بحر علمه الذي لا ساحل له.

محب الدين الخطيب:

بعد أن أنهى ابن باز محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضـور، تقدم المقدم، ثم قال[1]: سـيتقدم الآن رجـل أعتـبره من أشـد أنصار السلفية النقية في العقيدة والعبـادة الـتي تجلت في كـل كتاباته مع أنه عـاش في وسـط مملـوء بالشـرك والبـدع جميـع أنواع الانحراف.

ومع ذلك فقد كان محصنا بحصن منيع.. فقد قرأ في شبابه في دمشق كثيراً من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيميـة المطبـوع منها والمخطوط في المكتبـة الظاهريـة وذلـك بواسـطة شـيخه الشيخ طاهر الجزائري، وظل مقتنعاً بهذا الاتجاه، قـوي الإيمـان به، مدافعاً عنـه بقلمـه ولسـانه، متصـدياً لكـل من يتعـرض لـه، مروجاً للكتب المهمة التي تدعوا إليه.

إنه العلامة محب الدين الخطيب الذي وقف في وجه جميع فرق الضلال وخاصـة الرافضـة منهم.. فقـد كـان شـديد العنايـة بتتبع مراحـل كيـدهم للإسـلام، واقفـاً على الأصـول الـتي يقـوم عليها باطلهم، مدركاً خطرهم العظيم على الإسلام في الماضي والحاضـــر، ودورهم الكبـــير في تحريـــف العقيـــدة الإســـلامية الصحيحة، وتشويه التاريخ الإسلامي المشرق.. وذلك كله بفضل تلمذته على شيخ الإسلام.

ولأجل هذا كان شـديدا على دعـاة التقـريب بين المـذاهب الإسلامية، والذين عاصـر كبـارهم.. لقـد قـال في ذلـك: (انفض المسلمون جميعاً من حول دار التخريب التي كـانت تسـمى دار التقريب، ومضى عليهـا زمن طويـل والريـاح تصـفر في غرفهـا الخالية تنعى من استأجرها)

بالإضافة إلى هذا فقد بذل كل جهوده في نشر عقيدة أهل

1() ما نذكره من الثنـاء عليـه هنـا منقـول بتصـرف من ترجمـة مفصـلة لـه من مقـال بعنوان: محب الدين الخطيب، د. خالد النجار، منشور بموقع الألوكة.

السنة والجماعة.. ونشر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية.. ودفاعه عن الصحابة ورد الشبهات عنهم ويتجلى ذلك في نشره كتاب (العواصم من القواصم) هذا الكتاب العظيم الذي دافع فيه عن أمجاد هذه الأمة ورجالها الكبار ابتداء من معاوية ويزيد وغيرهم من أبطال الإسلام.

قام الخطيب، وبعد مقدمة طويلة كالذي سبقه أخذ بصوته الجهوري يقول[1]: أيها الحضور الكريم.. من الذي عنده شغف بالمعرفة، وميل على العلم، وحب في الاطلاع، وهو لا يعرف ابن تيمية؟

من الذي لديه همة في المجد، وعزيمة في الخير، ورغبة في الصلاح، ثم لا يعرف ابن تيمية؟

هل الشمس بحاجة إذا توسطت السماء في يوم صحو أن ينبه على مكانتها؟ هل القمر في ليلة اكتماله والسماء صافية بحاجة لمن يشيد بعلوه وسنائه؟

إن ابن تيمية بلغ من الحظوة والرفعة وسمو المنزلة إلى درجة أنه استغنى عن لقب الشيخ، والعالم، والإمام، والمجدد، وصار أحسن اسمائه أنه: ابن تيمية!

عاشت بعض الدول خمسة قرون، ثم اندرست وذهبت فلا اثر ولا عين، ولكن هذا الجهبذ الأعجوبة بقى في ذاكرة الزمان، وقلب الدهر، قصة فريدة محفوظة للأجيال ترددها الألسن، وتترنم بها الشفاه..

كلما سلكنا سبل العلم، وضربنا في فجاج الفنون، تلقانا ابن تيمية، فهو إمام في التفسير، حجة في الحديث، منظر في المعتقد، مجدد في الملة، مجتهد في الفقه، موسوعة في العلوم، بحر في السير والأخبار، آية في الذكاء، أستاذ في العبقرية.

لقد أصبح ابن تيمية اشهر من الدولة التي عاش في

1() الكلام الوارد هنا من كتاب [على ساحل ابن تيمية] بتصرف.

عهدها!. ولا نشكوا تقصيراً في حبه، لكنا نستغفر الله إن غلونا في التعلق به، كيف ننسى أياديه البيضاء وكلما قلبنا سفراً فإذا هو بين صفحاته بعلمه وحكمته وفقهه واستنباطه، وكلما حضرنا حواراً فإذا اسمه تتقاذفه الألسن، يتقاسمه المتحاورون، كل فريق يقول: أنا أولى به؟!.. كيف لا نعيش معه وقد فرض علينا احترامه، وأمتعنا بحضوره، وآنسنا بذكره الطيب؟

وهكذا بقي الخطيب مدة من الزمن يخطب وينفعل في خطاباته إلى أن كادت الشمس تغرب.. ثم سئل أسئلة كثيرة حول سر تعلقه بابن تيمية فأجاب عنها جميعا، حتى ظنناه قيسا وابن تيمية ليلاه.

عبدالرحمن عبدالخالق:

بعد أن أنهى محب الدين خطبته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم المقدم، ثم قال: سيتقدم الآن علم كبير من أعلام السلفية المعاصرة.. إنه أول من بدأ الدعوة السلفية في الكويت عندما وطئت قدماه أرضها في عام 1964 وسعى معلما في مدارسها الحكومية وموجها لمدرسي التربية الاسلامية.. وهو من كبار المنافحين عن الدعوة السلفية، فقد تصدى للمبتدعة من متصوفه وأشاعرة ورافضة، وألجمهم بمناظراته وبالتأليف، فكان يستعمل منهج اللين تارة ومنهج الشدة تارة أخرى.. ولديه الكثير من المؤلفات والرسائل والردود في هذا المجال، منها: فضائح الصوفية.. ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية.. والحقيقة الصوفية.. والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة.. وبين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن عربي.. وغيرها من المؤلفات القيمة.

تقدم عبد الرحمن عبد الخالق من المنصة، وبعد مقدمة طويلة كالذي سبقه أخذ بصوته الجهوري يقول[1]: إن شيخ الإسلام ابن تيمية من النفر القليل الذين كانت حياتهم كلها لله، والذين دعوا إلى الله على بصيرة، شاهداً لله سبحانه وتعالى

---

[1]() النص مقتبس بتصرف من كتاب الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق المعنون بـ (لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية)

أنـه لا إلـه إلا هـو، قائمـاً بالقسـط، فقـد كتب وألـف عشـرات المجلـدات، بـل مئـات المجلـدات في هـذين المعنـيين: إثبـات وحدانية الله سـبحانه وتعـالى وتحـذير الأمـة من الشـرك الـذي تفشى فيها بعد صدر الإسلام، ثم إثبات عدل الله في تشـريعاته وقضائه وقدره.

ولقد تعرض شيخ الإسلام في سبيل ذلك إلى تفنيد مـزاعم قوى الشر كلها الـتي انتشـرت وسـادت المسـلمين في عصـره في القرن السابع الهجري وأوائـل الثـامن.. فتصـدى بـالرد على الفلاسـفة وأذنـابهم، والرافضـة وأكـاذيبهم، والباطنيـة وخبثهم ونفاقهم، والصوفية وعقائـدهم الفاسـدة وترهـاتهم، وللمتكلمين وخلفائهم وتـأويلاتهم الباطلـة، وللمقلـدين وعبـادتهم لشـيوخهم وتعصبهم لآرائهم المخالفة للكتاب والسنة، والنصارى وضـلالهم، واليهـود وخبثهم وأفسـادهم، وألـف في كـل ذلـك وكتب ودرس وسافر وارتحل ونـاقش ولم يكتـف بهـذا أيضـاً بـل جـرد سـيفه لقتال التتار فجمع الجموع لملاقاتهم، ووحد صـفوف المسـلمين لحربهم، وخاض المعارك ونصره الله عليهم..

وعالم هذا شأنه لا شـك أن يكـثر أعـداءه وحسـاده.. فقـد عادى الدنيا كلها في اللـه وخاصـم كـل منحـرف في ذات اللـه، ولم يداهن أميراً ولا وزيراً في الحـق، بـل صـدع بـه حيث كـان، ولذلك كثرت ابتلاءاته ومحنه فلا يخلص من محنة إلا ودخــل في أخـرى، ولا ينتهي من سـجن حـتى يـزج بـه في سـجن آخـر، ولا ينصر في محاكمة حتى تعقد له محاكمة جديدة.. وكل ذلك وهـو صابر محتسـب، بـل فـرح مستبشـر أن أكرمـه اللـه بكـل هـذه الكرامات وهيأ له كل هذه الأسباب لينشـر علمـه وتعظم محبـة أهل الخير له، فكان قدوة للعالمين من أهـل الخـير في زمانـه، ونموذجاً للعلماء العاملين في وقته، بل كان من تلاميذه جهابـذة الأمة في كل فرع من فروع المعرفـة الدينيـة فمن تلاميـذه ابن كثـير إمـام المـؤرخين والمفسـرين، والـذهبي علم المحققين والحافظ المزي، إمام من أئمة النقـل والرجـال والحـديث وابن عبـدالهادي علم التحقيـق، وابن القيم إمـام الأمـة وفارسـها، وروحاني الإسلام.. وخلق كثـيرون.. ثم أصـبحت كتبـه من بعـده

هي الهادي والمرشد لعقيدة أهل السنة والجماعة، بعد أن لبس الملبسون من أهل الكلام والزندقة على الناس، ونشروا عقائدهم الباطلة في الأمة فقام هذا المجدد الفرداني والعالم الرباني فكشف بنور القرآن والسنة أضاليل أهل الكلام والبدعة والزندقة والردة.

بقي الشيخ يردد هذا وأمثاله إلى أن نفث في روع الكثيرين أنه لولا ابن تيمية لما بقيت للإسلام قائمة.. وأنه لا يمكن لأحد أن يعرف الدين الصحيح.. ولا أن يطمع في دخول الجنة إن لم يعرف ابن تيمية ويقرأ كتبه ويكتفي بها.

بعدها سئل أسئلة كثيرة في هذا المعنى، فزادت أجوبته تأكيدا وترسيخا لاعتبار ابن تيمية هو وصي رسول الله ﷺ الأوحد.. وأنه المرجع الذي لا يؤخذ دين الله إلا منه، أو ممن تبعه وسار خلفه.. وأن علامة السنة والإسلام هو قبول هذه الوصاية والمرجعية.. وعلامة البدعة والنفاق هو مخالفته أو حسده أو عداوته.

محمد بن صالح العثيمين:

بعد أن أنهى عبد الرحمن عبد الخالق محاضرته، وأجاب عن أسئلة الحضور، تقدم المقدم، ثم قال: سيتقدم الآن علم جليل، ملأ ذكره الدنيا، وشاع علمه في الآفاق، وشهد القاصي والداني بفضله وعلو مكانته.. إنه ذلك العالم الجليل والمربي الفاضل والقدوة الصالحة والطود الشامخ في العلم والزهد والصدق والإخلاص والتواضع والورع والفتوى شيخ التفسير والعقيدة والفقه والسيرة النبوية والأصول والنحو وسائر العلوم الشرعية الداعي إلى الله بصيرة المشهود له بصدق العمل، ومواقف الخير والدعوة والارشاد والإفتاء الذي انتفع بعلمه المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي والذي أجمعت القلوب على قبوله ومحبته وفضله وعلو مرتبته فضيلة شيخنا فقيد البلاد والأمة الإسلامية.. العلامة محمد بن صالح العثيمين..

تقدم العثيمين من المنصة، وبعد مقدمة طويلة كالذي سبقه

أخذ يقول[1]:سأحدثكم عن الإعداد الرباني الذي هيأ شيخ الإسلام لتلك الرسالة العظيمة التي قام بها في حفظ الدين وتجديده.. فأول ما يطالعنا في دراسة حياة شيخ الإسلام ابن تيمية هو هذا الإعداد والعناية الربانية التي كلأت هذا الإمام منذ أن كان صغيراً وإلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى وهذا ما يكاد يجمع عليه كل الذين ترجموا له. وكتبوا عنه ممن أراهم الله حقيقة هذا الرجل العجيب فكأن كل الظروف والأحداث كانت تتهيأ لاستقبال هذا المجدد.. ولا شك أن القارئ الذي سيستمر معنا مطالعاً هذه المقتطفات واللمحات من حياة شيخنا شيخ الإسلام سيخرج بهذه النتيجة.

فالعالم الذي أظلم ظلاماً يكاد أن يكون كاملاً قبل أن يبدأ هذا الرجل دعوته قد كان يتطلع وينتظر قدوم مثل هذا الرجل ليبدد ظلمات الفلسفة والزندقة، والإلحاد، والشرك بكل مظاهره، والباطنية بكل أعلامها والإتحادية، وأيضاً ظلام الحكام المتجبرين والعملاء المأجورين، وأكثر من هذا ظلام وعدوان التتر المتسترين بالإسلام، والنصيرية والرافضة المعادين لأهل الإسلام، والموالين لأهل الكفر والطغيان لقد كان العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى عالم مجدد جرئ شجاع يستطيع أن يقول الحق لكل أولئك وهو لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سجناً ولا تعذيباً، ولا غربة ولا نفياً.. بل ولا قتلاً.. فكان ابن تيمية الذي جعله الله أولا وعاء عظيما استوعب علم الكتاب والسنة، ثم وسع كل علوم وترهات وأكاذيب أولئك الضلال وعرف بعد ذلك كيف يكر عليها ويبطلها باطلا باطلا، ولا يستطيع أحد منهم أن يقف أمامه أو يحاربه أو يلبس على الناس عنده.. والآن تعالوا نطالع عناية الله بهذا الرجل منذ أن كان صبياً.

بقي الشيخ يردد هذا وأمثاله ويذكر الشواهد والقصص الدالة على ذلك إلى أن نفث في روع الكثيرين أن الرسالة التي كلف بها ابن تيمية وأداها في حياته تشكل أضعاف ما كلف

---

[1] النص مقتبس بتصرف من كتاب الشيخ عبد الرحمن الخالق المعنون بـ (لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية)

بـه الرسـل عليهم الصـلاة والسـلام.. فلم يجابـه الرسـل عليهم الصلاة والسـلام مـا جابهـه من الرافضـة والصـوفية والمتكلمين وغيرهم من أصناف المبتدعة..

بعدها سئل أسئلة كثيرة في هـذا المعـنى، فـزادت أجوبتـه تأكيدا وترسـيخا لاعتبـار ابن تيميـة ليس وصـي رسـول اللـه ﷺ الأوحـد فقـط.. بـل هـو وصـي جميـع الرسـل والأنبيـاء.. وأن المساس به مساس بجميع الأنبياء.

عثمان الخميس:

بعــد أن أنهى العــثيمين محاضــرته، وأجــاب عن أســئلة الحضور، تقدم المقـدم، ثم قـال: سـيتقدم الآن علم جليـل، من أعلام أهل السنة والسـلف، يلقب بأسـد السـنة، لفتكـه الشـديد بغزلان المبتدعة وخـرافهم.. إنـه عثمـان بن محمـد بن حمـد بن محمد الخميس الناصـري التميمي.. من نسـل بـني تميم الـذين كان منهم كبار الصحابة كالأقرع بن حابس التميمي، والزبرقــان بن بدر التميمي، وذي الخويصرة التميمي وغـيرهم ممن قـدموا للإسلام أكبر الخدمات.

وعلى إثرهم كان هذا الشبل الفقيه المحدث الدكتور الـذي حاز على لقب أسد السنة.. وقد بـرز كأحـد أهم المنـاظرين من السلف للرافضة خصوصا..

تقدم الخميس من المنصة، وبعد مقدمة طويلة كالذي سبقه أخذ يقول[1]: سـأحدثكم عن تلـك الموجـة العنيفـة الـتي قادهـا الشيطان وجنده من المبتدعة والكفار والضالين الذين أرادوا أن يطفئوا شعلة ابن تيميـة، وهم لا يعلمـون أنـه نـور اللـه الـذي لا يمكن لأحد إطفاءه..

إن السـبب في إرادة هـدم شـيخ الإسـلام ابن تيميـة من الشـيطان وجنـده معـروف.. وهـو أن كتب شـيخ الإسـلام أنـوار هاديات لكل زيف وبهتان، وتضليل وهذيان، ولـذلك يحاربهـا كـل

[1] () النص مقتبس بتصرف من كتاب الشيخ عبد الرحمن الخـالق المعنـون بــ (لمحـات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية)

من أراد أن يبـني لـه مجـداً في الظلام، ويطمس بعض البصـائر ويتخذ مجموعة من الخفافيش تعيش معه في الجحور.. ولــذلك يحاذر كل المحاذرة أن يسمع أحد منهم كلمة حق، أو يقرأ كتابـاً يفضح باطله وزوره وتخليطه..

إن الكلام الذي رمى به الشيطان وجنده شيخ الإســلام ابن تيمية كلام عظيم وبهتان كبـير.. فتكفـير المسـلم شـيء عظيم، فكيـف بتكفـير إمـام من أئمـة المسـلمين وعلم من أعلامهم لا يوجد لليوم عالم قد نال من ثناء العلماء عليه مثل مـا نـال هـذا الرجل.. وحسبكم من ذلك قـول تلميـذه الحافـظ الـذهبي: (لـو حُلّفت بين الركن والمقام لحلفت أنني ما رأيت بعيني مثلـه، ولا رأى هو مثل نفسه في العلم)، وقـول تلميـذه الحافـظ المـزي: (ما رأيت مثلـه، ولا رأى هـو مثـل نفسـه، ومـا رأيت أحـداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منـه)، وقـول الإمـام ابن دقيق العيد: (لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجع كـل العلـوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريده).. ومثل هذا القـول أيضـاً عن أبي حيان شـيخ النحـاة.. ولم تؤلـف تـراجم في الإسـلام لرجـل مثله.. وهو الذي اتبع جنازته أهـل دمشـق كلهـا، وقـد حضـر من النساء فقط خمسة عشر ألـف امـرأة، ومـائتي ألـف رجـل، ولا يعرف جنازة مثلها في الإسلام إلا للإمام أحمد بن حنبل.

ولتعرفـوا قيمـة هـذا العلم الهمـام سـأقرأ عليكم نصـا من رسـالة كتبهـا أحمـد بن إبـراهيم الواسـطي في كتابـه (التـذكرة والاعتبـار والانتصـار للأبـرار)، والـذي طبعـه إخواننـا من سـلفية الأردن.. وقــد كتب الرســالة إلى مجموعــة من تلاميــذ شــيخ الإسلام، ومما جاء فيها قوله: (هذه رسالة إلى الإخوان في اللـه السادة العلمـاء والأئمـة الأتقيـاء وغـيرهم من اللائـذين بحضـرة شـيخهم وشـيخنا السـيد الإمـام الهمـام، محـيي السـنة وقـامع البدعـة، ناصـر الحـديث، مفـتي الفـرق، الفـائق عن الحقـائق وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، الجامع بين البـاطن والظاهر.. فهـو يقضـي بـالحق ظـاهراً وقلبـه في العلا قـاطن.. أنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهـديين الشـيخ الإمـام تقي الـدين أبـو العبـاس أحمـد بن تيميـة.. أعـاد اللـه علينـا بركتـه..

أصبحتم إخواني تحت سنجق (راية) رسول الله ﷺ إن شاء الله مع شيخكم وإمامكم وشيخنا وإمامنا المبدوء بذكره رضي الله عنه، قد تميزتم عن جميع أهل الأرض فقهائها وفقرائها وصوفيتها وعوامها بالدين الصحيح حتى كشف الله لنا ولكم بواسطة هذا الرجل حقيقة دينه الذي أنزله الله من السماء.. هذا وأنتم إذا عرفتموه من حيثية الأمر الشرعي الظاهر فهنا قوم عرفوه من حيثية الأمر الباطن، ونفوذه من الظاهر إلى الباطن، ومن الشهادة إلى الغيب، ومن الغيب إلى الشهادة، ومن عالم الخلق إلى عالم الأمر وغير ذلك مما لا يمكن شرحه في كتاب.. فشيخكم عارف بأحكام أسمائه وصفاته الذاتية ومثل هذا العارف قد يبصر ببصيرته تنزل الأمر بين طبقات السماء والأرض.. فالناس يحسون بما يجري في عالم الشهادة، وهؤلاء بصائرهم شاخصة إلى الغيب ينظرون ما تجري الأقدار يشعرون بها أحيانا عند تنزلها.. فوالله ثم والله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وصلاحاً في حق نفسه.. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل)

ليس هذا فقط.. بل إن الثقاة من العلماء يذكرون العجائب والغرائب من بركات شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن ذلك ما جاء في كتاب (الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمة شيخ الاسلام كافر) في الحادثة التي حصلت مع البطائحي المزي، وراوها لابن حجي قال: كنت شابا، وكانت لي بنت حصل لها رمد، وكان لنا اعتقاد في ابن تيمية، وكان صاحب والدي، ويأتي إلينا ويزور والدي، فقلت في نفسي: لآخذن من تراب قبر ابن تيمية فلأكحلها به، فإنه طال رمدها ولم يفد فيها الكحل، فجئت إلى القبر، فوجدت بغداديا قد جمع من التراب صررا، فقلت: ما تصنع بهذا، قال: أخذته لوجع الرمد، أكحل به أولادا لي، فقلت: وهل ينفع ذلك؟ فقال: نعم.. وذكر أنه جربه فازددت يقينا فيما كنت قصدته، فأخذت منه، فكحلتها وهي نائمة، فبرئت، قال: وحكيت ذلك لابن قاضي الجبل أبي عمر المقدسي، وكان يأتي الينا، فأعجبه ذلك، وكان يسألني ذلك

بحضرة الناس فأحكيه، ويعجبه ذلك[1].

عندما قال هذه الحكاية قام بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول هذا.. ألم تسمع ما يقوله مشايخ التوحيد في اعتبار ذلك شركا؟

قال الخميس: أجل.. هو شرك عندما يكون مع الشيخ عبد القادر الجيلاني.. أو مع الحسين.. أما عندما يكون مع شيخ الإسلام، فيستحيل أن يكون شركا.

قال الرجل: كيف ذلك.. الشرك واحد.

قال الخميس: أنت لا تفهم.. سأضرب لك مثلا بسيطا.. هل تعرف إسماعيل بن أبي أويس المحدث؟

قال الرجل: أجل.. وكيف لا أعرفه.. لقد وضعه الكثير من المحدثين في جملة الضعفاء.. وكل ما يرويه ضعيف.

قال الخميس: إلا البخاري.. فلا يروي عنه إلا الصحيح.

قال الرجل: كيف ذلك.. أيكذب على كل المحدثين.. ولا يكذب على البخاري.

قال الخميس: هذا علم لا تستطيع أن تدركه.. هذا لا يدركه إلا ابن حجر وأمثاله من كبار المحدثين، فقد قال عنه: (وهذا هو الذى بان للنسائى منه حتى تجنب حديثه وأطلق القول فيه بأنه ليس بثقة، ولعل هذا كان من إسماعيل فى شبيبته ثم انصلح.. وأما الشيخان فلا أظن بهما أنهما أخرجا عنه إلا الصحيح من حديثه الذى شارك فيه الثقات)[2]

قال الرجل: وما علاقة هذا بذاك؟

قال الخميس: كون البركة شركا بالنسبة لجميع الناس لا تعني أنها شرك بالنسبة لابن تيمية.. فابن تيمية مثال التوحيد..

1() الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمة شيخ الاسلام كافر، ص 129.

2() تهذيب التهذيب (1/ 312)

ويستحيل أن يتبرك به مشرك أو مبتدع.. لقد ذكر ابن كثير وهـو من تلاميذ ابن تيمية في (البداية والنهاية) كيف تبرك الناس بابن تيمية عند وفاته، فقال: (توفي - أي ابن تيمية- بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً بها، وحضر جمع كثير إلى القلعة، وأذن لهم في الدخول عليه وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرأوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله)(1)

بل إن بركات ابن تيمية امتدت لكل من بعده.. وقد ذكر ذلك ابن القيم، فقال: (وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصَفَه له في منامه فكثير جدا، وقد حدثني غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته، وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب)(2)

بقي الخميس يحدثنا عن بركات ابن تيمية وقدراته العجيبة إلى أن تصورنا أنه معنا في القاعة، وأنه يمد ببركاته من رضي عنه، ويمد بغضبه وانتقامه من سخط عليه..

المعارضون لابن تيمية

بعد أن انتهت تلك الندوة التي سمعنا فيها كلمة (شيخ الإسلام) ومرادفاتها ما لا يعد ولا يحصى من المرات.. وسمعنا فيها من المديح والثناء المبالغ فيه إلى الدرجة التي أصابنا الغثاء.. عدنا إلى بيتنا مرهقين مكتئبين محبطين..

ولم أجد نفسي، بمجرد دخولي إلى البيت، إلا وأنا ملقى على السرير كالجثة الهامدة..

وفجأة.. وبعد فترة قصيرة .. سمعت شخصا يطلب مني

1() البداية والنهاية (14/ 156)

2() الروح (ص: 34)

أن أقوم لحضور الاجتماع الذي يعقده أعيان علماء الأمـة لطلب محاكمة ابن تيمية وتفنيد تشويهاته للإسلام.

فاستغربت من ذلك، والتفت بسرعة إلى محدثي، فـإذا بي أجده صاحبي الوهابي.. ولكنه بمظهـر غـير الـذي اعتـدت عليـه منه، وكأنه جاء من القرون السالفة..

فجـأة سـمعت دقـات هادئـة على البـاب، وسـمعت بعـدها صـاحبي الوهـابي التـائب يسـرع إليـه، ثم يـرحب بحـرارة على الداخلين، وهو يتكلم بلغة عربية يختلط فيها السجع بالمحسنات البديعية مما لم أكن أعهده منه.

فركت عيني، وقمت بسرعة، وإذا بي أفاجـأ بسـبعة رجـال يلبسـون طيالسـة وعمامـات وغيرهـا ممـا نشـاهده في الأفلام والمسلسلات التاريخية يدخلون بيتي.

فركت عيني من جديد، لأتأكد هل أنا يقظ أم نائم..

قال لي صاحبي الوهابي، وهو يؤنبـني: مـا بالـك يـا رجـل.. أيدخل بيتك كبار علمـاء الأمة[1] .. ثم لا تتقـدم لتسـلم عليهم.. وتتعرف بهم.. إن بيتك قـد تشـرف اليـوم كمـا لم يتشـرف من قبل..

لسـت أدري كيـف فكت العقـد من لسـاني، وقلت، وأنـا لا أعلم ما أقول: مرحبـا بكم يـا علمـاء الأمـة.. لقـد شـرفتم بيتنـا المتواضع.. وأنا منـذ حـدثني صـاحبي عنكم، وأنـا في لهفـة إلى التبرك بطلعاتكم البهية، وأنواركم الزكية، وأخلاقكم العلية.

قلت ذلك، ثم رحت أسرع إلى الفـرش والوسـائد أعرضـها عليهم.. فجلسوا.. ثم راح صاحبي الوهابي التائب يتحدث.. وأنــا لا أصـدق عيـني ولا أذني ولا أي جارحـة من جـوارحي.. وكـأنني على خشـبة المسـرح أمثـل من غـير أن يوكـل لي أي دور، أو أحفظ أي نص.

1() استفدنا الكثير من المادة العلمية المرتبطة بالمنكرين من علماء المـذاهب الأربعـة على ابن تيمية من كتـاب [ابن تيميـة وموقـف أهـل السـنة منـه]، للشـيخ عـادل كاظـم عـبدالله.

الحنفية:

أشار صاحبي الوهابي التائب إلى رجل كانت تبدو عليه القوة والجرأة، وقال: هذا الرجل الذي تراه هو الفقيه المحدث الشيخ محمد زاهد بن حسن الكوثري الحنفي.. .. وهو ممثل الحنفية في هذا المجلس.

أسرعت إليه أقبل رأسه، وأقول: أهلا وسهلا ومرحبا بالشيخ الجريء، لكم كنت أتمنى رؤيتك بعدما قرأت لك، وقرأت عنك.. لقد أعجبني فيك جرأتك واقتدارك العلمي.. فأنت لم تكن تهمك إلا الحقيقة.. ولا شيء غير الحقيقة.. وفي سبيلها ضحيت بكل شيء.. ولا تزال الأقلام إلى الآن تسطر فيك قصائد الهجاء لأنك بعت عرضك لله.

قال الكوثري: بورك فيك يا بني.. أرجو أن أكون كما ذكرت.. ولكن صدقني أنا لم أكن أكتب إلا بالمداد المختلط بدموعي ألما على ما آل إليه حال المسلمين دينا ودنيا.. وليتهم إن ضاعت منهم دنياهم سلم لهم دينهم.. فأنت ترى الأدعياء يشوهونه بكل صنوف التشويه التي نفخ فيها الشيطان من روحه.

قلت: صدقت.. وقد قرأت لتلميذك الشيخ محمد أبي زهرة كلاما كثيرا في الثناء عليك.. كقوله: (لم يكن الكوثري من المنتحلين لمذهب جديد أو داعيا إلى مذهب لم يسبق إليه،لهذا كان ينفر من من يسمهم العامة وأشباه المثقفين بسمة التجديد،ومع ذلك فقد كان من المجددين بالمعنى الحقيقي للتجديد والذي هو إعادة رونق الدين وجماله وإزالة ما علق به من الأوهام، إنه لمن التجديد أن تحي السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين)[1]

وقوله: (لقد كان عالما حقا عرف علمه العلماء وقليل منهم من أدرك جهاده، ولقد عرفته سنين قبل أن ألقاه،عرفته في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق، وعرفته في تعليقاته

[1] () مقدمة تاريخ الكوثري، ص 15.

على المخطوطات التي قام على نشرها، وما كان والله عجبي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علّق عليه).[1]

وقوله: (إنه لم يرض بالدنية في دينه، ولا يأخذ من يذل الإسلام وأهله بهوادة، ولا يجعل لغير الله والحق عنده إرادة، وأنه لا يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق ولا تعالى فيها كلمة الإسلام)(2)

قال الكوثري: شكرا لك وله.. ولو أني أقل من ذلك بكثير..

قلت: لقد كان من الكتب التي أعجبتني كثيرا كتبك التي ناقشت فيها أطروحات ابن تيمية المختلفة، ككتابك (البحوث الوفية في مفردات ابن تيمية) الذي تعقّبت فيه كتاب (منهاج السنة) لابن تيمية فيما أورده من مسائل منافية لأحاديث صحيحة وصريحة حول فضائل الإمام علي.. ومنها كتابك (التعقّب الحثيث لما ينفيه ابن تيمية من الحديث)، والذي تعقّبت فيه ما نفاه من أحاديث في كتابه منهاج السنة رغم وروده في كتب السنة.. ومنها كتابك (محق التقول في مسألة التوسل) والذي رددت فيه على ابن تيمية والوهابية من رميهم المتوسلين برسول الله ﷺوأهل بيته بالشرك.. وغيرها من الكتب الكثيرة.. لكن للأسف كتبك أصبحت نادرة وقل من يهتم بها أو ينشرها.

قال: ولم لا يكون الأمر كذلك.. وأنت تعلم أن قرن الشيطان قد طلع على جبال نجد وهضابها، وراح ينشر كتب ابن تيمية ويملأ بها عقول المسلمين الذين عداهم الداء التيمي، فأصبحوا كما تراهم بلا عقول تفكر، ولا قلوب تمتلئ بالمحبة والأشواق.. لقد أصبحوا ولا هم لهم إلا الصراع.

قلت: وما تراه من حل لذلك؟

1() مقدمة تاريخ الكوثري، 16.

2() مقدمة تاريخ الكوثري، ص16.

قال: حل ذلك بسيط.. لابد للمسلمين من مضادات حيوية تحمي عقولهم وقلوبهم وجوارحهم من تلك الجراثيم التي نشرها ابن تيمية وتلاميذه..

قلت: وأين تصنع تلك المضادات؟

قال: جرأة العلماء وصدقهم مع الله هي التي تصنعها..

قلت: وأنى ذلك؟

قال: أنا هنا ومن ترى من العلماء لأجل ذلك..

قلت: لقد قرأت لك في بعض ما كتبت من ردود على ابن تيمية قولك: (ولو قلنا لم يبل الإسلام في الأدوار الأخيرة بمن هو أضر من ابن تيمية في تفريق كلمة المسلمين لما كنا مبالغين في ذلك، وهو سهل متسامح مع اليهود والنصارى يقول عن كتبهم إنها لم تحرف تحريفاً لفظياً، فاكتسب بذلك إطراء المستشرقين له، شديد غليظ الحملات على فرق المسلمين لا سيما الشيعة... ولولا شدة ابن تيمية في رده على ابن المطهر في منهاجه إلى أن بلغ به الأمر إلى أن يتعرض لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه على الوجه الذي تراه في أوائل الجزء الثالث منه بطريق يأباه كثير من أقحاح الخوارج مع توهين الأحاديث الجيدة في هذا السبيل..) (1)

وقلت في مقالة لك: (وقد سئمت من تتبع مخازي هذا الرجل المسكين الذي ضاعت مواهبه في شتى البدع، وفي تكملتنا على (السيف الصقيل) ما يشفي غلة كل غليل إن شاء الله تعالى في تعقب مخازي ابن تيمية وتلميذه ابن القيم) (2)

قال: أجل.. قلت ذلك وغيره كثير.. ولكني أرى نفسي مقصرا.. فلو علمت أن الشيطان سيستخدم أقوال ابن تيمية ليشوه الإسلام بهذه الصورة لجعلت كل كتبي في الرد عليه.

1() الإشفاق في أحكام الطلاق، محمد زاهد الكوثري، ص 268.

2() مقالات الكوثري ، ص 293.

قال ذلك، ثم أخرج وثيقة من محفظته، وقدمها لي، وقـال: لقـد جبت الزمـان والمكـان.. ورحت أبحث عن كـل عـالم من مدرسـتنا الحنفيـة رد على ابن تيميـة أو عـرف مـدى خطـورة أطروحاتــه على المســلمين، فكتبت اســمه وجئت بتوقيعــه.. لنتقدم به لمحاكمته والتحذير من أخطاره.

قـدم لي وثيقـة، وقـد دهشـت من كـثرة الأعلام الـواردين فيها..

كان من بينهم الإمام الشيخ محمد بن محمد العلاء البخاري الحنفي، وقد سألت الكوثري عنه، فذكر لي أنه (كان يُسأل عن مقالات ابن تيمية التي انفرد بها فيجيب بما ظهر له من الخطـأ، وينفر عنه قلبه إلى أن اسـتحكم ذلـك عليـه فصـرّح بتبديعـه ثم تكفـيره، ثم صـار يُصـرح في مجلســه أن من أطلــق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام فهو بهذا الإطـلاق كافـر واشتهر ذلـك...)(1)

وكان من بينهم قال القاضي الشيخ حميد الـدين محمـد بن أحمد البغـدادي الفرغـاني الحنفي، وقـد سـألت الكـوثري عنـه، فذكر لي أن له كتابا في الرد على ابن تيمية في الاعتقادات(2)

وكان من بينهم الفقيه الشيخ أبو الحسنات محمد عبدالحي اللكنوي الحنفي، وقد سألت الكـوثري عنـه، فـذكر لي أنـه قـال في كتابه (إبـراز الغي الواقـع): (أقول: مسألة زيارة خير الأنــام ﷺ كلام ابن تيمية فيهـا من أفـاحش الكلام، فإنـه يحـرم السـفر لزيارة قبر الرسول ﷺ وسلم ويجعله معصية ويحرم نفس زيارة القــبر النبــوي أيضــاً، ويجعلهـا غـير مقــدورة وغـير مشـروعة وممتنعة، ويحكم على الأحاديث الواردة في الترغيب إليهـا كلهـا موضـوعة من حسـن بعضـها، أو لعلمي أن علم ابن تيميـة أكـثر من عقله، ونظره أكبر من فهمه، وقد شدّدّ عليـه بسـبب كلامـه في هــذه المســألة علمــاء عصــره بــالنكير، وأوجبــوا عليــه

1() البدر الطالع ، ج2 ص 137. وكتاب الضوء اللامع، السخاوي، ج9 ص 292.

2() لضوء اللامع، ج7 ص 47.

التعزيـر...) (1)

وكان من بينهم مفتي الديار المصرية وشيخ فقهـاء عصـره الإمـام الشـيخ محمـد بخيت المطيـعي الحنفي، وقـد سـألت الكوثري عنه، فذكر لي أنـه قـال في كتابـه (تطهـير الفـؤاد من دنس الاعتقاد): (ولما أن تظاهر قوم في هذا العصر بتقليـد ابن تيمية في عقائده الكاسـدة وتعضـيد أقوالـه الفاسـدة وبثهـا بين العامـة والخاصـة، واسـتعانوا على ذلـك بطبـع كتابـه المسـمى بالواسـطية ونشـره، وقـد اشـتمل هـذا الكتـاب على كثـير ممـا ابتدعـه ابن تيميـة مخالفـاً في ذلـك الكتـاب والسـنة وجماعـة المسلمين فأيقظوا فتنة كانت نائمة)[2]

وكان من بينهم المفسر الفقيه الشـيخ عبـدالرحمن خليفـة بن فتح الباب الحناوي، وقد سألت الكوثري عنه، فـذكر لي أنـه قـال في كتابـه (المشـبهة والمجسـمة): (هـذه المسـائل الـتي يثيرها اليوم (جماعة أنصار السنة) أثيرت قديماً، وفـرغ العلمـاء من الردّ عليها، وهم مُقلدون فيها لابن القيم وشيخه تقي الـدين ابن تيمية وطوائف من الحنابلة.. والعجب لهـؤلاء يقلـدون نفـراً من العلمــاء انفــردوا بمقــالات وآراء وافقــوا فيهــا الحشــوية والكراميـة، وخـالفوا فيهـا جميـع المسـلمين سـلفاً وخلفـاً، ثم يزعمـون مـع هـذا أنهم مجتهـدون كلهم، ليس في المتبـوعين والأتباع منهم مقلد واحد، لأن التقليد فيمـا زعمـوا شـرك سـواء أكان تقليداً في فروع الأحكام أو في أصول الدين...)(3)

وذكر لي أنـه كتب راداً على هجـوم الوهابيـة عليـه وعليـه، فقال: (وأقـول: إن حـبي وهـواي وميـولي بحمـد اللـه وتوفيقـه متجهة كلها نحو محاب اللـه ومراضـيه، ورأيت الكـوثري يناضـل ويكافح وينفي عن الله صـفات الحـوادث الـتي يثبتهـا ابن تيميـة بصـريح عباراتـه، وعبـارات من ينقـل عنـه صـريح التجسـيم من

1() سعادة الدارين في الرد على الفرقتين، ابراهيم السمنودي، ج1 ص 173.

2() تطهير الفؤاد، محمد بخيت المطيعي ، ص 13.

3() المشبهة والمجسمة، عبدالرحمن خليفة، ص 12.

الحشوية أمثال الدارمي ومن على شـاكلته تأييـداً لرأيـه وتوثيقاً لمذهبه في التجسيم، ورأيتكم ومن على شـاكلتكم تقلـدون ابن تيمية تقليداً أعمى ولا تحيدون عن آرائه وأقواله في هذا الصـدد قيد أنملة، فمن منا أحق بالرثاء والإشـفاق وأولى بـالعلاج، ومن منا نصير البدعة والمبتدعين؟! وأما شـيخكم وإمـامكم الحـراني فقـد ذمـه كثـير من كبـار العلمـاء والأئمـة قـديماً وحديثـاً، ولم يكونوا من الضعف العلمي في قليل ولا كثير..)[1]

وكـان من بينهم العـالم الفقيـه الشـيخ أبوالمحاسـن جمـال الدين يوسف بن أحمد بن نصر الـدجوي، وقـد سـألت الكـوثري عنه، فذكر لي أنه كان عضواً في جماعـة كبار العلمـاء بـالأزهر، وأن له رسالة بعثها له منها قوله فيهـا: (وأظن أنـك ذكـرتَ لي يوم كنـا مـع المرحـوم الشـيخ عبـدالباقي سـرور نعيم أن بعض علماء الهند ذكر هنات ابن تيمية وزلاته وأفاض في الردّ عليهـا.. وقد ذكرتَ حفظك الله كثيراً من هناته التي خرق بهـا الإجمـاع، وصادم بها المعقول والمنقـول، وبينت مراجعهـا من كتبـه وكتب تلميذه ابن القيم، ولا معنى للمكابرة في ذلـك بعـد رسـائله في العقائد المطبوعة في آخر فتاويه، وبعد ما قرره في مواضع من منهاج السنة وموافقة المعقول والمنقول ورسـائله الكـبرى إلى غير ذلك من مؤلفاته فقد كـان سـامحه اللـه مولعـاً بنشـر تلـك الآراء الشـاذة والعقائـد الضـالة كلمـا سـنحت فرصـة لتقريـر معتقده الذي ملك عليه مشـاعره حـتى أصـبح عنـده هـو الـدين كلـه، على مـا فيـه من جمـود وحجـود وخلـط وخبـط.. وكـذلك تلميذه ابن القيم كان مستهتراً بما جُنّ به شيخه من تلـك الآراء المنحرفة، فكان دائماً يرمي إليها عن قرب أو بعد حتى إنـه في كتاب (الـروح) الكثـير الفوائـد الـتي تلطـف الأرواح لم ينس مـا شغف به من تلك المقالات الحمقـاء.. إن ابن تيميـة في رأيي لا يصح أن يكون إماماً لأن الإمامة الحقة لا ينالها من يُقدّس نفسه هذا التقديس، فإنه إذا قدّس نفسه كان متبعاً لآرائها، غـير متهم لها، فكان سائراً مع أهوائها، غير منحرف عنهـا، ومن اتبـع هـواه ضـل عن سـبيل اللـه من حيث يـدري أولا يـدري، ومن قـدّس

[1] المشبهة والمجسمة، ص 39.

نفسه لم يتبع سبيل المؤمنين شاء أم أبى... وقد أدى ذلك العالم الكبير ابن تيمية، بسرعته –ولا نقول طيشه– إلى أن يجازف فيقول:(لم يرد ذكر إبراهيم وآل إبراهيم، في رواية من الروايات الواردة في الصلاة على النبي ﷺ، مع أن ذلك في البخاري وهو يحفظه... وقد أنكر حديث الزيارة وهو صحيح كما أوضح السبكي في (شفاء السقام) إلى غير ذلك، مع أنه من الحُفّاظ، وأشهر شيء من مزاياه هو أنه محدث، ولكنه التسرع يُذهب من النفس رشدها، والمجازفة تعمي عين البصيرة وتفقأ بصر العقل)

وقال فيها: (وأرجو أن تعذرني فقد أهاج حفيظتنا واستثار الكامن منا ما نراه الآن من أولئك الزعانف الذين يدعون الاجتهاد وقد رددوا صدى مقال إمامهم ابن تيمية، وأكثروا من ذكر الكتاب والسنة وهو أبعد الناس عنهما وأخلاهم منهما.. ولو عقلوا لعلموا أنهم من مقلدة ابن تيمية على غير هدى ولا بصيرة، فهم أعظم الناس جهلاً، وأكبرهم دعوى، يعادون المسلمين، ويكفرون المؤمنين، ولا غروا فقد كفّر أسلافهم من الخوارج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واعترض جدهم الأعلى ذو الخويصرة على النبي ﷺ..)[1]

وكان من بينهم الشيخ أحمد خيري المصري، وقد سألت الكوثري عنه، فذكر لي أنه من تلاميذه، وأنه ألف كتابا عنه سماه (الإمام الكوثري)، قال فيه: (وقد عاش المترجم طول حياته خصماً لابن تيمية ومذهبه، وسرد آراء الأستاذ يخرج بالترجمة عن القصد، وهي مبسوطة في كثير من تآليفه وتعاليقه، وعلى الرغم من أن لابن تيمية بعض المشايعين الآن بمصر، فإنه سيتبين إن عاجلاً وإن آجلاً، ولو يوم تعرض خفايا الصدور أن ابن تيمية كان من اللاعبين بدين الله، وأنه في جلّ فتاواه كان يتبع هواه وحسبك فساد رأيه في اعتبار السفر لزيارة النبي ﷺ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة)[2]

1() السلفية المعاصرة إلى أين؟، محمد زكي إبراهيم، ص 88.

2() الإمام الكوثري، أحمد خيري، ص 29.

وكـان من بينهم الشـيخ محـــمد أبـو زهــرة، وقـد سـألت الكوثري عنه، فذكر لي أنه من كبار علماء الأزهر الـذين أنكـروا على ابن تيمية، وأنه وجـه إليـه سـؤال حـول التجسـيم، فأجـاب بقوله: (ما يقوله الشيخ اتّباعٌ لما قيل عن ابن تــيمية، فهـو في هذا يقلـده فيمـا روي عنـه في الرسـالة الحمويـة، والحــق أنـه تعـالى منـــزه عن المكـان، ومنـــزه عن أن يجلس كمـا يجلس البشر، وأن العلماء الصادقين من عهـد الصـحابة يفسـرون هـذا بتفسير لا يتفـق مـع المكـان، ولا يمكن أن تفسـر الأيـام السـتة بأيامنا هذه، لأن أيامنا ناشئة من دوران الأرض حول الشمس إلا أن تفسـر بمقـدارها لا بحقيقتهـا، ولا نـرى موافقـة الشـيخ في الخوض في هذه الأمور)(3)

الشافعية:

أشار صاحبي الوهابي التائب إلى رجل آخر كانت تبدو عليه الملامح الهندية، وقال: هذا الرجل الذي تراه هـو الشـيخ صـفي الـــدين محمـــد بن عبـــدالرحيم بن محمـــد الهنـــدي الأرمـــوي الشافعي.. .. وهو ممثل الشافعية في هذا المجلس.

قلت: أهلا وسهلا ومرحبا.. وكيف لا أعرفه.. إنه من علمـاء الهند الكبار.. وقد طاف البلـدان، ثم سـكن دمشـق ومـات بهـا، ولـه مصـنفات في علم أصـول الفقـه وعلم الكلام.. وأعلم أنـه كـانت بينــه وبين ابن تيميــة منــاظرة دخــل بســببها ابن تيميــة السجن.. فهلا حدثتنا عنه.

قال: لقد ذكرها تاج الدين السبكي، فقـال: (ولمـا وقـع من ابن تيمية في المسئلة الحموية ما وقع وعقـد لـه المجلس بـدار السـعادة بين يـدي الأمـير تنكـز، وجُمعت العلمـاء أشـاروا بـأن الشيخ الهندي يحضر فحضـر، وكـان الهنـدي طويـل النفس في التقرير إذا شرع في وجه يقرره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلا قد أشـار إليـه في التقريـر بحيث لا يتم التقريـر إلا وقـد بعـد على المعترض مقاومته فلما شرع يقرر أخـذ ابن تيميـة يعجـل عليـه على عادته ويخرج من شـيء إلى شـيء فقـال لـه الهنـدي: مـا

(3) فتاوى الشيخ محمد أبوزهرة، محمد أبو زهرة، ص 118.

أراك يا ابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان فر إلى مكان آخر.. وكان الأمير تنكز يعظم الهندي ويعتقده وكان الهندي شيخ الحاضرين كلهم فكلهم صدر عن رأيه وحبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة وهي التي تضمنت قوله بالجهة ونودي عليه في البلد وعلى أصحابه وعزلوا من وظائفهم)(1)

قلت: ذاك ما ذكره السبكي.. وأنا أريد منك الآن أن تذكر جميع التفاصيل التي حصلت.. فلا فرصة كهذه.

ضحك، وقال: لا تستعجل.. لا تكن كابن تيمية.. اصبر وسترى المناظرة بعينيك.. فنحن لم نجتمع إلا لأجل ذلك.. وفوق ذلك.

قال ذلك، ثم قدم لي وثيقة فيها أسماء لبعض الأعلام الكبار، وبجانب كل اسم منها توقيع وختم.. فسألته عن ذلك، فقال: لقد اشترطت المحكمة علينا ذلك.. ولهذا فقد جمعت ما قدرت عليه من توقيعات أصحابي في المذهب حتى لا أعتبر بأني المدعي الوحيد من الشافعية.

تعجبت من كلامه هذا، وأردت أن أسأله عن سر المحكمة.. لكني وجدت أن كلامي معه في ذلك لن يجديني شيئا.. فأنا في عالم مختلف تماما عن العالم الذي كنت فيه.

رحت أنظر في الأسماء، وقد وجدت من بينها الكثير من العلماء في مختلف المجالات، وكان من الأسماء التي شدت انتباهي الشيخ أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط الخرباوي البقاعي، فسألت الشيخ صفي الدين عنه، فذكر لي أن الحافظ محمد بن عبدالرحمن السخاوي قال عنه: (... وصرّح عن نفسه بأنه يبغض ابن تيمية لما كان يخالف فيه من المسائل...)(2)

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج 5 ص 92.

(2) الضوء اللامع، السخاوي، ج1 ص 107.

ورأيت من بينها قاضي القضاة الشيخ برهان الدين إبراهيم بن محمد العجلوني المعروف بابن خطيب عـذراء، وقـد سـألت الشيخ صفي الدين عنه، فـذكر لي أنـه كتب تعليقـة على فتـوى الشيخ أبي بكر الحصني الشافعي في حق ابن تيمية ومعتقداته، أيّد فيهـا الحصـني وقـال في ختامهـا: (والكلام في مثـل ذلـك لا يحصى ولا يعد، وقصد الشيخ المجيب من ذلـك الـردّ على أتبـاع ابن تيمية والتحذير من الاغترار بـأقوالهم، وإلا فهـو قـد انقضـى وأفضى إلى ما قدم، وجهل أتباعه وخطأهم أظهر من أن تنصب عليهم دليلاً)[3]

ورأيت من بينهـا الحافـظ الشـيخ ولي الـدين نجـل الإمـام الحافظ الشيخ زين الدين عبدالرحيم العراقي، فسـألت الشـيخ صـفي الـدين عنـه، فـذكر لي أنـه انتقـد ابن تيـمية في كتابـه (الأجوبة المرضية في الردّ على الأسئلة المكية)

ورأيت من بينها الفقيه الشريف الشيخ تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الحصني الشـافعي، فسـألت الشـيخ صـفي الدين عنه، فذكر لي أنه كـان شـديداً في نقـد ابن تيميـة.. وأنـه ألف في ذلك كتبا، وقـد قـال في بعض كتبـه عنـه: (الحمـد للـه مستحق الحمـد زيـارة قـبر سـيد الأولين والآخـرين محمـد ﷺ وكــرّم ومجّــد من أفضــل المســاعي وأنجح القــرب إلى رب العـالمين وهي سُـنة من سـنن المسـلمين ومجمـع عليهـا عنـد الموحـــدين ولا يطعن فيهـــا إلا من في قلبـــه خبث ومـــرض المنافقين وهو من أفـراخ السـامرة واليهـود وأعـداء الـدين من المشركين، ولم تزل هذه الأمة المحمدية على شدّ الرحـال إليه على ممر الأزمان من جميـع الأقطـار والبلـدان سـواء في ذلـك الزرافات والوحدان، والعلماء والمشايخ والكهول والشبان، حتى ظهر في آخر الزمـان، في السـنين الخداعـة مبتـدع من حـــران لبّـــس على أتبـــاع الـــدجال ومن شـــابههم من شـــين الأفهـــام والأذهـــان، وزخـــرف لهم من القـــول غـــروراً كمـــا صـــنع إمامـــه الشيطان فصدهم بتمويهه عن سبل أهل الإيمـان، وأغـواهم عن الصـراط السـوي إلى بُنيـات الطريـق ومدرجـة الشـيطان فهم

(3) الفتاوى السهمية، ص 49.

بتزويقه في ظلمة الخطأ والإفك يعمهـون، وعلى منـوال بدعتـه يهرعون، صُمٌّ بُكم عُميٌّ فهم لا يعقلون)[1]

وقال في مقدمة كتابه الذي ألفه في الرد على ابن تيميـة، والمعنون بـ (دفع شبه من شبه وتمرد ونسـب ذلـك إلى الإمـام أحمد): (قال بعض العلماء من الحنابلـة في الجـامع الأمـوي في ملأ من الناس: لو اطلع الحصني على ما اطلعنا عليه من كلامـه (أي كلام ابن تيمية) لأخرجه من قبره وأحرقه).. وأكد هـؤلاء أن أتعـرض لبعض مـا وقفت عليـه ومـا أفـتى بـه مخالفـاً لجميـع المذاهب، وما خطئ فيه وما انتقد عليه، وأذكر بعض ما اتفق له من المجالس والمناظرات، وما جاءت به المراسـيم العاليـات.. وأتعـرض لبعض مـا سـلكه من المكائـد الـتي ظن بسـببها أنـه يخلص من ضرب السياط والحبوس وغير ذلك من الإهانات)[2]

وقال في كتابه هذا: (إن ابن تيمية الذي كـان يوصـف بأنـه بحر من العلم، لا يستغرب فيه ما قاله بعض الأئمة عنه من أنـه زنديق مطلق، وسبب قولـه ذلـك أنـه تتبـع كلامـه فلم يقـف لـه على اعتقاد حتى أنـه في مواضـع عديـدة يكفـر فرقـة ويضـللها وفي آخر يعتقد ما قالته أو بعضه، مع أن كتبه مشحونة بالتشبيه والتجسيم، والإشارة إلى الازدراء بالنبي ﷺ)[3]

ورأيت من بينها قاضي القضاة الشيخ نجم الـدين عمـر بن حجي بن أحمد السعدي الشافعي، فسألت الشيخ صفي الـدين عنه، فذكر لي أنه سئل عن عن ابن تيمية، فأجاب بقولـه: (هـذا الرجل المسئول عنـه في الاسـتفتاء كـان عالمـاً متعبـداً، ولكنـه ضلّ في مسائل عديدة عن الطريق المستقيم والمنهج القـويم، لا جرم سجن بسجن الشرع الشريف بعد الترسـيم وأفضـى بـه إعجابـه بنفسـه إلى الجنـوح إلى التجسـيم الـذي ابتدعته اليهـود الـذين أشـركوا بالواحـد الأحـد المعبـود، وتغـالى فيـه أصـحابه

1() الفتاوى السهمية في ابن تيمية، أجاب عنها جماعة من العلماء.

2() دفع شبه من شبه وتمرد، ص 314.

3() دفع شبه من شبه وتمرد، ص 343.

وأتباعه حتى قدموه على جميع الأئمة وعلى علماء الأمـة، وهجـر مذهب الإمام أحمد الذي أتباعه بالإجماع أولى وأحمد، ورد عليه العلماء المحققون، وسـجنه حكـام الشـريعة الأقـدمون ونـودى بدمشق أن لا ينظر أحدٌ في كلامه وكتبه وهـرب كـلُّ من أتباعـه ومَن هو على مذهبـه واعتقـاده. والعجب كـل العجب من جُهَّال حنابلـة هـذا الزمـان يغضـبون إذا قيـل لهم: (أخطـأ ابن تيميـة)، وربما اعتقد بعضهم أن قائـل ذلـك ملحـد، ولا يغضـبون إذا قيـل لهم: أخطأ الشافعي وأبو حنيفة ومالك والإمام أحمد..)[1]

ورأيت من بينها الحافظ الفقيه الشيخ شهاب الـدين أحمـد بن محمد القسطلاني، فسألت الشيخ صفي الدين عنـه، فـذكر لي أنه صاحب كتاب (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية)، والذي قال فيه: (وللشـيخ تقي الـدين بن تيميـة هنـا كلام شـنيع عجيب يتضمن منع شد الرحال للزيارة النبوية المحمدية، وأنه ليس من القرب بل بضد ذلك، وردّ عليه الشـيخ تقي الـدين السـبكي في (شفاء السقام) فشفى صدور المؤمنين)[2]

ورأيت من بينهـا الفقيـه المفـتي الشـيخ أحمـد بن حجـر الهيتمي المكي الشـافعي، فسـألت الشـيخ صـفي الـدين عنـه، فذكر لي أنه من الشـافعية الـذين تشـددوا مـع ابن تيميـة، ومن أقواله فيه: (ابن تيمية عبـد خذلـه اللـه وأضـله وأعمـاه وأصـمه وأذلـه، وبـذلك صـرح الأئمـة الـذين بينـوا فسـاد أحوالـه وكـذب أقوالـه، ومن أراد ذلـك فعليـه بمطالعـة كلام الإمـام المجتهـد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهـاد أبي الحسـن السـبكي وولـده التـاج والشـيخ الإمـام العـز بن جماعـة وأهـل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكيـة والحنفيـة، ولم يقصـر اعتراضه على متأخري الصوفية بل اعترض على مثـل عمـر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب كما سيأتي، والحاصـل أن لا يقـام لكلامه وزن بل يرمى في كل وعر وحزن، ويعتقد فيه أنه مبتدع ضال ومضل جاهـل غـال، عاملـه اللـه بعدلـه وأجارنـا من مثـل

1() الفتاوى السهمية، ص 45.

2() المواهب اللدنية، القسطلاني، ج4 ص 574.

طريقته وعقيدته وفعله... وأخبر عنه بعض السلف أنه ذكر عليّ بن أبي طالب في مجلس آخر فقال: إن علياً أخطأ في أكثر من ثلاثمائة مكان، فيا ليت شعري من أين يحصل لك الصواب إذا أخطأ عليّ بزعمك...)[1]

وقال في كتاب (الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم): (فإن قلت كيف تحكي الإجماع السابق على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها، وابن تيمية من متأخري الحنابلة منكر لمشروعية ذلك كله؟ كما رآه السبكي في خطه، وأطال – أعني ابن تيمية – في الاستدلال لذلك بما تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً وأنه لا تقصر فيه الصلاة، وأن جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه.. قلت: من ابن تيمية حتى ينظر إليه أو يعول في شيء من أمور الدين عليه، وهل هو إلا كما قال جماعة من الأئمة الذين تعقبوا كلماته الفاسدة وحججه الكاسدة حتى أظهروا عوار سقطاته وقبائح أوهامه وغلطاته كالعز بن جماعة: عبد أضله الله تعالى وأغواه وألبسه رداء الخزي وأرداه، وباه من قوة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان وأوجب له الحرمان، وقد تصدى شيخ الإسلام وعالم الأنام، المجمع على جلالته واجتهاده وصلاحه وإمامته التقي السبكي قدس الله روحه ونور ضريحه، للرد عليه في تصنيف مستقل، أفاد فيه وأجاد وأصاب، وأوضح بباهر حججه طريق الصواب فشكر الله تعالى مسعاه... وما وقع من ابن تيمية مما ذكر، وإن كل عثرة لا تقل أبداً ومصيبة يستمر عليه شؤمها دوماً سرمداً ليس بعجيب، فإنه ضرب مع المجتهدين بسهم صائب، وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعايب، إذ خالف إجماعهم في مسائل كثيرة، وتدارك على أئمتهم سيما الخلفاء الراشدين باعتراضات سخيفة شهيرة، وأتى من نحو هذه الخرافات بما تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع حتى تجاوز إلى الجناب الأقدس منزه سبحانه وتعالى عن كل نقص والمستحق لكل كمال أنفس، فنسب إليه العظائم والكبائر،

1() لفتاوى الحديثية، ابن حجر الهيتمي، ص144.

وأخرق سياج عظمته وكبرياء جلالته بما أظهره للعامة على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم، وتضليل من لم يعتقد ذلك من المتقدمين والمتأخرين حتى قام عليه علماء عصره وألزموا السلطان بقتله أو حبسه وقهره، فحبسه إلى أن مات، وخمدت تلك البدع وزالت تلك الظلمات، ثم انتصرت له أتباع لم يرفع الله تعالى لهم رأساً، ولم يظهر لهم جاهاً ولا بأساً بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)[1]

وقال في كتابه (أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل): (قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: أنه ذكر شيئا بديعاً وهو أنه ﷺ لما رأى ربه واضعاً يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة، قال العراقي: لم نجد لذلك أصلاً. أقول في هذا من قبيح رأيهما وضلالهما، إذ هو مبني على ما ذهبا إليه وأطالا في الاستدلال له، والحط على أهل السنة في نفيهم له وهو إثبات الجهة والجسمية له، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، ولهما في هذا المقام من القبائح وسوء الاعتقاد ما تصم عنه الآذان، فيقضي عليه بالزور والكذب والضلال والبهتان، قبحهما الله وقبح من قال بقولهما، والإمام أحمد وأجلاء مذهبه مبرءون عن هذه الوصمة القبيحة، كيف وهو كفر عند كثيرين)[2]

ورأيت من بينها الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، فسألت الشيخ صفي الدين عنه، فذكر لي أنه من الذين أنكروا على ابن تيمية موقفه من زيارة قبره النبي ﷺ، فقد قال في كتابه (نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض): (واعلم أن هذا الحديث هو الذي دعا ابن تيمية ومن تبعه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفاً مستقلاً وهي منعه من زيارة قبر النبي ﷺ وشدّ الرحال إليه.. فتوهم أنه حمى جانب

---

[1] الجوهر المنظم، ص 29.

[2] أشرف الوسائل، ابن حجر الهيتمي، ص172.

التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها، فإنها لا تصدر عن عاقل فضلاً عن فاضل سامحه الله عزوجل)(1)

ووصفه فهمه لحديث (لاتجعلوا قبري عيداً) بأنـه (لا حجــة فـيه،... فإنه نزعـة شيطانيـة)[2]

ورأيت من بينهـا الشـيخ رضـوان العـدل بيـبرس الشـافعي المصري، فسألت الشيخ صفي الـدين عنـه، فـذكر لي أنـه من الذين أنكروا على ابن تيمية وتلاميذه من الوهابية، فقد قال في كتـابه (روضة المحتـاجين لمعرفة قواعـد الدين): (ثم ظهر بعــد ابن تيمية محمد بن عبدالوهـاب في القـرن الثـاني عشـر، وتبـع ابن تيمية وزاد عليه سخفاً وقبحاً، وهـو رئيس الطائفـة الوهابيـة قبحهم الله، وتبرأ منه أخوه الشيخ سليمان بن عبدالوهاب وكان من أهل العلم..)[3]

ورأيت من بينها الفقيه المحـدث الشـيخ سـلامه القضـاعي العزامي الشافعي،فسألت الشيخ صـفي الـدين عنـه، فـذكر لي أنه ألف كتابا بعنوان (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكـوان) خصصـه للـردّ على ابن تيميـة والمجسـمة، قـال فيـه: (والعجب أنـك تـرى إمـام المـدافعين عن بيضـة أهـل التشـبيه، وشـيخ إسـلام أهـل التجسـيم ممن سـبقه من الكراميـة وجهلـة المحدثين الذين يحفظون وليس لهم فقه فيما يحفظـون، أحمـد بن عبدالحليم المعروف بابن تيمية، يرمي إمام الحرمين وحجــة الإسلام الغزالي بأنهما أشد كفراً من اليهود والنصارى في كتابه (الموافقـة) المطبـوع على هـامش منهاجـه، لقولهمـا بالتنــزيه، وهمـا لم ينفـردا بـه بـل هـو قـول المحققين من علمـاء الملـة الإسلامية من الصحابة فمن بعدهم إلى زمانه وكانت وفاتــه في القرن الثامن، إلى زماننا وإلى أن يأتي أمر الله...)[4]

1() نسيم الرياض، أحمد بن محمد الخفاجي، ج5 ص 96.

2() نسيم الرياض، ج 5 ص 113.

3() روضة المحتـاجين لمعرفة قواعـد الدين، ص 384.

4() فرقان القرآن، سلامه القضاعي، ص 61.

ورأيت من بينها الشيخ نجم الـدين نجـل شـمس العـارفين الشـيخ محمـد أمين الكـردي الشـافعي، فسـألت الشـيخ صـفي الدين عنه، فذكر لي قولـه: (فقـد نجمت في القــرون الماضـية بين أهـل الإسـلام بـدع يهوديـة من القـول بالتشـبيه والتجسـيم والجهـة والمكان في حـق الله تعالى، ممـا عملتـه أيـدي أعـداء الإسـلام تنفيـذا لحقـدهم عليـه، ودخلت الغفلـة على بعض أهـل الإسلام، والمؤمن غر كريم، فقيض الله لهذه البدع من يحاربهــا وهم السواد الأعظم من علمـاء هـذه الأمـة، وقـد أثمـر سـعيهم ولله الحمد، فصارت بفضل جهادهـم كالمتحرك حركة المـذبوح، حتى إذا كانت أوائل القرن الثامن أخذت هذه البـدع تنتعش إلى أخوات لهـا لا تقـل عنهـا خطـراً على يـد رجـل يـدعى أحمـد بن عبـدالحليم بن تيميـة الحـراني، فقـام العلمـاء من أهـل السـنة والجماعة في دفعها حتى لم يبق في عصره من يناصـره إلا من كان له غرض أو في قلبه مرض..)[1]

ورأيت من بينها المحدث الشـيخ عبـد ربـه بن سـليمان بن محمـد بن سـليمان القليـوبي الأزهـري، فسـألت الشـيخ صـفي الـدين عنـه، فـذكر لي أنـه من علمـاء الأزهـر الـذين واجهـوا انحرافات ابن تيمية وأنه صاحب كتاب (فيض الوهـاب في بيـان أهل الحق ومن ضل عن الصـواب) في سـتة أجـزاء، والـذي رد فيه على ابن تيمية وأتباعه.. ومن تصريحاته في ذلك قوله: (قـد عرفت مما قدمنا لك أن ابن تيمية هو الذي جمع شـتات أقــوال الخـوارج وغـيرهم من الملحـدين ودونهـا رسـائل، وتلقاهـا عنـه تلاميذه الذين فتنوا بحبـه لنشـأتهم على ذلـك واسـتعدادهم لـه، ووسعوا فيها الضلالات)[2]

ومنها قوله: (ابن تيميـة الـذي أجمـع عقلاء المسـلمين أنـه ضال مضل، خرق الإجماع وسلك مسالك الابتداع، الذي ما ترك أمراً مخالفاً ولا مبـدءاً معارضـاً لمـا عليـه إجمـاع المسـلمين إلا وسلكه، فكان كـل من كـان على هـذا المبـدأ من أهـل الضـلالة

[1] () مقدمة كتاب فرقان القرآن، ص 2.

[2] () فيض الوهاب، عبدربه القليوبي، ج1 ص 149.

المقابل لأهل الحق يدعو إلى هذا المبدأ، وهم حـزب الشـيطان المقابل لحزب الرحمن، إذ الأمر في الدين اثنان لا ثـالث لهمـا)[1]

ورأيت من بينهـا المحـدث الشـيخ محمـد بن علي بن علان البكري الصديقي المكي الشافعي، فسألت الشيخ صفي الــدين عنه، فذكر لي أنه صاحب كتـاب (المـبرد المبكي في الـردّ على الصارم المنكي)، وقد ألفه رداً على كتاب ابن عبـدالهادي تلميـذ ابن تيمية، والذي انتصر فيه لآراء شيخه الضالة[2].

ورأيت من بينها الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، فسألت الشيخ صفي الدين عنه، فذكر لي أنـه تحـدث في كتابـه (الـدرر الكامنة) عن سيرة ابن تيمية.. ومما جاء فيهـا قولـه: (ثم نسـب أصحابه إلى الغلو فيـه واقتضـى لــه ذلـك العُجب بنفسـه حـتى زهى على أبناء جنسـه واستشـعر أنـه مجتهـد، فصـار يـرد على صغير العلماء وكبيرهم قديمهم وحديثهم، حـتى انتهى إلى عُمــر فخطّأه في شيء، فبلغ ذلك الشيخ إبراهيم الـرقى فـأنكر عليـه فـذهب إليـه واعتـذر واسـتغفر، وقـال في حـق عليّ أخطـأ في سـبعة عشـر شـيئاً.. وكـان لتعصـبه لمـذهب الحنابلـة يقـع في الأشاعرة حتى أنه سب الغزالي فقام عليه قوم كادوا يقتلونـه.. وافترق الناس فيه شيعاً فمنهم من نسبه إلى التجسيم لما ذكـر في العقيدة الحمويـة والواسـطية وغيرهمـا من ذلـك كقولـه أن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله وأنه مسـتو على العرش بذاته فقيل له يلزم من ذلك التحيز والانقسام فقـال أنـا لا أسلم أن التحيز والانقسـام من خـواص الأجسـام فـألزم بأنـه يقول بتحيز في ذات الله، ومنهم من ينسبه إلى الزندقـة لقولـه أن النبي ﷺ لا يستغاث به وأن في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبي ﷺ.. ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في علي ما تقدم ولقوله أنه كان مخذولاً حيث ما توجه وأنه حاول الخلافـة مـراراً فلم ينلها وإنما قاتـل للرياسـة لا للديانـة ولقولـه أنـه كـان يحب

---

[1] فيض الوهاب، ج5 ص 151.

[2] فهرس الفهارس والأثبات، ج1 ص 227. وكتاب السلفية الوهابية، ص 140.

الرياسة.. فألزموه بالنفاق لقوله ﷺ: (ولا يبغضك إلا منافق).. ونسبه قوم إلى أنه يسعى في الإمامة الكبرى فإنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه وله وقائع شهيرة وكان إذا حوقق وألزم يقول لم أر هذا إنما أردت كذا فيذكر احتمالاً بعيداً قال وكان من أذكياء العالم وله في ذلك أمور عظيمة..)(1)

كما أنه ردّ على ابن تيمية في مسألة زيارة رسول الله ﷺ في كتابه (الإنارة بطرق حديث الزيارة)

ورأيت من بينها قاضي القضاة الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد بن سالم بن صصري التغلبي، فسألت الشيخ صفي الدين عنه، فذكر لي أنه كان من العلماء المعاصرين لابن تيمية، وأنه هو الذي أصدر حكماً بسجن جمال الدين المزي تلميذ ابن تيمية، فقام ابن تيمية لنصرة صاحبه وأراد فك حبسه رغماً عن القاضي، ودخل السجن وأخرج المزي من حبسه، فغضب القاضي وأصر على تنفيذ الحكم وإعادة المزي للسجن، ووقع بينه وبين ابن تيمية شجار وكلام شديد، فتدخل النائب الحاكم وأمر بإعادة المزي للحبس، وأطلقه بعد أيام(2).

ورأيت من بينها الفقيه الشيخ طارق بن محمد بن عبدالرحمن الجباوي السعدي الشافعي، فسألت الشيخ صفي الدين عنه، فذكر لي أن له الكثير المؤلفات في مختلف العلوم الشرعية، ومنها بعض كتبه في الرد على ابن تيمية وتلاميذه، ككتاب (الردود الشرعية على الفتوى الحموية)، و(كشف المين في شرح الحراني لحديث ابن حصين)، و(إلحاق المنية بجيوش ابن قيم الجوزية الحشوية)، و(الكشفين للزلل والمين).. وقد أوذي بسبب ذلك من تلاميذ ابن تيمية.

وقد قال في مقدمة كتابه (كشف المين في شرح الحراني لحديث ابن حصين) قال: (فهذا كتاب أسميته (كشف المَيْن)

1() الدرر الكامنة، ،ج1 ص 153 وما بعدها.

2() الدرر الكامنة، ج1 ص 146. والبداية والنهاية، 2126.

أي: الكذب، بيَّنت فيه بهتـان ابن تيميـة الحـراني وافـتراءه على العقل والنقل بما حشاه في شـرحه لحـديث سـيدنا عمـران بن حصـين رضـي اللـه تعـالى عنـه، منبهـاً على كثـير من مخازيـه بالإشـارة أو العِبـارة، وذلـك بعـد اطلاعي المفصـل على كتبـه كمجموع الفتـاوى، ودرء التعـارض، ومنهـاج السـنة، والصـفديَّة، وغيرها مما نقلنا بعض نصوصه فيهـا على قِـدم نـوع العـالم في كتاب "كشف الزلل" الذي فصلنا فيه مذهبه ورددنا عليـه، حـتى أنـك لتجـد الكشـفين: للزلـل والمين منفصـلين متمّمين: فكـل منهما كما أنه استوفى المطلب وحقـق المقصـود، كـان متممـاً للآخر في مسائل لم نتعرض لهـا فيه)(1)

وقال في خاتمة كتابه المذكور: (وبعد: فهذا آخر مـا يسـره اللـه تعـالى لنـا في كشـف مين ابن تيميـة على العقـل والنقـل سيما حديث عمران بن حصين.. ولسنا قد تعرضـنا لـه لشخصـه إلا أنه بات رأساً لفرقة تُرجع إليه القول، وتُوقِف العقل والنقــل على بيانه، وروجت له بين عوام العلماء فبات بينهم علماً محققاً بارعاً.. الخ، ما أوجب علينا التخصيص والتنصيص.. فأسـأل اللـه تعالى كشف بصيرة أتباعه فضـلاً عن المغبـونين والمغـترين بـه إلى الحق، ليعرفوا مكانة هذا المبتدع على التحقيـق، وأنـه ليس إلا مارق زنديق، ليس فيمـا انفرد فيه إلا البدعة الضلالة وفُرقـة الجمـاعة)(2)

ورأيت من بينهـا الشـيخ المحـدث محمـود سـعيد ممـدوح، فسألت الشيخ صـفي الـدين عنـه، فـذكر لي أن كتبـه الحديثيـة تطفح بالردود العلمية المفصلة على أطروحات ابن تيميـة، وقـد سئل عن رأي علماء أهل السنة في عقيـدة ابن تيميـة، فأجـاب بقوله: (يمكن مراجعة الكتب التي تناولت عقائد ابن تيميـة ومن أهمها (السـيف الصـقيل في الـرد على ابن زفيـل) و(ابن تيميـة ليس سـلفيا)، ومقدمــة مولانــا الكبــير الشــيخ نجيب المطيعي لكتاب شفاء السقام وكتاب التقي الحصني، وبعض كتب شـيخنا

---

(1) مقدمة كتاب كشف المين، طارق السعدي

(2) كشف المين، الخاتمة، ط دار الجنيد

عبد اللـه الغمـاري.. وكـل هـذه الكتب تحكم بضـلال عقائـد في كتب ابن تيميــة، بقي دين على أهــل الســنة أنهم لم يتنــاولوا (منهـاج البدعـة) لابن تيميـة بـالنقض والنقـد والتمحيص والـذي أساء فيه جـدا لآل الـبيت عليهم السـلام.. نعم للسـيد أحمـد بن الصديق لمحات جيـدة وكـذا لشـقيقيه، وكـذلك لشـيخ مشـايخنا العلامة المطلع السيد علوي بن طاهر الحداد، وللكوثري، ولكنها نكت تحتاج لاكمال.. بـل انـني وجـدت بعض أهـل السـنة لـبرود عندهم نحـو آل الـبيت عليهم السـلام. للأسـف يحتفـون بمنهـاج البدعــة وينقلــون منــه اغــترارا ببدعــة وانتصــارا لبعض أفكــار النواصب كمـا فعـل المعلـق على (ذب ذبابـات الدراسـات على المذاهب الأربعة المتناسبات) وهـو ديوبنـدي، وبعض المنتسـبين لندوة علماء الهند)

ومن تصريحاته كذلك قوله: (ولا يخفى أن الشيخ أحمـد بن تيميـة الحـراني الدمشـقي (664 – 728) من علمـاء الحنابلـة كانت له آراء واختيارات انفرد بها، وأحدث بعضها دوياً هــائلاً بين العلماء لا سيما في مصر والشام، وانتقـد انتقـادات واسـعة من معاصريه بل إن تلاميذه المقـربين كـالمزي والـذهبي وابن كثـير وأشباههم كابن رجب الحنبلي انتقدوه وعارضوه، وبانقضاء هــذا العصر أفل نجم هـذه الفتنـة، وقـد أكـثر العلمـاء فيمـا بعـد من التحذير من شذوذات الشيخ ابن تيمية، وكلمات التقي الســبكي وابنه التاج والصلاح العلائي والحافظ العراقي وابنــه ولي الـدين المعروف بـ أبي زرعة العراقي والحافظ ابن حجر والبدر العيني والتقي الحصني وغيرهم من معاصريهم ومن جاء بعدهم، أقــول كلمات المـذكورين وغـيرهم معروفـة لأهـل العلم في معارضـة شذوذات الشيخ ابن تيمية نصيحة للمسلمين ودفاعــاً عن حـوزة الــدين وحفاظــاً على أعــراض أئمــة المســلمين من التكفــير والتبديع. ومع قيام علمـاء المسـلمين بالنصـح التـام ودرء الفتن في مهاجعها لقرون متتالية فقد ظهر في وسط جزيـرة العـرب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وأوائل القـرن الثـالث عشـر الشـيخ محمـد بن عبـدالوهاب المتـوفى 1206 ، وكـان معجباً بآراء ابن تيمية الشاذة المنتقـدة وعضّ عليهـا بالنواجـذ ..

وزاد تمسكه بها أنه نشأ في بادية نائية فلم يتمكن من معرفة اتجاهات أهل العلم في دفع دخائل وانفرادات ابن تيمية عند أهل العلم فضلاً عن فقهاء مذهب السادة الحنابلة، ولم يداخل ابن عبدالوهاب العلماء مداخلة جيدة تمكنه من النظر الصحيح، والموازنة بين الرأي والرأي الآخر...)[1]

وقال أيضاً: (إن شدّ الرحال أي السفر لزيارة القبر النبوي الشريف – سواء كان سفراً تقصر فيه الصلاة أو لا تقصر – من أهم القربات، وهو قريب من الوجوب عند بعض العلماء، بل واجب عند الظاهرية وكثير من المالكية والحنفية. وعلى كون هذا السفر قربة درج سائر الفقهاء في المذاهب الإسلامية العقدية والفقهية، فكان إجماعاً للأمة الإسلامية، وقد خالف هذا الإجماع الشيخ أحمد بن تيمية، فَصَرّح بأن السفر لزيارة قبر النبي ﷺ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة، وقال: من أراد أن يزور القبر الشريف فليزر المدينة المنورة لأي غرض مشروع ثم تكون زيارة القبر الشريف تبعاً لا استقلالاً. وهي مقالة شنيعة لم يتجرأ عليها أحد من علماء المسلمين وقد سجن الشيخ ابن تيمية بسببها، وأخمدت الفتنة، حتى جاء من يعدون كلامه كالوحي المتلو فدافعوا عن مقالته ونشروها وأوقدوا نار الفتنة، ولله الأمر)[2]

ومن كلام له أيضاً يصف فيه موقف البعض من العترة النبوية المطهرة فيقول:(وآخرون يتولون العترة المطهرة ولكن بحد وإلى مقام لا يتجاوزونه البتة، فتراهم يأتون إلى كل فضيلة لعليّ عليه السلام ثابتة بالأحاديث الصحيحة فيتأولونها دفعاً بالصدر لتوافق بعض المذاهب، فإذا جاء في الأحاديث الصحيحة أن علياً مولى المؤمنين وأنه لا يغادر الحق وأنه أعلم وأشجع الصحابة وأسبقهم إسلاماً وهو الكرار الذي لم يهزم، إلى غير ذلك اشتغلوا بتأويل الأحاديث الصحيحة بما يوافق المذهب، وازداد بعضهم جحوداً بالالتجاء إلى منهاج بدعة ابن تيمية

1() كشف الستور، محمود سعيد بن ممدوح، ص 6.

2() كشف الستور، ص 185.

فيعولـون عليـه في نفي خصـائص عليّ عليـه السـلام، وتـدعيم أسـس النّصـب)[1]

ورأيت من بينها العلامة المتكلم الشيخ سعيد فودة، فسـألت الشيخ صفي الدين عنه، فذكر لي أنه من المتكلمين الذين كتبوا في الرد على أطروحات ابن تيمية، وخاصة العقديـة منهـا، ومن كتبه في ذلك كتابـه (الكاشـف الصـغير عن عقائـد ابن تيميــة)، و(نقـــض الرســـالة التدمريــة)، و(الفــرق العظيم بين التنـــزيه والتجسيم) وغيرهـا.. ومن تصـريحاته في ذلـك قولـه في (نقض الرسالة التدمرية): (لقد اشتهر بين الناس أن ابن تيمية هـو من ألـف بين قِطَـع مـذهب التجسـيم، ورتّبـه ونظّمـه حـتى أسـس أركانـه،وكـان يُسـميه بمـذهب السـلف مجانبـة منـه للصـواب، وتعصـباً لرأيـه ومحض عنـاد، وقـد ألّـف أكـثر كتبـه لنصـرة هـذا المذهب، والتبس الأمر على كثير من الخلق والعـوام، لأنه اعتاد اتّباع أساليب لفظية تتيح له التهرب عند المساءلة، وتــترك لمن لم يُتقن فهم مراده التشكّك فيما قصـده، والرجـل لا نظن نحن فيه إلا أنه تَقصّد ذلك.. وأما عندنا فمـا كتبـه واضـح في مـذهب الضـلال، ونص صـريح في نصـرة مـذهب المجسـمة والكراميـة المبتدعة، ونحن في ردنا عليه ونقضنا لكلامـه لا يتوقف هجومنـا لصدّ أفكاره وتوهماته على موافقة الناس لنـا، بـل إننـا نعلم أن كثيرا منهم على عينيه غشاوة، نرجو من الله تعـالى إزالتهـا بمـا نقوم به من الردود والتنبيهات)(2)

وقـال في كتـاب (تهـذيب شـرح السنوسـية)، عنـد شـرحه عبارة (وقد أجمعت الأمة على أن الله تعالى مخالف للحوادث)، فقال: (لقـد نفى ابن تيميـة هـذا الإجمـاع، وادعى أنـه لم تجمـع الأمة على أن الله تعالى لا يشابه المخلوقات من جميع الوجوه، بل ادعى أنه لم يرد نفي التشبيه في الشريعة، وأنه لم يذم أحد بالتشـــبيه، وأمـــا مـــا ورد عن بعض الســـلف من نفي التشـــبيه فمرادهم فقط كون اللـه تعـالى من لحم وعظم؟! وهـذا الكلام

1() غاية التبجيل، محمود سعيد بن ممدوح، ص 119.

2() نقض الرسالة التدمرية، سعيد فوده، ص 6.

في غايــة الشــناعة وهــو متمش مــع مذهبــه في التجســيم والمغالطة...)[1]

وقال في كتابه (بحوث في علم الكلام): (.. حـتى بـرز في أوائـل القـرن الثـامن أحمـد بن تيميـة الحـراني، وهـو يظن في نفسه الذكاء البـالغ والعلم التـام، وقـد اشـتغل في بدايـة أمـره بالسنة فمدحه العلماء لتظاهره بذلك، وعطفوا عليه لما أصــاب عائلته مع باقي العائلات المشردة إثـر مصـائب التتـار، وحفاظـاً على الذكرى الجيدة لأبيه وجده المتبعين لمـذهب الإمـام أحمـد في الفقه، وما إن استطاع أن يقوم بنفسـه حـتى أعلن مكنـون نفسه من مذهب بطال وعقائد التجسيم، وما يخبئه من مواقـف غريبة لأعلام العلماء من أهل السنة)[2]

أما كتابه الكاشف الصغير عن عقائد ابن تيمية والـذي يقـع في أكـثر من خمسـمائة صـفحة من القطـع الكبـير، فكلـه في كشف عقائد ابن تيمية الضالة.

المالكية:

أشار صاحبي الوهابي التائب إلى رجـل منهم، كـان ممتلئـا سلاما وصفاء ونورا، وقال، وهو يخـاطبني: لاشـك أنـك سـمعت بهذا الرجل، وقرأت لـه، وأحببتـه قبـل أن تـراه إنـه الشـيخ ابن عطاء الله الإسكندري المـالكي.. وهـو ممثـل المالكيـة في هـذا المجلس.

قلت، وقد امتلأ قلبي فرحا وسرورا: أهلا وسهلا بك سيدي، لقــد اســتفدت من حكمــك كثــيرا، بــل من جميــع كتبــك.. لكن المعاصـرين من قومـك ينفـرون منـك بحجـة أنـك لم تكن على علاقــة طيبــة بــابن تيميــة.. لقــد قــال عنــك الــذهبي: (رأيتــه بالإسكندرية فيمـا أرى، وكـان يتكلم على النـاس ويقـول أشـياء نافعة وله عبارة عذبة وفيه صدق، ولـه مشـاركة في الفضـائل،

1() تهذيب شرح السنوسية، سعيد فوده، ص 38.

2() بحوث في علم الكلام، سعيد فوده، ص 44.

ولكنه كان من كبار القائمين على الشيخ تقي الـدين ابن تيميـة)[1].. وقال عنـك الشـوكاني: (وهـو ممن قـام على الشـيخ تقي الدين بن تيمية، فبالغ في ذلك وكان يتكلم على الناس ولـه في ذلك تصانيف)(2)

قال ابن عطاء الله: أجل يا بني.. لقد فعلت ذلك..

قلت: الحمد لله أنك تبت منه.

قال ابن عطاء الله: وهل يتوب المرء من حسناته.. بل أنـا أتـوب إلى اللـه من تقصـيري في تـأليف الكتب في الـرد عليـه والتحذير منه، واكتفائي بدل ذلـك بالمنـاظرة الشـفاهية الـتي لا يستفيد منها إلا من حضرها.

قال ذلك، ثم أخرج وثيقة من محفظته، وقدمها لي، وقـال: خذ هذه الوثيقة، ففيهـا أسـماء من قـدرت على الالتقـاء بـه من علمـاء المالكيـة في مختلـف المجـالات، وفيهـا تـواقيعهم، وهم يطالبون جميعا بالوقوف بقوة في وجه التحريفات التي قام بهـا ابن تيمية وأتباعـه نحـو الإسـلام.. الـذي حولـوه من دين رحمـة للعـالمين إلى دين قسـوة للعـالمين.. ومن دين عدالـة إلى دين جور.. ومن دين محبة وسلام إلى دين بغض وصراع.

قدم لي الوثيقة، وقـد دهشـت من كـثرة الأعلام الـواردين فيها.. وكان من بينهم الإمـام الحافـظ الشـيخ أبي الفيض أحمـد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، وقد سـألت ابن عطـاء الله عنـه، فـذكر لي أنـه من أكـابر علمـاء المغـرب، بـل العـالم الإسلامي، وأنه كان شديداً على ابن تيمية في مصنفاته الكثيرة، ومنهـا (قطـع العـروق الورديـة)، و(حصـول التفـريج)، و(هدايـة الصغراء)، ورسالتــه الأخيــرة لعبداللـه التليـدي المغـربي الـتي طبعت بعنوان (در الغمام الرقيق).. ومن أقواله في ابن تيميـة: (وكتب ابن القيم كلهـا نافعـة مباركـة عليهـا نـور وفيهـا إفـادة وهداية بخلاف كتب شيخه ابن تيمية فإنهـا مظلمـة بخبث طويـة

1() ذيل تاريخ الإسلام، الذهبي، ص 86.

2() البدر الطالع بمحاسن القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، ج1 ص 74.

صاحبها وكبريائه وأنانيته، بل ما ضل من ضل عن الصراط المستقيم إلا بكتبه ويكفيك أن قرن الشيطان النجدي وأتباعه ومذهبه الفاسد وليد أفكار ابن تيمية وأقواله، أما ابن القيم فهو وإن كان على مذهب شيخه إلا أنه كان معتدلاً من جهة، وطيب القلب منوره من جهة، فلذلك يحصل الانتفاع بكتبه دون كتب شيخه .. وبعد فلسنا نقول إن كل ما يذهب إليه ابن القيم في كتبه وما يقرره من آرائه وإن كان مؤيداً بدليله في نظره هو الحق، بل نوجب على مبتغي الحق وطالب السلامة أن لا يقلد مخلوقاً كائناً من كان، وأن يتبع الدليل بحسب نظره، ونظر أهل الحق إن عجز هو عن الاستقلال بإدراكه، فإن لابن القيم والحنابلة هنات وأوهاماً وطامات)[1]

وكان من بينهم المحدث الفقيه الشريف الشيخ عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، وقد سألت ابن عطاء الله عنه، فذكر لي أنه مثل سائر العلماء الغماريين ممن جمعوا بين الحديث والفقه والتصوف مع حب عظيم للعترة الطاهرة، وأن من كتبه في ذلك كتابه (أفضل مقول في مناقب أفضل رسول ﷺ)، ومن أقواله فيه قوله: (وانحراف ابن تيمية عن علي وأهل البيت معروف، وحتى حُكم عليه بالنفاق لأجل ذلك)[2]

وقال في كتابه (سمير الصالحين): (ويدلّ أيضاً على أن علياً رضي الله عنه كان ميمون النقيبة، سعيد الحظ، على نقيض ما قال ابن تيمية في منهاجه عنه أنه كان مشئوماً مخذولاً، وتلك كلمة فاجرة، تنبئ عما في قلب قائلها من حقد على وصيّ النبي ﷺ وأخيه كرم الله وجهه)[3]

وكان من بينهم الحافظ الشريف الشيخ محمد عبدالحي بن عبدالكبير الكتاني المغربي، وقد سألت ابن عطاء الله عنه، فذكر لي أنه كان من كبار المحذرين من ابن تيمية، ومن

---

[1] الجواب المفيد، أحمد الغماري، ص 11.

[2] أفضل مقول، عبدالله الغماري، ص 25.

[3] سمير الصالحين، عبدالله الغماري، ص77.

تصريحاته في ذلك قوله: (فإني أرى هـذه الضـلالات ومـا يتبعهـا من الشناعات التي كان أول مذيع لها وموضـح لظلامهـا الشـيخ أحـمد بن تيميـة رحمه الله تعالى وعفـا عنـه قـد كـادت الآن أن تشيع وفي كل بلاد أهل السنة تذيـع...)(1)

وقوله في كتابه الشهير (فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات): (ومن أبشع وأشنع ما نقـل عنـه رحمـه اللـه قولـه في حـديث يـنزل ربنـا في الثلث الأخـير من الليـل كنزولى هذا قال الرحالة ابن بطوطة في رحلته وشـاهدته نـزل درجـة من المنـبر الـذي كـان يخطب عليـه وقـال القاضـي أبـو عبداللــه المقــري الكبــير في رحلتــه نظم اللآلي في ســلوك الأمالي حين تعرض لشيخيه ابـني الإمـام التلمسـاني ورحلتهمـا ناظرا تقي الدين ابن تيمية وظهرا عليه وكـان ذلـك من أسـباب محنته، وكان له مقالات شـنيعة من إمـرار حـديث الـنزول على ظاهره وقوله فيه كنزولي هـذا، وقولـه فيمن سـافر لا ينـوي إلا زيارة القبر الكريم لا يقصـر لحـديث لا تشـد الرحـال اه، ونقلـه عنه حفيده أبو العباس المقري في أزهار الرياض وأقره مــع أن تآليفه المتداولة الآن بـالطبع ليس فيهـا إلا التوريـك في مسـألة إبقاء المتشابه على ظاهره مع التنزيه والتنديـد بـالمؤولين وهـو على الإجمال مصيب في ذلك، وأما مسألة الزيـارة فإنـه انتـدب للكلام معـه فيهـا جماعـة من الأئمـة الأعلام وفوقـوا إليـه فيهـا السـهام كالشـيخ تقي الـدين السـبكي والكمـال ابن الزملكـاني وناهيك بهمـا وتصـدى للـرّد على ابن السـبكي ابن عبـد الهـادي الحنبلي ولكنه ينقـل الجـرح ويغفـل عن التعـديل وسـلك سـبيل العنف والتشـديد وقـد ردّ عليـه وانتصـر للسـبكي جماعـة منهم الإمام عالم الحجـاز في القـرن الحـادي عشـر الشـمس محمـد علي بن علان الصــديقي المكي لــه (المــبرد المبكي في ردّ الصارم المنكي) ومن أهل عصرنا البــرهان إبـراهيم بن عثمـان السمنودي المصري سماه (نصرة الإمام السـبكي بـردّ الصـارم المنكي) وكـذا الحافـظ ابن حجـر لـه (الإنـارة بطـرق حـديث الزيــارة) وانظــر مبحثهــا من فتح البــاري والمــواهب اللدنيــة

(1) شواهد الحق، ، ص 14.

وشروحها...)[1]

وكان من بينهم الشيخ أحـمد زروق المـالكي، وقـد سـألت ابن عطاء الله عنه، فذكر لي قوله: (ابن تيمية رجـل مسـلم لـه باب الحفظ والإتقان، مطعون عليه في عقائـد الإيمـان، مثلـوب بنقص العقل فضلاً عن العرفان...)[2]

وكان من بينهم الشيخ محمد البرلسي الرشيدي المـالكي، وقد سألت ابن عطاء الله عنه، فذكر لي قوله: (وقد تجاسر ابن تيمية عامله الله بعدله وادعى أن السفر لزيارة النبي ﷺ محـرم بالإجماع، وأن الصلاة لا تقصـر فيـه لعصـيان المسـافر بـه، وأن سـائر الأحـاديث الـواردة في فضـل الزيـارة موضـوعة، وأطـال بذلك بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع، وقد عاد شؤم كلامـه عليه حـتى تجـاوز إلى الجنـاب الأقـدس المسـتحق لكـل كمـال أنفس وحــاول مــا ينــافي العظمــة والكمــال بادعائــه الجهــة والتجسيم، وأظهر هذا الأمر على المنابر، وشاع وذاع ذكـره في الأصاغر والأكـابر وخـالف الأئمـة في مسـائل كثـيرة، واسـتدرك على الخلفاء الراشدين باعتراضات سخيفة حقيرة، فسـقط من عين أعيان علماء الأمة، وصار مُثله بين العوام فضلاً عن الأئمة، وتعقب العلماء كلماته الفاسدة وزيفوا حججه الداحضة الكاسدة وأظهروا عوار سقطاته، وبينوا قبائح أوهامه وغلطاته، حتى قال في حقـه العـز بن جماعـة: إن هـو إلا عبـد أضـله اللـه وأغـواه، وألبسه رداء الخزى وأرداه...)(3)

الحنابلة:

أشار صاحبي الوهابي التـائب إلى رجـل آخـر كـان يبـدو ذا وقار وحزم وشدة، وقال: هذا الرجل الذي تراه هو قال القاضي شرف الدين عبدالغني بن يحيى الحـراني قـال الحنبلي.... وهـو ممثل الحنابلة في هذا المجلس.

1() فهرس الفهارس والأثبات، ج1 ص 227.

2() شواهد الحق، ص 453.

3() شواهد الحق، ص 15.

قلت: أهلا وسهلا ومرحبا.. وكيف لا أعرفه.. إنه قاضي الحنابلة المعاصر لابن تيمية.. لكني إلى الآن لا أعرف هل أنت كما وصفك ابن كثير بقوله: (إن القاضي شرف الدين كان قليل العلم، مزجي البضاعة)(1).. أو أنك كما وصفك الذهبي فقال: (القاضي الشيخ الإمام قاضي القضاة شرف الدين عبدالغني بن يحيى... من كبار الرؤوس... وكان متوسطاً في المذهب، محمود السيرة، كثير المكارم)(2)

قال الحنبلي: أنا عبد الله.. ويهمني وصف الله لي لا وصف الناس.. لكني أقول لك فقط: لا تأخذ مواقفك من الناس من كلام أعدائهم.. فعين العدواة لا تبدي إلا المساوئ.

قلت: وهل كان ابن كثير معاديا لك؟

قال: ابن كثير وضع مقياسا طبقه على جميع الأعلام الذين ترجم لهم.. لقد اعتبر كل من أحب ابن تيمية وتبعه عالما صالحا.. واعتبر من اختلف معه مزجي البضاعة في العلم منحرفا..

قلت: ومن أين له هذا المقياس الفاسد؟

قال: لقد قاسه على ما ورد في الحديث عن علي بن أبي طالب: (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي ﷺ، إلي أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق)(3)

قلت: بئس هذا القياس الذي قاسه.. أيقاس ابن تيمية بأمير المؤمنين ويعسوب الدين وباب مدينة العلم؟

قال: ليت الأمر وقف على ذلك.. الأمر أخطر بكثير.

قلت: ألهذا كنت من العلماء الذين واجهوا ابن تيمية، وكنت

1() البداية والنهاية، ابن كثير ، ص 2126،

2() ذيل تاريخ الإسلام، ص 92.

3() رواه مسلم رقم (78)، والترمذي رقم (3737)، والنسائي 8 / 117.

سببا مع غيرك من العلماء لدخوله السجن(4).

قال: أجل.. وأنا نادم على ذلك.

قلت: الحمد لله.. فما أبشع أن يكون الشخص سببا في سجن الناس.

قال: أنا لست نادما على ما كتبته وفعلته.. نادم على ما لم أكتبه وما لم أفعله.

قلت: وما ذاك؟

قال: لم أكن أعلم أن تلك الأفكار التي حبسناها في القمقم سينفخ فيها الشيطان في يوم من الأيام، وتملأ الدنيا بالصراع.. وإلا لو فطنا لذلك لاجتمعنا وكتبنا ردودا علمية مفصلة تحمي الأمة من آثار ذلك الفكر التخريبي الذي دمر حياة المسلمين.

قال ذلك، ثم قدم لي وثيقة فيها أسماء لبعض الأعلام الكبار، وبجانب كل اسم منها توقيع وختم.. وقد رأيت أن الحنابلة الذين رفعوا شكواهم على ابن تيمية أقل بكثير من إخوانهم من سائر المذاهب، فسألته عن ذلك، فقال: صدقت.. فأكثر الحنابلة للأسف.. وبسبب غلوهم في الإمام أحمد حتى (جعلوا محبته دليلاً على الإسلام وبغضه دليلًا على الكفر والزندقة) سرت إليهم الكثير من الضلالات والانحرافات التي أضرت بالأمة[2] كالتكفير، والظلم، والشتم، والكذب، والقسوة في المعاملة، والذم بالمحاسن، والأثر السيئ في الجرح والتعديل، والتجسيم الصريح، أو التأويل بالباطل، وإرهاب المتسائلين، وتفضيل الكفار على المسلمين، وتفضيل الفسقة والظلمة على الصالحين، والمغالطة، والانتصار بالأساطير والأحلام، وتجويز قتل الخصوم، والاسرائيليات، والتناقض،

4() الدرر الكامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، ج1 ص 147.

2() انظر تفاصيل هذه الصفات في كتاب (قراءة في كتب العقائد - المذهب الحنبلي نموذجاً) للشيخ حسن بن فرحان المالكي.

والتقوّل على الخصوم، وزرع الكراهية الشديدة مع عدم معرفة حق المسلم، والأثر السيء على العلاقات الاجتماعية، واستثارة العامة والغوغاء، والتزهيد من العودة للقرآن الكريم مع المبالغة في نشر أقوال العلماء الشاذة.. مع انتشار عقائد ردود الأفعال كالنصب وذم العقل، والتركيز على الجزئيات وترك الأصول، وإطلاق دعاوى الاجماع، واطلاق دعاوى الاتفاق مع الكتاب والسنة والصحابة، وتعميم معتقد البعض أو بعض الأفراد على جميع المسلمين، مع إرجاع أصول المخالفين كل فرقة أصول الفرقة الأخرى لأصول غير مسلمة يهودية أو نصرانية أو مجوسية.

وكل هذه الانحرافات سرت لابن تيمية.. أو تضخمت عنده.. ولذلك لا أمانع مع كوني حنبلي المذهب أن أعتبر حنبلية ابن تيمية – بالإضافة الى نفسه المحبة للصراع – سببا فيما نجتمع هنا لأجله.

قلت: ولكن مع ذلك أسمع عن بعض الحنابلة من الصوفية والمتكلمين وغيرهم؟

قال: أجل.. ذلك صحيح.. وكل من ترى تواقيعهم هنا منهم.. فالحنبلي الذي يتخلص من رعونة نفسه بالتصوف.. ويتخلص من بلادة عقله وتعصبه بالنظر الكلامي العقلي.. يصبح إنسانا سويا بريئا من ذلك الغلو الذي وقع فيه الكثير من أصحابنا[1].

رحت أنظر في الأسماء، وقد تعجبت إذ وجدت من بينها اسم الذهبي، فقلت له: ما بالك يا رجل.. أراك أخطأت في هذا الاسم.. فالذهبي من أصدقاء ابن تيمية المقربين.. وقد سمعت البارحة أحاديث له في فضله..

قال الحنبلي: صدقت في ذلك.. فلا مانع أن يثنى المرء على شخص معين في بادىء الأمر اعتمادا على حسن الظن به، ثم بعدما يتبين له حاله يقدحه ويذمه، وهذا أمر مشاهد ومعروف، ومن قال غير ذلك، فليراجع كتب التواريخ والطبقات.

1() سنرى في الرسالة الكثير من الأمثلة عن غلو الحنابلة وأثره في ابن تيمية.

لقد كان في جملة المثنين عليه التاج الفزاري المعروف بالفركاح وابنه البرهان والجلال القزويني والكمال الزملكاني ومحمَّد بن الحريري الأنصاري والعلاء القونوي وغيرهم، لكن ثناء هؤلاء انقلب بعد ذلك.. وتخلى عنه هؤلاء جميعهم.

قلت: أجل.. لقد طالعت أمثال ذلك.. ولكن ليس مع الذهبي.. إنه شخص مختلف تماما.. وثناؤه على ابن تيمية يدل على كونه صادقا في ذلك.

قال الحنبلي: صدقت.. ومن قال لك غير ذلك.. لكن لم يقبل التيميون الثناء، ويعرضون عن الهجاء.. أليس الذي صدق في الثناء يصدق في الهجاء.. لقد ذكر الذهبي نفسه ذلك في رسالته (بيان زغل العلم والطلب).. فقد ورد فيها قوله: (فوالله ما رمقت عيني أوسع علمًا ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له ابن تيمية مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة، فما وجدت أَخَّرَهُ بين أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفَّروه إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار، فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور، نسأل الله المسامحة، فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم منه ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، وما سلَّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقّون، فلا تكن في ريب من ذلك)

وقال في موضع آخر من رسالته: (فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومحارات العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسُّنّة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقاربها، وقد رأيتَ ما آل أمره إليه من الحطّ عليه والهجر والتضليل والتكفير والتكذيب بحقّ وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منوَّرًا مضيئًا على مُحَيَّاه

سِيْمَا السلف، ثم صار مظلما مكسوفا عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجّالاً أفّاكًا كافرًا عند أعدائه، ومبتدعًا فاضلاً محقّقًا بارعًا عند طوائف من عقلاء الفضلاء)

قلت: شوقتني إلى هذه الرسالة، فهلا قرأت لي بعض ما فيها.

قال الحنبلي: أجل.. فما اجتمعنا هنا إلا لأجل ذلك حتى نتفق على التهم التي نقدمها للقاضي لمحاكمة ابن تيمية.

فمما جاء في هذه الرسالة[1] قوله – وهو يخاطب ابن تيمية -: (إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك!.. إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس مع علمك بنهي الرسول ﷺ: (لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) بلى أعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك: (إنما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شموا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمد ﷺ وهو جهاد).. بلى والله عرفوا خيرا كثيرا مما إذا عمل به العبد فقد فاز وجهلوا شيئا كثيرا مما لا يعنيهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.. يا رجل بالله عليك كف عنا فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام. إياكم والغلوطات في الدين كره نبيك ﷺ المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وقال: (إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)، وكثرة الكلام بغير زلل تقسي القلوب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات التي تعمى القلوب.. يا خيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال، لا سيما إذا كان قليل العلم والدين.. فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل أو عامي كذاب بليد الذهن أو غريب واجم قوي المكر أو

[1] انظر نص الرسالة كاملا في (السيف الصقيل رد ابن زفيل) السبكي - هامش ص 211- 219 - مكتبة زهران - ومعه تكملة الرد على نونية ابن القيم بقلم: محمد زاهد بن الحسن الكوثري - تقديم: لجنة من علماء الأزهر.. ونحن لا نعتمد عليها في المحاكمة، لأن الشخص يحاكم على أفعاله وأقواله لا على مواقف الناس منه.. ولهذا فقد ذكرناها باعتبارها وثيقة قد تكون صحيحة وقد لا تكون صحيحة.. لأن الكثير من المغرمين بابن تيمية يتركون القضية الأساسية ويجادلون في التفاصيل.. ولهذا فإن أحسن جواب لمن كذب هذه الرسالة أن نسلم له ولا نجادله..

ناشف صالح عديم الفهم، فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك.. إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار.. إلى كم تصادقها وتزدري الأبرار.. إلى كم تعظمها وتصغر العباد. إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد.. إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح - والله - بها أحاديث الصحيحين.. يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والاهدار أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوى؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل.. بلى - والله - ما أذكر أنك تذكر الموت بل تزدري بمن يذكر الموت فما أظنك تقبل على قولي ولا تصغي إلى وعظي بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات وتقطع لي أذناب الكلام ولا تزال تنتصر حتى أقول: وألبتة سكت.. فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد فكيف حالك عند أعدائك.. وأعداؤك - والله - فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر.. قد رضيت منك بأن تسبني علانية وتنتفع بمقالتي سرا (فرحم الله امرؤا أهدى إلي عيوبي) فإني كثير العيوب غزير الذنوب)

الإمامية:

أشار صاحبي الوهابي التائب إلى رجل آخر كان يرتدي عمامة سوداء مثل العمائم التي يرتديها علماء الشيعة، وقال: هذا الرجل الذي تراه هو آية الله السيد علي الحسيني الميلاني.. وهو ممثل الشيعة الإمامية في هذا المجلس.

توجهت إليه ببرودة قائلا: مرحبا بك.. ولكن ما الذي وضعك بين علماء أهل السنة؟

قال: أولست من علماء أهل السنة؟

قلت: أنت من الشيعة الرافضة.. وشتان ما بينكم وبين أهل السنة.

قال: في أي شيء ترى الفوارق بيننا؟

قلت: في أمور كثيرة لا تعد ولا تحصى.. بل كأن بيننا وبينكم جبالا من نار.. أو كأن لكم دينكم ولنا ديننا.

ابتسم الميلاني، ثم قال: هذا كله من تأثيرات ابن تيمية فيكم.. وإلا فإن المسافة بيننا وبينكم لا تبلغ كل هذا الحد، بل لا تبلغ دونه بكثير.. أجبني على أسئلتي، وربما ستقتنع بما أقول.

قلت: لا بأس.. ولو أني أعلم قدرتكم على قلب الحقائق.

ضحك الميلاني ملء فيه، ثم قال: لا تخف.. لن أقلب الحقائق.. سأتكلم مع عقلك وفطرتك.. أخبرني عن الوظيفة التي كلف رسول الله ﷺ بها؟

قلت: لقد أرسل رسول الله ﷺ كما أرسل سائر الرسل لتعريفنا بربنا وبمصيرنا وبوظيفتنا في هذه الحياة.. ويعرفنا بحقائق الوجود كما هي عليه.

قال: فنحن نتفق معكم في كل ذلك.. بل نتفق مع من تراهم معي أكثر من اتفاقهم مع من يسمون أنفسهم الفرقة الناجية أو يحتكرون لقب أهل السنة لأنفسهم دون غيرهم من الناس.

قلت: تقصد التيميين والوهابيين والسلفيين.

قال: أجل.. فالمسافة التي بيننا وبين أصحاب المذاهب الأربعة في هذه المسائل أقرب من المسافة التي بينهم وبين التيميين والسلفيين.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأننا وإياهم نتفق على تنزيه ربنا عن الجسمية ومتطلباتها المختلفة.. والسلفيون والتيميون يجسمون ويشبهون، ويجعلون ربهم جرما من الأجرام السماوية العليا لا يختلف عنها إلا في كيفيته التي لم يروها بعد.. أليس هذا كافيا للتفريق؟

قلت: بلى.. وأنا أعلم أن الخلاف بين الطائفتين الكبيرتين

في المسيحية من الكاثوليك والأرثوذكس قائم على أساس الخلاف بينهما في طبيعة المسيح وعلاقتها بالله.

قال: ليس ذلك فقط هو محل الاتفاق بيننا.. نحن نتفق مع أصحاب المذاهب الأربعة في تعظيم رسول الله ﷺ وعترته الطاهرة واعتبارهم وسيلة إلى الله، وتعظيم كل ما يرتبط بهم والتبرك بهم.. بينما السلفيون والتيميون يعتبرون ذلك معصية.. بل يعتبرونه شركا.

قلت: صدقت في هذا.. ولكن المشكلة أننا نختلف معكم في الصحابة؟

قال: هل يمكنك أن تقرأ لي الآية التي تنص على وظائف رسول الله ﷺ؟

قلت: بلى.. لقد نص القرآن الكريم على وظائف رسول الله ﷺ في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]

قال: فما الوظائف التي كلف بها الرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة؟

قلت: هي تلاوة القرآن الكريم والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة.

قال: فأين الصحابة فيها؟

قلت: الصحابة هم الواسطة التي تصلنا بها الآيات والحكمة فإذا قطعناها فلن يصلنا شيء؟

قال: أنت ترى أن الدين جميعا قد وصلنا بأصوله وفروعه.. فالقرآن الذي نقرؤه هو نفسه قرآنكم.. وصلاتنا هي صلاتكم.. وجميع شعائرنا التعبدية لا تختلف عن شعائركم.. بل إن أكثر الأحاديث التي لديكم توجد لدينا.. لا نختلف إلا في أن راويها

عندنا هم آل بيت النبي ﷺ.. وروايها عندكم هو أبو هريرة أو ابن عمر.. فهل ترى أن المطلوب في الحديث نصه أم سنده؟

قلت: لاشك أن المطلوب هو نصه..

قال: فنحن نتفق في أكثر النصوص.. ولا نختلف إلا في أسانيدها.. أتستحق الأسانيد كل هذا الخلاف؟ أم أنك تعتبر أن الأسانيد الواردة عن الصحابة أعظم حرمة من الأسانيد الواردة عن أهل البيت؟

قلت: صدقت في هذا.. وقد قرأت الكثير من كتب الرواية عندكم، فوجدتها ممتلئة بالأحاديث التي في كتبنا.. وقد تعجبت لذلك عجبا شديدا.

قال: لا تتعجب يا بني.. فكل ما ينشره الطائفيون المثيرون للفتن في الأمة ليسوا سوى تلاميذ لمدرسة ابن تيمية وسلفه.. وإلا فإننا نحترم الصحابة مثلما تحترمونهم.. والخلاف بيننا لا يعدو المصاديق.. فنحن نعظم بلالا وعمارا والمقداد وأبا ذر وغيرهم من الذين وقفوا في وجه الفئة الباغية، وأنتم تعظمون آخرين.. والله يحكم بيننا يوم القيامة فيما نختلف فيه.

قلت: فهل كتبت كتبا في ابن تيمية؟

قال: أجل.. ولهذا تراني هنا بينكم.. لقد تتبعت ما كتبه ابن تيمية حول العترة الطاهرة، وفندته من خلال المصادر المعتمدة عند أهل الحديث، وذلك في كتابي (ابن تيمية وإمامة علي بن أبي طالب عليه السلام)

قال ذلك، ثم قدم لي وثيقة بأسماء علماء الإمامية الذين ردوا على ابن تيمية، وقد وجدت من بينهم الكثير من الأعلام الكبار..

الزيدية:

أشار صاحبي الوهابي التائب إلى رجل آخر كان يرتدي ثيابا يمانية، وقال: هذا الرجل الذي تراه هو السيد الحسن بن

إسحق بن المهدي الزيدي الصنعاني[1]، وهو ممثل الزيديــة في هذا المجلس.

قلت: أهلا وسهلا ومرحبا.. لقد سمعنا الناس يـذكرون أنكم أقرب الفرق إلى السنة.

ابتسم، وقال: أتريد أن أكرر لك مـا قـال السـيد الميلاني.. السنة حق الأمة جميعا.. ولا يحق لأحد من الناس أن يقـرب من يشاء أو يبعد من يشاء..

قلت: صدقت.. لقد أغرقتنـا الطائفيـة، فصـرنا لا نمـيز بين الحق والباطل..

قال: لا عليك.. سيأتي اليوم الذي تطفأ فيه نارها.

قلت: إن نارهـــا لن تنطفئ حـــتى تـــأتي على الأخضـــر واليابس.

قال: هذه سنة الله.. اللـه تعـالى وضـع لعبـاده أنـواع البلاء ليختبر نفوسهم.. فمن كان صادقا هدي إلى الحق، وإلى طريــق مستقيم.. ومن كان غير ذلك، لن ينال غير ذلك.

قلت: أأنتم معشر الزيدية أيضا تختلفون مع ابن تيمية؟

قال: وهل هناك من العقلاء من لا يختلف معه.. إننا نختلف معه في كل مـا يختلفـون فيـه إخواننـا من أصـحاب المـذاهب.. نختلف معه في تجسـيمه للـه، فنحن بحمـد اللـه من المنزهـة.. ونختلف معـه في نصـبه وعداوتـه لآل بيت النبـوة، فنحن بحمـد الله من الموالين لهم.. ونختلف معهم في الصراع الـذي نشـره في الأمة، فنحن دعاة وحدة وسلام.

قلت: فهل كتبتم في الرد عليه؟

قال: كل كتبنا ترد عليه.. كتبنا التي ترد على التجسيم تــرد

1() الحسن بن إسـحاق [١٠٩٣ ١١٦٠ ه]: عـالم كبـير، ومحقـق شـهير وشـاعر أديب، بليغ، مولده بالغراس ونشأ في حجر أبيه وعنه أخـذ وعن أخيـه، ومشـاهير علمـاء عصـره حتى فاق الأقران وبلغ الغاية في العلم وفي الإجتهاد. (انظر: أعلام المـؤلفين الزيديـة: ج ١/308).

عليه.. وكتبنا التي تنتصر لآل بيت النبوة ترد عليه.. وهكذا يمكنك الرجوع لأي كتاب ألفه أعلامنا ستجد الردود القوية الواضحة عليه سمته أو لم تسمه.

قلت: أظن أنهم اختاروك ممثلا للزيدية لأن لك ردودا خاصة على ابن تيمية.

قال: أجل.. أنا مثل إخواني ضقت ذرعا بجرائم ابن تيمية في حق الأمة، ولهذا كتبت رسالة في الرد عليه..

قلت: على أي موضوع قصرتها؟

قال: رددت فيها على منهج ابن تيمية العام، لكني تحدثت فيها بتفصيل حول مخاريقه وأكاذيبه في كتابه (منهاج السنة)[1]

الإباضية:

أشار صاحبي الوهابي التائب إلى رجل آخر كنت أتابع محاضراته أحيانا على بعض القنوات الفضائية، وقال: هذا الرجل الذي تراه هو..

قاطعته قائلا: أنا أعرفه إنه الخليلي.. وهو ممثل الإباضية في هذا المجلس.. وقد تعجبت لدخوله مع علماء المذاهب الأربعة مع كونه إباضيا.

ابتسم الخليلي، وقال: لن أكرر لك ما ذكره أخي وصديقي الميلاني، فكل ما تراه من تفريق للأمة واحتكار للسنة هو من آثار الطائفية التي نشرها ابن تيمية.. وإلا فإن المسافة بيننا وبين أصحاب المذاهب الأربعة في القضايا الكبرى للدين أقرب من المسافة التي بيننا وبين ابن تيمية وأتباعه.. ولهذا تراه يضعنا جميعا في سلة واحدة.

قلت: أجل.. وأنا أكبر فيك وفي أصحابك حرصكم على الوحدة الإسلامية وعلى السلام الذي جاء به الدين.. ولكني

1() الرسالة مطبوعة ضمن مجموع يحوي عدة رسائل زيدية في الإمامة، تقع الرسالة في الصفحات بين (157) و(191) من المجموع.

أتعجب أن يكون لكم موقف سلبي من ابن تيمية وأنتم الذين يغلب عليكم السلام والسماحة.

قال: السلام والسماحة هي التي دعتنا لمواجهة هؤلاء الذين جعلوا من الدين الإلهي وسيلة للعنف والفتنة التفرقة والطائفية.

قلت: فهل كتبت وأصحابك ردودا على ابن تيمية؟

قال: كل كتبنا ترد عليه سواء باسمه أو بغير اسمه.. فنحن نعتبر عقائد ابن تيمية في الله عقائد ضلالة، لأن الله أعظم من أن يحصر في حد أو يجري عليه ما يجري على الأجسام.. وقد قلت في بعض كتبي: (ومن بين أئمة الحشوية الذين ضللهم أتباع المذاهب الأربعة، وهم -كما قلت- يلزون أنفسهم بهذه المذاهب الأربعة، ويلصقونها بهم، من بينهم مجدد النحلة الحشوية ابن تيمية الحراني فقد ضلله العدد الكثير من أئمة المذاهب الأربعة.. من بين هؤلاء العلامة ابن حجر الهيثمي، فقد قال في كتابه (الفتاوى الحديثية): (وإياك أن تصغي إلى ما في كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهما ممن اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟! وكيف تجاوز هؤلاء الملحدون الحدود وتعدوا الرسوم، وخرقوا أسياج الشريعة والحقيقة، فظنوا بذلك أنهم على هدى من ربهم، وليسوا كذلك)

وقلت: (ومن بين هؤلاء الذين ردوا هذه الروايات شيخا الحشوية اللذان جددا نحلتها ابن تيمية وابن القيم..)

وقلت: (ولكن ابن تيمية يرفض ذلك لأجل موافقته لمذهب أرسطو، ويحاول أن يلوي الأدلة، ويرد بعضها بكونها غير متواترة، ويؤول بعضها بما يتفق مع هواه في هذه القضية..)

قال ذلك، ثم قدم لي وثيقة عن أعلام الإباضية الذين وقفوا معه هذا الموقف.. فوجدتهم جميعا على ذلك.

تحديد التهم

بعد أن تعرفت على أعلام الأمة الـذين تشـرفت بزيـارتهم، سـألتهم عن سـر اجتمـاعهم في بيـتي، وعـدم ذهـابهم إلى المحكمة مباشرة، فقال الكوثري: لقد أردنا من حضورنا هنـا أن نسد الخلل الذي وقعنا فيه في المحاكمات السابقة.

قلت: أي خلل.. أرى أن المحاكمات السابقة كـانت ناجحـة بدليل أنه زج بابن تيمية في السجن بسببها.

قـال: ومـا يفيـدنا أن يسـجن جسـده.. بينمـا تظـل أفكـاره تشوه الدين وتحطم بنيان الأمة كما ترى.

قلت: فأنتم تريدون محاكمة أفكاره إذن؟

قال: أجل.. وددنا محاكمته هو أيضـا.. لكن المشـكلة أننـا عندما ذهبنا للقاضي، وطلبنا منه إحضاره أخبرنا أنـه في حمايـة أبي بكـر البغـدادي وأسـامة بن لادن وأيمن الظـواهري.. وأنـه أرسل الرسل والكتب لهؤلاء ليسلموه لمحاكمته، فرفضـوا، بـل أعلنوا الحرب على من يتجرأ على ذلك.

قلت: وما علاقة ابن تيمية بأسامة وأيمن والبغدادي؟

قــال: إنــه ركن أصــيل في دولتهم.. إنــه يعمــل وزيــرا لأوقافهم، ومفتيا لـديارهم، وأحيانـا يسـتدعونه كسـياف لضـرب بعض الرقاب التي يتورعون عن ضربها.

قلت: ولكن ما علاقتي أنا بكل هذا.. هل تريـدون أن أذهب إلى أسـامة أو البغـدادي أو أيمن للتوسـل إليهم ليعطـوني ابن تيمية لأسلمه لكم.

قال الميلاني: لا.. هل تريد منا أن نضحي بك، وتنتشر صور ذبحك في القنوات.. أنت تعلم أن هؤلاء لا يسمعون إلا للأصــنام التي صاروا يعبدونها من دون الله.

قـال ابن عطـاء اللـه: اسـمع يـا بـني.. جئنـا إلى بيتـك، واخترناك لحضور المحاكمة لسببين.

قلت: فما السبب الأول منها؟

قال الخليلي: السبب الأول هو قلمك.. فقد علمنا أن لديك قلما يصور كل شيء بدقة عالية.. وبأمانة وورع..

قلت: سأعطيكم قلمي.. لا بأس.

قال: لا.. قيمة القلم في اليد التي يكتب بها.. كما أن قيمة السيف في اليد التي تضرب به.

قلت: لقد ذكرت ورع قلمي.. ولهذا اعذروني.. فإني لا يمكنني أن أترك لقلمي الفرصة ليأكل من لحوم العلماء المسمومة.. أنتم تعلمون خطورة ذلك.

قال: أيهما أولى بالورع.. هل الورع عن الكلام في شخص قد نشر كل ما عنده من أحقاد.. ولم يترك أحدا إلا ومسه بلسانه، بل بسيفه؟.. أم الورع عن ترك الأمة المسلمة وهي في غفلة من أمرها يوجهها تلاميذ هذا الذي يعتبرونه شيخا للإسلام، بل ناطقا وحيدا باسم الإسلام؟

قلت: ولكن يمكننا استبدال النقض بالبناء.. فبدل أن نهدم ما بناه الآخرون نبني نحن بناء جديدا.

قال: ذلك لك أيضا.. يمكنك أن تفعله متى شئت.. ولكن لا يمكن أن تبني وغيرك يهدم.. ولا يمكن أن يعرف الناس الدين الصحيح، وهم يرون كل الأبواق تنادي بالدين المشوه.

قلت: أراكم أقنعتموني بهذا.. فما السبب الثاني؟

قال الميلاني: السبب الثاني هو ما ذكرته الآن..

قلت: تقصدون قناعتي.

قال: أجل.. فهناك من الناس من لو أتيته ببحار من الأدلة لما ذل لها، ولا قبلها.. ولا سلم لها.

قلت: فهل تعتبرون استسلامي للدليل مكرمة..

قال: بل أعظم مكرمة.. ولهذا جئناك لتحضر معنا، ولك أن تسأل ما تشاء.. وتدافع عن ابن تيمية كما تشاء.

قلت: أنتم تريــدون مــني إذن أن أكــون محاميــا على ابن تيمية؟

قال: أجل..

قلت: ولكن ذلــك لا يســتقيم.. فلــو اســتدعيتم الخميس أو العثيمين أو العريفي أو القرني أو العرعور لكانوا أولى منهم.

قال: لم نستدعهم لسببين.. الأول منهما أنهما يعتقدون أن ابن تيمية هو شيخ الإسلام الأكــبر.. وقاضــيه الأعظم.. وأن لديــه حصانة إلهية تحميه من كل المحاكمات..

والثــاني هــو أن هــؤلاء الــذين ذكــرتهم كلهم يعملــون لــدى أسامة وأيمن والبغدادي.. بل يتولــون مناصــب رفيعــة في دولــة الخلافة التي أقامها ابن تيمية وتلاميذه.

قلت: لكني لست تيميا حتى أحامي عنه.

قال: ولكنك قرأت كتبه جميعا.

قلت: ذلك صحيح..

قال: وذلك يكفي.. فإن رأيت أننا تقولنا عليه قولا لم يقله، فلك الحق أن ترد علينا، وألا تكتبــه.. وقــد أحضــرنا لــك برنامجــا يحوي جميع كتبــه بأرقــام صــفحاتها.. فكــل نص نــذكره من كلام ابن تيمية يمكنك التأكد منه.

قلت: لا حاجة لي ببرنامجكم.. فقد يكون قد دس فيه على ابن تيمية ما لم يقله.. لدي برنامج فيــه جميــع كتب ابن تيميــة.. وهو من إصدار أتباعه المحبين له..

قال الكوثري: أظن أننا اتفقنا.. فهلم بنا إلى المحكمة..

قلت: لا.. قبل أن أسير معكم لابد أن تحددوا لي أولا التهم الــتي تريــدون أن تحــاكموا على أساســها ابن تيميــة.. فلعلكم

تريدون أن تتهموه بما لم يقله.

قال الهندي: لقد اجتمعنا مع جميع الفقهاء والمحدثين والمفسرين وغيرهم من جميع أتباع المذاهب الإسلامية، وقد رأينا أنه يمكن حصر التهم في ثلاثة.

قلت: وما هي؟

قال: التجسيم والتشبيه.. والنصب والعداوة.. والصراع والفتنة..

قلت: هل اجتمعتم جميعا من أجل هذه التهم الثلاثة فقط؟

قال: وهل تركت هذه التهم فتنة إلا أشعلتها، ولا تشويها في الدين إلا أحدثته.

قلت: لم أفهم ما تعني.

قال: هذه التهم ترتبط بكل ما يرتبط بالدين من جميع جوانبه.. أما الأولى، فتتعلق بتشويه ابن تيمية للعقائد في الله التي هي أصل أصول الدين.. وأما الثانية فتتعلق بتشويهه للرسالة والرسل ومن يتعلق بهم من أولياء الله وأصفيائه.. وأما الثالثة، فتتعلق بصراعه مع الأمة ونشره للفتن بينها.. والتي لا تزالون تعيشون آثارها إلى اليوم.

تهمة التجسيم والتشبيه:

قلت: وعيت هذا.. فما تريدون بالتهمة الأولى.. تهمة التجسيم والتشبيه؟

قال الهندي: لقد اتفق كل من انتقد ابن تيمية من العلماء المعاصرين له أو غيرهم على رميه بهذه التهمة..

قلت: لكني لم أفهم معنى هذه التهمة بعد.. بل قد سمعت من الكثير من جيراننا وإمام مسجدنا دفاعه عن ابن تيمية في هذا.. وأنه ليس مجسما ولا مشبها.

قال: ستسمع الأدلة بتفاصيلها في المحكمة..

قلت: فأخبروا عقلي الصغير الآن عن المراد بالتجسيم والتشبيه.

قال الحنبلي: سأذكر لك نصا لبعض أصحابنا من الحنابلة يوضح لك المراد من هذه التهمة.. لقد قال ابن الجوزي..

قاطعته قائلا: مهلا.. فابن الجوزي كان قبل ابن تيمية.

قال: أنت الآن طلبت الحديث عن معنى التجسيم.

قلت: أجل..

قال: فقد شرحه ابن الجوزي عند حديثه عن مجسمة الحنابلة، فقال: (ورأيت من أصحابنا من تكلّم في الأُصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة: أبو عبد الله بن حامد، وصاحبه القاضي، وابن الزاغوني، فصنّفوا كتباً شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحسّ، فسمعوا أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته، فاثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين، وفماً، ولهوات، وأضراساً، وأضواء لوجهه هي السبحات، ويدين، وأصابع، وكفّاً، وخنصراً، وإبهاماً، وصدراً، وفخذاً، وساقين، ورجلين، وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس.. وقالوا: يجوز أن يَمس ويُمس، ويدني العبد من ذاته، وقال بعضهم: ويتنفّس، ثمّ يرضون العوام بقولهم: لا كما يعقل! وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسمّوها بالصفات تسمية مبتدعة لا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل)

قلت: فهمت ذلك.. ولكن ابن الجوزي ذكر أن هذا قوله أبي عبد الله بن حامد، وصاحبه القاضي، وابن الزاغوني.. ولا يوجد في هذه الأسماء ابن تيمية.

قال: سترى في المحكمة بالأدلة القطعية أن ابن تيمية أحد هؤلاء، بل سيدهم الذي حفظ أقوالهم، ودعا لها، وبدع من خالفها.

تهمة النصب والعداوة:

قلت: فما تريدون بالتهمة الثانية.. تهمة النصب والعداوة.

قال الميلاني: لقد اتفق كل من انتقد ابن تيمية من العلماء المعاصرين له أو غيرهم على رميه بهذه التهمة.. وهي عداوته للطاهرين ابتداء من رسول الله ﷺ وعترته الطاهرة إلى عداوته لكل الأمة.

قلت: دعنا منك يا سيد.. فأنتم الشيعة تتسرعون في رمي الناس بالنصب.

قال ابن عطاء الله: اتق الله يا بني.. فالسيد الميلاني محقق كبير.. وهو لا يقول الكلمة إلا بعد أن يقتلها بحثا.. وإن لم يرقك ما يقول، فسأذكر لك كلام بعض أصحابنا من المالكية من الذين جمعوا بين الحديث والفقه والتصوف، وهو الإمام الحافظ الشيخ أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني.

قلت: أعرفه إنه من أكابر علماء المغرب، بل العالم الإسلامي، وقد كان شديداً على ابن تيمية في مصنفاته الكثيرة..

قال: ومن التهم التي اهتم بها ورد عليها تهمة النصب والعداوة، وقد قال في في كتابه (البرهان الجلي): (بل بلغت العداوة من ابن تيمية إلى درجة المكابرة وانكار المحسوس فصرّح بكل جرأة ووقاحة ولؤم ونذالة ونفاق وجهالة انه لم يصح في فضل علي عليه السلام حديث أصلاً، وأن ما ورد منها في الصحيحين لا يثبت له فضلاً ولا مزية على غيره... بل أضاف ابن تيمية إلى ذلك من قبيح القول في علي وآل بيته الأطهار، وما دل على أنه رأس المنافقين في عصره لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح المخرج في صحيح مسلم مخاطبا لعلي عليه السلام (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) كما ألزم ابن تيمية بذلك أهل عصره وحكموا بنفاقه.. وكيف لا يلزم بالنفاق مع نطقه قبحه الله بما لا ينطق به مؤمن في حق فاطمة سيدة نساء العالمين صلى الله عليها وسلم وحق زوجها أخي رسول الله ﷺ وسيد المؤمنين)

قال الهندي: وهكذا كل أصحابنا من الشافعية متفقون على رمي ابن تيمية بهذه التهمة، وقد قال الشيخ محمود السيد صبيح المصري في كتابه الضخم (أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وأهل بيته): (وقد تتبعت كثيراً من أقوال مبتدعة هذا العصر فوجدت أكثر استدلالهم بابن تيمية، فتتبعت بحول الله وقوته كلام ابن تيمية فيما يقرب من أربعين ألف صفحة أو يزيد فوجدته قد أخطأ أخطاء شنيعة في حق رسول الله ﷺوأهل بيته وصحابته، وأنت خبير أن جناب رسول الله ﷺوأهل بيته أهم عندنا أجمعين من جناب ابن تيمية..)(1)

وقال: (... ودرج المسلمون على تعظيم قرابة ونسب رسول الله ﷺ حتى خرج ابن تيمية في القرن الثامن الهجري وكأن بينه وبين النبي ﷺ وأهل بيته ثأراً، فما وجد من خصيصة من خصائصهم إلا نفاها أو قللها أو صرف معناها، فضلاً عن سوء أدبه في التعبير والكلام عليهم، وما وجد من أمر قد يختلط على العامة إلا وتكلم وزاده تخليطاً، وفي سبيل ذلك نفى ابن تيمية كثيراً جداً من خصائص النبي ﷺ وفضله وفضائل أهل بيته)[1]

قلت: ولكن هذه الأقوال لا تكفي لرمي ابن تيمية بهذه التهمة الخطيرة.

قال: نحن لم نذكر لك هذه الأقوال كأدلة، وإنما ذكرناها لبيان التهمة.. أما الأدلة فستسمعها مفصلة في المحاكمة.

تهمة الصراع والفتنة:

قلت: وعيت هذا.. فما تريدون بالتهمة الثالثة؟

قال الميلاني: ألسنا نروي جميعا في الحديث قوله ﷺ في خطبة حجة الوداع:(يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على

---

(1) (1) أخطاء ابن تيمية، الدكتور محمود السيد صبيح، ص 6، ط الأولى، 1423هـ.

1() أخطاء ابن تيمية، ص 69.

عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات:13)[1]

قلت: أجل.. ونروي معه قوله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون)[2].. وقوله ﷺ:(أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين أو تقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا) [3]

قال الميلاني: بورك فيك.. ولكن ابن تيمية يقول غير ذلك.. لقد كتب في كتابه الذي سماه (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، وهو من أهم كتبه التي أراد أن يوضح فيها معنى الصراط المستقيم الذي نقرؤه كل يوم في سورة الفاتحة عند قوله تعالى:اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة: 6]..

قاطعته قائلا: أجل.. أعرف هذا الكتاب جيدا.. وللتيميين المتيمين بابن تيمية اهتمام بالغ به.. فهم يكادون يعتبرونه قرآنهم أو إنجيلهم.. خاصة ما ذكر فيه من كيفية التعامل مع أهل الكتاب، وضرورة مخالفتهم في الصغيرة والكبيرة.

قال: وذلك من الفتنة.. ولكني لا أقصده.. أقصد فتنة أخرى لا تقل خطرا.. لقد عقد ابن تيمية في هذ الكتاب فصلا خاصا.. بل بابا خاصا بعنوان (باب تفضيل جنس العجم على العرب نفاق)، قال فيه: (إن الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم: عبرانيهم

1() رواه البيهقي والطبراني.

2() قال المنذري: رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعا وموقوفا وقال المحفوظ الموقوف، الترغيب والترهيب: 3/375.

3() رواه أحمد.

وسريانيهم، رومهم وفرسهم وغيرهم..)[1]

قلت: لعله يقصد فضل العرب لكون رسول الله ﷺ منهم.. فهو شرف عرضي لا ذاتي.

قال: لا.. لقد ذكر ابن تيمية أن شرفهم ذاتي، وليس عارضا.. فالعرب – كما نص على ذلك في كتابه - أفضل الأجناس بما وهبهم الله من طاقات لم توهب لغيرهم.. لقد عبر عن هذا، فقال: (وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم أنفسهم أفضل. وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور)(2)

قلت: لعله رأي رآه.. ولا حرج عليه في أن يرى ما يشاء، أو يفضل ما يشاء.

قال: أجل.. له أن يرى ما يشاء ويفضل ما يشاء.. لكن ليس له أن يربطه بالدين أو يخالف به ما نص عليه الذكر الحكيم.

قلت: وهل فعل ذلك؟

قال: أجل.. لقد اعتبر أن من خالف قوله ذلك مبتدعا، لقد قال في ذلك: (فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق) (3)

بل إنه استدل على هذا بحديث يعلم ضعه الشديد، يقول في ذلك: (ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ: (حب العرب إيمان، وبغضهم نفاق

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 419)

2() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 420)

3() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 420)

وكفر)[1])، ثم علق عليه بقوله: (وهذا الإسناد وحده فيـه نظـر، لكن لعله روي من وجه آخر، وإنما كتبته لموافقته معنى حـديث سلمان، فإنه قد صرح في حديث سلمان: بأن بغضهم نوع كفر، ومقتضى ذلك: أن حبهم نوع إيمان، فكان هذا موافقا له)[2]

ولم يكتف بهذا، بل راح يزج بالدين في الصراع الـذي كـان قائما بين الشعوب الإسلامية المختلفة، بدل أن يذكرهم بالآيـات والأحاديث التي تدل على أن الكرامـة عنـد اللـه للتقـوى وليس للنسـب، يقـول في ذلـك: (وذهبت فرقـة من النـاس إلى أن لا فضـــل لجنس العـــرب على جنس العجم. وهـــؤلاء يســـمون الشعوبية لانتصـارهم للشـعوب الـتي هي مغـايرة للقبائـل، كمـا قيل: (القبائـل للعـرب والشـعوب للعجم)، ومن النـاس من قـد يفضـل بعض أنـواع العجم على العـرب. والغـالب أن مثـل هـذا الكلام لا يصـدر إلا عن نـوع نفـاق، إمـا في الاعتقـاد، وإمـا في العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك)[3]

بل إنه في موضع آخر صرح بما هو أشـد من ذلـك جميعـا، فاعتبر أن مجرد بغض العرب كفر، فقـال: (بغض جنس العـرب ومعاداتهم كفر أو سبب لكفر)

بل اعتبر أن حبهم يزيد في الإيمان، فقال: (ومقتضـاه أنهم أفضل من غيرهم وأن محبتهم سبب قوة الإيمان)

بـل إنـه دعـا إلى تقسـيم الأعطيـات والأمـوال على الأمـة بحسـب أنسـابهم، كمـا فعـل السـلف الصـالح.. فيبـدأ بـالعرب، ويوفون نصيبهم من العطاء.. ثم بعد ذلـك وبنصـيب أقـل يعطى العجم.. وقد كان ذلك ديدن الدول الإسلامية التي كـان يحكمهـا العرب.. (هكذا كان الديوان على عهد الخلفاء الراشدين وسـائر الخلفاء من بني أمية وولد العباس، إلى أن تغير الأمر بعد ذلـك)

1() رواه الحاكم في مستدركه (4 / 87).

2() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 437).

3() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 421)

[1]

قلت: وعيت هذا.. ولكـني أقـرأ في كتب ابن تيميـة أشـياء كثيرة جميلة، لا يمكن اتهامه فيها.

قال: وهل يمكن لعاقل أن يسقيك السـم الزعـاف دون أن يضعه في العسل الحلـو اللذيـذ.. وهـل يأتيـك الشـيطان إلا من أبواب الخير ليزج بك في نيران الشر؟

قلت: ذلك صحيح.. ولكن هل ينطبق ذلك على ابن تيميـة.. وهل كان ابن تيمية يخدع الأمة بذلك العسل المسموم؟

قال: الله أعلم بنيـات النـاس ومقاصـدهم.. ولكن اعلم أن كـل من قـرأ ابن تيميـة من أعلام الأمـة الصـادقين ذكـر حيلـه وخداعه ومكره..

قلت: فهلا ضربت لي مثالا عن أحدهم ليطمئن قلبي.

قال: سأضرب لك مثلا يقرب لك ذلك، وهو ما ذكره الشيخ تقي الدين أبو بكر بن محمد الحسيني الحصني الشافعي، فقـد قـال في مقدمـة كتابـه الـذي ألفـه في الـرد على ابن تيميـة، والمعنون بـ (دفع شبه من شبه وتمرد ونسـب ذلـك إلى الإمـام أحمد): (.. فأول شيء سلكه من المكر والخديعة أن انتمى إلى مـذهب الإمـام أحمـد، وشـرع يطلب العلم ويتعبـد فمـالت إليـه قلـوب المشـايخ فشـرعوا في إكرامـه والتوسـعة عليـه فـأظهر التعفف فزادوا في الغربة فيـه والوقـوع عليـه.. ثم شـرع ينظـر في كلام العلماء ويعلق في مسوّداته حتى ظن أنه صار له قـوة في التصنيف والمناظرة، أخذ يدوّن ويذكر أنه جاءه استفتاء من بلد كذا، وليس لذلك حقيقة، فيكتب عليها على صورة الجـواب، ويذكر مالا ينتقـد عليـه، وفي بعضـها مـا يمكن أن ينتقـد إلا أنـه يشير إليه على وجه التلبيس بحيث لا يقف على مراده إلاّ حاذق عـالم مفنن، فـإذا نـاظر أمكنـه أن يقطـع من نـاظره إلا ذلـك المفنن الفطن.. ثم مع ذلك شرع يتلقى الناس بـالأنس وبسـط الوجه ولين الكلام، ويذكر أشياء تحْلـوا للنفس لا سـيما الألفـاظ

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 446)

العذبة مع اشتمالها على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.. فطلبوا منه أن يُذكِّر الناس ففعل فطار ذكره بالعلم والتعبد والتعفف، ففزع الناس إليه بالأسئلة، فكان إذا جاءه أحد يسأله عن مسألة قال له: عاودني فيها، فإذا جاءه قال: هذه مسألة مشكلة، ولكن لك عندي مخرج أقوله لك بشرط فإني أتقلدها في عنقي، فيقول: أنا أوفي لك، فيقول: أن تكتم علي، فيعطيه العهود والمواثيق على ذلك فيفتيه بما فيه فرجه، حتى صار له بذلك أتباع كثيرة يقومون في نصرته أن لو عرض له عارض.. ثم إنه علم أن ذلك لا يخلصه، فكان إذا كان في بعض المجالس قال: إنا لله وإنا إليه راجعون قد انفتق فتوق من أنواع المفاسد يبعد ارتتاقها، ولو كان لي حكم لكنت أجعل فلاناً وزيراً وفلاناً محتسباً وفلاناً دويداراً وفلاناً أمير البلد. فيسمع أولئك وفي قلوبهم من تلك المناصب فكانوا يقومون في نصرته.. ثم اعلم أن مثل هؤلاء لا يقدرون على مقاومة العلماء إذا قاموا في نحره فجعل له مخلصاً منهم بأن ينظر إلى من الأمر إليه في ذلك المجلس، فيقول له ما عقيدة إمامك؟ فإذا قال: كذا وكذا قال: أشهد أنها حق، وأنا مخطيء، واشهدوا أني على عقيدة إمامك وهذا كان سبب عدم إراقة دمه، فإذا انفض المجلس أشاع أتباعه أن الحق في جهته ومعه، وأنه قطع الجميع، ألا تروه كيف خرج سالماً؟ حتى حصل بسبب ذلك افتتان خلق كثير، لا سيما من العوام، فلما تكرر ذلك منه علموا أنه إنما يفعل ذلك خديعة ومكراً، فكانوا مع قوله ذلك يسجنونه، ولم يزل ينتقل من سجن إلى سجن حتى أهلكه الله عز وجل في سجن الزندقة والكفر.. ومن قواعده المقررة عنده وجرى عليها أتباعه التوقي بكل ممكن، حقاً كان أو باطلاً ولو بالأيمان الفاجرة، سواءً كانت بالله عزوجل أو بغيره)[1]

وقال: (ثم اعلم قبل الخوض في ذكر بعض ما وقع منه وانتقد عليه أنه يؤكد في بعض مصنفاته كلام رجل من أهل الحق ويدس في غضونه شيئاً من معتقده الفاسد، فيجري عليه الغبي بمعرفة كلام أهل الحق فيهلك وقد هلك بسبب ذلك

1() دفع شبه من شبه وتمرد، ص 314.

خلق.. وأعمق من ذلك أنه يذكر أن ذلـك الرجـل ذكـر ذلـك في الكتاب الفلاني وليس لذلك الكتـاب حقيقـة وإنمـا قصـده بـذلك انفضاض المجلس، ويؤكد قوله بأن يقول ما يبعد أن هذا الكتاب عند فلان، ويسمى شخصاً بعيد المسافة، كل ذلك خديعة ومكراً وتلبيساً، لأجل خلاص نفسه، ولا يحيق المكـر السـيء إلا بأهلـه) (1)

قلت: أرى أن الرجل يتجنى على ابن تيمية بكلامه هذا؟

قال: لك أن تقول ذلك.. ولكن عندما تسمع الأدلـة سـتفهم جيدا سر هذه الكلمات.

1() دفع شبه من شبه وتمرد، ص 315.

التهمة الأولى.. التجسيم والتشبيه

كان اليوم الأول من المحاكمة خاصا بالتهمة التي حاول جميع المدافعين عن ابن تيمية أن يخلصوه منها، وهي (تهمة التجسيم والتشبيه)، وقد كنت أقرأ عنها من الفريقين جميعا، ومترددا في إثباتها لابن تيمية مع كثرة من ادعاها عليه..

ولهذا فقد كنت مشتاقا لسماع الأدلة من الخصوم أنفسهم.. أما المدافعون عنه، فلم أكن محتاجا إليهم لسببين:

الأول: أني قرأت كتبت ابن تيمية، وعرفت منهجه فيها، وصرت أستطيع التمييز بين آرائه التي ينتصر لها بكل الطرق، وبين الآراء التي يتوقف فيها، أو يقف في وجهها.

الثاني: أني أعرف المدافعين عن ابن تيمية، وتلاعبهم بالألفاظ، وخلطهم للأمور، فلا يستطيع أن يجني من يستمع لهم شيئا.. نعم يسمع جعجعة، ولكن لا يرى أي طحين.

عقدت الجلسة، وقعد القاضي على كرسي كبير في أعلى مكان في المحكمة.. وبعد أن استقرت القاعة بمن فيها، قلب القاضي بعض الأوراق التي كانت بجانبه، ثم قال: التهمة التي سنبحث فيها اليوم هي تهمة (التجسيم والتشبيه).. وأنا أريد من المدعين على ابن تيمية أن يوضحوا لي مرادهم منها قبل أن يذكروا الأدلة المثبتة لدعاواهم.

تقدم الكوثري، وقال: ليسمح لي – سيادة القاضي – أن أشرح له كلا المصطلحين بالمنهج العلمي الذي اعتدنا عليه، ولا يعتبرني بذلك أتصرف وكأنني في المدرسة بين تلاميذي.

قال القاضي: تكلم بحرية.. فالمحاكمة التي نجريها محاكمة علمية.. ولا يمكن أن تكون كذلك ما لم يتحدث المدعون والمدافعون بلغة العلم.. ولا تقلق على الوقت، فأنا لا أؤمن بالقاضي الذي يطلب من المدعي أو الخصم أن يسكت أو يختصر.. أحيانا فهم الحقائق يحتاج إلى تفاصيل.. والقاضي

العادل لا يمكنه أن يعرف الحقيقة إلا بعد سماعها جميعا.

قال الكوثري: بورك فيك.. وهذا اعتقادنا فيك.. ولهذا لجأنا إليك.. التجسيم – سيدي القاضي – كلمة (جسَّم) مشتقة من (الجسم)، وهي تعني بذلك نسبة الجسم إلى المفعول.. وذلك مثل: فسَّقته أي نسبته إلى الفسق، وكفرته إذا نسبته إلى الكفر[1].

قال القاضي: هذا جيد.. فماذا تريدون بالجسم؟

قال الكوثري: هو ما نعرفه في واقعنا من كونه ذلك الذي يحتل حيزا محدودا، ويكون مركبا، وقابلا للقسمة، وغير ذلك من خصائص الأجسام التي تدرس في الفيزياء والكيمياء والطب ونحوها.

وقد عرفه سلفنا المتكلمون بقولهم: (الجسم هو المتحيز بالذات، القابل للقسمة)[2]

قال القاضي: فما تعنون بالمتحيز بالذات؟

قال الكوثري:: هو من يكون له مكان محدد يقبل الإشارة الحسية إليه بأنه في هذا الموضع، أو ذاك الموضع..

قال القاضي: فما تعنون بالقابل للقسمة؟

قال الكوثري: نريد به كون الجسم مركبا من أجزاء حقيقية، بحيث يمكن أن نأخذ كل جزء على حدة..

قال القاضي: هذا يعني أن هناك تقسيما غير حقيقي؟

قال الكوثري: أجل.. ونحن نسميه التقسيم الوهمي.. والفرق بينهما أن قسمة الكل إلى أجزائه إذا أوجبت انفصال هذه الأجزاء فعلاً فهي قسمة فعلية وتسمى انفكاكية أيضاً، وإذا

1() استفدنا في هذا المبحث وفي هذا الجزء من الكتاب برسالة علمية رائعة بعنوان (التجسيم في الفكر الإسلامي) للدكتور صهيب السقار.

2() المواقف للجرجاني 6/302.

لم توجب انفصالاً، بل كانت مجرد فرض شيء في المنقسم يغاير شيئاً آخر منه فهي قسمة ذهنية وتسمى قسمة وهمية أيضا[1].

قلت: اسمح لي سيدي القاضي.. أظن أن هناك تعريفا آخر للتجسيم لم يشأ أستاذنا الفاضل أن يذكره.. ولست أدري لم؟

قال القاضي: تفضل.. هاته.

قلت: لقد قرأت عن بعضهم أنه عرف الجسم بأنه (القائم بنفسه)[2]

ضحك الكوثري، وقال: لو طبقنا هذا التعريف، فستكون كل الأمة مجسمة، بل يكون القرآن الكريم نفسه مجسما.. فالله سبحانه وتعالى من أسمائه القيوم، وهو المستغني في قيامه عن محل أو حيز يقوم به، وعن فاعلٍ يكون قيامه به.. وهو يدل على أن لله الغنى المطلق في مقابلة الاحتياج اللازم لأجسام العالم وأعراضه، فإن العرض يحتاج إلى محل يقوم به فيكون قيامه بغيره، ويحتاج إلى فاعل أيضاً، والجسم وإن قام بنفسه لكنه يحتاج إلى فاعل يقيمه وحيز يقوم فيه.

قال القاضي: لا يهمنا المصطلحات ومعانيها.. ولنترك اللفظ ونهتم بالمعنى.. فما وجه التهمة في التجسيم؟

قال الكوثري: وجه التهمة فيها واضح.. وهو افتقار الله وعدم قيوميته وشبهه بخلقه في ذلك.. ولهذا فإن كل من جسم سيشبه الله بخلقه لا محالة.. إذ لو كان جسماً لاحتاج إلى مكان، فالمكان إمّا أن يكون قديماً فيكون إلهاً ثانياً، وإن كان حادثاً أحدثه سبحانه، فأين كان هو قبل إحداث هذا المكان؟

قال القاضي: لم أفهم..

قال الكوثري: إذا قلنا بأن الله تعالى يحتاج إلى مكان

1() انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا التعريف في (التجسيم في الفكر الإسلامي)..

2() انظر الملل والنحل للشهرستاني10

يكون فيه.. أليس هذا قصورا وضعفا وفقرا؟

قال القاضي: بلى..

قال الكوثري: وإذا قلنا بأن الله تعالى مركب من أجزاء وأعضاء ألا يكون كل جزء من أجزائه مفتقرا إلى غيره.. بل يكون هو بذاته مفتقرا إلى كل جزء من أجزائه.

قال القاضي: هذا صحيح.

قال الكوثري: فهذا ما ينادي به ابن تيمية ويعتبره العقيدة الصحيحة التي جاء بها رسول الله ﷺ.. وأن خلاف ذلك بدعة.

قال القاضي: تقصد أنه يبدع كل من لا يقول بأن لله مكانا وتركيبا.

قال الكوثري: أجل.. ولو طبقنا مقاييسه التي ذكرها، أو العلماء الذين رجع إليهم وأثنى عليهم لكان قائلا بالتكفير لا بمجرد التبديع.

قال القاضي: فهمت القضية.. لكني أحتاج إلى الأدلة القوية المثبتة للدعوى.

قال الكوثري: لقد رجعت مع أصحابي إلى كتب ابن تيمية، وقرأناها بتفصيل وتدقيق وتمعن، واستخرجنا منها أربعة أدلة، كل دليل منها كاف لإدانة ابن تيمية في هذه المسألة.. وسيتقدم أصحابي واحدا واحدا لإيرادها عليك.

قال القاضي: قبل ذلك أريد أن توضح لي وجه المنطقية فيها.

قال الكوثري: أرأيت لو أن شخصا أقر وصرح بين يديك بأن الله جسم من الأجسام.. ثم راح يعظم ويثني على كل من قال بالتجسيم.. ثم راح يبدع كل من سكت ولم يؤيد المجسمة.. ثم راح يبدع من نزهوا الله عن التجسيم.. ثم راح يقيد الله بالحيز والحدود.. ثم راح يصف الله بالحركة والانتقال.. ثم راح يضع لله صورة بكل تفاصيلها.. ألا يعتبر من فعل كل هذا

مجسما؟

قال القاضي: بلى.. ولو أثبتم هذا وفق المنهج العلمي تكونون قد أثبتم التهمة حقيقة..

قال الكوثري: لك ذلك سيدي القاضي.. ومحامي المتهم بين أيدينا، وهو يرد علينا إن وجد أننا ننقل نصا من كتبه لم يقله..

قلت: ليس ذلك فقط.. بل حتى لو بترتم النص عن سياقه، فإنني سأتدخل.. الشهادة لله تقتضي مني أن أكون صادقا معه، كما أكون صادقا معكم.

أولا ـ تصريحات ابن تيمية الدالة على التجسيم

تقدم الميلاني، وقال: ليسمح لي سيدي القاضي أن أذكر الدليل الأول.. وهو تصريحات ابن تيمية الدالة على التجسيم.

وقفت، وقلت: أنت تعلم ـ سيدي القاضي ـ أن هناك كتبا دست على ابن تيمية، وهو ليس من مؤلفيها.. ولذلك أرجو من المتحدث ألا ينقل لنا إلا من الكتب المشهورة التي لم يشكك أحد في نسبتها إليه.

قال الميلاني: أنا أعلم ذلك.. ومعاذ الله أن أقوله ما لم يقل.. وسأورد لك النصوص مع أسماء الكتب التي وردت فيها، فإن رأيت أن الكتاب منسوب إليه سحبت الدليل، فلي بحمد الله من الأدلة في هذا ما يغنيني عن الجدل.

قلت: ما دام الأمر كذلك.. فأنا في الاستماع إليك.. لكن اذكر لنا أي مرجع تعود إليه حتى أتأكد منه.

قال الميلاني: إن شئت ذكرت لك المرجع والصفحة وكل معلومات النشر..

قلت: لا تتعب نفسك بذلك.. كان ذلك في العصور

السالفة.. أما الآن فنحن في عصر المعلوماتية مجرد أن تذكر جملة واحدة أصل إلى المحل من غير حاجة إلى تعب في البحث.. لدي برنامج متطور أنشأه أصحاب ابن تيمية، وهو يجمع جميع كتبه، بل يجمع كتب تلاميذه أيضا على مدار التاريخ.

قال الميلاني: ما دام الأمر كذلك.. فاسمح لي، وليسمح لي – سيدي القاضي – أن أذكر له بأن الأدلة التي يدندن حولها المدافعون عن ابن تيمية في نفي التجسيم عنه هي كونه يذكر في كتبه كثيرا الاختلاف في وصف الله بالجسم.. وأنه يرجح أنه ليس له صفة اسمها (الجسم)، لأن النصوص لم ترد بها.. ولكن هذا لا ينفي أبدا أن يكون الله عنده متصفا بجميع معاني الجسمية من الحدود والحيز والتركيب والثقل ونحو ذلك.. وهذا هو الذي نريده، لا مجرد نفي اللفظ.. فالمهم في اللفظ معناه وحقيقته لا حروفه.

قال القاضي: صدقت في هذا.. وهو ما نريده.

قال الميلاني: بناء على هذا.. فقد أورد ابن تيمية الكثير من النصوص الدالة على عدم الحرج في وصف الله بكونه جسما من الأجسام، بناء على المعنى لا على اللفظ..

منها قوله في كتابه)موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول)، أو ما يسمى (درء تعارض العقل والنقل)[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]: (فإنّه لا يدلّ على نفي الصفات بوجه من الوجوه، بل ولا على نفي ما يسمّيه أهل الاصطلاح جسماً بوجه من الوجوه).. ومراده من الصفات اليد والوجه والساق، وغيرها، فهو يعتقد أنّ الجميع يوصف به سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل، بل بنفس المعنى اللغوي.

وورد في نفس الكتاب: (وأمّا ذكر التجسيم وذمّ المجسّمة، فهذا لا يعرف في كلام أحد من السلف والأئمّة، كما

---

[1] درء تعارض العقل والنقل، 1/100.

لا يعرف في كلامهم أيضاً القول بأنّ الله جسم أو ليس بجسم) (1)

وذكر في كتابه (الجواب الصحيح) أنه لم يُنقل في الشرع ولا عن الأنبياء السابقين ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين ومن تبعهم من سلف الأمة إثبات هذا اللفظ أو نفيه، فقال: (وأما الشرع فالرسل وأتباعهم الذين من أمة موسى وعيسى ومحمد ﷺ لم يقولوا: إن الله جسم، ولا إنه ليس بجسم، ولا إنه جوهر ولا إنه ليس بجوهر، لكن النزاع اللغوي والعقلي والشرعي في هذه الأسماء هو بما أحدث في الملل الثلاث بعد انقراض الصدر الأول من هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء)(91).

وقال في شرح حديث النزول: (وأما الشرع: فمعلوم أنه لم ينقل عن أحد من الأنبياء ولا الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة أن الله جسم، أو أن الله ليس بجسم، بل النفي والإثبات بدعة في الشرع)(93)

وقال - أيضاً -: (وأما من لا يطلق على الله اسم الجسم كأئمة الحديث، والتفسير، والتصوف، والفقه، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم، وشيوخ المسلمين المشهورين في الأمة، ومن قبلهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فهؤلاء ليس فيهم من يقول: إن الله جسم، وإن كان أيضاً: ليس من السلف والأئمة من قال: إن الله ليس بجسم)(94)

وعندما راح يبين سبب عدم إطلاق السلف لفظ الجسم لا نفياً ولا إثباتاً لله تعالى لم يذكر أن ذلك لتناقضه مع العقل أو مع القرآن، وإنما ذكر لذلك وجهين: (أحدهما: أنه ليس مأثوراً لا في كتاب ولا سنة، ولا أثر عن أحد من الصحابة والتابعين لهم

1() درء تعارض العقل والنقل:1/189..

(91)(91) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 4/432.

(93)(93) شرح حديث النزول ص258.

(94)(94) منهاج السنة النبوية 2/105.

بإحسان، ولا غيرهم من أئمة المسلمين، فصار من البدع المذمومة.. الثاني: أن معناه يدخل فيه حق وباطل، فالذين أثبتوه أدخلوا فيه من النقص والتمثيل ما هو باطل، والذين نفوه أدخلوا فيه من التعطيل والتحريف ما هو باطل)[1]

ومراد ابن تيمية من التعطيل والتحريف – كما سيوضح زملائي سيادة القاضي – هو تنزيه الله عن لوازم الجسمية كالحيز والحدود ونحوها..

قلت: كلامك واضح.. ولكن أصحاب ابن تيمية وخصوصا المتأخرين منهم يدافعون عنه، وينفون عنه التجسيم بكل الوجوه.

قال الميلاني: إن هؤلاء يمارسون التقية بهذا، ويخالفون شيخهم وما تطفح به كتبه.. إن ابن تيمية – كما ذكرت لكم - لم ينف التجسيم عن الله، وإنما نفى لفظ التجسيم.. بينما كل كتبه تدل على أنه يقول بالتجسيم..

اسمع إلى قوله مثلا في كتابه (منهاج السنّة): (وقد يراد بالجسم ما يشار إليه، أو ما يرى، أو ما تقوم به الصفات، والله تعالى يُرى في الآخرة وتقوم به الصفات ويشير إليه الناس عند الدعاء بأيديهم وقلوبهم ووجوههم وأعينهم.. فإن أراد بقوله: (ليس بجسم) هذا المعنى قيل له: هذا المعنى ــ الذي قصدت نفيه بهذا اللفظ ـ معنى ثابت بصحيح المنقول وصريح المعقول وأنت لم تقم دليلاً على نفيه.. وأمّا اللفظ فبدعة نفياً وإثباتاً، فليس في الكتاب ولا السنّة، ولا قول أحد من سلف الأُمّة وأئمتها إطلاق لفظ (الجسم) في صفات الله تعالى، لا نفياً ولا إثباتاً)[2]

فقد عرّف الله في هذا النص بأنه يُشار إليه.. وأنّه يُرى كما ترى الأجسام.. وأنّه تقوم به الصفات فيكون مركّباً.. وأنّ له

1() منهاج السنة النبوية 2/225

2() منهاج السنّة: 1 / 180.

مكاناً وجهة، بدليل رفع الناس أيديهم عند الدعاء إلى الأعلى..

فالإله بهذا المعنى عنده ثابت بصحيح المنقول وصريح المعقول..

وقال في كتابه (شرح حديث النزول): (فمن قال إنّ الله جسم، وأراد بالجسم هذا المركّب فهو مخطئ، ومن قصد نفي هذا التركيب عن الله فقد أصاب في نفيه)[1]

وهذا إقرار منه بأنّ الله تعالى جسم، ولكنّه ـ كما يعتقد ـ لا يماثل سائر الأجسام، من حيث إنّ تركيبها حادث. فهو لا ينفي الجسمية عن الله تعالى، وإنّما ينفي عنه هذا التركيب الحادث، ويدلّ على ذلك قوله:(ومن قصد نفي هذا التركيب عن الله، فقد أصاب في نفيه) لهذا التركيب، وحسْب!!

بل إنه يحاول بكل ما أوتي من قوة المنطق أن يبرهن على ضرورة أن يكون الله جسما حتى يكون موجودا.. فالوجود عنده يقتضي الجسمية، يقول في ذلك:(فالمثبتة يعلمون بصريح العقل امتناع أن يكون موجوداً معيناً مخصوصاً قائماً بنفسه ويكون مع ذلك لا داخل العالم ولا خارجه، وأنه في اصطلاحهم لا جسم ولا عرض ولا جسم ولا متحيز، كما يعلمون أنه يمتنع أن يقال إنه لا قائم بنفسه ولا قائم بغيره.. فإنك إذا استفسرتهم عن معنى التحيز ومعنى الجسم فسروه بما يعلم أنه الموصوف بأنه القائم بنفسه. ولهذا لا يعقل أحد ما هو قائم بنفسه إلا ما يقولون هو متحيز وجسم.. فدعوى المدعين وجود موجود ليس بمتحيز ولا جسم ولا قائم بمتحيز أو جسم مثل دعواهم وجود موجود ليس قائما بنفسه ولا قائما بغيره.. ومن قيل له هل تعقل شيئاً قائماً بنفسه ليس في محل وهو مع هذا ليس بجسم ولا جوهر ولا متحيز ومع هذا إنه لا يجوز أن يكون فوق غيره ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا أمامه ولا وراءه وأنه لا يكون مجامعا له ولا مفارقا له ولا قريبا منه ولا بعيدا عنه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مماسا له ولا محايثا له وأنه لا يشار إليه بأنه هنا أو هناك ولا يشار إلى شيء منه دون شيء

[1] شرح حديث النزول: 237.

ولا يرى منه شيء دون شيء ونحو ذلك من الأوصاف السلبية التي يجب أن يوصف بها ما يقال إنه ليس بجسم ولا متحيز لقال حاكماً بصريح عقله هذه صفة المعدوم لا الموجود)[1]

هل رأيت سيدي تصريحا أكثر من هذا؟.. وهل الجسم غير هذا؟

إن ابن تيمية يضعنا بين أمرين: إما أن نجسم الله، أو نقول بعدمه.. فالوجود عنده قاصر على الأجسام.

وهو يطبق جميع أوصاف الأجسام على كل الموجودات، لا يفرق في ذلك بين الله سبحانه وتعالى واجب الوجوب، وبين الممكنات التي خلقها، فيقول: (الوجه السادس أن يقال ما عُلم به أن الموجود الممكن والمحدث لا يكون إلا جسما أو عرضا أو لا يكون إلا جوهرا أو جسما أو عرضا أو لا يكون إلا متحيزاً أو قائما بمتحيز أو لا يكون إلا موصوفا أو لا يكون إلا قائما بنفسه أو بغيره يُعلم به أن الموجود لا يكون إلا كذلك.. فإن الفطرة العقلية التي حكمت بذلك لم تفرق فيه بين موجود وموجود ولكن لما اعتقدت أن الموجود الواجب القديم يمتنع فيه هذا أخرجته من التقسيم لا لأن الفطرة السليمة والعقل الصريح مما يخرج ذلك ونحن لم نتكلم فيما دل على نفي ذلك عن الباري فإن هذا من باب المعارض وسنتكلم عليه وإنما المقصود هنا بيان أن ما به يعلم هذا التقسيم في الممكن والمحدث هو بعينه يعلم به التقسيم في الموجود مطلقا)[2]

وهو لا يكتفي بهذه التصريحات فقط، بل إنه في كتابه (بيان تلبيس الجهمية) يكاد يدافع عن لفظ (الجسم) بعينه، فيقول: (وليس في كتاب الله، ولا سنّة رسوله، ولا قول أحد من سلف الأُمّة وأئمتها أنّه ليس بجسم، وأنّ صفاته ليست أجساماً وأعراضاً)[3]

---

[1] () بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (2/ 364)

[2] () بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (2/ 370)

[3] () بيان تلبيس الجهمية:1/101.

أراد الميلاني أن يجلس، فقلت: انتظر لدي شبهة أريد عرضها عليك..

قال الميلاني: هلم بها..

قلت: لقد سمعت بعض أصحاب ابن تيمية يعترض عليكم أنكم تقولون ما لا تفعلون.. فبينما تنكرون كون الباري سبحانه جسماً لا كالأجسام، تثبتون أنه شيء لا كالأشياء؟

ابتسم الميلاني، وقال: سأورد لك في هذا ردا لعلم كبير من أعلام التنزيه هو القاضي أبو بكر الباقلاني، فقد أورد السؤال الذي ذكرته، ثم أجاب عليه بقوله: (إنّ قولنا (شيء) لم يبن لجنس دون جنس، ولا لإفادة التأليف، فجاز وجود شيء ليس بجنس من أجناس الحوادث وليس مؤلَّفا، ولم يكن ذلك نقضاً لمعنى تسميته بأنّه شيء. وقولنا (جسم) موضوع في اللغة للمؤلَّف دون ما ليس بمؤلَّف، كما أنّ قولنا: (إنسان) و(مُحدَث) اسم لما وُجد من عدم، ولما له هذه الصورة دون غيرها، فكما لم يجز أن نثبت القديم سبحانه محدَثاً لا كالمحدثات وإنساناً لا كالناس، قياساً على أن لا شيء كالأشياء، لم يجز أن نثبته جسماً لا كالأجسام، لأنّه نقض لمعنى الكلام، وإخراج له عن موضوعه وفائدته)[1]

ثانيا ـ تعظيم ابن تيمية للمشبهة والمجسمة

بعد أن ساق الميلاني من الأدلة ما ساق مما ذكرته لكم قام الخليلي، وقال: بعد أن اتضح لكم – سيدي القاضي – ما ذكره ابن تيمية تصريحا أو تلميحا حول موقفه من التجسيم.. أريد أن أسوق لك الدليل الثاني إن إذنت لي في ذلك.

قال القاضي: قبل أن تسوقه اذكر لي وجه الاستدلال به..

قال الخليلي: وجه الاستدلال به – سيدي – واضح، وأنتم

1() تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل:113ـ

معشر القضاة أعرف الناس به.. ألست تعتبرون من يزكي المجرمين ويثني عليهم ويكتم جرائمهم مجرما؟

قال القاضي: بلى.. وهو ما يقتضيه العقل.. بل ما يقتضيه النقل، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: 283]، فكاتم الشهادة لم يكتمها إلا ليحمي جهة ما.

قال الخليلي: بورك فيك سيدي القاضي، وانطلاقا من هذا سأنتدب شاهدين عدلين يدلان على أن ابن تيمية يحصر الصالحين والربانيين بل والمهتدين من الأمة في المجسمة فحسب.. أما من عداهم، فكلهم يعتبره مبتدعا ضالا إن لم يكن زنديقا كافرا.

أما أولهما، فيبين لكم – سيدي القاضي – دعوات ابن تيمية الصريحة لقراءة كتب التجسيم، بل حصره العقيدة الصحيحة فيها.. وهو ما دعا الأجيال بعده إلى إحيائها وتحقيقها، بل وتدريسها لطلبة العلم.

وأما الثاني، فدفاعه المستميت عن المجسمة في وجه الذين ينتقدونهم أو يبدعونهم، وسكوته عن التشويهات الخطيرة التي شوهوا بها الدين والعقيدة.

1 ـــ دعـــوة ابن تيميـــة إلى مطالعـــة الكتب المشحونة بالتجسيم والتشبيه:

قال القاضي: هات الشاهد الأول.

قال الخليلي: الدارس لكتب ابن تيمية – سيدي القاضي – يلاحظ أنه مع تحذيراته الكثيرة من كتب المنزهة في العقائد ككتب الأشاعرة والمعتزلة والإباضية والإمامية وتشنيعه عليها – كما سنبرهن لكم على ذلك في الأدلة التالية – نراه يدعو إلى مطالعة الكتب المشحونة بالتجسيم والتشبيه، ويعتبرها وحدها كتب التوحيد والسنة.. لقد قال في (مجموع الفتاوى) عند

حديثه عن مذهب السلف في الأسماء والصفات: (وكلام السلف في هذا الباب موجود في كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر هاهنا إلا قليلاً منه مثل كتاب (السنن) للالكائي، و(الإبانة) لابن بطة، و(السنة) لأبي ذر الهروي، و(الأصول) لأبي عمرو الطلمنكي، وكلام أبي عمر بن عبدالبر، و(الأسماء والصفات) للبيهقي، وقبل ذلك (السنة) للطبراني، ولأبي الشيخ الأصبهاني ولأبي عبدالله بن منده ولأبي أحمد العسّال الأصبهانيين، وقبل ذلك (السنة) للخلاّل، و(التوحيد) لابن خزيمة، وكلام أبي العباس بن سريج، و(الرد على الجهمية) لجماعة مثل: البخاري، وشيخه عبدالله بن محمد بن عبدالله الجعفي، وقبل ذلك (السنة) لعبدالله بن أحمد، و(السنة) لأبي بكر بن الأثرم، و(السنة) لحنبل، وللمروزي ولأبي داود السجستاني، ولابن أبي شيبة، و(السنة) لأبي بكر بن أبي عاصم، وكتاب (خلق أفعال العباد) للبخاري، وكتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم)[1]

قال القاضي: هل يمكنك أن تورد لنا بعض ما في هذه الكتب حتى نتبين صحة ما قلت.

قال الخليلي: سأورد لك سبعة أمثلة توضح لك هذا أتم توضيح.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الخليلي: المثال الأول كتابان لعثمان بن سعيد الدارمي.. يعتبرهما ابن تيمية من كتب السنة، وقد أكثر من النقل عنها في كتبه.. وهما كتاب (الرد على الجهمية) وكتاب (نقض عثمان بن سعيد على المريسي العنيد).. وقد قال ابن القيم تلميذ ابن تيمية يخبر عن اهتمام ابن تيمية بهما: (وكتاباه من أجل الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سنة مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون

1() (مجموع الفتاوى) (5/ 24).

والأئمة أن يقرأ كتابيه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية ويعظمهما جداً. وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما)[1]

إن هذين الكتابين – سيدي القاضي- من أهم كتب التجسيم.. فقد احتج فيهما بكثير من الأسانيد الواهية والمتون المنكرة التي تخالف التنزيه، وأثبت فيهما أن العرش يئط من ثقل الجبار فوقه، وأنه ينزل في الليل إلى جنة عدن وهي مسكنه يسكن معه فيها النبيون والصديقون والشهداء، وأنه يهبط من عرشه إلى كرسيه، ثم يرتفع عن كرسيه إلى عرشه، وفيهما إثباتَ الحركة لله عز وجل، وإثباتُ الحد، وأنه مس آدم مسيساً بيده، وأنه يقعد على العرش فما يفضل منه إلا قدر أربعة أصابع، وأنه قادر على الاستقرار على ظهر بعوضة، وأنه إذا غضب ثقل على حملة العرش، وأن رأس المنارة أقرب إليه من أسفلها، وغير ذلك مما هو مبسوط في موضعه [2].

وفوق ذلك كله عقد فيه باباً في تكفير الجهمية، وباباً في قتلهم واستتابتهم من الكفر.. ولا يخفى عليك – سيدي القاضي- أن الجهمية مصطلح تشنيع لا يراد به فرقة انتسبت إلى الجهم بن صفوان لأن الجهم مات، وماتت معه أفكاره إلا أن الدارمي ومن تابعه يعنون بالجهمية من خالفهم في صفات الله عز وجل فيدخل في هذا الوصف المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة والماتريدية.

التفت القاضي إلي، وقال: هل بحثت فيما قال؟

قلت: أجل – سيدي القاضي- والكتابان بين يدي في البرنامج الذي ذكرت لكم، وهو من المصادر التي يعتمد عليها التيميون.. وفيه كل ما ذكره الخليلي.. ولكن الذي ساءني منه

1() اجتماع الجيوش 143

2() انظر: الفكر التجسيمي.

أنه بعد أن ذكر كل تلك التجسيمات لله طالب بقتل كل من ينكرها باعتباره جهميا، فقد عقد فصلا مطولا لذلك حرض على قتلهم بكل صنوف القتل.. ومما جاء فيه قوله: (ولو لم يكن عندنا حجة في قتلهم وإكفارهم إلا قول حماد بن زيد، وسلام بن أبي مطيع، وابن المبارك، ووكيع، ويزيد بن هارون، وأبي توبة، ويحيى بن يحيى، وأحمد بن حنبل، ونظرائهم، رحمة الله عليهم أجمعين، لجبنا عن قتلهم وإكفارهم بقول هؤلاء، حتى نستبرئ ذلك عمن هو أعلم منه وأقدم، ولكنا نكفرهم بما تأولنا فيهم من كتاب الله عز وجل، وروينا فيهم من السنة، وبما حكينا عنهم من الكفر الواضح المشهور، الذي يعقله أكثر العوام، وبما ضاهوا مشركي الأمم قبلهم بقولهم في القرآن، فضلا على ما ردوا على الله ورسوله من تعطيل صفاته، وإنكار وحدانيته، ومعرفة مكانه، واستوائه على عرشه بتأويل ضلال، به هتك الله سترهم، وأبد سوءتهم، وعبر عن ضمائرهم، كلما أرادوا به احتجاجا ازدادت مذاهبهم اعوجاجا، وازداد أهل السنة بمخالفتهم ابتهاجا، ولما يخفون من خفايا زندقتهم استخراجا) [1]

المثال الثاني:

التفت القاضي إلى الخليلي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الخليلي: المثال الثاني(كتاب السنة) لابن أبي عاصم.. تأمل في التسمية – سيدي القاضي- لقد صارت السنة تساوي التجسيم.. هذا الكتاب التجسيمي ألفه أبو بكر بن أبي عاصم أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني من أهل البصرة [2].

وقد أثبت في كتابه هذا الكثير من الأخبار المنكرة، واعتبرها ظواهر لا يجوز تأويلها، ومنها أن الله خلق آدم على

1() الرد على الجهمية للدارمي (ص: 213).

2() انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء 13/430

صورة وجهه، وعلى صورة الرحمن، وأنه تجلى للجبل منه مثل الخنصر، وأن العرش يئط به من ثقله، وأنه يقعد محمداً ﷺ معه على العرش، وأن المؤمنين يجالسون الله عز وجل في الجنة وغير ذلك.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما ذكر؟

قلت: أجل - سيدي القاضي- وفيه أمور لا يستطيع لساني أن يذكرها.. إنه يتعامل مع الله، وكأنه شخص كسائر الأشخاص.. تصور أنه عقد بابا على أن الله يمكن أن يسمى شخصا أورد فيه هذا الحديث: (لا شخص أغير من الله تعالى، ولا شخص أحب إليه العذر من الله عز وجل، ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله تعالى، ومن أجل ذلك وعد الجنة)[1]

وعقد بابا ذكر فيه ثقل الله تعالى أورد فيه هذا الحديث: (إن عرشه فوق سبع سماوات، وإن له لأطيطا كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله)[2]

المثال الثالث:

التفت القاضي إلى الخليلي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الخليلي: المثال الثالث (كتاب السنة) المنسوب إلى عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل.. فلهذا الكتاب أهمية كبرى عند ابن تيمية وتلاميذه حتى أنهم بذلوا كل جهودهم في نسبة الكتاب إلى مؤلفه، وفي الرد على من ينزه الإمام أحمد وولده عن أن يخوض في مثل هذه المسائل.

1() السنة لابن أبي عاصم (1/ 230)

2() السنة لابن أبي عاصم (1/ 252).

ومما اشتمل عليه هذا الكتاب من التجسيم[1]: وصفُه الله تعالى بالجلوس على العرش، وإثبات صدر له وذراعين، وإثبات الثقل والصورة التي صور عليها آدم، وأنه على كرسي من ذهب تحمله أربعة من الملائكة، وأنه واضع رجليه على الكرسي، وأن الكرسي قد عاد كالنعل في قدميه، وأنه إذا أراد أن يخوف أحداً من عباده أبدى عن بعضه، وأنه قرَّب داودَ عليه السلام حتى مس بعضه وأخذ بقدمه وغير ذلك مما سيكشف عنه البحث.

ومما اشتمل عليه في حق الإمام أحمد أنه نقل عنه تصحيح الأخبار التي تثبت جلوسَه عز وجل على العرش وحصولَ الأطيط من هذا الجلوس، وأنه واضع رجليه على الكرسي وأن الكرسي موضع قدميه، وأنه يقعد على العرش فما يفضل منه إلا قيد أربعة أصابع. وغير ذلك.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما ذكر؟

قلت: أجل - سيدي القاضي- وفيه أخطر من ذلك، وهو تكفير كل من ينكر أمثال تلك العقائد.. ومن أمثلة ذلك أنه اشتمل على مجموعة كبيرة من الاتهامات والشتائم التي وجهها السلف لأبي حنيفة من أمثال: (كافر، زنديق، مات جهمياً، ينقض الإسلام عروة عروة، ما ولد في الإسلام أشأم ولا أضر على الأمة منه، وأنه أبو الخطايا، وأنه يكيد الدين، وأن الخمارين خير من أتباع أبي حنيفة، وأن الحنفية أشد على المسلمين من اللصوص، وأن أصحاب أبي حنيفة مثل الذين يكشفون عوراتهم في المساجد، وأن أباحنيفة سيكبه الله في النار، وأنه أبو جيفة، وأن المسلم يؤجر على بغض أبي حنيفة وأصحابه، وأنه لا يسكن البلد الذي يذكر فيه أبو حنيفة، وأن استقضاء الحنفية على بلد أشد على الأمة من ظهور الدجال، وأنه من المرجئة، ويرى السيف على الأمة، وأنه أول من قال القرآن مخلوق، وأنه ضيع الأصول، ولو كان خطؤه موزعاً على الأمة لوسعهم خطأً، وأنه يترك الحديث إلى الرأي، وأنه يجب اعتزاله كالأجرب

1() انظر: الفكر التجسيمي.

المعدي بجربه، وأنه ترك الدين، وأن أبا حنيفة وأصحابه شر الطوائف جميعاً، وأنه لم يؤت الرفق في دينه، وأنه ما أصاب قط، وأنه استتيب من الكفر مرتين أو ثلاثاً، واستتيب من كلام الزنادقة مراراً، وأن بعض فتاواه تشبه فتاوى اليهود، وأنه ما ولد أضر على الإسلام من أبي حنيفة، وأن الله ضرب على قبر أبي حنيفة طاقاً من النار، وأن بعض العلماء حمدوا الله عندما سمعوا بوفاة أبي حنيفة، وأنه من الداء العضال، وأن كثيراً من العلماء على جواز لعن أبي حنيفة، وأنه كان أجرأ الناس على دين الله)[1]

المثال الرابع:

التفت القاضي إلى الخليلي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قال الخليلي: المثال الرابع (كتاب السنة) لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الخلال، والذي قرر فيه قعود النبي ﷺ مع الباري سبحانه على الفضلة التي تفضل من العرش. وحشر مع ذلك نقولاً عن بعض المحدثين في تكفير منكره ورميه بالبدعة والتجهم وغير ذلك.. وفيه أن الله عز وجل ينادي: يا داود أُدن مني فلا يزال يدنيه حتى يمس بعضه ويقول: كن أمامي فيقول رب ذنبي ذنبي، فيقول الله له كن خلفي خذ بقدمي.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما ذكر؟

قلت: أجل - سيدي القاضي- بل إنه بعد كل ذلك الإطناب في التكفير والتبديع للمخالفين قال في آخر كتابه: (وبعد هذا أسعدكم الله فلو ذهبنا نكتب حكايات الشيوخ والأسانيد والروايات لطال الكتاب غير أنا نؤمل من الله عز وجل أن يكون في بعض ما كتبنا بلغةٌ لمن أراد الله به فثقوا بالله وبالنصر من عنده على مخالفيكم فإنكم بعين الله بقربه وتحت

1() السنة، أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد من ص 180 -ص120.

كنفه)[1]

المثال الخامس:

التفت القاضـي إلى الخليلي، وقـال: وعيت هـذا.. فهـات المثال الخامس.

قال الخليلي: المثـال الخـامس (كتـاب التوحيـد) لأبي بكـر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابورى.. والذي عقـد فيـه بابـا بعنوان إثبات الأصابع لله عز وجل، وبابا في إثبات القدم، ونحــو ذلك.. وقد أخرج فيه متوناً منكرة وأسانيدَ واهيـةً، منهـا مـا جـاء في أن الكرسي موضع قدميه، وأن العرش يئط بـه، وأنـه تجلى منه مثل طرف الخنصر، وأنـه يهبـط ثم يرتفـع، وأنـه يـنزل إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فينتفض تعالى عن ذلك علواً كبـيراً، وأن جنة عدن مسـكنه، وأن محمـداً ﷺ رآه في روضـة خضـراء دونه فراش من ذهب يحمله أربعة من الملائكة، وغير ذلك.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما ذكر؟

قلت: أجـل - سـيدي القاضـي- وهـو مملـوء بالتجسـيمات والتشـبيهات.. وهـو عنـدما يريـد أن يـنزه اللـه تعـالى يـأتي بالغرائب.. وهذا مثال على باب من أبواب الكتـاب هـذا عنوانـه: (باب من صفة تكلم الله عز وجل بالوحي والبيـان أن كلام ربنـا عز وجل لا يشبه كلام المخلوقين، لأن كلام اللـه كلام متواصـل، لا سـكت بينـه، ولا سـمت، لا ككلام الآدمـيين الـذي يكـون بين كلامهم سـكت وسـمت، لانقطـاع النفس أو التـذاكر، أو العي، منزه الله مقدس من ذلـك أجمـع تبـارك وتعـالى)[2] ، فالتنزيـه عنده هو تنزيه الله عن السكوت بين الكلمات والجمل..

وهكذا عنون بابا آخـر بقولـه: (بـاب ذكـر سـنة ثامنـة تـبين وتوضـح: أن لخالقنـا جـل وعلا يـدين كلتاهمـا يمينـان، ولا يسـار لخالقنا عز وجل، إذ اليسار من صفة المخلوقين، فجل ربنــا عن

1() السنة 1/265

2() التوحيد لابن خزيمة (1/ 349)

أن يكون له يسار، مع الدليل على أن قوله عز وجل: ﴿بل يــداه مبسوطتان﴾ [المائدة: 64] ، أراد عز ذكره باليـدين، اليـدين ، لا النعمتين كما ادعت الجهمية المعطلة)[1]

المثال السادس:

التفت القاضــي إلى الخليلي، وقــال: وعيت هــذا.. فهــات المثال السادس.

قال الخليلي: المثال السادس (كتاب العرش وماروي فيه) لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة.. وقـد ذكـر في هـذا الكتـاب أن أقرب الخلق إلى الله جبريـل وميكائيـل وإسـرافيل، بينهم وبين ربهم مسـيرة خمسـمائة عـام، وأن السـماء منفطـرة من ثقـل الله، وأن محمداً ﷺ رأى ربه في روضة خضراء وغير ذلك.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما ذكر؟

قلت: أجل - سيدي القاضي- وهو كما ذكر مشـحون بأدلـة التجسيم والتشبيه.. والذي آلمني هو ما قاله محقق الكتـاب في مقدمته تعظيما لشأنه.. لقد قال: (ولقد صنف كثير من السـلف وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين مؤلفـات ورسـائل كثيرة في مسائل أسماء الله وصفاته، فبينوا فيها مــا يجب على المسلم تجاه هذا الأمر العظيم، وقد اعتمدوا في تصانيفهم تلك على نصوص القرآن والسنة، وقد كان من ضمن تلك المؤلفـات كتاب (العرش) للحافـظ محمـد بن عثمـان بن أبي شـيبة، وقـد عالج المصنف- رحمه الله- في هذا الكتاب مسألة تعــد من أهم مسـائل الأسـماء والصـفات، بـل ومن أهم مسـائل العقيـدة وأخطرهـا، ألا وهي: مسـألة علـو اللـه عـز وجـل على خلقـه، واستوائه على عرشه)[2]

المثال السابع:

التفت القاضــي إلى الخليلي، وقــال: وعيت هــذا.. فهــات

[1] التوحيد لابن خزيمة (1/ 159).

[2] العرش وما رُوِي فيه، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، (ص: 6).

المثال السابع.

قال الخليلي: المثال السابع (كتاب الأربعين في دلائل التوحيد) لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي.. وفيه من أمثلة التجسيم أن محمداًﷺ رأى ربه في صورة شاب أمرد في قدميه خضرة.. وفيه باب ذكر فيه أن الله عز وجل وضع قدمه على الكرسي، وباب في إثبات الجهات لله عز وجل، وباب في إثبات الحد، وباب في إثبات الخط، وباب في إثبات الصورة، وباب في إثبات العينين، وباب في إثبات الهرولة..

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما ذكر؟

قلت: أجل - سيدي القاضي- هو كما ذكر.. وأنا أعرف الرجل.. والذي آلمني هو شدته على المخالفين.. وقد رأيت الكثير من السلفيين من المعاصرين يستدلون بكلامه في تكفير غيرهم وتبديعه..

2 ـــ تساهل ابن تيمية مع المجسمة والمشبهة:

قال القاضي: وعينا الشاهد الأول.. فهات الشاهد الثاني.

قال الخليلي: مع شدة ابن تيمية على المخالفين تكفيرا وتبديعا وتضليلا.. بل ونبزهم بالألقاب والتهكم بهم إلا أننا نجده مع المجسمة ـ حتى لو اختلف معهم في بعض الأمور ـ هينا لينا يدافع عنهم، ويحاول أن يرد التهم التي يتهمون بها، ولو أنه فعل ذلك مع غيرهم لكان ابن تيمية غير ابن تيمية.. هو يتظاهر بالورع في حق المجسمة والنواصب فقط.. أما من عداهم فيشهر عليهم كل سيوف حقده.

قال القاضي: لا مناص لك من أن تنظر لنا بينات تدل على ذلك.. ويكفينا القليل.. ففيما ذكرت سابقا ما يمكن الاستدلال به هنا.

قال الخليلي: أجل – سيدي القاضي – سأحاول الاختصار

قدر الإمكان.. ولذلك سأكتفي بسبعة أمثلة تبين شدته في القضايا الفرعية البسيطة، والتي تختلف فيها الأنظار، أو قد يكون لكل جهة رواياته الخاصة بها، أو لكونها لا علاقة لها بأصول الدين ولا فروعه مثل الخلاف في الصحابة ونحو ذلك.. مع لينه الشديد في أمور خطيرة جدا، مع كونها تتعلق بأصل أصول الدين.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول؟

قال الخليلي: المثال الأول هو موقف ابن تيمية من رجل يقال له الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي، وقد ألف كتاباً طويلاً في الصفات أورد فيه أحاديث باطلة، ومنها حديث عرق الخيل الذي نصه: (إن الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل فأجراها حتى عرقت، ثم خلق نفسه من ذلك العرق)[1] تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

انظر – سيدي القاضي- مع هذه الطامة الكبرى التي ذكرها الرجل إلا أن ابن تيمية الذي يغضب لأتفه الأمور لم ينبض له عرق بسبب هذا الكفر البواح..

لقد اعتبر ابن تيمية هذا الرجل – مع ذلك الانحراف العظيم- من أهل السنة في الجملة.. ولم يستطع أن يتحمل دخول المعتزلة والجهمية والشيعة.. وهذه مفارقة عجيبة.. فكيف يكفر من يقول بخلق القرآن، أو يسب أحد الصحابة، ولا يكفر من من يزعم أن الله خلق نفسه من عرق الخيل.. بل يتوج على قوله هذا بتاج السنة؟

عجباً لمن يكفر من يقول: إن القرآن مخلوق، ولا يكفر من يقول: إن نفس الله مخلوقة.. أليس هذا تناقضا صارخا؟

ليس ذلك فقط ما ذكره ذلك الرجل.. فقد أورد هذا الحديث العجيب: (رأيت ربي بمنى على جمل أورق عليه

---

[1] () سير أعلام النبلاء (18/17)،

جبة!!) وهو تشبيه واضح وتجسيم صريح.. ولكن بما أنه ليس عن معاوية ولا عن يزيد لم يحزن ابن تيمية له، ولم يرد عليه[1].

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما يقول؟

قلت: أجل سيدي القاضي.. فالحديث الذي ذكره أوردوه، وأنكروا عليه، لكن إنكارهم عليه كان محدودا وبسيطا مقارنة بإنكاراتهم على المنزهة، بل على قضايا بسيطة تتعلق بفروع الدين أو بالتاريخ ونحوه.

وقد ترجم الذهبي للرجل، وذكر أنه (ألف كتابا طويلا في الصفات؛ فيه كذب، ومما فيه حديث عرق الخيل، وتلك الفضائح فسبه علماء الكلام وغيرهم.. وكان ينال من ابن أبي بشر وعلق في ثلبه والله يغفر لهما.. وكان على مذهب السالمية؛ يقول بالظاهر ويتمسك بالأحاديث الضعيفة التي تقوي رأيه)[2]

قال القاضي: ولكني لم أرك تذكر ابن تيمية.

قلت: لقد رأيت ابن تيمية يذكر السالمية، ولا يتشدد معهم تشدده مع الأشاعرة وغيرهم، بل يعتبرهم من أهل السنة، وذلك في مواضع كثيرة من كتبه، ومنها قوله: (والسالمية وغيرهم أقرب إلى موافقة المعقول الصريح والمنقول الصحيح وإن كان لكل منهم من الخطأ ما لا يوافقه الآخر عليه)[3]

المثال الثاني:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني؟

قال الخليلي: المثال الثاني هو موقف ابن تيمية من أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي.. والذي سبق أن حدثتك عن كتابه (الأربعون)، والذي يمتلئ بأحاديث باطلة وواهية في

1() انظر الحنابلة نموذجا حسن بن فرحان المالكي.

2() سير أعلام النبلاء (13/ 287) بتصرف.

3() الصفدية (1/ 161).

التجسيم [4].. ومع ذلك نرى ابن تيمية يوثقه، ويتوجه بتاج أهل السنة.

بل نراهم يطلقون عليه لقب (شيخ الإسلام)، وكأن هذا اللقب العظيم لا يناله إلا المجسمة.. وكل ذلك نكاية بمن سمى به الحافظ أبا عثمان الصابوني، قال ابن السبكي: (وأما المجسمة بمدينة هراة فلما ثارت نفوسهم من هذا اللقب عمدوا إلى أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري صاحب كتاب ذم الكلام فلقبوه بشيخ الإسلام. وكان الأنصاري المشار إليه رجلاً كثير العبادة محدثاً إلا أنه يتظاهر بالتجسيم والتشبيه وينال من أهل السنة وقد بالغ في كتابه ذم الكلام حتى ذكر أن ذبائح الأشعرية لا تحل..وكان أهل هراة في عصره فئتين فئة تعتقده وتبالغ فيه لما عنده من التقشف والتعبد وفئة تكفره لما يظهره من التشبيه)

ولعل ابن تيمية ما أنس له وعظمه إلا لمواقفه المتشددة من المنزهة، ولهذا ينقل عنه معظما له، ومن ذلك قوله: (وقال شيخ الاسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري في كتاب ذم الكلام في آخره لما عقد باباً في ذكر هؤلاء الأشعرية المتأخرين فقال باب في ذكر كلام الأشعري، ولما نظر المبرزون من علماء الأمة وأهل الفهم من أهل السنة طوايا كلام الجهمية وما أودعته من رموز الفلاسفة ولم يقع منهم إلا على التعطيل البحت وأن قطب مذهبهم ومنتهى عقيدتهم ما صرحت به رؤوس الزنادقة قبلهم أن الفلك دوار والسماء خالية..وأن قولهم سميع بلا سمع.. بلا نفس ولا شخص ولا صورة،..فقد شحنت كتاب تكفير الجهمية من مقالات علماء الإسلام ورن الخلفاء فيهم ودق عامة أهل السنة عليهم وإجماع المسلمين على إخراجهم من الملة..يردون على اليهود قولهم يد الله مغلولة فينكرون الغل وينكرون اليد فيكونوا أسوأ حالاً من اليهود لأن الله سبحانه أثبت الصفة ونفى العيب واليهود أثبتت الصفة وأثبتت العيب، وهؤلاء نفوا الصفة كما نفوا العيب..وإنما اعتقادهم أن القرآن غير موجود، لفظية الجهمية

4() سير أعلام النبلاء (18/508).

الذكور بمرة والجهمية الإناث بعشر مرات.. قالوا وقد شاع في المسلمين أن رأسهم علي بن إسماعيل الأشعري كان لا يستنجي ولا يتوضأ ولا يصلي)[1]

لقد نقل ابن تيمية ذلك مستشهداً به على ذم من سماهم (المتأخرين من أصحاب الأشعري) مع أن من سماه شيخ الإسلام لم يترك منهم أحداً، بل حكى الإجماع على تكفيرهم، وشحن كتبه في ذلك وسعى بين السلاطين في فتنتهم، ونضح بما فيه من وصفهم ذلك الوصف الذي خرج به عن حدود الأدب [2].

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما يقول؟

قلت: أجل سيدي القاضي.. فكتب ابن تيمية مشحونة بالثناء عليه، ولا أحتاج لذكر شواهد على ذلك.. بل إنه يحرص دائما على أن يسميه (شيخ الإسلام)

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث؟

قال الخليلي: المثال الثالث هو في موقف ابن تيمية من علم من كبار أعلام المجسمة يقال له (أبو يعلى الفراء).. وهو رجل قد نال سخط الحنابلة بسبب كتاب كتبه مشحون بكل ألوان التجسيم والتشبيه، ومع ذلك لم ينل من ابن تيمية ما يستحقه من الذم والعتاب.

قال القاضي: هل لك أن تفصل أكثر.. فنحن في مجلس قضاء.. ولا نقبل إلا البينات الواضحة.

قال الخليلي: لقد ألف أبو يعلى كتابه (إبطال التأويلات) في أوائل القرن الخامس الهجري، لكن الكتاب بحكم ما فيه

1() بيان تلبيس الجهمية 2 /400ـ 404 وانظر هذه الحكاية في سير أعلام النبلاء 16/ 478.

2() انظر: التجسيم في الفكر الاسلامي.

من تجسيمات وتشبيهات بقي مغمورا إلى أن ذاع خبره سنة (429هـ) حينها ضج العلماء لظهور هذا الكتاب ولافتتان بعض العوام بما فيه.. وقد حصلت بسبب ذلك فتنة اقتضت تدخل الخليفة القائم بأمر الله العباسي لتسكينها بمساعدة أبي الحسن القزويني الزاهد الشافعي المقبول من جميع الطوائف، وقد أخرج القائم بأمر الله عقيدة والده الخليفة القادر بالله، ووَقَّعَ عليها العلماء وسكنت الفتنة [1].

قال القاضي: دعنا من كل هذه التفاصيل التاريخية، وحدثنا عن محتوى الكتاب وموقف ابن تيمية منه.

قال الخليلي: حاضر – سيدي القاضي – وأنا ما ذكرت لك ذلك إلا لتعلم أن موقف ابن تيمية في التجسيم مخالف لأكثر علماء الأمة.. ولولا أنه وجد في هذه الأزمنة من المغفلين من ينشر مذهبه لما كان هناك عاقل يقبله.

أما الكتاب، وما يحويه من تجسيم محض، فلا خلاف فيه، وقد قال ابن الأثير في (الكامل في التاريخ): (وفي شهر رمضان منها توفي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي، ومولده سنة ثمانين وثلاثمائة، وعنه انتشر مذهب أحمد، وكان إليه قضاء الحريم ببغداد بدار الخلافة، وهو مصنف كتاب الصفات أتى فيه بكل عجيبة، وترتيب أبوابه يدل على التجسيم المحض، تعالى الله عن ذلك..)[2]

وقال فيه أبو محمد رزق الله الحنبلي، وهو من المعاصرين لأبي يعلى: (لقد شان المذهب شينا قبيحا لا يغسل إلى يوم القيامة)[3]

التفت القاضي إلي، وقال: هل صحيح ما يذكره الخليلي؟

قلت: أجل سيدي.. وقد سمعت من مصادر موثوقة عن

1() انظر:طبقات الحنابلة: 2/197.

2() الكامل في التاريخ (8/ 209)

3() انظر: دفع شبه التشبيه، لابن الجوزي ص10.

القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال: (أخبرني من أثق به من مشيختي أن أبا يعلى محمد بن الحسين الفراء - رئيس الحنابلة ببغداد - كان يقول إذا ذكر الله تعالى، وما ورد من هذه الظواهر في صفاته يقول: ألزموني ما شئتم فإني ألتزمه، إلا اللحية والعورة...) [1]

لكن رأيت ابن تيمية يشكك في صحة هذه القصة ويكذبها[2]

قال الخليلي: وهذا من أدلة انحيازه للرجل.. وإلا فلو أنها كانت عن الصوفية أو الشيعة أو الإباضية لقبلها، ولم يحتج لها أي سند مجهول أو معلوم.

قال القاضي: ألا يمكن أن يكون كل ما قالوه مجرد ادعاءات باطلة عن الكتاب؟

قال الخليلي: كيف يكون ذلك، والكتاب مشحون بأوصاف كثيرة لله يعف اللسان عن قولها، من أمثال[3]: (شاب، أمرد، أجعد، في حلة حمراء، عليه تاج، ونعلان من ذهب، وعلى وجهه فَرَاش من ذهب)

وقد شحنه بالروايات الموضوعة، وينص على أن من لم يؤمن بهذه الصفات العظيمة فهو (زنديق)، (معتزلي)، (جهمي)، (لا تقبل شهادته)، (لا يسلم عليه)، (لا يعاد)، ثم يقول:(وليس في قوله: شاب وأمرد وجعد وقطط وموفور إثبات تشبيه، لأننا نثبت ذلك تسمية كما جاء الخبر لا نعقل معناها، كما أثبتنا ذاتا ونفسا، ولأنه ليس في إثبات الفَرَاش والنعلين والتاج وأخضر أكثر من تقريب المحدث من القديم، وهذا غير ممتنع كما لم يمتنع وصفه بالجلوس على العرش..)[4]

1() العواصم من القواصم: 2/306)

2() انظر: درء تعارض العقل والنقل 5/238.

3() إبطال التأويلات: 1/133.

4() إبطال التأويلات: 1/146.

وهو ينطلق من قوله ﷺ:(إن الله خلق آدم على صورته)، يصف الله تعالى كما يصف أي بشر من البشر.

ويرجع إلى أهل الكتاب في ذلك، فينقل عن كعب الأحبار أنه قال:(إن الله تعالى نظر إلى الأرض فقال: إني واط على بعضك، فانتسفت إليه الجبال فتضعضعت الصخرة فشكر الله لها ذلك فوضع عليها قدمه)[1]، ثم يعتبر هذا لإفك حقيقة عقدية، يدلل لها بالرواية الواهية التالية:(آخر وطأة وطئها رب العالمين بوَجّ)، ثم يذكر قول كعب الأحبار:(وَجّ مقدس، منه عَرَجَ الرب إلى السماء يوم قضى خلق الأرض)

ويعلق على هذه الترهات بقوله:(اعلم أنه غير ممتنع على أصولنا حمل هذا الخبر على ظاهره، وأن ذلك على معنى يليق بالذات دون الفعل)

وينقل عنه هذه أنه قال لمن سأله أين ربنا:(هو على العرش العظيم متكئ واضع إحدى رجليه على الأخرى)، ثم يعلق عليها بقوله:(اعلم أن هذا الخبر يفيد أشياء: منها جواز إطلاق الاستلقاء عليه، لا على وجه الاستراحة بل على صفة لا نعقل معناها، وأن له رجلين كما له يدان، وأنه يضع إحداهما على الأخرى على صفة لا نعقلها)، ويدلل على هذا بهذه الرواية الموضوعة:(إن الله لما فرغ من خلقه استوى على عرشه واستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: إنها لا تصلح لبشر)

التفت إلي قال القاضي، وقال: هل حقا ما يقول الخليلي.. هل في الكتاب كل هذا؟

قلت: أجل.. والكتاب بين يدي، وقد طبع ونشر على نطاق واسع.. بل هو الآن بين العوام والخواص، ويحمل مجانا على النت.. ويوضع في المكتبات العقدية ككتاب من أهم كتب العقيدة السنية السلفية.. وقد قال محقق الكتاب في خطبته مشيدا به: (وبعد، فإن كتاب (إبطال التأويلات لأخبار الصفات)

---

[1] إبطال التأويلات: 1/202.

للقاضي أبي يعلى الفـراء كـان يعـد إلى زمن قـريب من الكتب المفقودة، وهو كتاب فريد في بابه، إذ تضمن الرد على تـأويلات الأشاعرة والمعتزلة والجهمية لأخبـار الصـفات الإلهيـة، الـواردة على لسان رسوله ﷺ وأعلم الخلق بـه، وبيـان مـذهب السـلف فيها وهو إثباتها والإيمان بها، ونفي التكييف عنهـا والتمثيـل لهـا، فهذا هو التوحيد الذي بينه الله تعالى..)[1]

قـال القاضـي: وعيت هـذا.. لكن لم تحـدثوني عن موقـف ابن تيمية منه.

قـال الخليلي: مـع مـا ذكرتـه لـك من الفتن الـتي وقعت بسبب الكتاب، وردود العلماء عليه إلا أنـا نجـد ابن تيميـة يحييـه ويهتم به ويرجع إليه، بل ويعتبر صاحبه من علماء السنة.. وفوق ذلك يتشدد مع المنكرين عليه أو الناقدين له.

لقد ذكر الفتنة التي حصلت بسبب الكتاب، فقال: (وصـنف القاضي أبـو يعلى كتابـه في (إبطـال التأويـل) رد فيـه على ابن فورك شيخ القشيري وكـان الخليفـة وغـيره مـائلين إليـه؛ فلمـا صار للقشيرية دولة بسبب السـلاجقة جـرت تلـك الفتنـة وأكـثر الحـق فيهـا كـان مـع الفرائيـة مـع نـوع من الباطـل، وكـان مـع القشيرية فيها نوع من الحق مع كثير من الباطل)[2]

والباطـل الـذي يقصـده ابن تيميـة ليس التجسـيم، وإنمـا اتهامــه لأبي يعلى بــالتفويض أي أنــه لم يكن صــريحا بالقــدر الكـافي في موقفـه من التجسـيم.. فهـو – عنـده - من الـذين (سمعوا الأحاديث والآثـار، وعظمـوا مـذهب السـلف، وشـاركوا المتكلمين الجهمية في بعض أصولهم الباقيـة، ولم يكن لهم من الخبرة بالقرآن والحديث والآثار ما لأئمة السنة والحديث، لا من جهة المعرفة والتمييز بين صحيحها وضعيفها، ولا من جهة الفهم لمعانيها، وقد ظنوا صحة بعض الأصول العقلية للنفـاة الجهميـة،

1() إبطال التأويلات، ص4.

2() مجموع الفتاوى (6/ 54).

ورأوا ما بينهما من التعارض)[1]

هذا هـو موقـف ابن تيميـة من أبي يعلى.. أمـا موقفـه من المنكر عليه، والذي كتب كتابا في الرد عليه، وهو أبو الفرج ابن الجوزي، والذي ألف كتابه (دفع شبه التشبيه) أو ما يرتضـي ابن تيمية أن يسميه (كف التشبيه) [2]فقد أنكر عليه، وذكر أنه يميل إلى مذهب المعتزلة كثيراً[3].. وكونـه كـذلك أعظم بدعـة عنـد ابن تيمية.

التفت القاضي إلي، وقال: هل تعـرف الكتـاب الـذي ألفـه ابن الجوزي؟ وهل حقا فيه ما ذكر الخليلي؟

قلت: أجل.. وهو الآن بين يديه، وإن شئت قـرأت لـك منـه ما يدلك على ما فيه؟

قال القاضي: اقرأ.. فنحن نحتاج إلى التأكد من كل شيء.

قلت: سأقرأ لك بعضـا ممـا في مقدمتـه، وبعضـا ممـا في خاتمته، وهما كفيلان بتوضيح أغراضه.

لقـد قـال في مقدمتـه: (ورأيت من أصـحابنا من تكلم في الأصول بمـا لا يصـلح، وانتـدب للتصـنيف ثلاثـة: أبـو عبداللـه بن حامد، وصاحبه القاضي أبو يعلى، وابن الزاغـوني، فصـنفوا كتبـا شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملــوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله سـبحانه وتعـالى خلق آدم عليه الصلاة والسـلام على صـورته فـأثبتوا لـه صـورة ووجهـا زائـدا على الـذات، وعيـنين، وفمـا ولهـوات وأضراسـا، وأضـواء لوجهـه هي السـبحات، ويـدين وأصـابع وكفـا وخنصـرا وإبهاما وصدرا وفخذا وساقين ورجلين وقالوا: مـا سـمعنا بـذكر الرأس!! وقالوا: يجوز أن يَمَسَّ ويُمَسَّ!! ويدني العبـد من ذاتـه وقال بعضهم: ويتنفس، ثم إنهم يرضون العوام بقــولهم: لا كمــا

---

[1] () درء تعارض العقل والنقل 7/34

[2] () انظر: درء تعارض العقل والنقل 8/60، 9/160

[3] () انظر: درء تعارض العقل والنقل 1/270.

يُعقل!..)[1]

وقال في خاتمته: (ولما علم بكتابي هذا جماعة من الجهال، لم يعجبهم لأنهم أَلِفُوا كلام رؤسائهم المجسمة فقالوا: ليس هذا المذهب. قلت: ليس مذهبكم ولا مذهب من قلدتم من أشياخكم، فقد نزهت مذهب الإمام أحمد، ونفيت عنه كذب المنقولات، وهذيان المقولات، غير مقلد فيما أعتقده)[2]

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع؟

قال الخليلي: المثال الرابع هو في موقف ابن تيمية من شخص من كبار المجسمة، بل لعله من أوائل من نشر مفاهيم التجسيم في هذه الأمة، فقد كانت له علاقة بالسلاطين، وكان مقربا منهم، وقد أتيح له أن ينشر أفكاره بكل حرية.

قال القاضي: من تقصد؟

قال الخليلي: أقصد كعب الأحبار اليهودي، والذي لقي العناية الكبيرة من ابن تيمية، وقبله من أهل الحديث، حتى أعطوه الحصانة المطلقة التي تحميه من النقد والتجريح.

قال القاضي: أعرفه.. وأعرف أن بعض العلماء المتأخرين فطنوا لما فعله بالإسلام، وما سربه من اليهودية إليها.

قال الخليلي: لكن أولئك لا يزالون يعانون من التهميش والاحتقار بسبب موقفهم ذلك.. لأن انهيار كعب الأحبار يعني انهيار جدران كبيرة من التجسيم الذي يقوم عليه دين ابن تيمية وأتباعه من السلفية.

قال القاضي: لقد عظمت الأمر.. فهل ذكرت لنا بعض ما يدل عليه.

1() دفع شبه التشبيه: ص7.

2() دفع شبه التشبيه: ص67.

قال الخليلي: رواياته تمتلئ بها كتب التفسير وكتب السنة وكتب ابن تيمية.. وسأعرض لك أربعة نماذج منها لتتأكد مما قلت..

قال القاضي: فهات النموذج الأول.

قال الخليلي: لقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بسنده عن كعب الأحبار أنه قال: (قال الله عز وجل أنا الله فوق عبادي وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على العرش أدبر أمر عبادي، لا يخفى علي شيء من أمر عبادي في سمائي وأرضي، وإن حُجبوا عني فلا يغيب عنهم علمي، وإلي مرجع كل خلقي فأنبئهم بما خفي عليهم من علمي، أغفر لمن شئت منهم بمغفرتي، وأعذب من شئت منهم بعقابي)[1]

انظر – سيدي القاضي – إلى هذه الرواية وما تحمله من كل معاني التجسيم، والتي لاقت قبولا كبيرا من طرف التيميين، يحتجون بها، وكأنها قرآن منزل[2].

إن هذه الرواية تنبه الحس على أن يقدر لله وجوداً جسمياً في أعلى نقطة من الكون.. فوق العرش.. ويلتزم الحسُ بَعد ذلك غايةَ البعد في المسافة بينه وبين خلقه.. وتبرز الحاجة مع هذا البعد الذي قدره إلى التأكيد على أن هذا البعد لا ينقِص من كمال علمه وإحاطته، وإن كان العلم المباشر في الشاهد يتأثر ببعد المسافة لأنه يستلزم نوعَ قربٍ من المعلوم لتتصل به طرق العلم الحسية. ولهذا يؤكد من أذعن لهذا التقدير الحسي على كمال العلم مع غاية العلو. وهذا واضح في خبر كعب[3].

انظر كيف تأثر عثمان الدارمي بهذه المقولة، فقال:(وإنما يعرف فضلُ الربوبية وعِظمُ القدرة بأن الله تعالى من فوق عرشه وبعد مسافة السموات والأرض يعلم ما في الأرض وما

---

[1] () العظمة 2/626.

[2] () العرش للذهبي 2/148.

[3] () انظر: الفكر التجسيمي.

تحت الثرى وهو مع كل ذي نجوى، ولـذلك قـال: ﴿عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ ﴾ [الأنعـام: 73]، ولـو كـان في الأرض كمـا ادعيتم بجنب كل ذي نجوى مـا كـان بعجبٍ أن ينـبئهم بمـا عملـوا يـوم القيامة فلو كنا نحن بتلك المنزلة منهم لنبأنا كل عامل منهم بما عمل)[1]

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات النموذج الثاني.

قال الخليلي: لقد روى الطبري في تفسيره هـذه الروايـة: جاء رجل إلى كعب فقال: يـا كعب أين ربنـا؟ فقـال لـه النـاس: دقّ الله تعالى، أفتسأل عن هذا؟ فقـال كعب: دعـوه، فـإن يـك عالمـا ازداد، وإن يـك جـاهلا تعلم. سـألت أين ربنـا، وهـو على العــرش العظيم متكئ، واضــع إحــدى رجليــه على الأخــرى، ومسافة هذه الأرض التي أنت عليها خمسمائة سنة ومن الأرض إلى الأرض مسيرة خمس مئة سنة، وكثافتهـا خمس مئـة سـنة، حتى تمّ سبع أرضين، ثم من الأرض إلى السماء مسـيرة خمس مئة سنة، وكثافتها خمس مئة سنة، والله على العـرم متكئ، ثم تفطر السموات.. ثم قال: إقرؤوا إن شـئتم: ﴿تَكَـادُ السَّـمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ [الشورى: 5])[2]

هل رأيت – سيدي القاضي – أبلغ من هذا التجسيم.. وأبشع من هذه الخرافة.. إننا لو حسبنا هـذه المسـافة لربمـا لم نصـل إلى نجم من النجوم الـتي نراهـا.. لكن كعبـا يقـول لنـا: إننـا إذا قطعنا هذه المسافة، فسنصل إلى الله.. تعـالى اللـه عن قولـه علوا كبيرا؟

ولهذا تجد المتبعين لابن تيمية والمتـأثرين بسـلفه ينكـرون الاكتشافات العلمية، وخاصة الفلكية منها، لأنها تقضي على كـل تصوراتهم لربهم وللكون.

والخطر ليس في ذلك فقط.. بل بالخطير في أنـه يحـرف

---

[1] نقض عثمان بن سعيد 443.

[2] تفسير الطبري (21/ 501).

المعـاني القرآنيـة، ويغيرهـا عن سـياقها ومـدلولها المقدسـة لتتحول إلى معاني تجسيمية وثنية.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات النموذج الثالث.

قال الخليلي: لقد روى الطبري في تفسيره أن عمر سـأل كعبا: ما أوَّل شيء ابتدأه الله من خلقه؟ فقال كعب: كتب اللـه كتابًا لم يكتبه بقلم ولا مداد، ولكنه كتب بأصبعه يتلوها الزبرجـد واللؤلؤ والياقوت (أنا الله لا إله إلا أنا، سـبقت رحمـتي غضـبي)[1]

هل رأيت – سيدي القاضي- أبلغ من هذا التجسيم.. وانظر إلى غرامه بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت كشأن اليهود الذين عبدوا العجل الذهبي.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات النموذج الرابع.

قـال الخليلي: لقـد روى السـيوطي في (الـدر المنثـور في التفسير بالمأثور) روايـة طويلـة عن كثـير من المحـدثين، وممـا ورد فيها: فقال عمر بن الخطاب عند ذلك: ألا تسمع يا كعب ما يحدثنا به ابن أم عبد عن أدنى أهل الجنة ما له فكيف بـأعلاهم؟ قال: يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت، إن اللـه كان فوق العرش والمـاء، فخلـق لنفسـه دارا بيـده، فزينهـا بمـا شاء وجعل فيها ما شاء من الثمرات والشراب، ثم أطبقهـا فلم يرها أحد من خلقه منذ خلقها جبريـل ولا غـيره من الملائكـة ثم قرأ كعب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17][2]

هل رأيت – سيدي القاضي – أبلغ من هذا التجسيم؟

ومـع ذلـك نـرى ابن تيميـة يثـني عليـه، ويقبلـه، ويسـتدل بمروياته، وكأنها آيات منزلة، أو أحاديث من لا ينطق عن الهوى.

---

[1] تفسير الطبري (11/ 277).

[2] الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (8/ 259).

التفت القاضي إلي، وقال: هل صحيح ما يذكره الخليلي؟

قلت: أجل.. وقد وجدته يذكره في مواضع كثيرة، ويعتبره من علماء أهل الكتاب، بل إنه ذكر ما يدل على أن مرجعه فيما يذكره من إسرائيليات هي التوراة الصحيحة، فقد قال في دقائق التفسير: (وعمر بن الخطاب لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها، فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به، ولم يجزم عمر بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها، والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبي ﷺ فيهما ما أنزله الله عز وجل، والجزم بتبديل ذلك في جميع النسخ التي في العالم متعذر، ولا حاجة بنا إلى ذكره، ولا علم لنا بذلك، ولا يمكن أحدا من أهل الكتاب أن يدعي أن كل نسخة في العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد، فإن هذا مما لا يمكن أحدا من البشر أن يعرفه باختياره)[1]

المثال الخامس:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الخامس.

قال الخليلي: المثال الخامس هو في دعوة ابن تيمية لقراءة كتب رجل مملوءة بالتجسيم والتشبيه وجميع أنواع الخرافات.. إنه أبو الشيخ الأصفهاني، صاحب أكبر كتاب في الخرافة، والذي يطلق عليه كتاب (العظمة)، وهو يفسر مفهوم ابن تيمية وأتباعه من السلفية لعظمة الله[2].

ومع أن الكتاب من أهم مصادر الحديث الموضوع إلا أنهم لا يهتمون بذلك، لأنهم حيثما شموا رائحة التجسيم هرعوا لا

1() دقائق التفسير (2/ 58)

2() ذكر د. صهيب السقار في كتابه (التجسيم في الفكر الإسلامي) اهتمام السلفية الحديثة بكتاب العظمة، ومن ذلك ما ورد في مقدمة المحقق رضاء الله بن محمد المباركفوري 1/12 و40و83 و85. للكتاب، وجواب أهل السنة لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فقد عده من كتب السنة مع كتابي الدارمي وكتاب ابن بطة والهروي وسنة الخلال ونحوها..

يلوون على شيء.

قال القاضي: هل لك أن تقرأ لنا بعض ما فيه حتى نتبين.

قال الخليلي: أجل – سيدي القاضي- سأقتبس لك منه أربعة نصوص لتعرف من خلالها الشخصيات التي يدعو ابن تيمية إلى التماس العلم منها.

قال القاضي: فهات النص الأول.

قال الخليلي: لقد فسر قوله عز وجل: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52]، بقوله: (بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، فما زال يقرب موسى حتى صار بينه وبينه حجاب، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال رب أرني أنظر إليك) [1]

وهو واضح في الدلالة على المكان، وعلى مفهوم القرب عنده وعند أتباع ابن تيمية، فالقرب عندهم قرب حسي متعلق بالمسافة، لا بعبادة الله أو محبته والأنس به.

قال القاضي: فهات النص الثاني.

قال الخليلي: لقد روى في كتاب العظمة هذا الحديث العجيب الذي يفسر به تفسيريا تجسيميا قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: 29]: (إن ربكم تبارك وتعالى ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه، وإن مقدار كل يوم عنده ثنتي عشرة ساعة، فيعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار واليوم، فيها ثلاث ساعات، فيطلع فيها على ما يكره فيغضب كذلك، فأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش، والملائكة المقربون، وسائر الملائكة، فينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلا يسبحه غير الثقلين، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن عز وجل رحمة، فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فيصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم

1() العظمة2/714(301)

يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وهو بكل شيء عليم، فتلك ثنتا عشرة ساعة، ثم قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: 29] هذا من شأنكم وشأن ربكم عز وجل)[1]

هل رأيت – سيدي القاضي- كيف تحول الله عندهم إلى حاكم أو امبراطور لا يختلف عن أي حاكم أو امبراطور في الدنيا.

قال القاضي: فهات النص الثالث.

قال الخليلي: لقد روى في كتابه نصا يدل على أن لله وزنا محددا، وأنه ثقيل، يقول فيه: (ويحك، تدري ما الله؟، إن عرشه على سماواته وأرضيه هكذا مثل القبة، وإنه يئط به أطيط الرحل بالراكب)[2]

قال القاضي: فهات النص الرابع.

قال الخليلي: لقد روى في كتابه نصا يدل على أنه يمكن بحسابات بسيطة أن نصل إلى مكان الله، يقول فيه:(ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء إلى التي تليها مسيرة خمسمائة عام، كذلك إلى السماء السابعة، والأرضين مثل ذلك، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك، ولو حفرتم لصاحبكم فيها لوجدتموه)[3]

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا يوجد في الكتاب ما ذكر؟

قلت: أجل.. الكتاب بين يدي، وهو مملوء بالخرافات، ولو ذكرت لكم ما فيه لما انتهى المجلس..

1() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/ 477).

2() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/ 556).

3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/ 558).

قال القاضي: فكيف تثبتون أن ابن تيمية دعـا إلى اعتبـاره من علماء السلف الذين يؤخذ عنهم؟

قلت: من الأمثلـة على ذلـك مـا ذكـره في شـرح العقيـدة الأصفهانية، فقد جاء فيهـا قولـه: (وأمـا أقـوال السـلف وعلمـاء الإسـلام في هـذا الأصـل، ومـا في ذلـك من نصـوص الكتـاب والسـنة فهـذا أعظم من أن يسـعه هـذا الشـرح، ومن كتب التفسير المنقولة عن السلف مثل تفسير عبد الرزاق، وعبـد بن حميد، وأحمـد بن حنبـل، وإسـحاق بن راهويـه، وبقي بن مخلـد، وعبد الرحمن بن إبراهيم، وعبد الرحمن بن أبي حـاتم، ومحمـد بن جريـر الطـبري، وأبي بكـر بن المنـذر، وأبي بكـر بن عبـد العزيز، وأبي الشيخ الأصفهاني، وأبي بكر بن مردويـه وغـيرهم)[1] ، فقد ذكره مع هـؤلاء الأعلام، وكلهم ذكـروا في تفاسـيرهم ما لا يقل عما ذكره أبو الشيخ.

المثال السادس:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السادس؟

قال الخليلي: المثال السادس هو في موقف ابن تيمية من فرقة يقال لها الكرامية، وهي فرقة كان لها تاريخ مشـهور في التجسيم، بل تمكنت بتلبسها لبـاس الزهـد والتقشـف أن تخـدع السلطان وتقنعه بمقالاتها، وتفوز بتأييده لها، وقمعه لمخالفيها.. والأخطر من ذلك هو تسرب بعض مقالاتها إلى المصنفات الـتي تنتسب إلى العقيدة السلفية[2].

وقد أسسها أبو عبد اللـه محمـد بن كـرام السـجزي الـذي قال فيه الشهرستاني: (نبغ رجل متنمس بالزهـد من سجسـتان ...قليل العلم قـد قمش من كـل مـذهب ضـغثاً وأثبتـه في كتابـه وروجه على سـواد بلاد خراسـان. فـانتظم ناموسـه وصـار ذلـك مذهباً)[3].. وقال عنه ابن السـبكي: (وكـان من خـبر ابن كـرام هذا وهو شيخ سجستاني مجسم أنـه سـمع يسـيراً من الحـديث

[1] شرح العقيدة الأصفهانية (ص: 65).

[2] انظر: الفكر التجسيمي.

ونشأ بسجستان ثم دخل خراسان...وعاد إلى نيسابور وباح بالتجسيم. وكان من إظهار التنسك والتأله والتعبد والتقشف على جانب عظيم..)[1]

وعندما أظهر بدعته في التجسيم أنكر عليه العلماء وسعوا في سجنه وقتله.. لكن الحاكم اكتفى بنفيه، وهاب قتله لما رأى فيه من مخايل العبادة والتقشف[2].

وقد كان أتباع الكرامية لا يكتفون بمعتقدهم التجسيمي، وإنما كانوا يؤذون المخالفين لهم شأنهم شأن أتباع ابن تيمية.. وقد تسببوا في مقتل العلامة المنزه أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك بسبب شدته عليهم، قال ابن السبكي: (وكان ابن فورك شديداً على الكرامية، وأذكر أن ما حصل له من المحنة من شغب أصحاب ابن كرام وشيعتهم من المجسمة...فتحزبوا عليه ونموا عليه غير مرة وهو ينتصر عليهم فلما أيست الكرامية من الوشاية والمكايدة عدلت إلى السعي في موته والراحة من تعبه فسلطوا عليه من سمه فمضى حميداً شهيداً)[3]

ومثل ذلك حصل لأبي إسحاق الاسفرائيني، ولولا وقوف السلطان إلى جنبه لكانوا قتلوه، وقد حكى أبو المظفر بعض مناظرات الاسفرائيني لهم، فقال: (سأل بعض أتباع الكرامية في مجلس السلطان محمد بن سبكتكين إمامَ زمانه أبا إسحاق الإسفراييني رحمه الله عن هذه المسألة –الاستواء على العرش – فقال:هل يجوز أن يقال: إن الله تعالى على العرش؟ وأن العرش مكان له؟ فقال: لا. وأخرج يديه ووضع إحدى كفيه على الأخرى، وقال: كون الشيء على الشيء يكون هكذا، ثم

3() الملل والنحل107

1() طبقات الشافعية لابن السبكي 2/35.

2() طبقات الشافعية 2/53.

3() طبقات الشافعية الكبرى 4/131.

لايخلو إما أن يكون أكبر منه أو أصغر منه فلا بد من مخصص خصه وكل مخصوص يتناهى والمتناهي لايكون إلهاً ...فلم يمكنهم أن يجيبوا عنه فأغروا به رعاعهم حتى دفعهم عنه السلطان بنفسه...ولما ورد عليهم هذا الإلزام تحيروا فقال قوم إنه أكبر من العرش وقال قوم إنه مثل العرش. وارتكب ابن المهاجر منهم قوله إن عرضه عرض العرش. وهذه الأقوال كلها متضمنة لإثبات النهاية وذلك علم الحدوث لايجوز أن يوصف به الصانع)[1]

وهكذا حصل مع الفخر الرازي، حيث..

قاطعه القاضي، وقال: دعنا من كل هذه التفاصيل التاريخية.. حدثنا عن مقولتهم في التجسيم، وعلاقة ابن تيمية بها.

قال الخليلي[2]: من مقولاتهم في التجسيم زعمهم أن معبودهم جسم له حد ونهاية من تحته وهي الجهة التي يلاقي منها العرش.. ثم اختلفوا في النهاية فمنهم من أثبت النهاية له من ست جهات، ومنهم من أنكر النهاية له، وقال هو عظيم.

ولهم في معنى العظمة خلاف.. فذهب بعضهم إلى أن معناها أنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش والعرش تحته، وهو فوق ذلك على الوجه الذي هو فوق جزء منه.. وذهب بعضهم إلى أنه يلاقي مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد وهو يلاقي جميع أجزاء العرش وهو العلي العظيم.

واختلفوا في الاستواء على العرش فنص ابن كرام على أن معبوده على العرش استقر، وأنه بجهة فوق ذاتاً، وأن العرش مكان له، وجوز عليه الانتقال والنزول.. وزاد بعض أصحابه فزعم أن العرش مكان له، وأنه لو خلق بإزاء العرش عروشاً موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكاناً له لأنه أكبر منها

1() التبصير في الدين 66

2() انظر الفرق بين الفرق للبغدادي 203

كلها. قال البغدادي: (وأعجب من هذا كله أن ابن كرام وصف معبوده بالثقل وذلك أنه قال في كتاب عذاب القبر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1])[1]

وقد عدوا من صفات الله تعالى اليدين والوجه فأثبتوها صفاتٍ قديمةً قائمة بذاته، وقالوا: له يد لا كالأيدي ووجه لا كالوجوه.. وقالوا..

قاطعه القاضي، وقال: لقد وضح الأمر، ولا حاجة لمزيد من التفصيل.. حدثنا عن موقف ابن تيمية منهم.. فهذا الذي يهمنا هنا.

قال الخليلي: لقد اتهم ابن تيمية في عصره وفي كل العصور بأنه يقول قول الكرامية في التجسيم، وقد أجاب عن هذا، لا بنفي العلاقة بينه وبين الكرامية، وإنما بإثبات أن الكرامية هم الذين أخذوا من السلف مذهبهم، لأن ما طرحوه من المسائل كان قبل أن تخلق الكرامية وتوجد، لقد قال في مناقشته للجويني في بعض جزئيات مذهب الكرامية في كلام الله عزّ وجل: (إن السلف وأئمة السنة والحديث، بل من قبل الكرامية من الطوائف لم يكن يلتفت إلى الكرامية وأمثالهم، بل تكلموا بذلك قبل أن يُخلق الكرامية، فإن ابن كرام كان متأخراً بعد أحمد بن حنبل، في زمن مسلم بن الحجاج وطبقته، وأئمة السنة والمتكلمون تكلموا بهذه قبل هؤلاء) [2]

وقد ذكر في مجموع الفتاوى أن (الكرامية فيهم قرب إلى أهل السنة والحديث وإن كان في مقالة كل من الأقوال ما يخالف أهل السنة والحديث)[3]

وقال مثنيا عليهم: (وكذلك متكلمة أهل الإثبات، مثل الكلابية، والكرامية، والأشعرية، إنما قبلوا واتبعوا واستحمدوا

1() الفرق بين الفرق 207

2() الصفات الاختيارية (ضمن جامع الرسائل 2/10)

3() مجموع الفتاوى (6/ 55)

إلى عموم الأمة، بما أثبتوه من أصول الإيمان، من إثبات الصانع وصفاته، وإثبات النبوة، والرد على الكفار من المشـركين وأهـل الكتاب، وبيان تناقض حججهم، وكذلك استحمدوا بمـا ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية، من أنواع المقالات التي يخـالفون فيهـا أهـل السـنة والجماعـة، فحسـناتهم نوعـان: إمـا موافقة أهل السنة والحديث، وإما الـرد على من خـالف السـنة والحديث بيان تناقض حججهم)[1]

وكأنه بذلك يقـر منهجهم المتشـدد مـع المخـالفين، والـذي بسبب قتل ابن فورك..

التفت القاضي إلي، وقال: هل صحيح ما ذكــر الخليلي عن موقف ابن تيمية من هذه الطائفة؟

قلت: أجــل - سـيدي- هي ذي كتب ابن تيميــة بين يــدي، وفيها نرى الفـرق في تعاملـه المتشـدد مـع المنزهـة في الحين الذي يلين فيه مع كل من يشم منه رائحة التجسيم.

وقد لاحظت أنـه يسـميهم (متكلمـة أهـل الإثبـات) [2] في الوقت الذي يعتبر فيه المنزهة متكلمة التعطيل.

ولعـل مـا زاد من إعجـاب ابن تيميـة بهم هـو في مسـألة الإمامة، حيث أنهم يرون أن علياً ومعاوية كلاهما مصيب، وعليه: فيجوز عقد البيعة لإمامين في وقت واحد عند الحاجة[3]

المثال السابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السابع.

قال الخليلي: المثال السابع هـو في موقـف ابن تيميـة من فرقـة يقـال لهـا المقاتليـة، وهي فرقـة تنتسـب لأبي الحسـن مقاتل بن سـليمان البلخي الـذي اعتـبره من السـلف مـع كونـه

1() مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 4/12.

2() انظر: درء تعارض العقل والنقل 1/154.

3() انظر: منهاج السنة النبوية 1/537.

مجسما من المفسرين، وقد قال عنه ابن المبارك: (مـا أحسـن تفسير مقاتل لو كان ثقة)[1]

وقد ذكر الأشعري مقولته في التجسيم، فقـال: (حكي عن أصحاب مقاتل أن اللـه جسـم، وأن لـه جثـةً، وأنـه على صـورة الإنسان لحم ودم وشعر وعظم وجوارح وأعضاء من يـد ورجـل ورأس وعينين مصمت وهـو مـع ذلـك لا يشـبه غـيره ولا يشـبهه غيره)[2]

وحكى عنه الشهرستاني أنـه قـال: (قـد ورد في الخـبر أن اللـه خلـق آدم على صـورة الـرحمن فلا بـد من تصـديقه)[3] . فكلهم اتفقوا على رميه بالتجسيم.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما يقول الخليلي؟

قلت: أجل.. وقد رأيت من مروياته في التجسيم: (إذا كـان يـوم القيامـة ينـادي منـاد أين حـبيب اللـه؟ فيتخطى صـفوف الملائكة حتى يصير إلى العرش حتى يجلسه معـه على العـرش حتى يمس ركبته)[4]

التفت القاضي إلى الخليلي، وقال: فمـا موقـف ابن تيميـة منه؟

قـال الخليلي: لقـد عرفنـا أن موقـف ابن تيميـة هـو اللين الشديد مع كل من يشم فيه رائحة التجسيم، فتجده يدافع عنـه، أو يظهر الورع في الموقف منه، بينما إذا رآه منزها صـدق عنـه كل مقولة، ونشر عنه كل إشاعة، لقد قـال عنـه: (وأمـا مقاتـل فالله أعلم بحقيقة حاله والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلـة وفيهم انحـراف عن مقاتـل بن سـليمان فلعلهم زادوا

1() انظر تاريخ بغداد للخطيب 13/ 163

2() مقالات الإسلاميين 152و209.

3() الملل والنحل178

4() ميزان الاعتدال 4/174.

في النقل عنه أو نقلوا عن غير ثقة وإلا فما أظنه يصل إلى هـذا الحد.. ومقاتل بن سليمان وإن لم يكن يحتج به في الحديث لكن لا ريب في علمه بالتفسير وغيره)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول في هذا؟

قلت: صـدق في هـذا.. أمـا مـا قالـه ابن تيميـة عن أن الأشعري نقل ما نقل من كتب المعتزلة المنحـرفين عن مقاتـل غير صـحيح، فقـد روى الخطيب البغـدادي عن أحمـد بن سـيار، وهو إمام المحدثين في بلده أنه قال: (مقاتـل مـتروك الحـديث كان يتكلم في الصفات بما لا تحل الرواية عنه)[2]

والأخطر من ذلك ثناء ابن تيميـة على علمـه بالتفسـير مـع أن ابن حبان قال: (كان يأخذ عن اليهود والنصـارى علم القـرآن الذي يوافق كتبهم وكان مشبهاً يشـبه الـرب بـالمخلوقين وكـان يكذب مع ذلك في الحديث)[3] . وقال الذهبي: (ظهر بخراسان الجهم بن صـفوان ودعـا إلى تعطيـل صـفات اللـه عـز وجـل.. وظهر في خراسان في قبالته مقاتل بن سليمان المفسر وبـالغ في إثبات الصفات حتى جسم وقام على هـؤلاء علمـاء التـابعين وأئمة السلف وحذروا من بدعهم)[4]

ثالثا ـ تبديع ابن تيمية للمنزهة

بعد أن ساق الخليلي ما سـاق من الشـواهد والبينـات كمـا ذكرته لكم قام الصـنعاني، وقـال: بعـد أن اتضـح لكم – سـيدي القاضي – تأييـد ابن تيميـة ونصـرته لكـل من يشـم فيـه رائحـة التشـبيه والتجسـيم، بـل اختصـاره السـنة في المشـبهة

[1] منهاج السنة 2/618

[2] تاريخ بغداد 13/162.

[3] المجروحون 2/15.

[4] طبقات الحفاظ 1/159

والمجسمة.. أريد أن أسوق لك الـدليل الثـاني إن إذنت لي في ذلك.

قـال القاضـي: أنت تعـرف أني لا أسـمع الـدليل قبـل أن أعرف وجه الاستدلال به..

قال الصنعاني: وجه الاستدلال به – سيدي – واضـح، وأنتم معشر القضاة أعرف الناس به.. أليس الذي يبرئ المتهم ويتهم البريء متهما عندكم؟

قال القاضي: بلى.. وهو ما يقتضيه العقل.. بل مـا يقتضـيه النقل، فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَـرْمِ بِـهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء: 112]

قال الصنعاني: بورك فيك سـيدي القاضـي، وهـذه الآيـة لا تنطبـق على أحـد في هـذا المجـال انطباقهـا على ابن تيميـة ومدرسـته، فهم يـنزهون المجسـمة ويحـترمونهم ويعظمـون، بينهما ينهالون على من ينزه اللـه ويقدسـه بصـنوف التضـليلات والتبديعات والتكفيرات.. وسأنتدب لـك شـاهدين عـدلين يـدلان على موقف ابن تيمية من كل من يشم منه رائحة التنزيه.

أما أولهما، فيبين لكم – سيدي القاضي – موقف ابن تيمية من العلماء الذين تورعوا أن يتكلموا في الله بغـير علم، فلـذلك فوضوا علم ما تشابه إلى الله، ولم يدلوا فيها بـآرائهم، وهم من يطلق عليهم لقب (المفوضة)

وأمـا الثـاني، فيـبين لـك موقـف ابن تيميـة من العلمـاء المتكلمين الذي خافوا على عقول العوام من التجسيم والتشبيه الـذي ينشـره من أوصـى ابن تيميـة بقـراءة كتبهم واتبـاعهم.. فلذلك راحوا يفسرون المتشابهات بمـا ورد في اللغـة العربيـة، وبما له نظير في التراث العربي الشعري والنثري.

1 ـــ موقـــف ابن تيميـــة المتشـــدد من المفوضة:

قال القاضي: هات الشاهد الأول.

قال الصنعاني: الشاهد الأول هو موقف ابن تيمية المتشدد من المفوضة.. بل اعتبرهم من أهل البدع والإلحاد مع أن القائلين بذلك من كبار العلماء والصالحين، بل نسبه بعضهم إلى السلف الصالح، ومع ذلك فإن ابن تيمية وبناء على موقفه من المخالف لم يرعو في رميهم بكل أصناف التضليل، ومن ذلك قوله فيهم: (..فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما يقول؟

قلت: بلى.. سيدي.. وقد رأيته في مجموع الفتاوى كعادته في التنابز بالألقاب يطلق عليهم (أهل التجهيل)، لقد قال فيهم: (..أما أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف يقولون إن الرسول لم يعرف معانيَ ما أنزل الله إليه من آيات الصفات..ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك...)[2]

وقد سمعت من المعاصرين في زماني من لا يزال يردد قول ابن تيمية فيهم، ومن ذلك قول ابن عثيمين: (التفويض من شر أقوال أهل البدع.. وإذا تأملته وجدته تكذيباً للقرآن وتجهيلاً للرسول)[3]

قال القاضي: أنا إلى الآن لم أفهم السبب الذي جعلهم يتوقفون، كان يمكنهم أن يفهموا المتشابهات على ضوء المحكمات، ويفسروا ذلك وفق ما تقضيه لغة العرب.

قال الصنعاني: ليس الأمر بتلك السهولة سيدي القاضي.. فاللفظ الواحد قد يحتمل من حيث المجاز أو الاستعارة أو الكناية معاني متعددة، فلذلك رأوا أن الأسلم التوقف فيه وإرجاء علمه إلى الله.

1() درء التعارض 1/205

2() مجموع الفتاوى 5/34

3() المحاضرات السنية 1/67

وهم في ذلك يستندون إلى ما ورد في النصوص من الحذر من الكلام في الله وفي كتابه بغير علم، ففي الحديث أن النـبي ﷺ سمع قوماً يتدارؤون فقال: هلك من كان قبلكم بهـذا ضـربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تضربوا بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا وما لا فكلــوه إلى عالمه)[1]

وفي حديث آخر أن رسول اللـه ﷺ تلا قولـه تعـالى: ﴿ هُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَـا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: 7]، ثم قال: (فإذا رأيتم الذين يتبعون مـا تشابه منه فأولئك الذين عنى الله فاحذروهم)[2]

ابتسم القاضي، وقال: الحـديثان واضـحان جـدا.. بـل الآيـة واضحة في الدلالة على هذا المسلك.. فكيف غاب عليهم؟

قـال الصـنعاني: سـتعرف ذلـك عنـدما تسـمع المحاكمـة جميعا.. فابن تيميـة ومدرسـته لا مكـان عنـدهم لمن يخـالفهم.. فـالمرء إمـا أن يكـون معهم، وإمـا أن يشـنوا عليـه كـل ألـوان الحروب.

قال القاضي: لقد أعجبني هـذا المسـلك، فهلا وضـحت لي الأسس التي يقوم عليها؟

قال الصنعاني: لقـد ذكـر العلمـاء في ذلـك أسسـا جمعهـا الغزالي في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام)..

قال القاضي: أليس الغزالي من المتكلمين الـذين يقولـون بالتأويل؟

قال الصنعاني: إن المتكلمين سواء كانوا من الأشــاعرة أو

1() خلق أفعال العباد 46.

2() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الماتريدية أو الإمامية لم يفرضوا على أتباعهم تأويلاتهم، بل إنهم يخيرونهم بين التفويض أو التأويل.

قال القاضي: هذا هو العلم.. وهذه هي الحكمة.. فحدثني عن الأسس التي يقوم عليها التفويض.

قال الصنعاني: من الأسس التي يقوم عليها القول بالتفويض [1] اليقين بتنزيه الله عز وجل وتعظيمه تصديقاً لقوله تعالى في الآية الكريمة: قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾ [سورة الشورى:11]

ومنها التصديق بما جاء في القرآن الكريم وما وافقه من السنة الصحيحة، وأنه حق على المعنى الذي أراده الله ورسوله.

ومنها الاعتراف بالعجز عن معرفة ذات الله عز وجل والإحاطة بوصفه.

ومنها السكوت عما سكت عليه الصالحون، والكف عن السؤال عنه كما كفوا، وأن لا نخوض فيه.

ومنها الإمساك عن التصرف في تلك الألفاظ. فنمسك عن تفسيرها بلغة أخرى، لأن من الألفاظ العربية ما لا يطابقها في غير العربية، وفي اللغة العربية تراكيبُ لغويةٌ تدل على معان لا تدل عليها بترجمة ألفاظها..

وهكذا نمسك عن تصريفها فلا نقول في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه:5]، هو المستوي على العرش لأن الفعل يدل على استواء مرتبط بزمان، واسم الفاعل ليس كذلك ففي مثل هذا التصريف زيادةُ معنى ربما لا يكون مراداً في اللفظ الوارد..

ونمسك عن تجميع ماتفرق من هذه الألفاظ، كما يفعل زعماء مدرسة المتشابه حين يجمعون في كتاب واحد أخباراً تحت باب خصوه لإثبات اليد، وخصوا باباً لإثبات الرجل، وباباً

[1] () انظر إلجام العوام لحجة الإسلام الغزالي 64-84

لإثبات الوجه، فقوي بذلك الإيهام وغلَب الحس.

ونمسك عن تجريد اللفظ عن سياقه وسباقه لأن كل كلمة سابقة ولاحقة تؤثر في إفهام المراد فإذا بلغنا قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [سورة الأنعام:18]، فلا يجوز أن نقول: (هو فوق عباده)، لأن لفظ القاهر قبله يشير إلى فوقية الرتبة والقهر، كما قال تعالى على لسان فرعون: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون﴾ [سورة الأعراف:127]، ونزعُ لفظِ القاهر يعطل هذا المعنى الذي يحتمله السياق احتمالاً قوياً ويوهم فوقيةً غيرَها لم يكن ليُفطن إليها لولا هذا التجريد عن السياق، بل قولنا: (القاهر فوق غيره) ليس كقولنا: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، لأن ذكر العبودية مع كونه موصوفاً بأن القاهرَ فوقه يؤكد فوقية السيادة والقهر.

التفت القاضي إلي، وقال: هل لديك ما تقول؟

قلت: أجل.. سيدي القاضي.. فقد رأيت بعض أصحاب ابن تيمية من المدرسة السلفية يذكر لي أنهم يفوضون.. فما أدري ما وجه صحة هذا؟

قال الصنعاني: أجل.. هم يذكرون عن أنفسهم هذا.. ولكنهم لا يعنون به تفويض التنزيه، بل يريدون به تفويض التجسيم والتشبيه.

قال القاضي: وما الفرق بينهما؟

قال الصنعاني: المنزه ينطلق من تقديس الله عن الحيز والحدود وكل ما له علاقة بالأجسام، ويفوض تحديد المراد بالمتشابهات إلى الله.. أما المجسم، فهو يفوض في الكيفية والحجم والمقدار.. وقد أدى بهم ذلك إلى مقولات غريبة عجيبة.

سأضرب لك مثلا عن رجل من معاصريك هو من أشهر تلاميذ ابن تيمية والمخلصين له.. إنه ابن عثيمين الذي قال: (نصوص الصفات تجري على ظاهرها اللائق بالله تعالى بلا

كيف، وهذه القاعدة تجـري على كـل فـرد من أفـراد النصـوص وإن لم ينصوا عليه بعينه، ولا يمكننا أن نخرج عنها نصاً واحداً إلا بدليل عن السلف أنفسهم. ولو قلنا إنه لابد أن ينصـوا على كـل نص بعينه لم يكن لهذه القاعدة فائدة)[1].

لقـد طبـق هـذه القاعـدة على مـا ورد في النصـوص من وصف الله بالملل، فقال: (إذا كان هذا الحديث يدل على أن لله مللاً فإن ملل الله ليس كمثل مللنا، بل هو ملل ليس فيه شيء من النقص... فإنه ملل يليق به عز وجل)[2]

وطبقها على ما ورد في النصوص من وصف الله بالهرولة، فقال: (صفة الهرولة.. فلا تستوحش يا أخي من شيء أثبته الله تعـالى لنفسـه، واعلم أنـك إذا نفيت أن يـأتي هرولـة فسـيكون مضمون هذا النفي صحةَ أن يقـال إن اللـه لا يـأتي هرولـة وفي هذا ما فيه)[3]

بـل إنهم تجـاوزوا ذلـك، وإمعانـا في الإثبـات في تصـورهم راحوا يصرحون بإثبات الكيفيـة، يقـول ابن عـثيمين: (السـلف لا ينفون الكيف مطلقاً لأن نفي الكيـف مطلقـاً نفي للوجـود، ومـا من موجود إلا ولـه كيفيـة لكنهـا قـد تكـون معلومـة وقـد تكـون مجهولة، وكيفية ذات الله تعالى وصفاته مجهولة لنا.. وعلى هذا فنثبت له كيفية لا نعلمها.. ونفي الكيفية عن الاستواء مطلقاً هو تعطيل محض لهذه الصفة لأنا إذا أثبتنا الاستواء حقيقـة لـزم أن يكون له كيفية وهكذا في بقية الصفات)[4]

قال القاضي: فهل كانو يدركون أن إثباب الكيفيـة يسـتلزم بالضرورة الكمية والشكل والحجم ونحو ذلك؟

1() مجموع فتاوى ابن عثيمين 1/185

2() مجموع فتاوى ابن عثيمين 1/174 وانظر صفة الملل في إبطال التأويلات 2/370

3() مجموع فتاوى ابن عثيمين 1/ 172

4() مجموع فتاوى ابن عثيمين 1/194 وانظر المحاضرات السنية لابن عثيمين 1/232

الصنعاني: أجل.. وقد صرح ابن تيمية بذلك، فقال جوابا للمعترضين على نفي الكيفية: (..وأما قوله (الكيفية تقتضي الكمية والشكل)، فإنه إن أراد أنها تستلزم ذلك فمعلوم أن الذين أثبتوا الكيفية إنما أرادوا الصفات التي تخصه كما تقدم، وإذا كان هذا مستلزماً للكمية فهو الذي يذكره المنازعون أنه ما من موصوف بصفة إلا وله قدْر يخصه، وأكثر أهل الحديث والسنة من أصحاب الإمام أحمد رحمه الله وغيرهم لا ينفون ثبوت الكيفية في نفس الأمر بل يقولون لا نعلم الكيفية.. ومعلوم أن الموجود يُنظر في نفسه وفي صفته وفي قدْره، وإن كان اسم الصفة يتناول قدْره ويستلزم ذاته أيضاً، فإذا عُلم بصريح العقل أنه لا بد له من وجود خاص أو حقيقة يتميز بها ولا بد له من صفات تختص به لا يشركه فيها أحد فيقال وكذلك قدره)[5]

2 ـ موقف ابن تيمية المتشدد من المؤولة:

قال القاضي: عرفنا الشاهد الأول.. فهات الشاهد الثاني.

قال الصنعاني: الشاهد الثاني هو موقف ابن تيمية المتشدد من المؤولة الذين يحملون الألفاظ على المعاني التي تقصدها العرب في كلامها إذا قبول ظاهر اللفظ.

قال القاضي: ما الذي تقصد بذلك؟

قال الصنعاني: عندما نقرأ قوله تعالى مثلا: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، فإننا لو أخذنا بظاهر اللفظ نكون قد اتهمنا الله بصفة من صفات النقص، وهي النسيان، والله تعالى أخبرنا في القرآن الكريم أن الله ليس نسيا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: 64]، ولذلك اعتبرنا الآية الأخيرة محكمة لأنها تصف الله بوصف كمال، واعتبرنا الأخرى متشابهة، لأن ظاهرها يدل على نقص، ولذلك نحتاج إلى تأويلها لتتناسب مع المحكم.

قال القاضي: فهمت ذلك.. ولكن بأي حجة يخرجون

5() بيان تلبيس الجهمية1/347

باللفظ عن ظاهره؟

قال الصنعاني: لقد أنزل الله تعالى القرآن ﴿بِلِسَانٍ عَـرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشـعراء: 195]، وهـذا يقتضـي أن يسـتعمل القـرآن الكريم كل الأساليب التي تستعملها العـرب في كلامهـا.. ومنهـا هذا الأسلوب المعبر عنه بالمجاز والكناية ونحوها.

قــال القاضــي: فهلا وضــحت لي الآيــة بحســب الرؤيــة التأويلية.

قال الصنعاني: من الأمثلة على ذلك قـول ابن عاشـور في الآية: (والنسيان منهم مستعار للإشراك باللـه، أو للإعـراض عن ابتغاء مرضاته وامتثال ما أمر به، لأن الإهمال والإعـراض يشـبه نسيان المعرض عنه.. ونسيان اللـه إيـاهم مشـاكلة أي حرمانـه إياهم مما أعد للمؤمنين، لأن ذلـك يشـبه النسـيان عنـد قسـمة الحظوظ)[1]

قال القاضي: هذا واضح ومنطقي.. فهل اعترض ابن تيمية على هذا المسلك؟

قال الصـنعاني: ليتـه اعـترض فقـط.. لقـد حمـل المؤولـة الويلات.. بل رماهم بكل ما سولت له نفسه من صنوف التبـديع والتضليل.. وهو إمعانا في التقية يسب الجهمية - أحيانا- بـدلهم، فيتصور المغفل أنه يقصـد تلـك الفرقـة الـتي انـدثرت، مـع أنـه يقصـد مجمـوع الأمـة من أشـاعرة وماتريديـة ومعتزلـة وزيديـة وإمامية..

قال القاضي: هلا ضربت لي أمثلة على ذلك.

قال الصـنعاني: من ذلـك قولـه: (ثم عامـة هـذه الشـبهات الــتي يســمونها دلائــل إنمــا تقلــدوا أكثرهــا عن طــواغيت من طواغيت المشركين أو الصـابئين، أو بعض ورثتهم الـذين أُمـروا أن يكفـــروا بهم، مثـــل فلان وفلان، أو عن من قـــال كقـــولهم لتشابه قلوبهم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيمَـا شَـجَرَ

1() التحرير والتنوير (10/ 255).

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِـدُوا فِي أَنفُسِـهِمْ حَرَجًـا مِّمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65])[1]

فهو يرجع كل ما كتبه العلماء في فهم النصوص وفق اللغة العربية، هربـا من مقتضـياتها الـتي تنسـب النقص إلى اللـه إلى كونهم أخذوها من المشركين.

وفي نص آخر يرجع ذلـك إلى اليهـود، فيقـول: (وأصـل هـذه المقالـة - مقالـة التعطيـل في الصـفات - إنمـا هـو مـأخوذ عن تلامذة اليهود.. فإن أول من حفظ عنه أنه قال: ليس اللــه على العرش حقيقة، وأن(استوى) بمعنى استولى - ونحـو ذلـك - هـو الجعـد بن درهم وأخـذها عنـه الجهم وأظهرهـا فنُسـبت مقالـة الجهمية إليه)[2]

والصفات التي يزعم ابن تيمية أن هؤلاء عطلوها ليس هي قدرة الله أو علمه أو حياته.. وإنما يقصد صفات التجسيم كاليـد والساق والرجل والقعود والجري والهرولة..

قال القاضي: ولكن كيف تعامل مع المحكم الـذي يتنـاقض مع المتشابه الذي حذر من تأويلـه.. مـا موقفـه مثلا من الآيـات التي تفيد المعية، كقوله تعالى مثلا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَـا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: 4]

قال الصنعاني: هو في هذه الحالـة يؤولـة كـل المحكمـات التي تتناقض مع مقتضيات التجسـيم.. ولكنـه من بـاب الاحتيـال يسميه تفسيرا لا تأويلا.. يقول في ذلك مثلا: (ذلك أن الله معنـا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة.. وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنـة المطلقـة؛ من غير وجوب مماسة أو محـاذاة عن يمين أو شـمال؛ فـإذا قيـدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنـة في ذلـك المعـنى. فإنـه يقال: ما زلنـا نسـير والقمـر معنـا أو والنجم معنـا. ويقـال: هـذا

1() الفتوى الحموية الكبرى (ص: 228)

2() الأسماء والصفات 2/17.

المتاع معي لمجامعته لك؛ وإن كان فوق رأسك. فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة)[1]

قال القاضي: ولكن هذا هو عين التأويل.

قال الصنعاني: أجل.. فالنتيجة نفسها.. ولو أن ابن تيمية رضي من خصومه الذي كفرهم ما رضي لنفسه لانتفى الخلاف بينهما، ولكنه يبيح لنفسه ولطائفته ما لا يبيح لغيره.

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت؟

قلت: أجل سيدي.. ومن الأمثلة التي هي الآن أمامي قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]: (هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله؛ فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد؛ فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إلى بعضه من بعض)[2].. وقال: (وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد إذ أن ذاته أقرب فهذا في غاية الضعف)[3]

وهذا هو التأويل بعينه، لأن ظاهر اللفظ يدل على إسناد القرب إلى الله عز وجل، وتفسيره بقرب الملائكة صرفٌ للفظ عن ظاهره. فلم لا يقال في هذا الصرف إنه تعطيل لما وصف الله تعالى به نفسه؟ ولم لا يقال: التقرب معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب؟ وما الفرق بين هذا وبين تأويلنا لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22] أي ملائكته أو أمره[4]؟

رابعا ـ ابن تيمية وتحديد الذات والأفعال

---

[1] مجموع الفتاوى (5/ 103).

[2] مجموع الفتاوى (5/ 129)

[3] مجموع الفتاوى 2/349.

[4] انظر: الفكر التجسيمي.

بعد أن ساق الصنعاني من الأدلة ما ساق مما ذكرته لكم قام الهندي، وقال: بعد أن اتضح لكم – سيدي القاضي – ما ذكره ابن تيمية في حكم المخالفين له من المنزهة سواء كانوا من المفوضة أو المؤولة اسمح لي أن أحدثك عن بعض الشواهد التي تدل على تجسيمه لربه، وتحديده له ذاتا وصفات وأفعالا.

قال القاضي: قبل أن تسوق ذلك لي اذكر لي وجه الاستدلال به..

قال الهندي: وجه الاستدلال به – سيدي – واضح، وهو أن ابن تيمية لم يكتف بنصره المجسمة والمشبهة، ولم يكتف بالطعن في المخالفين له، بل راح هو أيضا بكل ما أوتي من قوة ينظر للتجسيم والتشبيه، ويحاول أن يضفي عليهما صفة القبول.. وأحسب أنه لولا جهود ابن تيمية في ذلك لانطمس التجسيم والتشبيه، ولما بقي له وجود، لأن كل الكتب التي سبقته كانت تورد الروايات المتهافتة في ذلك، وكان مجرد قراءتها يكفي للنفور منها.. لكن ابن تيمية حاول أن يلمعها ويقدمها للمسلمين بصفة تبدو في ظاهرها مقبولة، ولكن باطنها تفوح منه روائح الوثنية المقيتة.

قال القاضي: فهلم بما تريد أن تدلي به من أدلة على ذلك.

قال الهندي: بناء على تقسيمهم ما يسمونه صفات الله إلى قسمين: قسم مرتبط بالذات، وقسم مرتبط بالأفعال، فسأجلب شاهدين لكل قسم منهما، لترى بعينك مبلغ التجسيم والتشبيه فيهما جميعا.

1 ـ موقف ابن تيمية مما يسمونه صفات الذات:

قال القاضي: هات الشاهد الأول.

قال الهندي: الشاهد الأول هو موقف ابن تيمية مما يسمونه صفات الذات.. ويقصدون بها ما ورد في الأخبار من إضافات ترتبط بالله من اليد والساق والضرس والحقو وغيرها..

قال القاضي: هل يمكنك أن تورد لنا بعض ما في كتب ابن تيمية من هذا حتى نتبين صحة ما قلت.

قال الهندي: سأورد لك – سيدي – سبعة أمثلة توضح لك هذا أتم توضيح.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الهندي: المثال الأول، وهو المنطلق الفكري الذي ينطلق منه ابن تيميه في تجسيمه وتشبيهه، فهو يرى أن الله سبحانه وتعالى ما دام قد أعطى لعباده بعض الكمالات الحسية، فهو أولى أن يتصف بها، لقد قال يوضح ذلك: (كل ما ثبت للمخلوق من صفات الكمال فالخالق أحق به وأولى وأحرى به منه لأنه أكمل منه ولأنه هو الذي أعطاه ذلك الكمال، فالخالق أحق به وأولى وأحرى به منه...وعلى هذا فجميع الأمور الوجودية المحضة يكون الرب أحق بها لأن وجوده أكمل ولأنه هو الواهب لها فهو أحق باتصافه بها)[1]

وإلى هنا فإن المعنى مقبول عند جميع المسلمين، فالله سبحانه وتعالى أولى بصفات الكمال من عباده، ولكن ابن تيمية لا يقصد ذلك فقط، بل يقصد التجسيم وما يقتضيه التجسيم، فقد قال بعد ذلك الكلام المقبول بانيا عليه: (وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن كون الموجود قائماً بنفسه أو موصوفاً أو أن له من الحقيقة والصفة والقدر ما استحق به إلا يكون بحيثِ غيره وأن لا يكون معدوماً بل ما أوجب أن يكون قائماً بنفسه مبايباً لغيره وأمثال ذلك هو من الأمور الوجودية باعتبار الغائب

1() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (2/ 350)

فيها بالشاهد صار على هذا الصراط المستقيم، فكل ما كان أقرب إلى الوجود كان إليه أقرب وكلما كان أقرب إلى المعدوم فهو عنه أبعد)[1]

وبذلك فإن ابن تيمية يقع في التشبيه المحض، لأنه يتصور أن الكمال في احتياج الذات إلى حيز ومقدار وأعضاء وغير ذلك مع أن الكمال الحقيقي لا يقتضي ذلك..

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول فيما أورد؟

قلت: أجل – سيدي القاضي- كلامه واضح في ذلك، وقد أورد بعض الباحثين المعاصرين قول ابن تيمية: (يقال أما الحدوث أو ما يستلزم الحدوث فلا يجوز أن يكون هو علة للأمر الوجودي لأن ذلك مستلزم للعدم، وما يستلزم العدم لا يجوز أن يكون علة للأمر الوجودي فلا يعلل الأمر الوجودي الذي يختص بالموجودات دون المعدومات إلا بأمر وجودي يختص بالموجودات)[2]

ثم علق عليه بقوله: وبذلك يكون قد أثبت أحقيته بكل صفة وجودية يوصف بها المخلوق ومن بين هذه الصفات الوجودية التي أثبتها ما نص عليه، فنص على وصفه بما للموجود من القيام بالمحل واتصافه بالمقدار الذي استحق به أن لا يكون بحيث غيره.. ونص على اعتبار الغائب بالشاهد ووصف هذا بالصراط المستقيم.. ونص على أن كل ما كان أقرب إلى الوجود كان إليه أقرب أما قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11] الذي يبعد أدنى مشابهة بينه وبين كل موجود فقد غدا مما لا نعلمه من الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون[3].

المثال الثاني:

---

[1] بيان تلبيس الجهمية 327-328

[2] المصدر السابق 2/373-374

[3] انظر: الفكر التجسيمي.

التفت القاضـي إلى الهنـدي، وقـال: وعيت هـذا.. فهـات المثال الثاني.

قـال الهنـدي: المثـال الثـاني هـو أن ابن تيميـة رأى أنـه لا يمكن أن يمرر التجسيم ومقتضياته من الأعضاء والجوارح الـتي يطلق عليها صفات إلا بإقنـاع أتباعـه بـأن اللـه تعـالى يمكن أن يكون مركبا، وذلك ردا على المنزهة الذين يستدلون على كــون الله واحدا من جميع الوجوه، فينفون عنه الكم المنفصـل والكم المتصل.

قال القاضي: لقد ذكرت في البينات السابقة أن هذا قــول المجسمة من قبله.. فما الذي أضافه ابن تيمية؟

قـال الهنـدي: صـدقت سـيدي.. ولكن ابن تيميـة لم يكتـف بالآثـار الـواردة في ذلـك، بـل راح – كعادتـه - يطعمهـا بالجـدل العقلي الذي يختلـط فيـه الحـق بالباطـل، وخاصـة على من لم يتمرس في صناعة الكلام.

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ذكـره عنـد بيـان الخلاف في إطلاق القول بأن الصفة بعض الموصـوف وليسـت غـيره، فقـد قـال: (وأمـا إطلاق القـول بـأن الصـفة بعض الموصـوف وأنهـا ليســت غــيره فقــد قــال ذلــك طوائــف من أئمــة أهــل الكلام وفرسانُهم. وإذا حُقق الأمر في كثير من هذه المنازعات لم يجد العاقل السليم العقل ما يخالف ضرورة العقل لغير غـرض، بــل كثــير من المنازعــات يكــون لفظيــاً أو اعتباريــاً فمن قــال إن الأعراض بعض الجسم أو أنها ليست غيره، ومن قال إنها غــيره يعود الـنزاع بين محققيهم إلى لفـظٍ واعتبـار واختلافِ اصـطلاحٍ في مسمى (بعض) و(غير)، كما قد أوضحنا ذلك في بيان تلبيس الجهميـة الـذي وضـعه أبـو عبـد اللـه الـرازي في نفي الصـفات الخبرية، وبنى ذلك على أن ثبوتها يسـتلزم افتقـار الـرب تعـالى إلى غيره وتركيبـه من الأبعـاض وبينـا مـا في ذلـك من الألفـاظ المشـتركة المجملـة.. فهـذا إن كـان أحـد أطلـق البعض على الذات وغيره من الصفات وقال إنه بعض الله وأنكـر ذلـك عليـه

لأن الصفة ليست غير الموصوف مطلقا)[1]

ولم يكتف بهذا، بل راح ينقل عن سلفه ما يـبين أنـه يمكن أن يطلق على صفات الله لفظ البعض.. ولفـظ الصـفات عنـده وعند مدرسته لا يعني مـا نعرفـه من صـفات كـالكرم والرحمـة والقدرة ونحوها.. بل تعني أيضا الرجـل والسـاق واليـد والوجـه ونحوها.. وهو لا يطلق عليهـا تسـمية (أعضـاء أو جـوارح) لعـدم ورود النص في ذلـــك فقـــط، وإلا فـــإن كلامـــه في الصـــفات يقتضيها..

ومن الآثـار الـتي اسـتدل بهـا على ذلـك قولـه: (وقـد ذكـر القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويلات لأخبار الصـفات مـا رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل..عن عكرمة قـال: (إن اللـه إذا أراد أن يخوف عبـادة أبـدى عن بعضـه إلى الأرض).. ثم قـال – أي أبو يعلى-: أما قوله أبدى عن بعضـه فهـو على ظـاهره وأنـه راجع إلى الذات إذ ليس في حمله على ظاهره ما يحيل صـفاته ولا يخرجها عما تستحق)[2]

قال القاضي: أليس هذا الذي نقل عنه هو نفسه أبـــو يعلى الذي ذكرتموه لي سابقا، وذكرتم تحذير العلماء من كتابه؟

قال الهندي: بلى.. سيدي.. وابن تيمية يقرر ما يقـول.. بـل إنه يتجاوزه أحيانا، فيعتبر أبا يعلى مقصرا في التجسيم الكامل، بل يعتبره من المفوضة.

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت في هذا؟

قلت: ليس لدي مـا أقـول.. فكلام ابن تيميـة في الصـفات يقتضـي هـذا حـتى ولـو لم يصـرح بـه.. لكنـه بسـبب جدلـه مـع المتكلمين صرح به، وحاول أن يبرهن عليه.

المثال الثالث:

1() الفتاوى الكبرى 5/85-92.

2() الفتاوى الكبرى 5/85-92.

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الهندي: المثال الثالث يبين لك سيدي كيفية فهمه للنصوص، فهو دائما ينظر إليها نظرة تجسيمية، ويغلب التجسيم فيها على التنزيه إذا تنازعا..

ومن الأمثلة على ذلك أنه في مواضع كثيرة من كتبه وضع صفة لله اسمها الإصبع، وجعلها من مقتضيات العقيدة يقول في كتابه (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية): (وندين الله عز وجل بأنه يقلب القلوب، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، وأنه عز وجل يضع السموات على إصبع، والأرضين على إصبع)[1]

هل تعلم – سيدي – من أين استنبط أن الله عز وجل يضع السموات على إصبع، والأرضين على إصبع؟

قال القاضي: أجبني من أين استنبطه؟

قال الهندي: استنبطه من حديث ورد في صحيح البخاري سأقرأه عليك لترى هل حقا يدل على ما فهمه منه أم لا؟

ينص الحديث على أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: (يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: 67])[2]

فابن تيمية ومدرسته الذين افتتنوا بهذا الحديث، وبنوا عليه أصولهم الكثيرة، تصوروا أن رسول الله ﷺ ضحك تصديقا لليهودي، فهل ترى ذلك سيدي؟

---

[1] بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (1/ 112)

[2] رواه البخاري.

قال القاضي: لا.. لا أرى ذلك.. بل أرى أن النبي ﷺ ضحك استخفافاً من هذا القول الذي تمجه الأسماع، ولا تخفى ركاكته وتهافته على أي عقل، فإذا كانت الأرضون على إصبع، فكيف تكون الجبال على إصبع غيره، ثم يكون الشجر على إصبع آخر، والماء على إصبع، وكل ذلك من الأرض[1]؟

قلت: بالإضافة إلى ذلك فالآية تصرح بأنهم لم يقدروا الله حق قدره بعد هذا الوصف، وأنه تعالى عما يشركون.. والآية فوق ذلك تخالف ظاهر خبر اليهودي، فأين طوي السموات بيمينه من جعلها على أحد الأصابع؟ وكذلك الأرض جميعها بما فيها من جبال وشجر وماء أين جعلُها على أصابع من قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: 67]؟

قال القاضي: ما يقول المنزهة في هذه الآية؟

قال الهندي: لقد قال ابن عاشور في الآية الكريمة: (القبضة مستعارة للتناول استعارة تصريحية، والقبضة تدل على تمام التمكن من المقبوض، وأن المقبوض لا تصرف له ولا تحرك.. وهذا إيماء إلى تعطيل حركة الأرض وانقماع مظاهرها إذ تصبح في عالم الآخرة شيئا موجودا لا عمل له وذلك بزوال نظام الجاذبية وانقراض أسباب الحياة التي كانت تمد الموجودات الحية على سطح الأرض من حيوان ونبات.. واليمين: وصف لليد ولا يد هنا وإنما هي كناية عن القدرة لأن العمل يكون باليد اليمين)[2]

قال القاضي: هلا وضحت لي أكثر.

قال الهندي: ألسنا نقول في أحاديثنا: زمام الأمور بيدي.. وأن فلان يمسك بجميع القضايا.. ونحو ذلك؟

قال القاضي: بلى.. وخاصة نحن في القضاء نقوله كثيرا.

قال الهندي: فالآية جاءت بلسان عرب.. وهم يذكرون هذا

---

[1] () انظر: الفكر التجسيمي.

[2] () التحرير والتنوير (24/ 62).

كثيرا في كلامهم.. فقد قال شاعرهم مثلا:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيميني

قال القاضي: فهمت المعنى.. فعد بنا إلى ابن تيمية وحزبه ما فهموا من الحديث؟

قال الهندي: لقد افتتن ابن تيمية وسلفه وخلفه بذاك الحديث افتتانا عظيما حتى اعتبروه أصلا من أصول الدين.. ولذلك اعتبروه من الأحاديث الدالة على صفات الله عز وجل مع أن ظاهره إثبات الجوارح والأعضاء لله تعالى.

فهذا ابن تيمية يقول كلاما خطيرا ليس في التجسيم فقط، بل في كون النبي ﷺ كان يستمع لأحاديث اليهود، ويصدقها، ثم يأتيهم بالآيات التي تدل على ما قالوا، لقد قال: (وكان اليهود إذا ذكروا بين يديه أحاديث في ذلك يقرأ من القرآن ما يصدقها كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن يهودياً قال للنبي ﷺ: (إن الله يوم القيامة يمسك السموات على إصبع..)[1]

هل رأيت – سيدي القاضي – الخطورة التي يؤدي إليها هذا الكلام؟ إنه أكبر شبهة يستند إليها من يزعم أن رسول الله ﷺ أخذ دينه من أهل الكتاب من قبلنا.

قال القاضي: فهل فهموا من الإصبع أنها الإصبع الحقيقة؟

قال الهندي: أجل سيدي.. بل اعتبروا هذا الفهم هو السنة، وأن ما عداه تعطيل وضلال وكفر.. فهذا أبو يعلى يقول – كعادته مع أمثال هذه النصوص-: (اعلم أنه غير ممتنع حملُ الخبر على ظاهره وأن الإصبع صفة ترجع إلى الذات وأنه تجوز الإشارة فيها بيده)[2] ، بل إنه نقل روايتين عن الإمام أحمد الأولى أنه أشار بأصابعه وهو يحدث بهذا الحديث، وذلك تشبيه

1() درء التعارض 7/96

2() إبطال التأويلات 1/322.

محض، والثانية أنه أنكر على من أشـار بيـده عنـد التحـديث بـه وقال: قطعها الله ثم ترك مجلسه، وجمع القاضي بين الروايتين فقال: (وهذا محمـول على أنـه قصـد التشـبيه، والموضـع الـذي أجازه لم يقصد ذلك)[1]

وهذا محمد بن عبد الوهاب يقول معلقا على الحديث:(هـذا الحديث فيه مسـائل منهـا أن هـذه العلـوم وأمثالُهـا باقيـة عنـد اليهود لم يتأولوها) [2]

وقد علق عليه ابن عثيمين بقولـه: (كأنـه يقـول إن اليهـود خـير من أولئـك المحـرفين لهـا لأنهم لم يكـذبوها ولم يتأولوهـا، وجاء قوم من هذه الأمة، فقالوا ليس لله أصابع، وأن المراد بها القدرة، فكأنـه يقـول اليهـود خـير منهم في هـذا وأعـرفُ باللـه منهم)[3]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق سيدي.. وقد تأملت كلامهم في هذا، وهو لا يدل إلا على التجسيم المحض، وقـد قـرأت لبعض المتـأخرين قولـه: (ومن أثبت الأصابع لله فكيف ينفي عنه اليدَ والأصـابعُ جـزء من اليد)[4]

والعجب ليس في هــذا فقــط ســيدي، وإنمــا في تعظيمهم لليهود، وذكرهم أن رسول اللـه ﷺ كـان يجلس إليهم، ويسـتفيد منهم، وهو الذي ورد عنه التحذير من سماعهم.. اسمع ما يقول ابن العـثيمين سـيدي لتـدرك تصـورهم لرسـول اللـه ﷺ، وكأنـه يشك فيما أنزل الله إليه حتى يأتي اليهود ويطمئنـوه، لقـد قـال مفسرا سبب ضحك رسول الله ﷺ: (سبب الضحك هو ســروره

1() إبطال التأويلات 1/323-324

2() انظر القول المفيد على كتاب التوحيد 392.

3() انظر القول المفيد على كتاب التوحيد 392.

4() انظر تعليق محمد الهراس على هامش التوحيد 89

حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجد هذا الحبر في كتابه لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن فإن الرسول ﷺ سوف يسر به، وإن كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله لكن تضافر البينات مما يقوي الشيء) [1]

المثال الرابع:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا، وأدركت خطورته.. فهات المثال الرابع.

قال الهندي: المثال الرابع يبين لك سيدي كيف حول ابن تيمية الآيات التي تتحدث عن المشركين وضعف أصنامهم إلى آيات تقرر صفات الله سبحانه وتعالى، وهي آيات كثيرة، أكتفي لك بقوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]، فقد حولها ابن تيمية إلى آية تفيد التجسيم والتشبيه.

قال القاضي: كيف ذلك، والآية تتحدث عن الأصنام؟

قال الهندي: أجل.. ولكن ابن تيمية فهم منها أنها تشير إلى أوصاف الله تعالى، فقد قال تعليقا عليها: (وللناس في هذه الآية قولان: أحدهما: أنه وصفهم بهذه النقائص ليبين أن العابد أكمل من المعبود.. الثاني: أنه ذكر ذلك لأن المعبود يجب أن يكون موصوفا بنقيض هذه الصفات فإن قيل بالقول الأول أمكن أن يقال بمثله في آية العجل. فلا يكون فيه تعرض لصفات الإله؛ وإن قيل بالثاني: وجب أن يتصف الرب تعالى بما نفاه عن الأصنام.. ووجب أن يوصف الله عز وجل بما جاء به الكتاب والسنة من الأيدي وغيرها)[2]

قال القاضي: ما يعني بقوله هذا؟

---

[1] القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين 363.

[2] مجموع الفتاوى (5/ 223).

قال الهندي: هو يعني أنه ما دامت الأصنام ليست لها أرجل تمشي بها، فالله لابد أن تكون له هذه الأرجل.. وما دامت ليست لها آذان تسمع بها.. فالله لابد أن تكون له آذان.. وهكذا.

قال القاضي: إن هذا تجسيم محض.

قال الهندي: لقد ورث ابن تيمية هذا من أسلافه ممن يسميهم أهل الحديث، فقد قال ابن خزيمة: (باب إثبات الرجل لله عز وجل وإن رغمت أنوف المعطلة الذين يكفرون بصفات خالقنا عز وجل التي أثبتها لنفسه في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه ﷺ قال الله عز وجل يذكر ما يدعو بعض الكفار من دون الله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]، فأعلمنا ربنا جل وعلا أن من لا رجل له، ولا يد، ولا عين، ولا سمع فهو كالأنعام بل هو أضل ، فالمعطلة الجهمية: الذين هم شر من اليهود والنصارى والمجوس: كالأنعام بل أضل؛ فالمعطلة الجهمية عندهم كالأنعام بل هم أضل)[1]

أرأيت سيدي القاضي هذه التهم التي يكيلها للجهمية، واعتبارهم شر من اليهود والنصار والمجوس هي في الحقيقة موجهة لكل المنزهة من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والشيعة وغيرهم.. فكلهم يقولون بتنزيه الله عن تلك المقولات.

التفت القاضي إلي، وقال: هل حقا ما يقول؟

قلت: أجل.. وهنا بين يدي كتاب لابن القيم يقرر فيه نفس ما قرره شيخه، فهو يقول فيه: (وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]،،

[1] () التوحيد لابن خزيمة (1/ 202)

فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلاً على عدم إلهية من عدمت فيه هذه الصفات فـالبطش والمشـي من أنواع الأفعال والسمع والبصـر من أنـواع الصـفات. وقـد وصـف نفسه سبحانه بضد صفة أربابهم وبضـد مـا وصـفه بـه المعطلـة والجهميـة فوصـف نفسـه بالسـمع والبصـر والفعـل باليـدين والمجيء والإتيان وذلك ضد صفات الأصـنام الـتي جعـل امتنـاع هذه الصفات عليها منافياً لإلاهيتها)[1]

قال القاضي: على حسب ما ذكرتما فإن الصـفات عنـدهم تعني الجوارح، لأن الله سبحانه وتعالى عاب هذه الأصنام بكونها ليست لها جوارح تستعملها.

قال الهندي: أجل سيدي، ومما يزيدك توضـيحا في هـذا أن ابن مندة الذي أوصى ابن تيمية بكتبه روى هـذه الرويـة يرفعهـا لرسول الله ﷺ: (يُقبل الجبار عز وجل فيثنى رجله على الجسـر فيقول: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظـالم فينصـف الخلـق بعضهم من بعض..)[2]

فهل يُقبل في هذا الخبر أن تكون الرجل التي تقبـل الثـنيَ صفةً من الصفات، ليست جارحة ولا عضوا [3]؟

قال القاضي: وعيت هذا، فما الذي فهمه المنزهة من الآية الكريمة؟

قال الهندي: لقد ذكـر الـرازي، وهـو من أئمـة المنزهـة أن المقصود من الآية الكريمة هو بيان أن الانسانَ أفضـلُ حـالاً من الصنم، فقال: (لأن الإنسان له رجل ماشـية ويـد باطشـة وعين باصرة وأذن سامعة والصنم رجله غير ماشية ويده غير باطشـة وعينـه غـير مبصـرة وأذنـه غـير سـامعة فـإذا كـان كـذلك كـان الإنسان أفضل وأكمل حال من الصنم واشتغال الأفضـل بعبـادة

1() الصواعق المرسلة 3/915

2() الرد على الجهمية 1/19(5)

3() الفكر التجسيمي.

الأخس الأدون جهل)[1]

المثال الخامس:

قال القاضي: وعيت هذا، وأدركت خطورته.. فهات المثـال الخامس.

قال الهندي: المثال الخامس يبين لك سيدي أن ابن تيميــة ومدرسته يلتزمون بكل معـاني التشـبيه في تجسـيمهم، ولـذلك يلتزمون أن تكون لله يدان، ويؤولون كلمة الأيدي لأجل ذلك[2]، ويلـتزمون أن للـه سـاقين، ويؤولـون مـا أثبتـوه لأجـل ذلـك.. وهكذا.. ولو أنهم كانوا صـادقين في أن المـراد بهـا صـفات لمـا احتـاجوا إلى العـدد، فالقـدرة والإرادة وغيرهـا لم يلـتزموا فيهـا بالتعدد أو بالتثنية.

قال القاضي: هلا ضربت لي مثالا يوضح لي ذلك.

قال الهندي: سأضرب لك مثالا على ذلك بما ورد عنهم في الساق في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42]، فقـد رووا في ذلـك روايـة طويلـة تفيـد بـأن اللـه يكشـف عن سـاقه يـوم القيامـة لخلقه[3].

لكن المشكلة التي واجهتهم هي أن الله تعـالى ذكـر سـاقا واحدة، والأصل أن يكون له ساقان.. فماذا فعلوا؟

أما أبو يعلى الفراء، فاستنجد بالمجسـم الكبـير مقاتـل بن سليمان الذي ذكرته لك سابقا، فروى لـه هـذه الروايـة: (يعـني عن ساقه اليمين فيضيء من نور ساقه الأرض)[4]

1() تفسير الرازي 15/97

2() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (3/ 342)

3() رواه البخاري ومسلم.

4() إبطال التأويلات 1/161

وأما ابن تيمية فراح يستعمل أساليبه في الجدال، فقد قال في (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية): (من أين في ظاهر القرآن أنه ليس لله إلا ساق واحد وجنب واحد فإنه قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر 56]، وقال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم 42] وعلى تقدير أن يكون هذا من صفات الله فليس في القرآن ما يُوجِب أن لايكون لله إلا ساق واحد وجنب واحد، فإنه لو دل على إثبات جنب واحد وساق واحد وسكت عن نفي الزيادة لم يكن ذلك دليلاً على النفي إلا عند القائلين بمفهوم الاسم واللقب، لأنه متى كن للتخصيص بالذكر سبب غير الاختصاص بالحكم لم يكن المفهوم مراداً بلا نزاع ولم يكن المقصود بالخطاب في الآيتين إثبات الصفة حتى يكون المقصود تخصيص أحد الأمرين بالذكر، بل قد يكون المقصود حكماً آخر مثل بيان تفريط العبد وبيان سجود العباد إذا كشف عن ساق، وهذا الحكم قد يختص بالمذكور دون غيره)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: الأمر واضح.. ولكني فقط أورد لك رواية قرأتها عن شيخ من المحدثين، وهو الحافظ أبو عامر العبدري، شيخ ابن عساكر، وهي تدلك على أن القوم مشبهة، وإنهم إنما يتقون حين يعتبرون هذه الجوارح صفات، لقد قال ابن عساكر يذكر شيخه: (كان سيء الاعتقاد يعتقد من أحاديث الصفات ظاهرها بلغني أنه قال يوما: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: 42]، فضرب على ساقه وقال: ساق كساقي هذه. وبلغني عنه أنه قال أهل البدع يحتجون بقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] أي في الإلهية، أما في الصورة فهو مثلي ومثلك)[2]

المثال السادس:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا، وأدركت

1() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (5/ 464)

2() تاريخ دمشق لابن عساكر 53/60 وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء 19/579

خطورته.. فهات المثال السادس.

قال الهندي: المثال السادس سيدي أخطر الأمثلة، وهو يبين أن ابن تيمية – من خلال كتبه في التجسيم – قد وصف ربه وصفا دقيقا محددا.. ولكنه من باب التقية مارس كل أساليب التمويه حتى لا يفطن لذلك.

قال القاضي: عجبا كيف ذلك.

قال الهندي: من خلال تدبر ما كتبه ابن تيمية حول صفة الله تجده يلتمس كل السبل ليقنع القارئ أن الله تعالى على هيئة شاب أمرد..

نهضت، وقلت: لا تقل هذا.. فقد رأيت الكثير من السلفيين ينكرونه عن ابن تيمية، ويتهمون الروافض بأنهم ناشرو هذه التهمة.

قال الهندي: لا تستعجل علي.. فلو رجعت إلى كتابه (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) لوجدته يكاد يصرح بذلك، ولكن بطريقته المعروفة، والتي لا تخفى على من يعرف أساليب ابن تيمية في الجدل والخصومة.

قال القاضي: هلا وضحت لي بعض ذلك.

قال الهندي: هو يبدأ بإيراد الخلاف بين الصحابة في مسألة رؤية النبي ﷺ يقظة لربه، حتى يبين أن القضية محتملة، وأنه ليس فيها شيء.

ثم يعقب على ذلك بذكر الروايات الكثيرة التي تبين أن هناك سلفا كثيرا يذكرون بأن محمدا ﷺ رأى ربه، قال في كتابه (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية): (وأما الأخبار المطلقة عن ابن عباس وأنس وغيرهما من الصحابة والتابعين فكثيرة أيضًا)[1]

ثم ساق على سبيل القطع من هذه النصوص قول ابن

---

[1] () بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 188).

عباس: (إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، ومحمدًا بالرؤية)[1] ، وقوله: (رأى محمد ﷺ ربه)

وروى عن المبارك بن فضالة قوله: (كان الحسن يحلف بالله لقد رأى محمد ربه)[2]

ثم يذكر الروايات الدالة على كيفية رؤيته له، ومنها ما رواه عن عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ: (أنه رأى ربه عز وجل شابًّا أمرد جعدًا قططا في حلة خضراء)[3]

وقد دافع عن هذا الحديث والروايات الواردة فيها أيما دفاع، وائذن لي – سيدي القاضي- أن أسوق لك بعض كلامه في ذلك، وكيف دافع عن رواة الحديث، فقال: (قال الخلال أبوبكر المروذي قال قرئ على أبي عبد الله شاذان حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن محمدًا رأى ربه، فذكر الحديث، قلت إنهم يطعنون في شاذان يقولون ما رواه غير شاذان، قال بلى قد كتبته عن عفان عن رجل عن حماد عن سلمة عن قتادة عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: رأيت ربي، وقال المروذي في موضع آخر قلت لأبي عبد الله: فشاذان كيف هو؟ قال: ثقة، وجعل يثبته، وقال: في هذا يشنع به علينا، قلت: أفليس العلماء تلقته بالقبول، قال بلى قلت إنهم يقولون إن قتادة لم يسمع من عكرمة قال هذا لايدري الذي قال وغضب وأخرج إليَّ كتابه فيه أحاديث بما سمع قتادة من عكرمة، فإذا ستة أحاديث سمعت عكرمة حدثنا بهذا المروذي عن أبي عبد الله قال أبو عبد الله: قد ذهب من يحسن هذا وعجب من قول من قال لم يسمع وقال سبحان الله هو قدم البصرة فاجتمع عليه الخلق)[4]

1() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 189).

2() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 191).

3() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 197).

4() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 194).

وقال في موضع آخر: (شاذان يقول أرسلت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل أستأذنه في أن أحدث بحديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال رأيت ربي، قال حدث به فقد حدث به العلماء، قال الخلال أبنا الحسن بن ناصح قال حدثنا الأسود بن عامر شاذان ثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى ربه جعدًا قططا أمرد في حلة حمراء والصواب حلة خضراء)[1]

ثم يروي أحاديث الرؤية المنامية، ويبين انطباقها على الأحاديث الدالة على الرؤية في اليقظة، فقد روى عن امرأة أبي بن كعب أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول رأيت ربي في المنام في خضر من الفردوس إلى أنصاف ساقيه في رجليه نعلان من ذهب)[2]

ثم علق عليه بقوله: (وهذا الحديث الذي أمر أحمد بتحديثه قد صرح فيه بأنه رأى ذلك في المنام، وهذه الألفاظ نظير الألفاظ التي في حديث ابن عباس) [3]

بل إنه فوق ذلك – سيدي – وحتى يبين إمكانية الاستدلال بحديث الرؤية المنامية على صفة الله، قال: (وإذا كان كذلك فالإنسان قد يرى ربه في المنام ويخاطبه فهذا حق في الرؤيا ولا يجوز أن يعتقد أن الله في نفسه مثل ما رأى في المنام فإن سائر ما يرى في المنام لا يجب أن يكون مماثلا، ولكن لا بد أن تكون الصورة التي رآه فيها مناسبة ومشابهة لاعتقاده في ربه، فإن كان إيمانه واعتقاده مطابقا أتي من الصور وسمع من الكلام ما يناسب ذلك، وإلا كان بالعكس.. وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله والنقل بذلك متواتر عمن رأى ربه في المنام ولكن لعلهم قالوا لا يجوز أن يعتقد أنه رأى ربه في المنام فيكونون قد جعلوا مثل هذا من أضغاث الأحلام

1() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 196).

2() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 194).

3() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (7/ 194).

ويكونون من فرط سلبهم ونفيهم نفوا أن تكون رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كسائر ما يرى في المنام فهذا مما يقوله المتجهمة وهو باطل مخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها بل ولما اتفق عليه عامة عقلاء بني آدم. وليس في رؤية الله في المنام نقص ولا عيب يتعلق به سبحانه وتعالى وإنما ذلك بحسب حال الرائي وصحة إيمانه وفساده واستقامة حاله وانحرافه)[1]

وما يريده من هذا الكلام واضح، ذلك أنه يعرف أن المسلمين جميعا يعرفون أن محمدا ﷺ أعرف الخلق بربه، ولذلك رؤيته مقاربة أو مطابقة لله نفسه.. خاصة إذا انضم إليها ما صححه من الأحاديث المتعلقة بالرؤية الحسية.

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول في هذا؟

قلت: صدق.. و(مجموع الفتاوى) الآن بين يدي، وأنا أطالع فيه قوله: (وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه؛ فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة ولها (تعبير وتأويل) لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق. وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة أيضا من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام: فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم. وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه فهذا كله يقع في الدنيا. وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه فيظن أنه رأى ذلك بعيني رأسه حتى يستيقظ فيعلم أنه منام وربما علم في المنام أنه منام)[2]

وفي كتابه (منهاج السنة) يقول: (ومما يشبه المثال العلمي رؤية الرب تعالى في المنام، فإنه يرى في صور مختلفة، يراه كل عبد على حسب إيمانه، ولما كان النبي ﷺ

1() (بيان تلبيس الجهمية 1/73)

2() مجموع الفتاوى (3/ 390)

أعظم إيمانا من غيره رآه في أحسن صورة، وهي رؤية منام بالمدينة، كما نطقت بذلك الأحاديث المأثورة عنه)[1]

المثال السابع:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا، وأدركت خطورته.. فهات المثال السابع.

قال الهندي: المثال السابع - سيدي- هو دفاع ابن تيمية عن الرؤية الحسية لله، أي رؤيته رؤية حسية كرؤية أي جسم من الأجسام.. وذلك يقتضي التجسيم المحض.

قال القاضي: قبل أن تحدثني عن رأي ابن تيمية ومدرسته في المسألة.. حدثني عن موقف المنزهة من الرؤية.

قال الهندي: المنزهة – سيدي القاضي – متفقون على استحالة الرؤية الحسية لله، لأن الرؤية الحسية لا تكون إلا للأجسام، وتعالى الله أن يكون كذلك.. وهو ما ينص عليه صراحه قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 103]

قال القاضي: ولكن سمعت عن اختلافهم في ذلك.. وأن بعضهم يقول بإمكانية الرؤية.

قال الهندي: أجل– سيدي القاضي – ولكن الرؤية التي يقصدها هؤلاء تختلف تماما عن الرؤية التي يقصدها ابن تيمية.. بل إني بحثت في المسألة، فوجدت أن الخلاف فيها بين المنزهة لا يعدو أن يكون خلافا لفظيا.. لأن الرؤية القلبية أو العرفانية التي يقصدها المنزهة يتفق فيها الجميع.

وقد قال الغزالي – وهو من أئمة المنزهة – يوضح المراد بهذه الرؤية: (إنما أنكر الخصم الرؤية لأنه لم يفهم ما تريده بالرؤية ولم يحصل معناها على التحقيق، وظن أنا نريد بها حالة تساوي الحالة التي يدركها الرأي عند النظر إلى الأجسام

---

[1] () منهاج السنة النبوية (5/ 384)

والألوان وهيهات! فنحن نعترف باستحالة ذلك في حق الله سبحانه، ولكن ينبغي أن نحصل معنى هذا اللفظ في الموضع المتفق، ونسبكه ثم نحذف منه ما يستحيل في حق الله سبحانه وتعالى، فإن نفي من معانيه معنى لم يستحل في حق الله سبحانه وتعالى وأمكن أن يسمى ذلك المعنى رؤية حقيقة، أثبتناه في حق الله سبحانه وقضينا بأنه مرئي حقيقة، وإن لم يكن إطلاق اسم الرؤية عليه إلا بالمجاز أطلقنا اللفظ عليه بإذن الشرع واعتقدنا المعنى كما دل عليه العقل)[1]

ثم بين أن المراد بالرؤية في أصلها أعم من أن تنحصر في العين أو أن تكون رؤية حسية، فقال: (وتحصيله، أن الرؤية تدل على معنى له محل وهو العين، وله متعلق وهو اللون والقدر والجسم وسائر المرئيات، فلننظر إلى حقيقة معناه ومحله، وإلى متعلقه ولنتأمل أن الركن من جملتها في إطلاق هذا الاسم ما هو، فنقول: أما المحل فليس بركن في صحة هذه التسمية، فإن الحالة التي ندركها بالعين من المرئي لو أدركناها بالقلب أو بالجبهة مثلاً لكنا نقول قد رأينا الشيء وأبصرناه وصدق كلامنا، فإن العين محل وآلة لا تراد لعينها بل لتحل فيه هذه الحالة، فحيث حلت الحالة تمت الحقيقة وصح الاسم.. ولنا أن نقول علمنا بقلبنا أو بدماغنا إن أدركنا الشيء بالقلب، أو بالدماغ إن أدركنا الشيء بالدماغ، وكذلك إن أبصرنا بالقلب أو بالجبهة أو بالعين.. وأما المتعلق بعينه فليس ركناً في إطلاق هذا الاسم وثبوت هذه الحقيقة. فإن الرؤية لو كانت رؤية لتعلقها بالسواد لما كان المتعلق بالبياض رؤية، ولو كان لتعلقها باللون لما كان المتعلق بالحركة رؤية، ولو كان لتعلقها بالعرض لما كان المتعلق بالجسم رؤية، فدل أن خصوص صفات المتعلق ليس ركناً لوجود هذه الحقيقة، وإطلاق هذا الاسم، بل الركن فيه من حيث أنه صفة متعلقة أن يكون لها متعلق موجود؛ أي موجود كان وأي ذات كان)[2]

1() الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 44).

2() الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 44)

وبعد أن بين بطلان انحصار الرؤية في الحس بين المتعلـق الحقيقي للرؤية، فقال: (فإذاً الركن الذي الاسم مطلق عليه هو الأمـر الثـالث وهـو حقيقـة المعـنى من غـير التفـات إلى محلـه ومتعلقه، فلنبحث عن الحقيقة ما هي، ولا حقيقة لها إلا أنها نوع إدراك هو كمال ومزيد كشـف بالاضـافة إلى التخيـل، فإنـا نـرى الصديق مثلاً ثم نغمض العين فتكون صورة الصديق حاضرة في دماغنا على سبيل التخيل والتصور، ولكنا لو فتحنا البصر أدركنـا تفرقته ولا ترجع تلك التفرقـة إلى إدراك صـورة أخـرى مخالفـة لما كانت في الخيال بل الصورة المبصرة مطابقة للمتخيلـة من غــير فــرق وليس بينهمــا افــتراق، إلا أن هــذه الحالــة الثانيــة كالاستكمال لحالة التخيل، وكالكشف لهـا، فتحـدث فيهـا صـورة الصديق عند فتح البصر حـدوثاً أوضـح وأتم وأكمـل من الصـورة الجاريـة في الخيـال. والحادثـة في البصـر بعينهـا تطـابق بيـان الصورة الحادثة في الخيال، فإذاً التخيـل نـوع إدراك على رتبـة، ووراءه رتبة أخرى هي أتم منه في الوضـوح والكشـف، بـل هي كالتكميل له، فنسمي هذا الاستكمال بالاضافة إلى الخيال رؤيـة وإبصاراً)[3]

وبناء على هذا بين أن المراد برؤية الله تعالى عند المنزهة هي هذا النوع من الرؤية، قال: (وكذا من الأشـياء مـا نعلمـه ولا نتخيله وهو ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته، وكل مـا لا صـورة له، أي لا لون له ولا قدر مثل القدرة والعلم والعشـق والإبصـار والخيال؛ فإن هذه أمور نعلمها ولا نتخيلها والعلم بها نــوع إدراك فلننظر هل يحيل العقل أن يكون لهـذا الادراك مزيـد اسـتكمال نسبته إليه نسبة الإبصار إلى التخيل؛ فإن كان ذلك ممكناً سمينا ذلك الكشف والاستكمال بالاضافة إلى العلم رؤية، كما سـميناه بالاضافة إلى التخيل رؤية. ومعلوم أن تقدير هذا الاستكمال في الاستيضاح والاستكشاف غير محـال في الموجـودات المعلومـة التي ليست متخيلة كالعلم والقدرة وغيرهما، وكذا في ذات الله سبحانه وصفاته، بل نكاد ندرك ضرورة من الطبـع أنـه يتقاضـى طلب مزيـد استيضـاح في ذات اللـه وصـفاته وفي ذوات هـذه

3() الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 45)

المعاني المعلومة كلها.. فنحن نقول إن ذلك غير محال فإنه لا محيل له بل العقل دليل على إمكانه بل على استدعاء الطبع له)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول فيما ذكره؟

قلت: أرى سيدي القاضي أن تسأل الميلاني، فهو من الشيعة الإمامية، وهم من المعدودين عند المتكلمين في الفرق من المنكرين للرؤية.. فأهل مكة أدرى بشعابها.

طلب القاضي من الميلاني أن يقوم ويحدثه عن موقف الإمامية من الرؤية، ووجه الخلاف بينهم وبين غيرهم في ذلك، فقام، وقال: إن ما ذكره الغزالي هو نفسه ما ذكره علماؤنا وأئمتنا.. فهذا الصدوق يفسر الرؤية القلبية، فيقول: (ومعنى الرؤية الواردة في الأخبار: العلم، وذلك أن الدنيا دار شكوك وارتياب وخطرات، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله وأموره في ثوابه وعقابه، ما يزول به الشكوك، وتعلم حقيقة قدرة الله عز وجل، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22]، فمعنى ما روى في الحديث أنه عز وجل يرى أي يعلم علما يقينيا كقوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [الفرقان: 45]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة: 258] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]، وأشباه ذلك من رؤية القلب وليست من رؤية العين)[2]

ويقول العلامة الطباطبائي: (إنه تعالى يثبت في كلامه قسما من الرؤية والمشاهدة وراء الرؤية البصرية الحسية، وهي نوع شعور في الإنسان، يشعر بالشيء بنفسه من غير استعمال آلة حسية أو فكرية، وفي ضوء ذلك إن للإنسان شعورا بربه غير ما يعتقد بوجوده من طريق الفكر واستخدام

1() الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 45)

2() الصدوق، كتاب التوحيد: 120.

الدليل، بل يجد وجدانا من غير أن يحجبه عنه حاجب ولا يجره إلى الغفلة عنه اشتغاله بنفسه ومعاصيه التي اكتسبها، والذي يتجلى من كلامه سبحانه إن هذا العلم المسمى بالرؤية واللقاء يتم للصالحين من عباد الله يوم القيامة، فهناك مواطن التشرف بهذا التشريف، وأما في هذه الدنيا والإنسان مشتغل ببدنه ومنغمر في غمرات حوائجه الطبيعية وهو سالك لطريق اللقاء فهو بعد في طريق هذا العلم لم يتم له حتى يلقى ربه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، فهذا هو العلم الضروري الخاص الذي أثبته الله تعالى لنفسه وسماه رؤية ولقاء، ولا يهمنا البحث عن أنها على نحو الحقيقة أو المجاز، والقرآن أول كاشف عن هذه الحقيقة على هذا الوجه البديع، فالكتب السماوية السابقة على ما بأيدينا ساكتة عن إثبات هذا النوع من العلم بالله وتخلو عن الأبحاث المأثورة عن الفلاسفة الباحثين عن هذه المسائل، فإن العلم الحضوري عندهم كان منحصرا في علم الشئ بنفسه حتى يكشف عنه في الإسلام، فللقرآن المنة في تنقيح المعارف الإلهية)[1]

وهكذا نجد أن ما ورد عن أئمتنا في نفي الرؤية هو نفي الرؤية الحسية، أما الرؤية القلبية، فلا أحد منهم يخالف في إمكانها.

فنحن نروي أن ذعلب اليماني سأل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أفأعبد ما لا أرى؟! قال: وكيف تراه؟ فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان)[2]

وأخرج الصدوق عن محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن ع: هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل، فقال: رآه بقلبه، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11]، أي لم يره بالبصر، ولكن رآه بالفؤاد.

1() الطباطبائي، الميزان 8: 252 - 253.

2() كتاب التوحيد باب (5) باب نفي الرؤية وتأويل الآيات فيها ح 2.

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: الآن، وبعد أن استوعبنا الموضوع جيدا حدثنا عن موقف ابن تيمية.. وما وجه التهمة له في ذلك؟

قال الهندي: المتأمل في كلام ابن تيمية وتوسعه في الرؤية يدل على أن الله تعالى عنده يرى كما ترى الأجسام، بل يرى بصورته التي لا تختلف عن صورة الإنسان، وقد أورد في ذلك الآثار الكثيرة عن سلفه.. ولكن المشكلة لا تكمن هنا فقط، بل تكمن في موقفه ممن أنكر هذا النوع من الرؤية، فقد حكم عليهم بالكفر، مع أنهم يشكلون جميع المسلمين ما عدا المدرسة التي ينتمي إليها ابن تيمية.

وقد قال في رسالة له إلى أهل البحرين: (وإنما المهم الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة وبعد ما يدخلون الجنة على ما تواترت به الأحاديث.. والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر؛ فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر)[1]

ثم أحال إلى الكتب التي تذكر الرؤية بتفاصيل حسية كثيرة، فقال: (والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة قد دون العلماء فيها كتبا مثل: كتاب الرؤية للدارقطني ولأبي نعيم وللآجري؛ وذكرها المصنفون في السنة كابن بطة واللالكائي وابن شاهين وقبلهم عبد الله بن أحمد بن حنبل وحنبل بن إسحاق والخلال والطبراني وغيرهم) [2]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق الهندي سيدي، فكتب ابن تيمية مملوءة بالروايات التي تجعل الرؤية رؤية حسية، ومنها هذه الرواية المشحونة بالتجسيم ولوازمه: (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها

1() مجموع الفتاوى (6/ 485).

2() مجموع الفتاوى (6/ 485).

فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه؛ فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيعرفونه)[1]

لكن المشكلة – كما أرى سيدي- ليست في هذا، إنما في تكفير من ينكر هذا أو يوجهه التوجيه المناسب تعظيما وتنزيها لله.. فابن تيمية ومدرسته يشنون عليهم حربا شعواء.

وقد أفتى عبد العزيز بن باز من سأله عن جواز الاقتداء والائتمام بمن لا يعتقد بمسألة الرؤية في يوم القيامة، فقال: (من ينكر رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة لا يصلى خلفه، وهو كافر عند أهل السنة والجماعة)[2] ، ونقل عن الطبري وغيره أنه قيل لمالك: إن قوما يزعمون أن الله لا يرى يوم القيامة، فقال مالك: السيف السيف.

وهكذا نجد أئمة السلفية في كل العصور يكفرون منكر الرؤية الحسية، وهم يذلك يكفرون الأمة جميعا ما عداهم.

فقد رووا عن أبي بكر المروزي: من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر، وقال: من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي، والجهمي كافر.

ورووا عن أحمد بن حنبل: الرؤية من كذب بها فهو زنديق، وقال: من زعم أن الله لا يرى فقد كفر بالله، وكذب بالقرآن، ورد على الله أمره، يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

2 ـ صفات الفعل

قال القاضي: وعينا الشاهد الأول.. فهات الشاهد الثاني.

قال الهندي: لم يكتف ابن تيمية بتجسيمه وتشبيهه لله بخلقه في ذاته، وإنما أضاف إلى ذلك أنه جعله يتصرف كتصرف عباده الممتلئين بالعجز والقصور.. فهو ينزل ويصعد،

1() مجموع الفتاوى (6/ 491).

2() الفتوى الصادرة في 8 / 0741 هـ المرقم 717 / 2.

ويجيء ويرجع، ويمشي ويهرول، ويضحك حتى تبدو أضراسه.. وغير ذلك مما امتلأت بأمثاله كتب ابن تيمية وسلفه الذين يعتمد عليهم.

قال القاضي: إن ما تقوله خطير.. ويحتاج إلى إثبات.

قال الهندي: أدرك ذلك سيدي، ولذلك سأذكر لك سبعة أمثلة، لعلها تكون كافي في الدلالة على ما ذكرت.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الهندي: المثال الأول، هو اهتمام ابن تيمية المبالغ فيه – كشأن سلفه الذين يعتمد عليهم – بنزول الله وصعوده، ونحو ذلك.. وقد كتب في ذلك رسالة مطولة أطنب فيها بذكر الروايات والردود العقلية على المخالفين.. وكلها مبنية على التجسيم المحض.

وقد حكى مناظرة لإسحاق بن راهويه في مواضع مختلفة من كتبه تبين تصوره لأفعال الله، فقد سئل إسحق عن حديث النزول أصحيح هو؟ فقال نعم فقيل له: يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم، قال: كيف ينزل؟ قال: أثبته فوق حتى أصف لك النزول؟ فقال له الرجل: أثبته فوق. فقال له إسحاق: قال الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: 22]، فقيل له: يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة، فقال إسحاق: ومن يجىء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟ وأنه قيل له أيضاً: أينزل ويدع عرشه؟ فقال: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو من العرش؟ فقيل: نعم، فقال إسحاق: فلم تتكلم في هذا[1].

وقال في (شرح حديث النزول): (فإن وصفه ــ سبحانه وتعالى ـ في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات؛ كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش،

[1] () الاستقامة (1/ 78)

ووصفه بالإتيان والمجىء في مثل قوله تعالى: ﴿ هَـلْ يَنْظَـرُونَ إِلَّا أَنْ يَـأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَـلٍ مِنَ الْغَمَـامِ وَالْمَلَائِكَـةُ ﴾ [البقـرة: 210]، وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف اللـه ــ تعـالى ــ بهـا نفسه التي تسميها النحاة أفعالًا متعدية، وهي غالب ما ذكـر في القرآن، أو يسمونها لازمة لكونها لا تنصـب المفعـول بـه، بـل لا تتعـدى إليــه إلا بحــرف الجــر، كالاســتواء إلى الســماء وعلى العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، ونحو ذلك)[1]

قال القاضي: هو يستند في هذا إلى حـديث سـماه حـديث النزول، فهلا حدثتني به.

قال الهندي: لقد ورد الحديث بصيغ كثيرة متعددة، منها مـا يفيد التنزيه، ومنها ما يفيد التشـبيه.. لكن ابن تيميـه وأتباعـه لم يشهروا إلا الصيغ التي تفيد التشبيه.

قال القاضي: فحدثني أولا على الرواية التي تفيد التنزيه.

قال الهندي: من الروايات الورادة في ذلـك مـا حـدث بـه النسائي بسنده عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول، ثم يأمر مناديا ينادي، يقول: هـل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر لـه، هـل من سـائل يعطى)[2]

وفي روايـة أخـرى عن الإمـام أحمـد بسـنده عن النـبي ﷺ قال: (ينادي كل ليلة ساعة فيهـا منـاد، هـل من داع فأسـتجيب له، هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له)[3]

قال القاضي: هذه رواية التنزيه.. فما رواية التشبيه؟

قال الهندي: هي روايات كثيرة جدا..

قال القاضي: لم كانت أكثر من روايات التنزيه؟

1() شرح حديث النزول (ص: 5)

2() السنن الكبرى6/124(10316).

3() مسند أحمد 4/217-218.

قال الهندي: لأن أكثر المحدثين كانوا إما مجسمة، أو لهم ميول إلى المجسمة، ولهذا غلبت رواياتهم على روايات التنزيه.

قال القاضي: فهلا حدثتني عن بعضها.

قال الهندي: سأقتصر لك على ثلاث روايات منها زكاها ابن القيم تلميذ ابن تيمية النجيب لتعلم غرام القوم بالتجسيم والتشبيه:

أما أولاها، فهي: (ينزل الرب عز وجل شطر الليل إلى السماء، فيقول: من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى إذا كان الفجر صعد الرب عز وجل)[1]

وأما الثانية، فهي: (ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول ألا عبدٌ من عبادي يدعوني فأستجيب له. ألا ظالمٌ لنفسه يدعوني فأغفر له ألا مقترٌ رزقَه ألا مظلوم يدعوني فأنصره ألا عانٍ فأفك عنه، فيكون كذلك حتى يصبح الصبح ثم يعلو جل وعز على كرسيه)[2]

وأما الثالثة، فهي: (إن الله جل وعز ينزل إلى سماء الدنيا، وله في كل سماء كرسي، فإذا نزل إلى سماء الدنيا، جلس على كرسيه، ثم مد ساعديه، فيقول من ذا الذي يقرض غيرَ عادم ولا ظلوم، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، من ذا الذي يتوب فأتوب عليه، فإذا كان عند الصبح ارتفع فجلس على كرسيه)[3]

وقد احتج به ابن القيم، ودافع عنه، فقال: (رواه أبو عبد الله في مسنده وروي عن سعيد مرسلاً وموصولاً قال الشافعي رحمه الله تعالى مرسل سعيد عندنا حسن)[4]

1() اجتماع الجيوش 163 و170.

2() اجتماع الجيوش 54.

3() الرد على الجهمية1/42(56)

4() اجتماع الجيوش 55.

قام الميلاني، وقال: إن أذن لي حضرة القاضـي، فسـأذكر له رواية عن أئمتنا من أهل الـبيت عليهم السـلام الـذي أنكـروا هذه الروايات وبينوا المراد الصحيح منها.

أشار إليه القاضي بالحديث، فقال: لقـد حـدث إبـراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الـذي يرويـه النـاس عن رسـول اللـه ﷺ: أن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا؟ فقـال عليـه السلام: لعن الله المحرفين الكلم عن مواضـعه، واللـه مـا قـال ﷺ كذلك إنما قـال ﷺ: (أن اللـه تبـارك وتعـالى يـنزل ملكـا إلى السماء كل ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أول الليــل. فيأمره فينادي أهل من سـائل فاعطيـه؟ هـل من تـائب فـأتوب عليه؟ هل من مستغفر فاغفر لـه؟ يـا طـالب الخـير فأقبـل، يـا طالب الشر أقصر، فلا يزال ينادي بهذا حتى يطلع الفجـر، فـإذا طلع الفجر عاد إلى محله من ملكوت السماء) حدثني بذلك أبي عن جدي عن آبائه عن رسول الله ﷺ)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صـدق سـيدي القاضـي، وقـد وجـدت في كتب ابن تيميـة من غـرائب حـديث الـنزول هـذه الروايـة الـتي تطفح بالتجسيم والتشبيه: (ثم تبعث الصيحة فلَعَمْر إلهك ما تدعُ على ظهرها من شيء إلا مات والملائكـة الـذين مـع ربـك عـز وجـل فأصبح ربك يطـوف في الأرض وخلت عليـه البلاد فأرسـل ربـك عز وجل السماء.. قلت يا رسول اللـه فمـا يعمـل بنـا ربنـا جـل وعز إذا لقيناه؟ قال تعرضون عليه بادية له صـفحاتكم لا تخفى عليه منكم خافية فيأخـذ ربـك عـز وجـل بيـده غرفـة من المـاء فينضـح قِبَلكم بهـا فلعمـر إلهـك مـا يخطىء وجـه أحـدكم منهـا قطرة)[2]

هل رأيت سيدي كيف يجعلـون اللـه العلي العظيم يطـوف

1() الإحتجاج (1/ 194)

2() مجموع الفتاوى (4/ 184)

في الأرض، ثم كيف يأخذ بيده غرفة من الماء فينضح بها.. هل هذا هو الله العلي العظيم الذي نعرفه؟

قال القاضي: لعلهم يروون الرواية.. ولا يقصدونها.

قلت: بل يروونها، ويقصدونها، ويفرحون بها.. لقد قال ابن القيم تلميذ ابن تيمية النجيب بعد إيراده الرواية: (هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة لا يعرف إلا من حديث عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن المدني رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهما من كبار علماء المدينة ثقتان محتج بهما في الصحيح، احتج بهما إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري. ورواه أئمة أهل السنة في كتبهم وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد ولم يطعن أحد منهم فيه ولا في أحد من رواته. فممن رواه الإمام ابن الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه وفي كتاب السنة.. ومنهم الحافظ الجليل أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب السنة له، ومنهم الحافظ أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان العسال في كتاب المعرفة، ومنهم الحافظ أبو محمد عبدالله بن محمد بن حيان أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب السنة، ومنهم الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة حافظ أصبهان،..وجماعة من الحفاظ سواهم يطول ذكرهم)[1]

بل إنه يرتب على منكر هذا حكما خطيرا، فينقل عن سلفه أبي عبد الله بن مندة مقرا له: (ولا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة)[2]

ثم لا يكتفي بذلك.. بل يذهب يفسر الحديث حرفا حرفا يستنبط منه كل صنوف التجسيم والتشبيه، فيقول: (وقوله فيظل يضحك هو من صفات أفعاله سبحانه وتعالى التي لا

1() زاد المعاد 3/677-682.

2() زاد المعاد 3/677-682.

يشبهه فيها شيء من مخلوقاته كصفات ذاته، وقد وردت هذه الصفة في أحاديث كثيرة لا سبيل إلى ردها كما لا سبيل إلى تشبيهها وتحريفها.. وكذلك فأصبح ربك يطوف في الأرض هو من صفات فعله..والكلام في الجميع صراط واحد مستقيم إثبات بلا تمثيل بلا تحريف ولا تعطيل.. وقوله: فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم فيه إثبات صفة اليد له سبحانه بقوله وإثبات الفعل الذي هو النضح)[1]

قال القاضي: ولكن ألا ترى تناقضا بين هذا الذي ذكرته عنهم، وبين ما يذكرونه من عظمة الله، وأن السموات والأرض لا تساوي شيئا أمام يمينه.. فكيف يطوف الإله في الأرض.. وهل الأرض تطيق أن تحمله؟

قلت: لقد أورد بعض خصوم ابن تيمية عليه مثل هذا التساؤل، فأجابه بقوله: (يقال لهذا البَقْبَاق النفاخ إن الله أعظم من كل شيء وأكبر من كل خلق ولم يحمله العرش عِظَمًا ولاقوة ولا حملة العرش حملوه بقوتهم ولا استقلوا بعرشه ولكنهم حملوه بقدرته وقد بلغنا أنهم حين حملوا العرش وفوقه الجبار في عزته وبهائه ضَعفوا عن حمله واستكانوا وجَثَوا على رُكَبِهم حتى لُقّنوا لا حول ولا قوة إلا بالله فاستقلوا به بقدرة الله وإرادته ولولا ذلك ما استقلّ به العرش ولا الحملة ولا السموات والأرض ولا من فيهن ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به)[2].. هل رأيت سيدي مثل هذه الجرأة على الله.. وهل رأيت في تاريخ الأديان من يجوز أن تحمل الله بعوضة؟

قال القاضي: إن هذا القول من ابن تيمية يدل على أنه يقول بأن الله يتشكل كما تتشكل الملائكة والجن؟

قلت: هم يقولون بذلك، وإن لم يصرحوا به.. ولذلك يذكرون أن الناس سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين يرونه كل

1() زاد المعاد 3/677-682.

2() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (3/ 242).

مرة بصورة جديدة، وذلك لا يعني سوى القدرة على التشكل.

المثال الثاني:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الهندي: المثال الثاني هو ما ساقه ابن تيمة وسلفه الذين يعتمد عليهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: 210]، فمع أنه يمكن حمل الآية على ما يتناسب مع عظمة الله وقدسيته إلا أنهم سوقوا من خلالها كل ما يريدون من معاني التشبيه.

وقد اهتم بها ابن تيمية كثيرا، فأوردها في مواضع كثيرة من كتبه..

قال القاضي: هلا سقت لي واحدا منها، لأرى رأيه فيها.

قال الهندي: سأسوق لك نصا طويلا اقتبسه ابن تيمية من سلفه الدارمي في نقضه على المريسي، وقد ذكره ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل والنقل)، وأراد من خلاله أن يبين ضلال من ينكر التجسيم والتشبيه في هذا الموضع، قال فيه: (وادعيت أيها المريسي في قول الله عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ (الأنعام: 210) وفي قوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: 210] فادعيت أن هذا ليس منه بإتيان، لما أنه غير متحرك عندك، ولكن يأتي بالقيامة بزعمك، وقوله: ﴿ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾: يأتي الله بأمره في ظلل من الغمام، ولا يأتي هو بنفسه.. ثم زعمت أن معناه كمعنى قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: 26] ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ [الحشر: 2]، فيقال لهذا المريسي: قاتلك الله! ما أجراك على الله وعلى كتابه بلا علم ولا بصر! أنبأك الله أنه إتيان، وتقول: ليس بإتيان.. لقد ميزت بين ما جمع الله، وجمعت بين ما ميز الله، ولا يجمع بين هذين

التأويلين إلا كل جاهل بالكتاب والسنة، لأن تأويل كل واحد منهما مقرون به في سياق القراءة، لا يجهلة إلا مثلك.. وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه، فوق سماواته، وأنه لا ينزل قبل يوم القيامة لعقوبة أحد من خلقه، ولم يشكوا أنه ينزل يوم القيامة ليفصل بين عباده ويحاسبهم ويثيبهم، وتشقق السماوات يومئذ لنزوله، وتنزل الملائكة تنزيلاً، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، كما قال الله ورسوله.. فلما لم يشك المسلمون أن الله لا ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة لشيء من أمور الدنيا، علموا يقيناً أن ما يأتي الناس من العقوبات إنما هو من أمره وعذابه)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق سيدي القاضي، فابن تيمية يذكر هذه الآية كثيرا، ويعتبرها من آيات الصفات، ويشدد على من يتوقف في معناها أو يؤوله بحسب اللغة.

وهو يدعو إلى مطالعة ما أورده السلف من روايات في ذلك، وكلها مشحونة بالأساطير التي لا تتناسب مع جلال الله..

قال القاضي: فهلا أوردت لي بعضها لأتأكد.

قلت: من ذلك هذه الرواية التي أوردها الدارمي، والذي يرجع ابن تيمية إليه كثيرا في هذا الباب: (إذا فرغ الله عز وجل من أهل الجنة والنار، أقبل الله عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، فسلم على أهل الجنة في أول درجة، فيردون عليه السلا.. فيقول: سلوني، ففعل ذلك بهم في درجهم حتى يستوي في مجلسه، ثم يأتيهم التحف من الله تحملها الملائكة إليهم)، وقد علق الدارمي على هذه الرواية المتهافتة بقوله: (فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها، حتى ظهرت هذه العصابة – أي المنزهة- فعارضت

[1] () درء تعارض العقل والنقل (2/ 66)

آثار رسول الله ﷺ برد وتشمروا لدفعها بجد)[1]

ويقول في موضع آخر مبينا أصله في ذلك، وهو الذي اعتمد عليه ابن تيمية وكل المجسمة: (لأن الحي القيوم يفعل ما يشاء ويتحرك إذا شاء ويهبط ويرتفع إذا شاء ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء لأن أمارة ما بين الحي والميت التحرك وكل حي متحرك لا محالة، وكل ميت غير متحرك لا محالة)[2]

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا.. فكيف فسر المنزهة الآية؟

قال الهندي: لقد وضع المنزهة قارئ القرآن الكريم بين احتمالين نص على أولهما الفخر الرازي، فقال: (الوجه الأول: وهو مذهب السلف الصالح أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة أن المجيء والذهاب على الله تعالى محال، علمنا قطعا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية هو المجيء والذهاب، وأن مراده بعد ذلك شيء آخر فإن عينا ذلك المراد لم نأمن الخطأ، فالأولى السكوت عن التأويل، وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى، وهذا هو المراد بما روي عن ابن عباس أنه قال: نزل القرآن على أربعة أوجه: وجه لا يعرفه أحد لجهالته، ووجه يعرفه العلماء ويفسرونه ووجه نعرفه من قبل العربية فقط، ووجه لا يعلمه إلا الله)[3]

ونص على الوجه الثاني، واعتبره قول جمهور المتكلمين من الفرق الإسلامية المختلفة ما عدا ابن تيمية وسلفه، وهو (أنه لا بد من التأويل على سبيل التفصيل)، وقد أورد لذلك وجوها من التأويل[4]:

منها أن المراد هل ينظرون إلا أن تأتيهم آيات الله، فجعل

1() الرد على الجهمية1/92(146).

2() نقض الإمام عثمان بن سعيد 1/215.

3() مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 358)

4() مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 358)

مجيء الآيات مجيئا له على التفخيم لشأن الآيات، كما يقال: جاء الملك إذا جاء جيش عظيم من جهته.

ومنها أن يكون المراد هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله أي أمر الله، ومدار الكلام في هذا الباب أنه تعالى إذا ذكر فعلا وأضافه إلى شيء، فإن كان ذلك محالا فالواجب صرفه إلى التأويل، كما قاله العلماء في قوله: ﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ [المائدة: 33]، والمراد يحاربون أولياءه، وقال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، والمراد: واسأل أهل القرية، وليس فيه إلا حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو مجاز مشهور، يقال: ضرب الأمير فلانا، وصلبه، وأعطاه، والمراد أنه أمر بذلك، لا أنه تولى ذلك العمل بنفسه.

المثال الثالث:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الهندي: المثال الثالث يبين لك سيدي كيفية فهم ابن تيمية لقرب الله من عباده، فقد قال في تفسيره لقوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52]:: (.. وقد ناداه من موضع معين وقربه إليه دل ذلك على ما قاله السلف من قربه ودنوه من موسى عليه السلام مع أن هذا قرب مما دون السماء. وقد جاء أيضاً من حديث وهب بن منبه وغيره من الاسرائيليات قربه من أيوب عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام. ولفظه الذي ساقه البغوى أنه أظله غمام ثم نودى يا أيوب أنا الله، يقول أنا قد دنوت منك أنزل منك قريبا، لكن الاسرائيليات إنما تذكر على وجه المتابعة لا على وجه الاعتماد عليها وحدها)[1]

انظر سيدي القاضي هل رأيت تجسيما أعظم من هذا التجسيم، ألا ترى كيف يترك المحكمات التي تدل على عظمة الله وتنزيهه، ويذهب إلى كلام اليهود، ويبني عليه العقائد التي

1() كتب ورسائل ابن تيمية في العقيدة 5/464.

يتكبر بها على غيره من الطوائف.

بل هو يعتبر هـذا المـذهب التجسـيمي مـذهب سـلف الأمـة وأئمتها، فيقول: (وأما دنوه نفسُه وتقرُّبُه من بعض عبـاده فهـذا يثبتـه من يثبت قيـام الأفعـال الاختياريـة بنفسـه ومجيئـه يـوم القيامة ونزوله واستوائه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الاسـلام المشـهورين وأهـل الحـديث والنقـل عنهم بـذلك متواتر)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق سيدي القاضي، وبين يـدي كلام للـدارمي الـذي يرجع إليه ابن تيميـة كثـيرا يقـول فيـه: (فيقـال لهـذا المعـارض المدعي ما لا علم له من أنبأك أن رأس الجبل ليس بأقرب إلى الله تعالى من أسفله؟ لأنه من آمن بأن الله فوق عرشـه فـوق سمواته علم يقيناً أن رأس الجبـل أقـرب إلى اللـه من أسـفله، وأن السماء السابعة أقرب إلى عرش الله تعالى من السادسـة والسادسة أقرب إليه من الخامسة ثم كذلك إلى الأرض) [2]

قـال الهنـدي: لقـد أوردوا سـيدي القاضـي لإثبـات هـذا الروايــات الكثــيرة المشــحونة بالتجســيم، وهم لا يهتمــون بمصـدرها.. لأن تصـحيح الحـديث عنـدهم مرتبـط بـأهوائهم، لا بالموازين التي وضعوها، ويتحكمون فيها كما يشاءون.

ومن ذلك هذه الرواية التي نقلها ابن القيم تلميذ ابن تيمية النجيب: (ليس شــيء عنــد ربــك من الخلــق أقــرب إليــه من إســرافيل، وبينــه وبين ربـه سـبعة حجب، كـل حجـاب مسـيرة خمسمائة عـام، وإسـرافيل دون هـؤلاء، ورأسـه تحت العـرش، ورجلاه في تخوم السابعة)[3]

1() كتب ورسائل ابن تيمية في العقيدة 5/466

2() نقض عثمان بن سعيد1/504.

3() اجتماع الجيوش 69 و163.

ومنها (سارعوا إلى الجمع في الدنيا فإن الله تعالى ينزل لأهل الجنة كل جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون في القرب منه على قدر تسارعهم إلى الجمع في الدنيا)[1]

ومنها (بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب فما زال يقرب موسى حتى صار بينه وبينه حجاب فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال رب أرني أنظر إليك)[2]

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قال الهندي: المثال الرابع هو ما فسر به ابن تيمية قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: 67]، فقد أورد في تفسيرها من تصرفات الله - بحسبه - ما يملأ بالعجب.. لقد حول الآية الكريمة من آية تبين عظمة الله وقدوسيته، إلى مشاهد ساخرة عابثة لإله متجبر متسلط، وكأنه لا يتحدث عن إله، وإنما عن ملك من ملوك زمانه.

قال القاضي: فهلا ذكرت لنا شيئا منها.

قال الهندي: من ذلك قوله: (والحديث مروي فى الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضا وفى بعض ألفاظه قال: قرأ ﷺ على المنبر: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: 67]، ثم قال: (مطوية فى كفه يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة).. وفى لفظ (يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده فيجعلها فى كفه ثم يقول بهما هكذا كما تقول الصبيان بالكرة: أنا الله الواحد)، وقال ابن عباس: يقبض الله عليهما، فما ترى طرفاهما بيده)[3]

هل ترى سيدي القاضي هذا التصرف الذي نسبه ابن تيمية

1() ابن المبارك في (الزهد) (436) ، ومن طريقه عبدالله بن أحمد في (السنة) (476) والدارقطني في (الرؤية) (120) وغيرهم.

2() العظمة2/714(301)

3() الرسالة العرشية (ص: 18)

إلى الله، وزعم أنه في الصحيح يتناسب مع عظمة الله.. هل أصبح الله مثل غلام يلعب بالكرة، يرميها ذات اليمين وذات الشمال؟

قال القاضي: أجل.. فهل من مثال ثان؟

قال الهندي: من الأمثلة الخطيرة التي ذكرها، وهو لا يقصد بها إلا التشبيه المحض، قوله: (وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: (يأخذ الجبار سمواته وأرضه، وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها ويقول: أنا الرحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئا، أنا الذي أعدتها، أين المتكبرون؟ أين الجبارون؟)[1]

هل ترى سيدي تشبيها أكبر من هذا التشبيه، ثم يقولون: إن ابن تيمية بريء من التجسيم والتشبيه؟

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق سيدي.. كل ما ذكره من نصوص موجود في كتب ابن تيمية، وخاصة في الرسالة العرشية التي خصصها لهذا الغرض، وقد أراد أن يبين من خلالها أن عظمة الله في كبر حجمه بالنسبة لمخلوقاته.. لقد قال فيها مقدما للكثير من الروايات التشبيهية والتجسيمية: (المقام الثاني: أن يقال: العرش سواء كان هو الفلك التاسع، أو جسما محيطا بالفلك التاسع، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض غير محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر)[2]

وقد أدى به ذلك، وبأهل مدرسته أن يرووا العجائب والغرائب، ومن ذلك ما رواه أبو الشيخ في العظمة: (يطوي الله عز وجل السموات السبع بما فيهن من الخلائق والأرضين

1() الرسالة العرشية (ص: 17)

2() الرسالة العرشية (ص: 16)

بما فيهن من الخلائق يطوي كل ذلك بيمينه فلا يُرى من عند الإبهام شيء ولا يرى من عند الخنصر شيء فيكون ذلك كله في كفه بمنزلة خردلة)[1]

قال الهندي: والعجب سيدي هو أنهم – بما يروونه من خرافات وأساطير – صاروا يعتقدون أن الأرض تساوي السماوات في ضخامتها، ولهذا تجدهم يصححون الروايات التي تصور أن الله يضع الأرض في يد والسموات بما فيها من نجوم وكواكب وغيرها في يد أخرى، لقد قال ابن القيم يشرح ذلك، أو يصوره: (إذا كانت السموات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى كذل،ك فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً، فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعطلة من هذا الذم أوفر نصيب)[2]

قلت: ولهذا – سيدي القاضي- ترى تلاميذ ابن تيمية المعاصرين ينكرون ما اكتشفه العلم من ضخامة الكون مقارنة بالأرض.. ولهم في ذلك تآليف وفتاوى خطيرة لا تقل عن فتاواهم في التجسيم.

المثال الخامس:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال الخامس.

قال الهندي: المثال الخامس هو ما ساقه ابن تيمة وسلفه الذين يعتمد عليهم من روايات حاولوا من خلالها أن يبينوا أن الله تجري عليه الانفعالات التي تجري على البشر من العجب والضحك ونحوها، وقد صوروها تصويرا تشبيهيا تجسيميا محضا.

ومن ذلك ما ورد في (الرسالة الأكملية)، حيث قال:

1() العظمة 2/445(136)

2() الصواعق المرسلة 4/1364

(وقول القائل: إن الضحك خفة روح، ليس بصحيح، وإن كان ذلك قد يقارنه.. ثم قول القائل: (خفة الروح) إن أراد به وصفًا مذمومًا فهذا يكون لما لا ينبغي أن يضحك منه، وإلا فالضحك في موضعه المناسب له صفة مدح وكمال، وإذا قدر حيان؛ أحدهما: يضْحَك مما يُضْحَك منه، والآخر: لا يضحك قط، كان الأول أكمل من الثاني)[1]

وبهذا المنطق حاول ابن تيمية أن يثبت ضحك الله، بل وجميع الانفعالات التي تجري على الإنسان.

ومن الروايات التي أوردها في ذلك: (ينظر إليكم الرب قَنِطِين، فيظل يضحك، يعلم أن فَرَجَكُم قريب)، فقال له أبو رَزِين العُقَيْلِي: يا رسول الله، أو يضحك الرب؟! قال: نعم، قال: (لن نعدم من رب يضحك خيرًا)

وقد علق ابن تيمية على الرواية بقوله: (فجعل الأعرابي العاقل بصحة فطرته ضحكه دليلاً على إحسانه وإنعامه؛ فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال، والشخص العَبُوس الذي لا يضحك قط هو مذموم بذلك، وقد قيل في اليوم الشديد العذاب إنه ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 10])[2]

هل رأيت سيدي القاضي ذلك المشهد الذي يصور الله، وهو يضحك على معاناة خلقه واكتئابهم؟.. ألا ترى أن ابن تيمية يصور أرحم الراحمين بصورة أولئك الملوك الجبارين الظلمة؟

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق سيدي.. والرسالة بين يدي، وهي مشحونة بأمثال هذه النصوص والروايات.. لقد قال في تلك الرسالة مبرهنا على ما يسميه صفة الضحك لله تعالى: (والإنسان حيوان ناطق ضاحك، وما يميز الإنسان عن البهيمة صفة كمال،

---

[1] الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال (ص: 55)

[2] الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال (ص: 55)

فكما أن النطق صفة كمال، فكذلك الضحك صفة كمال، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يضحك أكمل ممن لا يضحك، وإذا كان الضحك فينا مستلزمًا لشىء من النقص فالله منزه عن ذلك، وذلك الأكثر مختص لا عام، فليس حقيقة الضحك مطلقًا مقرونة بالنقص، كما أن ذواتنا وصفاتنا مقرونة بالنقص، ووجودنا مقرون بالنقص، ولا يلزم أن يكون الرب موجدًا وألا تكون له ذات)[1]

ولو طبقنا هذا المقياس الذي ذكره ابن تيمية على الله، لسوينا الله بعباده، ولجعلنا كمالاتنا الوهمية كمالات له.

المثال السادس:

التفت القاضي إلى الهندي، وقال: وعيت هذا.. فهات المثال السادس.

قال الهندي: المثال السادس هو ما ساقه ابن تيمية من تصريحات كثيرة تدل على قوله بافتقار الله تعالى إلى وجود الكون أزلا وأبدا، لأن الله عنده محتاج الى الكون ليفعل كل هذه الأفعال. _

وهو بقوله هذا يرى أن الله تعالى لم يتقدم جنس الحوادث، وإنما تقدم أفراده المعينة أي أن كل فردٍ من أفرادِ الحوادث بعينه حادث مخلوق، وأما جنس الحوادث فهو أزلي كما أن الله أزلي، أي لم يسبقه الله تعالى بالوجود.

وقد ذكر هذه العقيدة الخطيرة في سبعة من كتبه: موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، ومنهاج السنّة النبوية، وكتاب شرح حديث النزول، وكتاب شرح حديث عمران بن حصين، وكتاب نقد مراتب الإجماع، ومجموعة تفسير من ست سور، وكتابه الفتاوى، وكل هذه الكتب مطبوعة.

قال القاضي: فهلا نقلت لي بعض ما ذكره.

قال الهندي: من ذلك قوله في [موافقة صريح المعقول

1() الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال (ص: 56).

لصحيح المنقول]: (وأما أكثر أهل الحديث ومن وافقهم فإنهم لا يجعلـون النـوع حادثـا بـل قـديمًا، ويفرقـون بين حـدوث النـوع وحدوث الفـرد من أفـراده كمـا يفـرق جمهـور العقلاء بين دوام النوع ودوام الواحد من أعيانه)[1]

وقال في موضـع آخـر من كتابـه هـذا في ردّ قاعـدة مـا لا يخلو من الحادث حـادث، لأنـه لـو لم يكن كـذلك لكـان الحـادث أزليًا: (قلت هذا من نمط الذي قبله فـإن الأزلي اللازم هـو نـوع الحادث لا عين الحادث، قولـه لـو كـانت حادثـة في الأزل لكـان الحـادث اليـومي موقوفـا على انقضـاء مـا لا نهايـة لـه، قلنـا: لا نسلم بل يكون الحادث اليومي مسبوقًا بحوادث لا أول لها)[2]

ويقـول فيـه: (فمن أين في القـرآن ما يـدل دلالة ظـاهرة على أن كل متحـرك محـدث أو ممكن، وأن الحركة لا تقـوم إلا بحادث أو ممكن، وأن ما قامت به الحـوادث لم يخل منهـا، وأن ما لا يخلو من الحـوادث فهو حـادث، وأين في القـرآن امتنـاع حوادث لا أول لها)[3]

وقال في [منهاج السنّة]: (فـإن قلتم لنـا: فقـد قلتم بقيـام الحـوادث بـالربّ، قلنـا لكـم: نعم، وهـذا قولنـا الـذي دلّ عليـه الشرع والعقل)[4]

وقال فيه: (ولكن الاستدلال على ذلـك بالطريقـة الجهميـة المعتزلية طريقة الأعراض والحركة والسكون التي مبناهـا على أن الأجسام محدثة لكونها لا تخلو عن الحوادث، وامتناع حوادث لا أول لها طريقة مبتدَعة في الشرع باتفاق أهـل العلم بالسـنة، وطريقة مخطرة مخوفة في العقـل بـل مذمومـة عنـد طوائـف كثيرة)

1() درء تعارض العقل والنقل (2/ 148)

2() درء تعارض العقل والنقل (1/ 388)

3() درء تعارض العقل والنقل (1/ 118)

4() منهاج السنة النبوية (2/ 380)

وقال في موضع آخر منه: (وحينئذٍ فيمتنع كون شىء من العالم أزليًا وان جاز أن يكون نوع الحوادث دائمًا لم يزل، فإن الأزل ليس هو عبارة عن شىء محدد بل ما من وقت يقدر إلا وقبله وقت آخر، فلا يلزم من دوام النوع قدم شىء بعينه)[1]

وقال في موضع آخر منه: (ومنهم من يقول بمشيئته وقدرته- أي أن فعل الله بمشيئته وقدرته- شيئا فشيئا، لكنه لم يزل متصفا به فهو حادث الآحاد قديم النوع كما يقول ذلك من يقوله من أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف)[2]

فهو لم يكتف بقوله هذا، بل راح ينسبه إلى الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم وافترى عليهم.

وقد ردّ على ابن حزم في نقد مراتب الإجماع لنقله الإجماع على أن الله لم يزل وحده ولا شىء غيره معه، وأن المخالف بذلك كافر باتفاق المسلمين، فقال ابن تيمية: (وأعجب من ذلك حكايته الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شىء غيره معه)[3]

وقد ذكر الجلال الدواني في كتاب شرح العضدية هذا عنه، فقال: (وقد رأيت في بعض تصانيف ابن تيمية القول به- أي بالقدم الجنسي- في العرش)[4]، أي أنه كان يعتقد أن جنس العرش أزلي أي ما من عرش إلا وقبله عرش إلى غير بداية وأنه يوجد ثم ينعدم ثم يوجد ثم ينعدم وهكذا، أي أن العرش جنسه أزلي لم يزل مع الله، ولكن عينه القائم الآن حادث.

هذه نماذج عن تصريحاته في ذلك ـ سيدي القاضي ـــ وهي من المعلوم من أقواله بالضرورة.

1() منهاج السنة النبوية (1/ 389)

2() منهاج السنة النبوية (2/ 379)

3() نقد مراتب الإجماع (ص/ 168)

4() شرح العضدية (ص/ 13)

المثال السابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السابع.

قال الهندي: المثال السابع أخطر الأمثلة.. فقد فتح بها ابن تيمية بابا من التجسيم والتشبيه لا يمكن غلقه.. فهو لم يكتف بالنصيحة بالعودة إلى كتب السنة والسلف لينهل منها أتباعه كل صنوف التجسيم والتشبيه، بل راح يرشدهم إلى كتب اليهود، ليتعرفوا أكثر على صورة إلههم وأنواع تصرفاته.

قال القاضي: إن ما تقوله خطير.. فهل حقا قاله؟

قال الهندي: أجل – سيدي القاضي – فقد اعتبر أن الرسول ﷺ أقر اليهود على ما وصفوا به ربهم في كتبهم، فقال: (ومما يوضح الأمر في ذلك أن النبي ﷺ قد ظهر وانتشر ما أخبر به من تبديل أهل الكتاب وتحريفهم وما أظهر من عيوبهم وذنوبهم وتنزيهه لله عما وصفوه به من النقائص والعيوب كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181] وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: 64]، فلو كان ما في التوراة من الصفات التي تقول النفاة إنها تشبيه وتجسيم - فإن فيها من ذلك ما تنكره النفاة وتسميه تشبيهاً وتجسيماً بل فيها إثبات الجهة وتكلم الله بالصوت وخلق آدم على صورته وأمثال هذه الأمور- فإن كان هذا مما كذبته اليهود وبدلته كان إنكار النبي ﷺ لذلك وبيان ذلك أولى من ذكر ما هو دون ذلك، فكيف والمنصوص عنه موافق للمنصوص في التوراة، فإنك تجد عامة ما جاء به الكتاب والأحاديث في الصفات موافقاً مطابقاً لما ذكر في التوراة.. والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال واليهود تشبه الخالق بالمخلوق في صفات النقص ولهذا أنكر القرآن على كل من الطائفتين ما وقعت فيه من ذلك. فلو كان ما في التوراة من هذا الباب لكان إنكار ذلك للهدى من أعظم الأسباب، وكان فعل النبي ﷺ والصحابةِ والتابعين لذلك من أعظم الصواب، ولكان النبي ﷺ ينكر ذلك من جنس إنكار النفاة، فيقول إثبات هذه الصفات يقتضي

التجسيم والتجسيد والتشبيه والتكييف والله منزه عن ذلك. فإن عامة النفاة إنما يردون هذه الصفات بأنها تستلزم التجسيم - ومن المسلمين وأهل الكتاب من يقول بالتجسيد - فلو كان هذا تجسيماً وتجسيداً يجب إنكاره لكان الرسول إلى إنكار ذلك أسبق وهو به أحق. وإن كان الطريق إلى نفي العيوب والنقائص ومماثلة الخالق لخلقه هو ما في ذلك من التجسيد والتجسيم كان إنكار ذلك بهذا الطريق المستقيم كما فعله من أنكر ذلك بهذا الطريق هو الصراط المستقيم)[1]

هل تدرك سيدي الخطورة التي يعنيها هذا الكلام.. إنه يقول بصراحة بأن القرآن الكريم لم ينكر على أهل الكتاب إلا في ذينك الموضعين فقط.. أما ما عداهما فلم ينكر عليهم.. واعتبر عدم الإنكار دليلا على صحة ما في كتبهم من وصف الله تعالى.

قال القاضي: هذا يستدعي التعرف على ما في كتب أهل الكتاب للتأكد من ذلك.

قال الهندي: لو اطلعت عليها سيدي لوجدتها مملوءة بالتشبيهات والتجسيمات التي يعشقها ابن تيمية وسلفه:

ففيها وصف الله بالعجز.. ففي (تكوين32 /24-28) نبأ مصارعة يعقوب لله: (فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر.. وقال: اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا اطلقك إن لم تباركني)

وفيها وصف الله بالسكر.. ففي (المزمور 78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيط من الخمر)، وفي (مزمور 75 /8): (لأن في يد الرب كاسا وخمرها مختمرة ملآنة شرابا ممزوجا وهو يسكب منها لكن عكرها يمصه يشربه كل اشرار الارض)

وفيها وصف الله بأنه يمشي على عكاز، ففي (قضاة6 / 20-23): (فقال له ملاك الله خذ اللحم والفطير وضعهما على

1() درء التعارض 7/86- 90.

تلك الصخرة واسكب المرق.ففعل كذلك. فمدّ ملاك الرب طرف العكاز الذي بيده ومس اللحم والفطير فصعدت نار من الصخرة واكلت اللحم والفطير.وذهب ملاك الرب عن عينيه. فرأى جدعون انه ملاك الرب فقال جدعون آه يا سيدي الرب لاني قد رأيت ملاك الرب وجها لوجه. فقال له الرب السلام لك.لا تخف.لا تموت)

وفيها وصف الله بنقض العهد.. ففي (زكريا11 /10): (فاخذت عصاي نعمة وقصفتها لانقض عهدي الذي قطعته مع كل الاسباط فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم اذل الغنم المنتظرون لي انها كلمة الرب)

وفيها وصف الله بأنه يصيح كالوالدة وينخر ويخرب.. ففي (إشعياء 42 /13-16): (الرب كالجبار يخرج.كرجل حروب ينهض غيرته.يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت.كالوالدة اصيح.انفخ وانخر معا اخرب الجبال والآكام واجفف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الآجام واسير العمي في طريق لم يعرفوها.في مسالك لم يدروها امشيهم.اجعل الظلمة امامهم نورا والمعوجات مستقيمة هذه الامور افعلها ولا اتركهم)

وفيها وصف الله بأنه ينسى.. ففي (مزمور 13 /1): (الى متى يا رب تنساني كل النسيان.الى متى تحجب وجهك عني)

وفيها وصف الله بأنه يولول ويبكي ويصرخ ويصوِت.. ففي (ميخا1 /8): (من أجل ذلك أنوح وأولول. أمشي حافيا وعريانا. أصنع نحيبا كبنات آوى ونوحا كرعال النعام)

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: ما يقوله صحيح.. وابن تيمية كان في إمكانه أن يكتفي بما ورد في القرآن الكريم من الإخبار عن تحريف أهل الكتاب لكتبهم، ولا ينتظر أن يتنزل القرآن الكريم ناقدا لكل ما ورد فيها.

وكــان في إمكانــه أن يكتفي بتحــذير رســول اللــه ﷺ من الرجوع إليهم، وأنه جاء بالدين نقيا صافيا..

لكنه لغرامه بالتجسيم والتشبيه راح يلتمس له كل مصدر، ويقويه بكل وهم.

التهمة الثانية.. النصب والعداوة

كان اليوم الثاني من المحاكمة خاصا بالتهمة التي اتفق عليها كل من انتقد ابن تيمية وخاصة من الصوفية والإمامية والزيدية، بل وأتباع المذاهب الأربعة الذين مال أكثر متأخريهم إلى التصوف.

وهذه التهمة هي (تهمة النصب والعداوة)، وقد جرى له بسببها في عصره بعض المحاكمات، وسجن بسبب بعض ما يرتبط بها، بل اتهم – كما يذكر ابن حجر – بسببها بالكفر والنفاق[1].

ومع ذلك، فقد رأيت من أصحاب ابن تيمية من يدافع عنه بشأنها، ويبين أنه بريء منها، وأن كل ما ذكره المخالفون كذب عليه، وأن علاقة ابن تيمية برسول الله ﷺ وعترته الطاهرة علاقة محبة ومودة، وأنه لم يشهر سيف حقده على أحد من الناس إلا على من ظهرت بدعتهم.

وقد كان هذا الاختلاف سببا في شوقي لسماع الأدلة عن كثب ومناقشتها.

عقدت الجلسة، وقعد القاضي على كرسي كبير في أعلى مكان في المحكمة.. وبعد أن استقرت القاعة بمن فيها، قلب القاضي بعض الأوراق التي كانت بجانبه، ثم قال: التهمة التي سنبحث فيها اليوم هي تهمة (النصب والعداوة).. وأنا أريد من المدعين على ابن تيمية أن يوضحوا لي مرادهم منها قبل أن يذكروا الأدلة المثبتة لدعاواهم.

تقدم الإسكندري، وقال: بعد أن عرفت – سيدي القاضي – ما شوه به ابن تيمية العقيدة في الله بخلطها بالتشبيه والتجسيم، ونصرته لكل من شبه وجسم، وإعراضه عما ورد

1() الدرر الكامنة 1: 153 - 156.

من تنزيه الله وتقديسه في القرآن الكريم، وفي السنة الصحيحة، وفي الآثار الواردة عن وارثي النبوة من أئمة الهدى، فإنا نريد أن نعرض عليك اليوم وفي هذا المجلس ما شوه به النبوة، وكل ما يرتبط بها.

قال القاضي: أتريدون بالنصب والعداوة النصب والعداوة للنبوة؟

قال الإسكندري: أجل – سيدي – فابن تيمية لم يكتف بتلك الأطروحات التشويهية لجلال الله وقدسه، بل راح يعمل بكل ما أوتي من حيلة ليشوه النبوة، وكل ما يرتبط بها.

قال القاضي: فهمت القضية.. لكني أحتاج إلى الأدلة القوية المثبتة للدعوى.

قال الإسكندري: لقد رجعت مع أصحابي إلى كتب ابن تيمية، وقرأناها بتفصيل وتدقيق وتمعن، واستخرجنا منها أربعة أدلة، كل دليل منها كاف لإدانة ابن تيمية في هذه المسألة.. وسيتقدم أصحابي واحدا واحدا لإيرادها عليك.

قال القاضي: قبل ذلك أريد أن توضح لي وجه المنطقية فيها.

قال الإسكندري: أرأيت لو أن شخصا راح يذم ويشنع على كل من يقول بعصمة الأنبياء وتنزيههم من الخطايا.. بل ويرميهم بالبدعة بسبب ذلك، ويحذر كل من يتبعهم في هذا بالبدعة.. ولم يكتف بذلك، بل راح يؤيده، ويشوه النصوص ليبرهن على أقوالهم، ولم يكتف بذلك، بل راح يتهم الأنبياء بالعظائم، بل بالكفر ذاته.. ألا يكفي هذا لإدانته؟

قال القاضي: إن ما تقوله خطير.. فهل لديكم أدلة تثبته؟

قال الإسكندري: أجل.. ومعاذ الله أن نتكلم بغير علم.

قال القاضي: أهذا هو الدليل الأول؟

قال الإسكندري: أجل.

قال القاضي: فما الدليل الثاني؟

قال الإسكندري: الدليل الثاني هـو أن ابن تيميـة لم يكتـف بتشويه مقام النبوة، وتحقير الأنبياء، وتشـويه سـيرهم.. بـل راح إلى النـبي ﷺ سـيد الأنبيـاء، وخـاتمهم، يكـذب عليـه، ويكذبـه، ويرسم له صورة تتناسـب مـع مزاجـه وأهوائـه، ويلتمس لـذلك بتصحيح كل ضعيف، وتكذيب كل صحيح ليفصل نبيا يتناسب مـع فهمه للنبوة، كما فصل لله لباسا يتناسب مع تجسيمه وتشبيهه.

قال القاضي: إن أثبتم هذا فقد أدنتموه إدانة عظمى.

قـال الإسـكندري: ليس ذلـك فقـط سـيدي مـا فعلـه ابن تيميه.. لقد راح إلى تلك العلاقة الروحانيـة العميقـة الـتي تصـل الأمة بنبيها يحاول بكـل الوسـائل، وكـل الأسـلحة لقطعهـا.. بـل ويعتبر من لم يقطعها مبتدعا ضالا مشركا.

قال القاضي: إن أثبتم هذا، فقد أثبتم التهمة بكل وجوهها.

قال الإسـكندري: فـإذا ذهب هـذا الرجـل إلى عـترة النـبي وآلـه الـذين أوصـى بهم، وحث على المـودة لهم، فـراح يكـذب عليهم، ويكـذب مـا ورد في فضـلهم، ويشـوه سـيرتهم، ويقـدم غيرهم عليهم، ويسويهم مع أعدائهم..

قـال القاضـي: حينـذاك يكـون قـد بلـغ القمـة في نصـبه وعداوته، ولم يذر شيئا.

قال الإسكندري: فهذه أدلتنا على ما نقول.. فهل تـأذن لنـا سيدي القاضي في البدء في إيرادها واحدا واحدا.

قـال القاضـي: أجـل.. ولـو أثبتم هـذا وفـق المنهج العلمي تكونون قد أثبتم التهمة حقيقة..

قال الإسكندري: لك ذلك سيدي القاضي.. ومحامي المتهم بين أيدينا، وهو يـرد علينـا إن وجـد أننـا ننقـل نصـا من كتبـه لم يقله..

قلت: ليس ذلك فقط.. بل حتى لو بترتم النص عن سياقه، فإنني سأتدخل.. الشهادة لله تقتضي مني أن أكون صادقا معه، كما أكون صادقا معكم.

أولا ـ الانتصار لعدم عصمة الأنبياء عليهم السلام

تقدم الصنعاني، وقال: ليسمح لي سيدي القاضي أن أذكـر الدليل الأول.. وهو انتصار ابن تيمية لعدم عصمة الأنبيــاء عليهم السلام.. ولي على ذلك أربعة شهود.

قال القاضي: فما الشاهد الأول منها؟

قال الصنعاني: الشاهد الأول هـو إنكـار ابن تيميـة الشـديد على من يقــول بالعصــمة المطلقــة للأنبيــاء عليهم الصــلاة والسلام، وكان في إمكانه ان يتجاوز عن ذلك حـتى لـو أخطـأوا انطلاقا من حسن نيتهم.

قال القاضي: وما الشاهد الثاني؟

قال الصنعاني: في مقابل تشدده مع المنزهـة نجـده يبـالغ في الثناء على المشوهين للأنبياء الموردين للطامات حولهم.

قـال القاضـي: أنت تـذكرني بموقـف ابن تيميـة من أهـل التنزيه والتجسيم.

قال الصنعاني: أجل – سـيدي – فقاعدتـه الـرمي بالبدعـة لكل من نزه الله ورسله، والثناء بالسنة على كل من جسم الله أو شوه أنبياءه.

قال القاضي: فما الشاهد الثالث؟

قـال الصـنعاني: الشـاهد الثـالث – سـيدي – هـو رمي ابن تيمية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بصنوف المعاصـي، ودفاعـه عن ذلك.

قال القاضي: إن ما تقوله خطير.

قال الصنعاني: وهناك ما هو أخطر منه، وهو الشاهد الرابع، والمتمثل في تقريرات وتصريحات ابن تيمية على إمكانية كفر الأنبياء وارتكابهم الكبائر.

قال القاضي: إن أثبتم هذا تكون قد أثبتم أن ابن تيمية يقف من الأنبياء وطهارتهم وعصمتهم، ومن النبوة ومقامها الرفيع موقفا لا يقل عن موقفه من الله وتنزيهه.

قال الصنعاني: سنثبت لك ذلك – سيدي – من خلال كتبه وتصريحاته، وأمامك محاميه الذي يفتح كل كتاب نذكره ليتأكد من صحة نقلنا.

1 ـ تبديع ابن تيمية للمنزهة

قال القاضي: هات الشاهد الأول.

قال الصنعاني: الدارس لكتب ابن تيمية – سيدي القاضي – يلاحظ أنه مع ثنائه المبالغ فيه على الكتب التي تشوه الأنبياء، وتنقل ما ورد في الإسرائيليات حولهم – كما سنبرهن لكم على ذلك في الشاهد الثاني– نراه يبدع كل من يقول بالعصمة المطلقة للأنبياء، ويؤول ما ورد في النصوص من ذلك ليتناسب مع مقامهم الرفيع، ومنزلتهم العالية.

قال القاضي: هذه دعوى.. فما دليلها؟

قال الصنعاني: اسمع – سيدي القاضي- إلى ما قاله ابن تيمية في (مجموع الفتاوى).. لقد قال: (إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف حتى إنه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول ولم

ينقل عنهم ما يوافق القول وإنما نقل ذلك القول في العصر المتقدم عن الرافضة ثم عن بعض المعتزلة ثم وافقهم عليه طائفة من المتأخرين. وعامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين عن الإقرار على الصغائر ولا يقرون عليها ولا يقولون إنها لا تقع بحال وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقا وأعظمهم قولا لذلك: الرافضة فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل.. فهؤلاء وأمثالهم من الغلاة القائلين بالعصمة، وقد يكفرون من ينكر القول بها، وهؤلاء الغالية هم كفار باتفاق المسلمين، فمن كفر القائلين بتجويز الصغائر عليهم كان مضاهيا لهؤلاء الإسماعيلية والنصيرية والرافضة والاثني عشرية)[1]

بل إنه لم يكتف بهذا، بل راح يتهم كل من اقتنع بهذا القول بالخروج عن السنة، يقول في ذلك: (ليس هو قول أحد من أصحاب أبي حنيفة ولا مالك ولا الشافعي ولا المتكلمين - المنتسبين إلى السنة المشهورين – كأصحاب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وأبي عبد الله محمد بن كرام وغير هؤلاء. ولا أئمة التفسير ولا الحديث ولا التصوف. ليس التكفير بهذه المسألة قول هؤلاء فالمكفر بمثل ذلك يستتاب فإن تاب وإلا عوقب على ذلك عقوبة تردعه وأمثاله عن مثل هذا إلا أن يظهر منه ما يقتضي كفره وزندقته فيكون حكمه حكم أمثاله. وكذلك المفسق بمثل هذا القول يجب أن يعزر بعد إقامة الحجة عليه؛ فإن هذا تفسيق لجمهور أئمة الإسلام. وأما التصويب والتخطئة في ذلك فهو من كلام العلماء الحافظين من علماء المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة)[2]

بل إنه اعتبر ما قاله المنزهة من تنزيه الأنبياء تحريفا للدين، يقول في (منهاج السنة): (تبعهم في هذا الباب، بل كتب

1() مجموع الفتاوى (4/ 319)

2() مجموع الفتاوى (4/ 319)

التفسير والحديث والآثار والزهد وأخبار السلف مشحونة عن الصحابة والتابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كذب بما في الأحاديث كتكذيب هؤلاء، ولا من قال هذا يمنع الوثوق، أو يوجب التنفير ونحو ذلك كما قال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهل من الأقوال المبتدعة في الإسلام.. وهم قصدوا تعظيم الأنبياء بجهل كما قصدت النصارى تعظيم المسيح وأحبارهم ورهبانهم بجهل، فأشركوا بهم واتخذوهم أربابا من دون الله وأعرضوا عن اتباعهم فيما أمروهم به ونهوهم عنه)[1]

القاضي: الكلام الذي ذكرته واضح.. لكن ما دافعه إلى ذلك؟

قال الصنعاني: ابن تيمية ينطلق من السنة المذهبية في مواقفه جميعا، ولهذا تراه يعظم الصحابة أكثر من تعظيمه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل إنه يتهم الشيعة بكونهم يقولون بالعصمة المطلقة للأنبياء قدحا في الصحابة.

يقول في (منهاج السنة): (وأما ما تقوله الرافضة من أن النبي قبل النبوة وبعدها لا يقع منه خطأ ولا ذنب صغير، وكذلك الأئمة، فهذا مما انفردوا به عن فرق الأمة كلها، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف.. ومن مقصودهم بذلك القدح في إمامة أبي بكر وعمر لكونهما أسلما بعد الكفر، ويدعون أن عليا لم يزل مؤمنا، وأنه لم يخط قط ولم يذنب قط، وكذلك تمام الاثني عشر. وهذا مما يظهر كذبهم وضلالهم فيه لكل ذي عقل يعرف أحوالهم، ولهذا كانوا هم أغلى الطوائف في ذلك وأبعدهم عن العقل والسمع. ونكتة أمرهم أنهم ظنوا وقوع ذلك من الأنبياء والأئمة نقصا، وأن ذلك يجب تنزيههم عنه، وهم مخطئون إما في هذه المقدمة، وإما في هذه المقدمة)[2]

2 ـ ثناء ابن تيمية الشديد على المخطئة

1() منهاج السنة النبوية (2/ 435)

2() منهاج السنة النبوية (2/ 429)

قال القاضي: وعيت هذا.. فهلم بالشاهد الثاني.

قام الحنبلي، وقال: الشاهد الثاني – سيدي القاضي – هو ثناء ابن تيمية الشديد على كل الكتب التي تمتلئ بالقصص والأساطير التي تشوه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وترميهم بالعظائم، بل هو فوق ذلك يعتبرها من كتب السنة، وأنها في هذا الموضوع بالذات أعرف بالأنبياء من كتب المنزهة.

قال القاضي: فهلا أوردت لنا من تصريحاته ما يفيد هذا.

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي.. فقد صرح بذلك في مواضع كثيرة من كتبه.. ومن ذلك قوله: (.. من أئمة أهل التفسير، الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة، كتفسير ابن جريج، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأحمد، وإسحاق وتفسير بقي بن مخلد وابن جرير الطبري، ومحمد بن أسلم الطوسي، وابن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، وغيرهم من العلماء الأكابر، الذين لهم في الإسلام لسان صدق، وتفاسيرهم متضمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير)[1]

وقوله دفاعا عن الإسرائيليات الكثيرة الواردة في تلك الكتب، والتي شوهت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيما تشويه: (ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم من أئمة المسلمين متفقين على ما دل عليه الكتاب والسنة من أحوال الأنبياء، لا يعرف عن أحد منهم القول بما أحدثته المعتزلة والرافضة ومن تبعهم في هذا الباب، بل كتب التفسير والحديث والآثار والزهد وأخبار السلف مشحونة عن الصحابة والتابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كذب بما في الأحاديث كتكذيب هؤلاء، ولا من قال هذا يمنع الوثوق، أو يوجب التنفير ونحو ذلك كما قال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهل من الأقوال المبتدعة في الإسلام.)[2]

---

[1] () منهاج السنة النبوية (7/ 179)

أرأيت سيدي القاضي كيف يعتبر الروايات المشوهة لجمال وعصمة الأنبياء سنة، وكيف يعتبر تنزيه الأنبياء والقول بطهارتهم تحريفا؟

قال القاضي: هذا كلام مجمل.. ومن الصعب الحكم من خلاله، فهلا ذكرت لي أمثلة تؤكد أن هذه التفاسير التي أثنى عليها تتضمن أي إساءة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي.. سأذكر لك أربعة أمثلة تؤكد لك ما أقول.. وإن شئت الزيادة زدتك.

قال القاضي: اذكر لي هذه الأربع، فإن رأيتها كافية اكتفيت بها، وإلا طلبت المزيد..

المثال الأول:

قال الحنبلي: المثال الأول – سيدي القاضي – يتعلق بتفسير من التفاسير التي لقيت عناية كبيرة من ابن تيمية، فهو يذكره كل حين، ويثني عليه وعلى صاحبه، وهو تفسير ابن جرير الطبري، فلا يوجد مجلد من (مجموع الفتاوى) أو (منهاج السنة)، أو (درء تعارض العقل والنقل)، أو (الصارم المسلول)، أو (اقتضاء الصراط المستقيم وغيرها، إلا وفيه ذكر لتفسير ابن جرير الطبري.

بل إنه يعتبره من (أهل العلم والسنة)[1] ، وقد أجاب في (مجموع الفتاوى) من سأله عن أحسن التفاسير بقوله: (أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكير، والكلبي)[2]

وقال عنه: (تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجل

2() منهاج السنة النبوية (2/ 434)

1() مجموع الفتاوى (3/382).

2() مجموع الفتاوى (13/385).

التفاسير المأثورة، وأعظمها قدراً)[1]

قال القاضي: تكفي هذه النصوص في بيان موقف ابن تيمية من ابن جرير الطبري وتفسيره.. ولكن هل حقا تفسير ابن جرير فيه ما يسيئ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

قال الحنبلي: أجل – سيدي القاضي- فقد أسرف الطبري

في تفسيره في نقل الروايات المأخوذة من القصص الإسرائيلي يرويها عن كعب الأحبار أو وهب بن منبه أو عبد الله بن سلام أو عبد الملك ابن جريج وغيرهم حتى أن بعضهم أحصاها فوجدها قد بلغت ما يقرب من ألفين وخمسمائة رواية في تفسيره من الإٍسرائيليات والخرافات والأساطير اليهودية الأولى [2].

وهو مع سرده لها لا يميز صحيحها أو ضعيفها.. بل يترك ذلك كله للقارئ ليتلقى منه كل أنواع التشويهات والتحريفات سواء المتعلقة بالله وتجسيمه وتشبيهه، أو المتعلقة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورميهم بالموبقات.

قال القاضي: فهلا ضربت لي مثالا منها لأطمئن.

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي.. سأضرب لك مثالا يتعلق بتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 23، 24]، فمع أن المنزهة أوردوا الكثير من الأدلة التي تدل على المراد منها، وأنه يتناسب مع عظمة النبي وعفافه وأخلاقه الرفيعة.. لكن الطبري وغيره من المفسرين الذين أثنى عليهم ابن تيمية استغلوا هذه الآية ليرموا هذا النبي الكريم بالعظائم.

1() مجموع الفتاوى (13/361).

2() انظر: مقال للباحثة هدى بنت فهد المعجل، بعنوان: بلا تردد الإسرائيليات.

فمما رواه الطبري في تفسير الآية الكريمة هـذه الروايـة: (استلقت له وجلس بين رجليها وحل ثيابه أو ثيابها)[1]

ومنها هذه الروايـة عن ابن أبي مليكـة – وهـو من سـلفهم الصالح - قال: بلغـني أن يوسـف لمـا جلس بين رجلي المـرأة، فهو يحل هميانه – ثيابه - نودي: يـا يوسـف بن يعقـوب لا تـزنِ، فإن الطـير إذا زنى تنـاثر ريشـه، فـأعرض، ثم نـودي فـأعرض، فتمثل له يعقوب عاضاً على أصبعه، فقام) [2]

ومنها هذه الروايـة في المـراد من: ﴿ لَـوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَـانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24] (رأى صورة – أو تمثال- وجه يعقوب عاضـاً على إصبعه، فخرجت شهوته من أنامله)[3]

ومنهـا (البرهـان الـذي رأى يوسـف فصـرف عنـه السـوء والفحشاء: يعقوب عاضاً على إصـبعه، فمـا رآه انكشـف هاربـاً، ويقول بعضهم: إنما هو خيال إطفـير سـيده حين دنـا من البـاب وذلك أنه لما هرب منها وأتبعته ألفياه لدى الباب)[4]

وهكذا حولوا من قصة هذا النبي العفيف الذي ضـرب اللـه به المثل في الإحسان والصديقية إلى رجل شهواني لا يرتدع إلا بعد أن تحصل المعجزات التي تثنيه عن همه.

ومع ذلك يعتبر ابن تيمية هذه الروايات والقائلين بها سـنة، والمنزهين ليوسف عليه السلام والمبينين سمو أخلاقه مبتدعة.

المثال الثاني:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الثاني.

1() تفسير الطبري ، 6/4502.

2() تفسير الطبري ، 6/4505.

3() جامع البيان للطبري ، ج6 ، ص4510.

4() جامع البيان للطبري ، ج6 ، ص4511.

قال الحنبلي: المثال الثاني سيدي القاضي يتعلـق بتفسـير أثنى عليـه ابن تيميـة كثـيرا، واعتـبره من تفاسـير السـنة، وهـو تفسير ابن أبي حاتم، فقد عده في مجمـوع الفتـاوى (من أهـل العلم والسـنة)[1] ، وعـده في منهـاج السـنة من (من أئمـة التفسير)[2] ، و(من أهل العلم الكبار)[3]

وقال عنه في مجموع الفتاوى: (.. وابن أبي حاتم قـد ذكـر في أو كتابه في التفسير أنـه طلب منـه إخـراج تفسـير القـرآن مختصـراً بأصـح الأسـانيد، وأنـه تحـرى إخراجـه بأصـح الأخبـار إسناداً، وأشبعها متناً، وذكر إسناده عن كل من نقل عنـه شـيئاً) [4]

قال القاضي: يكفيني هذا.. فهلا ضربت لي مثالا من كتابـه لأطمئن.

قال الحنبلي: أجـل سـيدي القاضـي.. فمن ذلـك قولـه في تشويه نبي الله آدم عليه السلام، وزوجه حواء، وأنهما وقعـا في الشرك، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَـا آتَاهُمَـا فَتَعَـالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْـرِكُونَ﴾ [الأعـراف: 190]، فقد قال: (الله هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشـاها آدم حملت آتاهمـا إبليس فقـال: إني صـاحبكما الـذي أخرجتكمـا من الجنـة لتطيعنـني أو لأجعلن لها قرني إبل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما سمياه عبـد الحـارث فأبيـا أن يطيعـاه فخـرج ميتـا، ثم حملت يعني الثانية فأتاهما أيضا فقال: أنا صاحبكما الـذي فعلت مـا فعلت لتفعلن أو لأفعلن ولأفعلن يخوفهمـا فأبيـا أن يطيعانـه فخرج ميتا، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهمـا فأدركهمـا

1() مجموع الفتاوى (3/382).

2() منهاج السنة (7/212)

3() منهاج السنة (7/13)

4() مجموع الفتاوى (15/201.

حب الولد فسمياه عبد الحارث)[1]

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الثالث.

قال الحنبلي: المثال الثالث سيدي القاضي يتعلـق بتفسـير أثنى عليـه ابن تيميـة كثـيرا، واعتـبره من تفاسـير السـنة، وهـو تفسير ابن عطية، وقد قال عنه في مجمـوع الفتـاوى:(وتفسـير ابن عطية وأمثاله: أتبع للسنة والجماعة، واسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسـن وأجمـل، فإنـه كثـيراً مـا ينقل تفسير محمد بن جريـر الطـبري، وهـو من أجـل التفاسـير المأثورة، وأعظمهـا قـدراً. ثم إنـه يـدع مـا نقلـه ابن جريـر عن السلف، ولا يحكيه بحال، ويذكر مـا يـزعم أنـه قـول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة، من أهـل الكلام، الـذين قـرروا اصـولهم بطـرق من جنس مـا قـررت بـه المعتزلـة أصـولهم، وإن كـانوا أقـرب إلى السـنة من المعتزلـة، لكن ينبغي أن يعطي كـل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب فـإن الصحابة، والتابعين، والأئمة إذا كان لهم في تفسـير الآيـة قـول، وجاء قم فسروا الآية بقول آخـر لأجـل مـذهب اعتقـدوه، وذلـك المـذهب ليس من مـذاهب الصـحابة، والتـابعين لهم بإحسـان صاروا مشاركين للمعتزلة، وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا)[2]

انظر – سيدي القاضي – كيف أنه لا يـرد على مـا فيـه من إسـرائيليات، بـل يـرد على مـا فيـه من كلام عقلي ومنطقي استفاده من المتكلمين.. بل هو يدعوه إلى أن يكون كابن جرير الطبري يأخذ الغث والسمين من غير تحقيق ولا بيان.

1() تفسير ابن أبي حاتم - محققا (5/ 1634)

.

2() مجموع الفتاوى (13/361).

ويقول في مجموع الفتاوى عندما سئل عن مجموعة من التفاسير: (وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها)[3]

والبدع المشار إليها ليس تشويه الأنبياء، وإنما ما فيه من رؤى علمية منطقية تستند إلى أقوال المتكلمين.

قال القاضي: يكفيني هذا.. فهلا ضربت لي مثالا من كتابه لأطمئن.

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي.. فمن ذلك قوله عن داود عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص:21]: (أخذ داود يوما في عبادته وانفرد في محرابه يصلي ويسبح إذ دخل عليه طائر من كوة، فوقع بين يديه، فروي أنه كان طائرا حسن الهيئة: حمامة، فمد داود يده ليأخذه فزال مطمعا له فما زال يتبعه حتى صعد الكوة التي دخل منها فصعد داود ليأخذه، فتنحى له الطائر، فتطلع داود عليه السلام، فإذا هو بامرأة تغتسل عريانة، فرأى منظرا جميلا فتنه، ثم إنها شعرت به، فأسبلت شعرها على بدنها فتجللت به، فزاده ولوعا بها، ثم إنه انصرف وسأل عنها، فأخبر أنها امرأة رجل من جنده يقال له: أوريا وإنه في بعث كذا وكذا، فيروى أنه كتب إلى أمير تلك الحرب أن قدم فلانا يقاتل عند التابوت، وهو موضع بركاء الحرب قلما يخلص منه أحد، فقدم ذلك الرجل حتى استشهد هنالك.. ويروى أن داود كتب أن يؤمر ذلك الرجل على جملة من الرجال، وترمى به الغارة والوجوه الصعبة من الحرب، حتى قتل في الثالثة من نهضاته، وكان لداود فيما روي تسع وتسعون امرأة، فلما جاءه الكتاب بقتل من قتل في حربه، جعل كلما سمي رجل يسترجع ويتفجع، فلما سمي الرجل قال: كتب الموت على كل نفس، ثم إنه خطب المرأة وتزوجها، فكانت أم سليمان فيما روي عن قتادة فبعث

---

[3] مجموع الفتاوى (13/385).

الله تعالى إليه الخصم ليفتي بأن هذا ظلم. وقالت فرقة: إن هذا كله هم به داود ولم يفعله، وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك. وقال آخرون: إنما الخطأ في أن لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده، إذ كان عنده أمر المرأة)[1]

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الرابع.

قال الحنبلي: المثال الرابع سيدي القاضي يتعلق بتفسير أثنى عليه ابن تيمية كثيرا، واعتبره من تفاسير السنة، وهو تفسير البغوي، فقد سئل عنه في مجموع الفتاوى السؤال التالي: أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة الزمخشري، أم القرطبي أم البغوي، أم غير هؤلاء؟ فأجاب بقوله: (أما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها فأسلمها من البدعة، والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحدث منه الأسانيد، والأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك) [2]

وقال عنه في (منهاج السنة): (ولهذا لما اختصره أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، وكان أعلم بالحديث والفقه منه: والثعلبي أعلم بأقوال المفسرين، والنحاة، وقصص الأنبياء، فهذه الأمور نقلها البغوي عن الثعلبي، وأما الأحاديث فلم يذكر في تفسيره شيئاً من الموضوعات التي رواها الثعلبي، بل يذكر الصحيح منها، ويعزوه إلى البخاري وغيره، فإنه مصنف كتاب (شرح السنة)، وكتاب (المصابيح)، وذكر ما في الصحيحين والسنن، ولم يذكر الأحاديث التي تظهر لعلماء الحديث أنها موضوعة كما يفعله غيره من المفسرين كالواحدي صاحب الثعلبي، وهو أعلم بالعربية منه، وكالزمخشري وغيرهم من المفسرين الذين يذكرون من الأحاديث ما يعلم أهل الحديث أنه

1() تفسير ابن عطية (4/ 498)

2() مجموع الفتاوى (13/386)

موضوع)[1]

قال القاضي: يكفيني هذا.. فهلا ضربت لي مثالا من كتابه لأطمئن.

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي.. فمن ذلك قوله عن يوسف عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: 24]: (ولقد همت به وهم بها، والهم هو المقاربة من الشيء من غير دخول فيه، فهمها: عزمها على المعصية والزنا، وأما همه: فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حل الهميان وجلس منها مجلس الخاتن، وعن مجاهد قال: حل سراويله وجعل يعالج ثيابه. وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن. وقال الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما)[2]

والخطر ليس في هذه الرواية، فقد أوردها كل من امتدحهم ابن تيمية من السلف وأثنى عليهم، ولكن الخطر في تعقيبه على هذه الرواية بقوله: (قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قد أنكر قوم هذا القول، والقول ما قال متقدمو هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم) [3]

ثم أورد ردودا أخرى على تلك الروايات، تنزيها لمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكنه رد عليها بقوله: (وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام، وقال: تم الكلام عند قوله: ولقد همت به، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم.. وقيل: همت بيوسف أن يفترشها،

1() منهاج السنة النبوية (7/ 91)

2() تفسير البغوي - إحياء التراث (2/ 484)

3() تفسير البغوي - إحياء التراث (2/ 484)

وهم بها يوسف أي: تمنى أن تكون له زوجة. وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعلم)[1]

هل رأيت سيدي القاضي كيف أصبحت مقولات المتقدمين من سلفهم دينا يتعبد الله به حتى لو كان فيه مساس بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتحريف للقرآن الكريم.

ثم إنه راح يبرر ما ورد في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أمثال هذه العظائم، ومن ذلك هذا التبرير البارد: (إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر، والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام)

ومنها ما نقله عن الحسن البصري من قوله: (إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليعيرهم، ولكن ذكرها ليبين موضع النعمة عليهم، ولئلا ييأس أحد من رحمته)

ومنها (إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرد بالطهارة والعزة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية)

ومنها (ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو)

وقد استفاد ابن تيمية من كل هذه التبريرات في تقريره لعدم عصمة الأنبياء في غير شؤون التبليغ، ودفاعه المستميت عن ذلك.

3 ـ دفاع ابن تيمية عن المخطئة

قال القاضي: وعيت هذا.. فهلم بالشاهد الثالث.

قام الميلاني، وقال: الشاهد الثاني – سيدي القاضي – هو دفاع ابن تيمية المستميت على ما أورده سلفه من المخطئة في تفاسيرهم وكتبهم حول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد

1() تفسير البغوي - إحياء التراث (2/ 485)

جعله ذلك يدافع عن رمي الأنبياء بأنواع الخطايا، بـل يحـاول أن يبين أنها كمال في حقهم.

انظر إلى هذا النص من كتابه النبوات، والـذي يحـاول فيـه أن يختصر العصمة في التبليغ عن الله فقـط، يقـول فيـه: (ومـا أنبأ به النبي عن الله لا يطابق كذباً؛ لا خطأً، ولا عمداً، فلا بُدّ أن يكون صادقاً فيمـا يخـبر بـه عن اللـه؛ يُطـابق خَبَـرَهُ مَخْبَـرَهُ، لا تكون فيه مخالفة؛ لا عمداً، ولا خطأً، وهذا معنى قول من قـال: هم معصومون فيما يبلغونـه عن اللـه، لكن لفـظ الصـادق، وأنّ النبيّ صـادق مصـدوق: نطـق بـه القـرآن، وهـو مـدلول الآيـات والبراهين، ولفـظ العصـمة في القـرآن، جـاء في قولـه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]؛ أي من أذاهم، فمعـنى هـذا اللفـظ في القـرآن: هـو الـذي يحفظـه اللـه عن الكـذب خطـأً وعمداً. وقد يكـون معصـوماً على لغـة القـرآن: بمعـنى أن اللـه عصمه من الشـياطين؛ شـياطين الإنس والجن، وأن يُغيّـروا مـا بُعث بـه، أو يمنعـوه عن تبليغـه؛ فلا يكتم، ولا يكـذب؛ كمـا قـال تعالى: ﴿عَـالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِـرُ عَلَى غَيْبِـهِ أَحَـدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَـى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ رَصَـدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَـاطَ بِمَـا لَـدَيْهِمْ وَأَحْصَـى كُـلَّ شَـيْءٍ عَـدَدًا ﴾ [الجن: 26 -ـ 28]؛ فهـو يسـلك الـوحي من بين يـدي الرسول ومن خلفه. وهـذا في معـنى عصـمته من النـاس؛ فهـو المؤيّد، المعصوم بما يحفظه اللـه من الإنس والجن، حـتى يبلـغ رسالات ربّه كما أمر، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان)[1]

لا يكتفي ابن تيمية بهذا التمليح.. بل يمارس التصريح بكـل أنواعه ليبين لأتباعه أنهم لن يظفروا بلقب (السنة) حـتى يرمـوا الأنبياء بما رماهم به سلفه من الخطايا.

يقول في ذلـك – أثنـاء رده على المنزهـة -: (ونكتـة أمـرهم أنهم ظنوا وقوع ذلك من الأنبياء والأئمـة نقصـا، وأن ذلـك يجب تنزيههم عنه، وهم مخطئون إما في هذه المقدمة، وإما في هذه المقدمة.. أما المقدمـة الأولى فليس من تـاب إلى اللـه تعـالى

1() النبوات لابن تيمية (2/ 873)

وأناب إليه بحيث صار بعد التوبة أعلى درجة مما كان قبلها منقوصا ولا مغضوضا منه، بل هذا مفضل عظيم مكرم، وبهذا ينحل جميع ما يوردونه من الشبه، وإذا عرف أن أولياء الله يكون الرجل منهم قد أسلم بعد كفره وآمن بعد نفاقه وأطاع بعد معصيته، كما كان أفضل أولياء الله من هذه الأمة - وهم السابقون الأولون - يبين صحة هذا الأصل)[1]

هل رأيت سيدي الدافع الذي جعل ابن تيمية يحطم كل تلك المكانة الرفيعة التي نالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قلوب الناس بسبب طهارتهم وعصمتهم؟

إنه فقط مبالغته في شأن الصحابة.. هو لا يريد أن يتهمهم الناس بالنقص لكونهم أسلموا بعد كفر، وأطاعوا بعد معصية، فلم يجد إلا أن يلحق الأنبياء بهم، بل جعله يماري في القطعيات، فيحاول بكل الوسائل أن يقنع أتباعه بدور المعصية في تحقيق الكمال.

يقول في ذلك: (والإنسان ينتقل من نقص إلى كمال، فلا ينظر إلى نقص البداية، ولكن ينظر إلى كمال النهاية، فلا يعاب الإنسان بكونه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة، إذا كان الله بعد ذلك خلقه في أحسن تقويم.. فمن يجعل التائب الذي اجتباه الله وهداه منقوصا بما كان من الذنب الذي تاب منه، وقد صار بعد التوبة خيرا مما كان قبل التوبة، فهو جاهل بدين الله تعالى وما بعث الله به رسوله، وإذا لم يكن في ذلك نقص مع وجود ما ذكر فجميع ما يذكرونه هو مبني على أن ذلك نقص، وهو نقص إذا لم يتب منه، أو هو نقص عمن ساواه إذا لم يصر بعد التوبة مثله، فأما إذا تاب توبة محت أثره بالكلية وبدلت سيئاته حسنات فلا نقص فيه بالنسبة إلى حاله، وإذا صار بعد التوبة أفضل ممن يساويه أو مثله لم يكن ناقصا عنه)[2]

1() منهاج السنة النبوية (2/ 430)

2() منهاج السنة النبوية (2/ 434)

بل إنه فوق ذلك كله يعتبر تنزيه الأنبياء عن المعاصي غضا من مرتبتهم، وسلبا للدرجة التي أعطاهم الله، يقول في ذلك: (وجوب كون النبي لا يتوب إلى الله فينال محبة الله وفرحه بتوبته وترتفع درجته بذلك ويكون بعد التوبة التي يحبه الله منه خيرا مما كان قبلها فهذا مع ما فيه من التكذيب للكتاب والسنة غض من مناصب الأنبياء وسلبهم هذه الدرجة ومنع إحسان الله إليهم وتفضله عليهم بالرحمة والمغفرة)[1]

وهو يعود ليستدل بالصحابة الذين من أجلهم شوه الأنبياء، بل شوه رسول الله ﷺ نفسه ليحفظ مكانتهم التي يتصورها لهم، يقول في ذلك: (ومن اعتقد أن كل من لم يكفر ولم يذنب أفضل من كل من آمن بعد كفره وتاب بعد ذنبه، فهو مخالف ما علم بالإضطرار من دين الإسلام! فإنه من المعلوم أن الصحابة الذين آمنوا برسول الله ﷺ بعد كفرهم وهداهم الله به بعد ضلالهم، وتابوا إلى الله بعد ذنوبهم أفضل من أولادهم الذين ولدوا على الإسلام! وهل يشبه بني الأنصار بالأنصار، أو بني المهاجرين بالمهاجرين إلا من لا علم له)[2]

4 ـ تجويز ابن تيمية لكفر الأنبياء

قال القاضي: وعيت هذا.. فهلم بالشاهد الرابع.

قام الخليلي، وقال: الشاهد الرابع – سيدي القاضي – هو تصريحات ابن تيمية الخطيرة بإمكانية كفر الأنبياء، بل بكونهم كانوا قبل نبوتهم يمارسون ما يمارسه قومهم من أنواع الكفر.

وقد قدم لذلك بمقدمة عقدية تصور أنها كافية، وهي أن الله يفعل ما يشاء، وبالتالي يمكنه أن يختار أي كافر، بل أي مجرم ليتولى هذا المنصب الخطير، يقول في ذلك: (ومما يبين الكلام في مسألة العصمة أن تعرف النبوة ولوازمها وشروطها، فإن الناس تكلموا في ذلك بحسب أصولهم في أفعال الله

---

[1] () منهاج السنة النبوية (2/ 397)

[2] () منهاج السنة النبوية (2/ 398)

تعالى إذا كان جعل الشخص نبياً رسولاً من أفعال الله تعالى فمن نفى الحِكَم والأسباب في أفعاله وجعلها معلقةً بمحض المشيئة، وجوَّز عليه فعل كل ممكن، ولم ينزهه عن فعل من الأفعال، كما هو قول الجهم بن صفوان وكثير من الناس كالأشعري ومن وافقه من أهل الكلام من أتباع مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من مثبتة القدر، فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف! والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه! والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه! والنبوة عندهم صفة ثبوتية ولامستلزمة لصفة يختص بها، بل هي من الصفات الإضافية كما يقولون، مثل ذلك في الأحكام الشرعية)[1]

وهو – كعادته في الاحتيال – يحاول أن يحكي مذهبه هذا، ويدافع عنه لا بقوله هو، بل بقول من يراهم ألد أعدائه، فهو يعاديهم إن خالفوه في تجسيم الله وتشبيهه، ويصادقهم إن وافقوه في تشويه الأنبياء والقول بعدم عصمتهم، يقول في ذلك: (وهذا قول طوائف من أهل الكلام كالجهم بن صفوان والأشعري وأتباعهما، ولهذا من يقول بها كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما يقول إن العقل لايوجب عصمة النبي إلا في التبليغ خاصة، فإن هذا هو مدلول المعجزة! وما سوى ذلك إن دل السمع عليه، وإلا لم تجب عصمته منه.. وقال محققوا هؤلاء كأبي المعالى وغيره إنه ليس في السمع قاطع يوجب العصمة، والظواهر تدل على وقوع الذنوب منهم! وكذلك كالقاضي أبي بكر إنما يثبت مايثبته من العصمة في غير التبليغ إذا كان من موارد الإجماع، لأن الإجماع حجة وما سوى ذلك فيقول لم يدل عليه عقل ولا سمع، وإذا احتج المعتزلة وموافقوهم من الشيعة عليهم بأن هذا يوجب التنفير ونحو ذلك فيجب من حكمة الله منعهم منه، قالوا هذا مبني على مسألة التحسين والتقبيح العقليين ونحن نقول لايجب على الله شئ ويحسن منه كل شئ! وإنما ننفي ما ننفيه بالخبر السمعي، ونوجب وقوع ما يقع بالخبر السمعي أيضاً، كما أوجبنا ثواب المطيعين وعقوبة الكافرين لإخباره أنه يفعل ذلك، ونفينا أن

1() منهاج السنة:2/413.

يغفر لمشرك لإخباره أنه لايفعل ذلك، ونحو ذلك، وكثير من القدرية المعتزلة والشيعة وغيرهم ممن يقول بأصله في التعديل والتجوير وأن الله لايفضل شخصاً على شخص إلا بعمله، يقول إن النبوة أو الرسالة جزاءٌ على عمل متقدم فالنبي فَعَل من الأعمال الصالحة ما استحق به أن يجزيه الله بالنبوة، وهؤلاء القدرية في شق، وأؤلئك الجهمية الجبرية في شق)[1]

ويقول في موضع آخر: (أما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها، أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا: والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.. والقول الذي عليه جمهور الناس، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا، والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها، وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول)[2]

أرأيت سيدي أبلغ من هذا التصريح.. إنه يجوز عليهم كل أنواع الذنوب.. وهي تشمل الصغائر والكبائر حتى الكفر نفسه.

قال القاضي: أنا معك في كون الذنوب تشمل الصغائر والكبائر.. لكني أريد دليلا أصرح في رميه الأنبياء بالكفر قبل نزول الوحي عليهم.

قال الخليلي: لقد صرح بذلك في مواضع من كتبه، منها ما ورد في مجموع الفتاوى، والتي قدم لها بقوله: (هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها، ومنها قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

---

[1] () منهاج السنة النبوية (2/ 415)

[2] () الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 258)

مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88] الآية وما في معناها)[1]

ثم راح يبرز قدراته الاستنباطية في هذا الجانب، فقال: (التحقيق: أن الله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب كما في حديث هرقل. ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم إذا كان معروفا بالصدق والأمانة وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: 15]، فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم؛ ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحا. وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلا عن أن تقر به.. قال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: 15]) [2]

ومثلما دافع عن المعصية، وكونها كمال في حق الأنبياء، راح يدافع عن كفرهم، مبينا أن ذلك أيضا كمال في حقهم، فقال: (والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم)[3]

التفت القاضي إلي، وقال: إن ما يقوله خطير.. فهل تأكدت من جميع النصوص التي أوردها؟

قلت: أجل سيدي القاضي.. بل إن هذا مشهور عندهم، وأمامي كتاب شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ، المسمى بـ (إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل)، وهو يقول فيه: (القسم الثاني، من جهة الذنوب: الذنوب أقسام: فمنها الكفر

---

[1] () مجموع الفتاوى (15/ 30)

[2] () مجموع الفتاوى (15/ 30)

[3] () مجموع الفتاوى (15/ 31)

وجائز في حق الأنبياء والرسل أنْ يكونوا على غير التوحيد قبل الرسالة والنبوة.. والثاني من جهة الذنوب، فالذنوب قسمان كبائر وصغائر: والكبائر جائزة فيما قبل النبوة، ممنوعة فيما بعد النبوة والرسالة؛ فليس في الرسل من اقترف كبيرة بعد النبوة والرسالة أو تَقَحَّمَها عليهم الصلاة والسلام بخلاف من أجاز ذلك من أهل البدع)[1]

وسئل هذا السؤال: (أشكل عليَّ قولك: النبي قد يكون على غير التوحيد قبل الرسالة؟)، فأجاب بقوله: (نعم النبي قد يكون على غير ذلك، فيصطفيه الله - عز وجل - وينبهه؛ يعني ما فيه مشكل في ذلك، قد يكون غافلا)[2]

التفت القاضي إلى الخليلي، وقال: وعيت هذا.. فهل طبقه على رسول الله ﷺ؟

قال الخليلي: أنت تعرف الصعوبة التي سيلقاها ابن تيمية لو صرح بذلك في حق رسول الله ﷺ.. ولكن لو تأملت كلامه ونقوله في هذا لوجدته لا يستثني رسول الله ﷺ، خاصة وأنه مهد لذلك بكون الكمال فيه.

قال القاضي: هلا أوردت لي أمثلة على ذلك.

قال الخليلي: من الأمثلة على ذلك أنه يردد كثيرا حديثا يدل بظاهره على أن زيدا بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب كان أكثر ورعا عن الشرك وأسبابه من رسول الله ﷺ، فقد روى في (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) وغيره من كتبه أن رسول الله ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدم إليه رسول الله ﷺ سفرة في لحم. فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه)[3]

1() شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ ، ص: 84.

2() شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ (ص: 86.

بل ويضيف إليها كل الروايات التي ورد بها الحـديث ليؤكـد المعنى، فيقـول: (وفي روايـة لـه: وإن زيـد بن عمـرو بن نفيـل كـان يعيب على قـريش ذبـائحهم، ويقـول: الشـاة خلقهـا اللـه، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لهـا من الأرض الكلأ، ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله؟!) إنكارا لذلك وإعظاما له) [4]

التفت القاضـي إلي، وقـال: مـا تقـول؟.. هـل صـحيح مـا ذكره؟

قلت: أجل سيدي القاضي.. وقد ذكـره في مواضـع كثـيرة من كتبه، وفصـل فيـه تفصـيلا طـويلا.. بـل إني رأيت في كتابـه (الفتاوى الكبرى) دفاعه عن وقوع الشـرك من رسـول اللـه ﷺ بعد البعثة، فقد قـال: (وهـذه العصـمة الثابتـة للأنبيـاء هي الـتي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فـإن النـبي هـو المنـبئ عن الله، والرسول هو الذي أرسـله اللـه تعـالى، وكـل رسـول نـبي وليس كل نبي رسولا، والعصمة فيما يبلغونـه عن اللـه ثابتـة فلا يستقر في ذلك خطـأ باتفـاق المسـلمين.. ولكن هـل يصـدر مـا يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياتـه؟ هـذا فيه قولان. والمأثور عن السـلف يوافـق القـرآن بـذلك. والـذين منعـوا ذلـك من المتـأخرين طعنـوا فيمـا ينقـل من الزيـادة في سـورة النجم بقولـه: تلـك الغرانيـق العلى، وإن شـفاعتهن لترتجى، وقالوا: إن هـذا لم يثبت، ومن علم أنـه ثبت: قـال هـذا ألقـاه الشـيطان في مسـامعهم ولم يلفـظ بـه الرسـول. ولكن السؤال وارد على هذا التقـدير أيضـا. وقـالوا في قولـه: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ [الحج: 52] هو حديث النفس. وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلا ثابتا لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقولـه: ﴿ومـا أرسـلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيتـه فينسخ الله مـا يلقي الشـيطان ثم يحكم اللـه آياتـه واللـه عليم حكيم﴾ [الحج: 52] ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنـة للـذين في

3() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

4() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد - وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم [الحج: 53 - 54]. فقالوا الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير، والحديث، والقرآن يوافق ذلك فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها. وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهرا يسمعه الناس لا باطنا في النفس والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ)[1]

أرأيت سيدي القاضي كيف يعتبر نطق الرسول ﷺ بالشرك قول السلف وأنه السنة، بل إنه يراه من كمال الرسول ﷺ ومن أدلة صدقه، فيقول معقبا على كلامه السابق: (وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبعده عن الهوى من ذلك النوع، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق)[2]

ثانيا ـ التعامل المزاجي مع البلاغ النبوي

بعد أن ساق العلماء ما ساقوا من البينات والشواهد على انتصار ابن تيمية للمخطئة، وتأييده الكامل لهم، بل تأييده لصدور الجرائم والكبائر وأنواع الكفر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تقدم الهندي، وقال: بعد أن تبين لكم – سيدي القاضي – من خلال الدليل الأول تصور ابن تيمية لمقام النبوة، واختصاره لها في العصمة في التبليغ، سنبين لك في هذا الدليل

[1] () الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 256)

[2] () الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 257).

تلاعب ابن تيمية بالتبليغ نفسه.. فهو يؤيد ما يتناسب مع مزاجه، ويرفض ما لا يتناسب معه.

إنه باختصار يفصل رسولا على مزاجه من خلاله تلاعبه بقبول الأحاديث ورفضها، وتأويله للنصوص أو أخذه بظاهرها.

قال القاضي: إن ما تقوله خطير جدا.. فما شهودكم عليه.

قال الهندي: شهودنا عليه كل تراث ابن تيمية وكتبه.. فهو يمارس من خلالها أدواره التضليلة ليفصل نبيا يتناسب مع بني أمية والطلقاء والبغاة وكل من ناصب رسول الله ﷺ العداء.

قال القاضي: هلا وضحت لنا أكثر.

قال الهندي: لقد نذر ابن تيمية حياته جميعا للتنظير للإسلام الأموي، وهو إسلام يقوم على أربعة أسس.. أولها: تشبيه الله وتجسيمه حتى يكون رب المسلمين قريبا من الرب الذي كانت تعبده قريش.. وثانيها: العداء لآل بيت رسول الله ﷺ، لأن بني أمية لم يكونوا يرتاحون لهم.. وثالثها: إحداث الصراع في الأمة، وإثارة الفتن بينها، لأن سوق بني أمية لا تقوم إلا في ظلال الصراع والفتن.. ورابعها: تعليم الأتباع المنهج الذي من خلاله يمارسون أدوار التضليل والتحريف والتلاعب بالدين حتى لا يموت بموت ابن تيمية.

قال القاضي: إن ما تقوله خطير جدا.. إن هذا دور الشيطان لا دور الإنسان.

قال الهندي: هذا هو الواقع..

قال القاضي: فهل برهنت لنا عليه؟

قال الهندي: كل محكاماتنا لابن تيمية برهان عليه.

قال القاضي: لكن لابد لكم من بينات وشهود، وإلا رفضت اعتبار دليلكم هذا..

قال الهندي: سأذكر لك شاهدين مختصرين، وإن أردت

تفصيلهما يمكنك العودة إلى جميع الأدلة الأخرى.

قال القاضي: لا بأس.. فما هما؟

قال الهندي: أولهما: التساهل في تصحيح الضعيف بل الموضوع إذا توافق مع فهم ابن تيمية للدين.. وثانيهما: تضعيف الصحيح إذا تعارض مع فهمه له.

1 ــ تساهل ابن تيمية مع الضعيف والموضوع

قال القاضي: هات الشاهد الأول.

قال الصنعاني: الدارس لكتب ابن تيمية – سيدي القاضي – يلاحظ أنه يتعامل مع الحديث برؤية مزاجية مفصلة بحسب رغبته، لا بحسب ما يمليه التحقيق والبحث.. ولهذا تجده – إذا ما تعلق الأمر بما يريده هو من تشبيه وتجسيم ونحوه - يحتج بروايات من غير كتابي البخاري ومسلم، بل من غير الكتب الستة، بل ربما يحتج بروايات كتب غير مشهورة، كـ (كتاب الزينة) لأبي حاتم، و(الإبانة) لابن بطة، وغيرها مما ذكرناه لكم في التهمة الأولى، وهي جميع النصوص التي تفيد الشبيه ونحوه.. لكنه إن اعترض عليه بأحاديث أصح وأقوى تجده يرد على المعترض بقوله: (ليس في الصحيحين)، فلا يرتضي (السنن الأربعة) ولا (مسند أحمد) وأمثالها من الكتب المشهورة المعتبرة..

وهكذا تجده في التعامل مع الكتب والمصنفات، فهو يقف من كتب الصوفية وخاصة الإحياء موقفا سلبيا ويرميها بكونها ممتلئة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، بينما يغض الطرف عن كتب العقيدة المملوءة بأصناف التجسيمات والتشبيهات، بل يعتبرها كتب سنة، ويدعو إلى قراءتها.

مع أن الخطورة في كتب الصوفية أقل بكثير من الخطورة من كتب العقيدة، لأن الأولى تهتم بفضائل الأعمال، والثانية

تهتم بحقائق الوجود، وتصف الله بما ينزه عنه.

اسمع إليه، وهو يتحدث عن كتب الصوفية: (فكتب الزهد والتصوف فيها من جنس ما في كتب الفقه والرأي وفي كلاهما منقولات صحيحة وضعيفة بل وموضوعة، ومقالات صحيحة وضعيفة بل وباطلة، وأما كتب الكلام ففيها من الباطل أعظم من ذلك بكثير بل فيها أنواع من الزندقة والنفاق. وأما كتب الفلسفة فالباطل غالب عليها بل الكفر الصريح كثير فيها وكتاب الإحياء له حكم نظائره ففيه أحاديث كثيرة صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة، فإن مادة المصنف في الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن مادة ضعيفة)[1]

أما كتب العقيدة، فقد ذكرنا لك سيدي في الدليل الأول ما يشفي ويغني.

قال القاضي: وعيت هذا.. لكني لا أكتفي به.. أنا أريد بينات واضحات على ما تقول؟

قال الصنعاني: لك ذلك – سيدي القاضي- وقد أحضرت أربعة أمثلة على ما أقول، عساها تكون كافية، وإلا زدتك ما تشاء، وقد ذكرت لك أننا سنتحدث عن أمثال هذا طيلة هذه المحاكمات.

المثال الأول:

قال القاضي: لا بأس.. سنكتفي حاليا بما ستذكر من أمثلة.. وننتظر الباقي.. فهات المثال الأول.

قال الصنعاني: المثال الأول هي تصحيحه لكل حديث يرتبط بالتجسيم والتشبيه مهما كانت غرابته وضعفه..

قال القاضي: فهلا ضربت لنا مثالا على ذلك.

قال الصنعاني: من الأمثلة على ذلك حديث اهتم به

1() شرح العقيدة الأصفهانية (ص: 200)

المجسمة كثيرا، وألفوا فيه الرسائل، ويسمونه حديث الأوعـال، وهو عبارة عن خرافة تعطي للكون صورة عجيبـة غـير الصـورة التي نستفيدها من القرآن الكريم.

وهي تتلخص في أنه يوجد فوق السـماء السـابعة بحـر بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء وسماء، وفوق ذلك البحر يوجـد ثمانيـــة ملائكـــة من الأوعـــال أي من الـــتيوس وهم في غايـــة الضـخامة مـا بين أظلافهم إلى ركبهم مثـل مـا بين سـماء إلى سماء، والعرش يقع فوق ظهور هذه الأوعال (التيوس) الثمانية، والباري عز وجـل حسـب ادعـائهم واللـه عـز وجـل تعـالى عمـا يصفون وعما يقولون علوا كبيرا فوق ذلك العرش الـذي تحملـه التيوس (الأوعال) الثمانية.

القاضي: هلا ذكرت لنا نص الحديث لنتبين أكثر.

قال الصـنعاني: أجـل سـيدي.. فقـد رووا عن العبـاس أنـه قال: (كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب. قال: والمزن، قـالوا: والمـزن، قـال: والعنـان، قـالوا: والعنـان، قال: هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا نـدري. قال: إن بعـد مـا بينهمـا إمـا واحـدة أو اثنتـان أو ثلاث وسـبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك - حتى عد سبع سموات - ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فــوق ذلــك ثمانيــة أوعــال – أي تيــوس جبليــة-، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، مـا بين أسـفله وأعلاه مثـل مـا بين سـماء إلى سـماء، ثم اللـه تبارك وتعالى فوق ذلك)[1]

فمع أن الذهبي قال في هذا الحديث: (تفرد به سـماك عن عبـد اللـه، وعبـد اللـه فيـه جهالـة)[2] ، وقـال فيـه الألبـاني في السلسلة الضـعيفة: (والـذي يـترجح – واللـه أعلم – هـو ضـعف

1() سنن أبي داود 4/319 - 320.

2() في العلو (1/60).

الحديث، فإن تفرد سماك بن حرب بمثل هذا الحـديث المتعلـق بالغيبيات تفرد غير مقبول، وجهالة عبد الله بن عميرة تضـر في مثل هذا الموضـع أيضـا، ثم ثمـة انقطـاع بينـه وبين الأحنـف بن قيس)[1]

لكن مـع ذلـك نـرى ابن تيميـة يسـتميت في الـدفاع عنـه، ومحاولة تصـحيحه، وقـد ذكـر المنـاظرة الـتي جـرت بينـه وبين خصومه حول العقيدة الواسـطية وكـان من جملـة مـا اعترضـوا عليـه القـول بأسـطورة الأوعـال، يقـول متحـدثا عمـا جـرى لـه معهم: (وطلب بعضـهم إعـادة قـراءة الأحـاديث المـذكورة في العقيدة ليطعن في بعضها، فعرفت مقصـوده. فقلت: كأنـك قـد استعددت للطعن في حديث الأوعـال.. وكـانوا قـد تعنتـوا حـتى ظفروا بما تكلم به زكي الـدين عبـد العظيم من قـول البخـاري في تأريخه: عبد الله بن عميرة لا يعرف له سـماع من الأحنـف. فقلت: هذا الحديث مع أنـه رواه أهـل السـنن كـأبي داود، وابن ماجة، والترمذي، وغيرهم، فهو مـروي من طـريقين مشـهورين فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر، فقال: أليس مـداره على ابن عميرة وقد قال البخاري: لا يعرف له سـماع من الأحنـف؟. فقلت: قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيـد الـذي اشـترط فيـه أنـه لا يحتج فيـه إلا بمـا نقلـه العـدل عن العـدل موصـــولا إلى النـــبي ﷺ قلت: والإثبـــات مقـــدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنـف لم ينـف معرفـة الناس بهذا فإذا عرف غيره - كإمام الأئمة ابن خزيمة - مـا ثبت به الإسناد: كانت معرفته وإثباتـه مقـدما على نفي غـيره وعـدم معرفته. ووافق الجماعة على ذلـك وأخـذ بعض الجماعـة يـذكر من المدح ما لا يليق أن أحكيه)[2]

هل رأيت سيدي كيف يصبح البخـاري وغـيره لا أهميـة لهم إذا ما تعلق الحديث بالتشبيه والتجسيم والخرافة؟

المثال الثاني:

1() السلسلة الضعيفة (1247)

2() مجموع الفتاوى (3/191)

القاضي: وعيت هذا.. وقد ضربتم لي أمثلة كثيرة عنه في التهمة السابقة.. فهات المثال الثاني.

قال الصنعاني: المثال الثاني يتعلق بحديث خطير يربأ لساني عن ذكره تعظيما لرسول الله ﷺ..

القاضي: نحن في مجلس القضاء، ولابد من وضوح البينات، ولو استدعت ما استدعت.

قال الصنعاني: إن جرأة ابن تيمية على رسول الله ﷺ لم تقف عند رميه بما رماه به مما ذكرناه لكم في الدليل السابق، بل راح يتهمه في أخلاقه برواية ما أنزل الله بها من سلطان.

قال القاضي: أفصح أكثر.

قال الصنعاني: لقد كرر ابن تيمية مرارا عند تحذيره من صحبة الأحداث والمردان قوله: (وقد روى الشعبي عن النبي ﷺ: أن وفد عبد القيس لما قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم غلام ظاهر الوضاءة أجلسه خلف ظهره؛ وقال: إنما كانت خطيئة داود - عليه السلام – النظر) [1]

ثم علق عليه بقوله: (هذا وهو رسول الله ﷺ وهو مزوج بتسع نسوة؛ والوفد قوم صالحون، ولم تكن الفاحشة معروفة في العرب؟)[2]

لقد رواه وكأنه حديث صحيح لا مجال لرفضه مع أن الحديث مكذوب موضوع..

وسأورد لك قول الألباني، وهو تلميذ من تلاميذ ابن تيمية، ومع ذلك رفض الحديث جملة وتفصيلا، وقد عقب عليه في سلسلته الضعيفة بقوله: (موضوع)[3] ، ثم نقل عن ابن الصلاح قوله في (مشكل الوسيط): لا أصل لهذا الحديث، وقول

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 203)

2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 203)

3() سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (1/ 484)

الزركشي في (تخريج أحاديث الشرح): هذا حديث منكر.

ثم قال: (وللحديث طريق أخرى رواه أبو نعيم في (نسخة أحمد بن نبيط) وهي موضوعة كما سيأتي (برقم 562)، ولعل الحديث أصله من الإسرائيليات التي كان يرويها بعض أهل الكتاب، تلقاها عنه بعض المسلمين، فوهم بعض الرواة فرفعه إلى النبي ﷺ.. وقصة افتتان داود عليه السلام بنظره إلى امرأة الجندي أوريا مشهورة مبثوثة في كتب قصص الأنبياء وبعض كتب التفسير، ولا يشك مسلم عاقل في بطلانها لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل محاولته تعريض زوجها للقتل، ليتزوجها من بعده! وقد رويت هذه القصة مختصرة عن النبي ﷺ فوجب ذكرها والتحذير منها وبيان بطلانها)[1]

أرأيت سيدي القاضي جرأة ابن تيمية على رسول الله ﷺ وعلى رواية الموضوع المكذوب على رسول الله ﷺ في الوقت الذي يكذب فيه الأحاديث الصحيحة المتواترة لاختلافها مع مزاجه وهواه والدين الذي ارتضاه لنفسه ولأتباعه؟

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فحدثنا عن المثال الثالث.

قال الصنعاني: المثال الثالث يتعلق بما لأجله شوه ابن تيمية الأنبياء جميعا ورسول الله ﷺ.. وهو تفانيه في الحرص على إضفاء مزية للصحابة على غيرهم من الناس، وخصوصا آل بيت رسول الله ﷺ.. فهو لم يصحح كل ضعيف في حقهم لأجل سواد عيونهم، وإنما لأجل أن يضرب بهم رسول الله ﷺ وآله الطاهرين..

وسأورد لك نصا قاله في كتابه (الفتاوى الكبرى)، وأتحدى بمن يأتيني بمصداقه من كتب الحديث، لقد قال فيه: (وقد ثبت

[1] () سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (1/ 484)

بالنقل المتواتر الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر) روي ذلك عنه من نحو ثمانين وجها) [1]

أرأيت – سيدي القاضي – أبلغ من هذا الكذب الذي اقترفه لأجل أن يرد على المخالفين.. وهو لم يكتف بالكذب في رفع الحديث، وإنما أضاف إليه كونه متواترا مع أن الحديث لم يرو عن النبي ﷺ بأي سند!.. فهو حديث موضوع مكذوب على رسول الله، وأول من وضعه وآخرهم هو ابن تيمية فقط! لم يقل أحد من قبله ولا من بعده أنه حديث! وهو من اخترع نسبته، فأين النقل والصحة والتواتر والثمانين وجها؟! كل هذه أكاذيب كبار وعلى رسول الله ﷺ في سطر واحد!

وإن رجعت – سيدي القاضي- إلى الغلاه فسيجيبونك بأيقونتهم المعروفة: السنة بين عيني ابن تيمية، ياخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، وأنه دقيق جدا في نسبة الأحاديث وتصحيها وطرقها.. سيخرجونك إلى جدليات التفضيل، وينسون الموضوع الأصلي، وهو أن هذا الحديث! الصحيح! المتواتر! المنقول من ثمانين وجها! لا وجود له[2].

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فحدثنا عن المثال الرابع.

قال الصنعاني: المثال الرابع تتعلق بتصحيح ابن تيمية لكل ضعيف إذا تعلق بمثالب ترتبط بآل بيت النبوة.. وهي أكثر من أن أعدها أو أحصيها، ولذلك سأقتصر لك على مثال منها.

لقد قال في (منهاج السنة): (وقد أنزل الله تعالى في علي: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: 43] لما صلى فقرأ وخلط)[3]

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 490)

2() هذا الكلام مقتبس من كلام للشيخ حسن بن فرحان في بعض تغريداته.

أرأيت – سيدي – كيف يـرمي بسـيف حقـده على علي بن أبي طالب، ويتهمه بشرب الخمر، وفي الصـلاة، ويجـزم بـذلك، وكأنه لا مجال للشك فيه؟

قال القاضي: وما حجته في ذلك؟

قال الصـنعاني: حجتـه في ذلـك حقـده وبغضـه لعلي.. وإلا فإن الحديث الذي ورد في المسألة حديث مضـطرب ضـعيف لا يصح الاستدلال به بهذا الجزم..

فهناك رواية تقول: إنّ صاحب الدعوة هو عبد الـرحمن بن عـوف، وإنّ علياً كـان هـو الإمـام.. وروايـة تقـول: إنّ صـاحب الدعوة رجل من الأنصار.. ورواية تقول: إنّ إمام الجماعـة كـان عبد الرحمن بن عوف.. ورواية تقـول: أنّهم قـدّموا فلانـاً (يعـني للصلاة)

وأنت تـرى – سـيدي القاضـي- أنّ ابن تيميـة قـد تعلّـق، لغرض أو مرض في قلبه، بالرواية التي تزعم أنّ عليّـاً كـان هـو إمام الجماعـة، وأغمض عينيـه عن سـائر الروايـات الـتي تـذكر غيره، كما أنّه لم يُشر ـ للغرض نفسـه ــ إلى اختلاف الروايـات واضطرابها في الموضوع، وحكم حُكماً قاطعـاً بـأنّ الآيـة نـزلت في عليّ!!

ثمّ إنّ هـذه الروايـات معارضـة بروايـة صـحيحة الإسـناد، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السلميّ، أيضاً، وقـد رواهـا الحـاكم النيسابوري بإسناده عن أبي عبد الرحمن عن عليّ، قال: (دعانا رجل من الأنصار، قبل تحريم الخمر، فحضـرت صـلاة المغـرب، فتقـدّم رجـل فقـرأ: ﴿قُـلْ يَاأَيُّهَـا الْكَـافِرُونَ ﴾ [الكـافرون: 1]، فـالتبس عليـه، فـنزلت ﴿لَا تَقْرَبُـوا الصَّـلَاةَ وَأَنْتُمْ سُـكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: 43])[1]

ومن الملاحـظ أنّ هـذه الروايـة لم تتحـدّث عن مجلس

3() منهاج السنة (7/ 237)

1() المستدرك على الصحيحين:2/307. صحّحها الحاكم، ووافقه الذهبيّ..

للخمر حضره عليّ، وإنّما عن رجل (لم يُسمّ) كان قد تقدّم لإمامة الجماعة، فالتبست عليه الآية بسبب سُكره.

فأين هذا ممّا زُعم من تقدّم عليّ لإمامة الجماعة ونزول الآية فيه؟ ولكن ابن تيمية أبى أن يأخذ بهذه الرواية وأمثالها، وآثر الاقتداء بالمارقين الذين كانوا يذهبون إلى أنّ الآية المذكورة نزلت في علي.

وقد قال الحاكم، بعد أن أورد تلك الرواية: (وفي هذا الحديث فائدة كثيرة، وهي أنّ الخوارج تنسب هذا السكر وهذه القراءة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب دون غيره وقد برّأه الله منها، فإنّه راوي هذا الحديث)[1]

2 ـ تشدد ابن تيمية مع الحسن والصحيح:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثاني.

قام الكوثري، وقال: لم يكتف ابن تيمية بتصحيح الضعيف والموضوع لأجل خدمة تصوره للدين ولرسول الله ﷺ.. بل راح يرفض كل حديث لا يتناسب مع مزاجه، أو يخشى أن يقضي على الدين الأموي الذي ارتضاه.

وبما أن العدو الأكبر للدين الأموي بكل تجسيماته وتشبيهاته وتناقضاته هو علي بن أبي طالب، فقد راح يكذب كل حديث ورد في شأنه أو يؤوله حتى لا تبقى في علي أي مزية تجعل الأمة تحتمي به من التحريفات الجاهلية التي دخلت الدين.

قال القاضي: لا بد أن تذكر لنا بينات واضحة على ذلك.. وإلا فلن نقبل دعواك.

قال الكوثري: لدي بينتان واضحتان على ذلك.. أولاهما في تكذيبه للأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في حق علي وآل بيته.. والثانية في تأويله ما لا يقدر على تكذيبه.

1() المستدرك على الصحيحين:2/307. صحّحها الحاكم، ووافقه الذهبيّ..

البينة الأولى:

قال القاضي: فهات البينة الأولى.

قال الكوثري: البينة الأولى هي في جرأة ابن تيمية على تكذيب أحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ مع أنه يقبل ما هو أقل منها.

قال القاضي: هلا ضربت لنا أمثلة على ذلك.

قال الكوثري: الأمثلة أكثر من أن تعد.. ولكني سأكتفي لك بعشرة منها أخذتها جميعا من كتابه (منهاج السنة) لتكون دليلا لك على غيرها[1].

المثال الأول:

قال القاضي: هات المثال الأول.

قال الكوثري: المثال الأول هو (حديث الموالاة)، وهو قوله ﷺ: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)، فقد قال ابن تيمية في كتابه (4/86) عنه: (وأما من كنت مولاه فعلي مولاه فلا يصح من طرق الثقات أصلا)، وقال في (7/319): (وأما الزيادة وهي قوله: ــ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه....الخ – فلا ريب أنها كذب)، وهو ما ذهب اليه في الفتاوي (4/417-418)

مع أن الشطر الأول من الحديث: متواتر، نص على تواتره عدد من الحفاظ، ورواه أكثر من خمسة وعشرين صحابيا.

وأما قوله ﷺ: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه): فهي زيادة غاية في الصحة، وقد وردت عن عدد من الصحابة، وصححها عدد من الأئمة الحفاظ من حديث أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص،

---

[1] () انظر: ابن تيمية وأحاديث فضائل أهل البيت من خلال كتابه منهاج السنة، الدكتور المحدِّث العلامة محمود سعيد محمد ممدوح، وقد اكتفينا بهذا التوثيق عن توثيق كل نص من النصوص لكثرتها.

واستوعب طرق حديث الموالاة الحافظ ابن عقـدة في مصـنف مستقل، والسيد أحمد بن الصديق الغماري في (الإعلام بطــرق المتواتر من حديثه عليه السلام)

وذكـر أحمـد في (الفضـائل)، والنسـائي في (الخصـائص)، وابن الجـزري في (المنـاقب)، والهيثمي في (المجمـع): جملـة صالحة منه، والمعرَّف لا يعرَّف.

ومن الأدلة على كذب ابن تيميـة في هـذا أن ناصـر الـدين الألباني، ورغم كونه تلميذا لابن تيميه إلا أنه تكلم فيـه واسـتنكر من ابن تيمية إنكاره له، وقد قـال في ذلـك: (من العجيب حقـاً أن يتجرأ شيخ الإسلام ابن تيمية على إنكار هذا الحديث وتكذيبه في منهاج السنة كما فعل بالحديث المتقدم هنـاك، مـع تقريـره رحمه الله أحسن تقرير أن الموالاة هنا ضد المعـاداة وهـو حكم ثابت لكـل مـؤمن وعليّ رضـي اللـه عنـه من كبــارهم يتـولاهم ويتولونه، ففيه رد على الخـوارج والنواصب)[1]

وقال مبينا سبب إطالته في بيان صحة الحديث: (فقد كـان الدافع لتحرير الكلام على الحديث وبيان صحته أنني رأيت شـيخ الإسلام ابن تيمية، قد ضـعّف الشـطر الأول من الحـديث، وأمـا الشطر الآخر فزعم أنــه كـذب! وهـذا من مبالغاتـه الناتجـة في تقديري من تسرعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقهـا ويدقق النظر فيها، والله المستعان)[2]

المثال الثاني:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الكـوثري: المثـال الثـاني هـو قولـه ﷺ: (أنت وليّ في كل مؤمن بعدي)، فقد قـال ابن تيميـة في (4/104) من كتابـه: (كذب على رسول الله ﷺ)

مع أنه صحيح على شرط مسلم، فقد أخرجه الطيالسـي (

[1]() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (5/ 264)

[2]() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (4/ 344)

829)، وابن أبي شيبة (12/79). وأحمد في المسند (4/437)، وفي الفضائل (1035)،والترمذي (5/269)، والنسائي في الخصائص (88)، وابن حبان (6929)، والحاكم (3/110) جميعهم من حديث جعفر بن سليمان الضبعي، عن يزيد الرشك، عن مطرف بن عبد الله عن عمران بن الحصين، وفيه: (فأقبل إليهم رسول الله ﷺ والغضب يُعرَفُ في وجهه فقال: (ما تريدون من علي؟ إن عليا مني، وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي)، وقد حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الكوثري: المثال الثالث هو قول ابن عمر: (ما كنا نعرف المنافقين على عهد النبي ﷺ إلا ببغضهم علياً)، فقد قال ابن تيمية في (3/228) من كتابه: (هذا الحديث لا يستريب أهل المعرفة بالحديث أنه حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ)

مع أنه لا يستريب أهل المعرفة بالحديث أن متنَه غاية في الصحَّة، فقد أخرج مسلم في صحيحه (78)، والترمذي (5/306) وقال حسن صحيح، وابن ماجه (114) والنسائي (8/117) وفي خصائص علي (100-102)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على الفضائل (1102) وأبو نعيم في الحلية (4/185) وصحَّحه، وغيرهم من حديث علي قوله: (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ ألا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق)، وقال أبو نعيم: هذا حديث صحيح متفق عليه.

وأخرج البزار (كشف الأستار 3/169)، وعبد الله في زيادات الفضائل (1086) من حديث عبيد الله بن موسى، أن محمد بن علي السلمي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: (ما كنا نعرف منافقينا معشر الأنصار إلا ببغضهم لعلي) وهذا إسناده حسن.

وأحسن منه ما أخرجه أحمد في الفضائل بإسناد على شرط البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: (إنما كنا نعرف منافقي الأنصار ببغضهم عليا)

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قال الكوثري: المثال الرابع هو حديث ردّ الشمس لعلي، وقد أسهبَ ابن تيمية في تكذيبه (4/185-195)

وقد رد عليه الحافظ ابن حجر في الفتح (6/222)، فقال: وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده في الموضوعات، وكذا ابن تيمية في الرد على الروافض في زعم وضعه، والله أعلم.

وصحَّحه عدد من الحفاظ من أجلهم الحافظان أحمد بن صالح والطحاوي المصريان، وأفرده بالتصنيف الحافظ الحسكاني، والحافظ محمد بن يوسف الصالحي في جزء وقفت عليه بمكتبة الحرم المكي اسمه: (مزيل اللبس عن حديث رد الشمس).

المثال الخامس:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الخامس.

قال الكوثري: المثال الخامس هو ما ورد في الحديث أن رجلا قال لسلمان: ما أشد حبك لعلي، قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: (من أحبه فقد أحبني)، فقد قال ابن تيمية (3/9) عنه: كذب.

مع أنه صحيح، فقد أخرجه الحاكم في المستدرك (3/130) عن أبي عثمان النهدي، قال: قال رجل لسلمان: ما أشد حبك لعلي؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أحب عليا ً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله عز وجل، ومن أبغض عليا ً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وسلَّمه

الذهبي.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبـير(23/380/901) عن أم سـلمة، وقـال الهيثمي في المجمـع (9/132): (وإسـناده حسن).

فهـذا طريقـان للحـديث كلاهمـا حسـن لذاتـه، فالحـديث: صحيح بهما.

المثال السادس:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السادس.

قال الكوثري: المثال السادس هو حديث الطير، ونصـه أن النبي ﷺ أتي بطائر فقال: (اللهم ائتني بأحب الخلق إليـك يأكـل معي من هذا الطائر فجـاء علي)، وقـد قـال ابن تيميـة (4/99) فيه: (حديث الطائر من المكذوبات الموضـوعة عنـد أهـل العلم والمعرفة بحقائق النقل)

مـع أن الحـديث صـحيح، فقـد رواه من الصـحابة: أنس بن مالـك، وعلي، وابن عبـاس، وجـابر بن عبـد اللـه، وأبي رافـع، ويعلى بن مرة، وسفينة. وهو متواتر عن أنس.

وصرَّح ابن كثير في البداية والنهاية (4/416): أنّ الحافـظ الذهبي ألف جزءا في طـرق الحـديث، فبلـغ عـدد من رواه عن أنس: بضعة وتسعين نفساً، وقال: أقرب هـذه الطـرق غـرائب ضعيفة.

وهذا العدد يسـتحيل اجتمـاعهم على الكـذب، فيجب عـدم النظر في أحوالهم على ما هو مقرَّر في علوم الحديث.

وقد قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (3/1043): (له طـرق كثيرة جدا قد أفردتـُها بمصنـَّـف، ومجموعهـا يـوجب أن يكـون الحديث له أصل)

وأكثر من هذا قـول الـذهبي في تـاريخ الإسـلام (2/179): حديث الطـير ولـه طـرق كثـيرة عن أنس متكلم فيهـا، وبعضـها

على شرط السنن)، واعترض الحافظ صلاح الدين العلائي في (النقد الصحيح) (ص 75) على من حكم بوضعه.

وقد ذكر الحافظ العلائي طريقين له في (النقد الصحيح) (ص75-77) يكفيان للحكم على الحديث بالحسن بالنظر لهما فقط.

والخلاصة: أن الحكم على الحديث بالوضع مع وجود هذه الطرق تقصير في البحث وتغافل في النظر، وتشديد لا يلائم أصول الحديث الشريف وقواعد الصناعة.

المثال السابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السابع.

قال الكوثري: المثال السابع هو قوله ﷺ: (سدوا الأبواب كلها إلا باب علي)، فقد حكم ابن تيمية عليه بالوضع (3/9) وبالكذب في الفتاوى (4/415)

مع أن الحديث صحيح، وهو عند الترمذي (تحفة/232) من طريق محمد بن فضيل، عن سالم بن أبي حفصة، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال ذلك لعلي، وقال الترمذي عقيبه: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد سمع مني محمد بن إسماعيل يعني البخاري هذا الحديث.

أما عطية العوفي فقد وثقه يحي بن معين، وابن سعد، وابن شاهين، وحسّن له الترمذي مرات عديدة، وسكت عن حديثه أبو داود.

وسالم بن أبي حفصة قال عنه الحافظ في التقريب (ص 226): صدوق في الحديث.

المثال الثامن:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثامن.

قال الكوثري: المثال الثامن هو قولـه ﷺ: (يـا علي حـربي حربك، وسلمي سلمك)، وقد قال ابن تيمية (2/300) عنه: (هذا كذب موضوع على النبي ﷺ، وليس في شيء من كتب الحديث المعروفة، ولا روي بإسناد معروف)

وهذه جرأة عظيمة، فقد أخرجه إمامه أحمد بن حنبـل في فضـائل الصـحابة (1350) قـال: ثنـا تليـد بن سـليمان، ثنـا أبـو الجحاف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: نظر النبي ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال: (أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم)

وهـذا الإسـناد رجالـه ثقـات، مـا خلا شـيخ أحمـد تليـد بن سليمان وقد اختلف فيه ومن تكلم فيه فلتشيعه فإنه كان غال.

وأخرجه الحـاكم في المسـتدرك (3/149) من هـذا الوجـه قال: هذا حديث حسن من حديث أبي عبد الله أحمـد بن حنبـل، عن تليد بن سليمان فإني لم أجد له رواية غيرها.

وله شـاهد حسـن لذاتـه أخرجـه الترمـذي (5/699)، وابن ماجـه(1/52)، والطـبراني في الكبـير (3/149)، والحـاكم في المستدرك (3/149) من حديث أسباط، عن السدي، عن صـبيح مولى أم سلمة، عن زيد بن أرقم به مرفوعاً.

وللحديث طرق أخرى، وفيما ذكرتـُـه كفاية، وكان لابـد أن يضعف ابن تيمية هذا الحـديث لأن إثبـات صـحته أو حسـنه فيـه نسف لموضع كتابه تماما، والحديث يتحدث عن نفسه.

المثال التاسع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال التاسع.

قال الكوثري: المثال التاسع هـو قولـه ﷺ: (إن اللـه أوحى إلي أنه يحب أربعة من أصحابي، وأمـرني بحبهم، فقيـل لـه من هم يا رسول الله؟ قال: علي سيدهم، وسلمان، والمقداد، وأبــو ذر)، وقـد قـال ابن تيميـة (3/173) فيـه: (ضـعيف بـل موضـوع وليس له إسناد يقوم به)

مع أن الحديث أخرجه إمامه أحمد بن حنبل في المسند (5/351)، والترمذي (3718)، وابن ماجه في مقدمة سننه (149) من حديث شريك، عن أبي ربيعة الأيادي، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديث شريك.

وله شاهد، ومتنه معروف، ويكفي تحسين الترمذي له في هذا البــاب.

المثال العاشر:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال العاشر.

قال الكوثري: المثال العاشر هو قوله ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)، فقد قال ابن تيمية (/99) فيه: (إسناده ضعيف)

مع أنه حسن الإسناد، فقد أخرجه الترمذي (5/664)، وأحمد في فضائل الصحابة (1952)، والحاكم في المستدرك (3/150)، والبيهقي في مناقب الشافعي (1/45)، وفي شعب الإيمان (1/288) من حديث عبد الله بن سليمان النوفلي، عن محمد بن علي بن عباس عن أبيه، عن أبن عباس مرفوعاً.

ورجاله ثقات ما خلا النوفلي وهو حسن الحديث، وحسَّنه لذاته الترمذي، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

وتحسين الترمذي: معناه أن النوفلي صدوق على الأقل، فلا يلتفت لقول من قال لايعرف.

البينة الثانية:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات البينة الثانية.

قال الكوثري: لم يكتف ابن تيمية بتكذيب الأحاديث الصحيحة والحسنة بل المتواترة الواردة في حق علي كما رأينا في البينة السابقة، بل راح يسلك مسلكا آخر فيما لم يستطع تكذيبه من فضائله، حيث أخذ يلوي عنق النصوص ليصرفها عن

إثبات فضائل أو خصائص لعلي.

قال القاضي: فهلا ضربت لي أمثلة على ذلك.

قال الكوثري: من أمثلة ذلك موقفه من قوله ﷺ لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) حيث أشار ابن تيمية (4/78-88) إلى أنه لا يثبت أي مزيَّة لعلي، وأن النبي ﷺ لم يقل هذا إلا من باب تطييب خاطر علي، وأنه ليس فيه أي معنى زائد على ذلك.

وهكذا إذا قال النبي ﷺ لعلي: (أنت مني وأنا منك)، رأى ابن تيمية في منهاجه (3/8) أنه ليس فيه مزيَّة خاصة بعلي، وأن هذا يمكن أن يقوله لأي شخص آخر، لأن المراد منه الأخوة في الدين فقط، وهذه الأخوة يشاركه فيها غيره من المسلمين!

وإذا قال النبي ﷺ في حديث الثقلين المخرج في صحيح مسلم (2408) والترمذي (3788) وغيرهما. وهو قوله ﷺ: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)، وفي روايات أخرى (إني تارك فيكن ثقلين) رأى ابن تيمية في منهاجه (4/85) أن الحديث الذي في صحيح مسلم إذا كان النبي ﷺ قد قاله فليس فيه إلاّ الوصية باتباع الكتاب، وهو لم يأمر باتباع العترة ولكن قال: أذكركم الله في أهل بيتي.. مع أن النبي ﷺ ذكر ثقلين، ولم يذكر ثقلا واحدا.. ولو أن الثقل الثاني كان فيمن يقدسهم من الصحابة لطار بالحديث، وجعله أصلا من أصول الدين..

أهناك – سيدي القاضي – تلاعب بالسنة التي يدعي أنه يمثلها أكثر من هذا.. ألسنا مطالبين بألا نقدم بين يدي الله ورسوله، وألا ندخل أهواءنا وعقولنا فيها؟ ومع ذلك نرى ابن تيمية يرفض الحديث، ويحتج لرفضه بما يتوهمه من عقل ومنطق.

سأضرب لك سيدي مثالا لتلاعب ابن تيمية بالسنة إذا ما

تناقضت مع الأهواء الأموية التي يتبناها..

إنه حول حديث المؤاخاة.. مؤاخاة النبي ﷺ لابن عمّه علي بن أبي طالب.. فلـو أن هـذه المؤاخـاة كـانت لغـيره لطـار بهـا فرحا، واستنتج منها مئات الفوائد، ولكنهـا لمـا تعلقت بعلي راح ينكرها، ويستعمل كل ما آتاه الله من دهاء وحيلة لإنكارها.

وقـد ذكـر من وجـوه إنكـاره لهـا (أن أحـاديث المؤاخـاة بين المهاجرين بعضهم مـع بعض، والأنصـار بعضـهم مـع بعض، كلهـا كذب. والنبي ﷺ لم يؤاخ عليا، ولا آخى بين أبي بكـر وعمـر، ولا بين مهاجري ومهاجري، لكن آخى بين المهاجرين والأنصار، كمـا آخى بين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، وبين سـلمان الفارسي، وأبي الدرداء، وبين علي، وسهل بن حنيف)[1]

وأطال الكلام في ذلـك ممـا لا يتسـع هـذا المقـام لإيـراده جميعا.

انظر سيدي القاضي كيف رَدّ النصّ معتمداً على هواه، مـع أن هناك أحاديث صحيحة كثيرة تثبت المؤاخاة بين رسـول اللـه ﷺ وعلي، أو بين المهاجرين والمهاجرين..

لن أشرح لك أنا ذلك، بل سأعتمد على عالم يعتمده تلاميذ ابن تيمية، بل يلقبونه الحافظ، وهـو ابن حجـر شـارح البخـاري، فقـد قـال: (وأنكـر بن تيميـة في كتـاب الـرد على بن المطهـر الرافضي المؤاخاة بين المهـاجرين وخصوصـا مؤاخـاة النـبي ﷺ لعلي قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضـهم بعضـا ولتـأليف قلوب بعضهم على بعض فلا معـنى لمؤاخـاة النـبي لأحـد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري، وهذا رد للنص بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كـان أقـوى من بعض بالمـال والعشـيرة والقـوى، فـآخى بين الأعلى والأدنى لـيرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهـذا تظهـر مؤاخاتـه ﷺ لعلي لأنه هو الـذي كـان يقـوم بـه من عهـد الصـبا من قبـل

1() منهاج السنة النبوية (7/ 279)

البعثة واستمر)[1]

ثم أورد النصوص الكثيرة التي تدل على وقوع الأخـوة بين المهـاجرين، مثـل مؤاخـاة حمـزة وزيـد بن حارثـة وهمـا من المهاجرين، والمؤاخاة بين الزبير وبن مسـعود وهمـا كـذلك من المهاجرين[2].

وقد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه، فآخى بين أبي بكـر وعمـر، وبين طلحة والزبـير، وبين عثمـان بن عفـان وعبـد الـرحمن بن عوف، فقال علي: يا رسول الله: إنـك قـد آخيتَ بين أصـحابك، فمن أخي؟، قال رسول الله ﷺ: (أمـا ترضـى يـا علي أن أكـون أخاك؟)، فقال رسول الله ﷺ: (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[3]

وروى الترمذي عنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصـحابه، فجـاء علي تـدمع عينـاه، فقـال: يـا رسـول اللـه: آخيت بين أصحابك، ولم تواخ بيني وبين أحد، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[4]

هل رأيت سيدي جرأة مثل إنكار الكثـير من الأحـاديث في سبيل أن ينفي وقوع الأخـوة بين رسـول اللـه ﷺ وعلي، خشـية أن يستغلها الشيعة في بيان منزلة علي من رسول الله ﷺ؟

وهل رأيت سيدي إنصاف ابن حجـر مـع كونـه مقربـا لـدى تلاميذ ابن تيمية، فقـد ذكـر أن الوضـع الطـبيعي هـو أن يـؤاخي رسول الله ﷺ عليا.. ذلك أنه احتضـنه منـذ صـباه البـاكر، وبقي معه إلى آخر يوم من حياته.. حتى أنه بجدارة يعتبر أكثر النـاس صحبة لرسول الله ﷺ، وأكثرهم قربا منه.

1() فتح الباري لابن حجر (7/ 271).

2() الضـياء في المختـارة من المعجم الكبـير للطـبراني وبن تيميـة يصـرح بـأن أحـاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك.

3() المستدرك للحاكم 3 / 14.

4() سنن الترمذي (6/ 80)

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت [1]: أجل سيدي القاضي.. واسمح لي أن أصرح لك بالحقيقة التي عشت طول عمري أسمع عكسها، لكن الأيام لم تزدها لي إلا إثباتا.. لقد رأيت الأخبار المتواترة الكثيرة في كتب الحديث والتاريخ والسيرة، بالإضافة للشهادات الكثيرة التي تعتبر كالإجماع الذي لم يخرق، بأن علي بن أبي طالب تربى - حقيقة وليس دعوى - على يد النبي ﷺ من قبل بدء الوحي بسنين، واستمر بعد الإسلام، وهذا ما لم يتوفر لغيره، حتى زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ إنما أتى إلى النبي ﷺ شاباً مراهقاً هدية له من خديجة بنت خويلد.

فهذه الخصيصة من التربية ولملاصقة للنبي ﷺ من خصائصه الكبرى التي يحاول ابن تيمية وشيعته دفنها، مع أنها هي التي تحدد قيمة الشخص ومكانته.

لقد كان الإمام علي من يوم مولد، وهو تحت نظر النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ كان يكفله أبو طالب، وبقي مع أبي طالب في بيته إلى أن تزوج خديجة.

وكان مولد الإمام علي قبل بدء الوحي بنحو ثلاثة عشر عاماً - - وليس سبع سنوات كما يشهره النواصب - وكان ضم النبي ﷺ له قبل سبع سنوات من بدء الوحي، ومن الطبيعي أن الست السنوات الأولى التي كان فيها الإمام في بيت أبيه أبي طالب كان تحت نظر النبي ﷺ وحبه واهتمامه فالعائلة واحدة أصلاً.

وكان موطن العائلتين في شعب بني هاشم، وهو الشعب الذي حوصر فيها بني هاشم فيما بعد.. وكان النبي ﷺ قد ورث بيت أبيه عبد الله (عند الصفا حالياً) وبيت أبي طالب في الخلف قليلاً جهة الشرق، والشعب صغير أصلاً، وعائلة أبي طالب عائلته، ولذلك عندما تتصور هذا التلاحم والحب بين النبي

---

[1] () استفدت النص الوارد هنا من مقال رائع للشيخ حسن بن فرحان المالكي بعنوان: (ما لم يدونه التاريخ عن الإمام علي بن أبي طالب)

ﷺ وبيت أبي طالب فسيكون كبيراً، لدرجة ذوبان العائلتين في عائلة واحدة.

وأما ما بعد الست سنوات الأولى من عمر الإمام علي، فقد تم انضمام الإمام علي بالكلية إلى بيت النبي ﷺ قبل البعثة بحوالي سبع سنوات، ومن هنا تأثر الإمام علي تأثراً كبيراً بخلق النبي الكريم العام، وتعبده الخاص، وخاصة في غار حراء، فقد كان يوصل له الطعام هناك ويلبث معه.

ومن هنا فالإمام علي هو الذي ينطبق عليه حقيقة (تربية النبي ﷺ) لأنه فعلاً تربيته من قبل الوحي وبعده، فقد كان له بمنزلة الابن وكان في النبي ﷺ جاذبية كبيرة نتيجة للخلق الكريم، فلذلك رفض مولاه زيد بن حارثة العودة مع أبيه وعمه تأثراً بهذا السمو.

فإذا كان هذا الأثر قد حصل في زيد بن حارثة فكيف بهذا الشاب الذي كان تحت عين النبي ورعايته وتربيته منذ الصغر؟ لا شك سيكون في الذروة، وكان الإمام علي يتلو النبي ويتأثر به في كل شيء، منذ سبع سنوات على الأقل، قبل بدء الوحي، ولذلك كان يقول: (عبدت الله وصليت قبل الناس بسبع)[1]

فهذا القول للإمام علي - وهو صحيح رواه أحمد وغيره- يحمل على هذه الفترة قبل الوحي وأنه كان يتعبد مع النبي ﷺ في غار حراء، فقد كان تام الاتباع لرسول الله ﷺ عظيم العشق له..

وهكذا بعد البعثة الشريفة، فقد تحمل علي كل أنواع الأذى التي تحملها رسول الله ﷺ.. ففي حصار الشعب الذي دام ثلاث سنوات لم يشارك الصحابة الآخرون في المعاناة من هذا الحصار.. وهذه المعاناة رغم أنها استمرت ثلاث سنوات إلا أن قريشاً وثقافتها قد عملت على إهمالها من الوجدان، وكأن الصحابة كلهم حوصروا في شعب بني هاشم!.. هذا الحصار

1() روى الحاكم النيسابوري باسناده عن علي قال: «اني عبدالله واخو رسوله وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي الاّ كاذب، صلّيت قبل الناس بسبع سنين قبل أن يعبده احدٌ من هذه الأمة»، المستدرك على الصّحيحين ج3 ص112.

وفضل البلاء فيه من الجوع والخوف كان خاصاً بـالنبي ﷺ وبـني هاشم ولم يشترك من الصـحابة معهم في هـذا الحصـار إلا أبـو سلمة وزوجه أم سلمة... هذه الثلاث سنوات فقط كافية بزيادة صـحبة الإمـام علي على بقيـة الصـحابة هي صـحبة ملازمـة في البأسـاء والضـراء، ولن يكـون النـبي سـاكتاً طـول هـذه المـدة، وطول هذه المـدة والقـرآن يـنزل وحكمـة النـبي تتـدفق لسـاناً وحالاً، في الصـبر وفهم أسـرار اللـه في خلقـه وابتلائهم، وعلي يتلقى هذه الثقافة والإيمان.

هذه وحدها كفيلة بتفضيله على من لم يكابـد هـذا الحصـار الطويـــل ولـــو من حيث تلقي العلم علمـــاً وعملاً لا ســيما وأن القرآن يتكثف نزوله ساعات المحن.

لقد كان الإمام علي بشهادة النبي ﷺ: (يحب الله ورسـوله ويحبه الله ورسوله)، وهي شهادة عظيمة تخـبر بحقيقـة الرجـل مهما حاول ابن تيمية وشيعته التخفيض منها..

التفت القاضـي إلى قـال الكـوثري، وقـال: ولكن كيـف آل الأمر إلى ما آل إليه من تخفيض ابن تيمية من شأنه؟

قـال الكـوثري[1]: ابن تيميـة لم يأخـذ دينـه من القـرآن الكريم، ولا من رسول الله ﷺ.. وإنما أخذه من قـريش وطلقـاء قـريش.. وقـد اسـتطاعت قـريش أن تلتـف على النبـوة وأهـل البيت، فافتخرت على العرب بالنبي ﷺ الذي آذته وأخرجتــه من مكة وحاربته ثم حكمت الناس باسمه، كمـا التفّت قـريش على أهل الـبيت، وعلى رأسـهم الإمـام علي، فـزعمت أنهم عشـيرة النبي الأقربون وأولى النـاس بـه! فحـاربت عليـاً ولعنتـه وقتلت أبناءه.

كما استطاعت قـريش أن تلتـف على تربيـة النـبي للإمـام علي، فـزعمت أن كـل الصـحابة تربيـة محمـد حـتى من حـارب النـبي، ولعن عليـاً على المنـبر! واسـتطاعت قـريش بقيـادة الأفجرين (مخزوم وأمية) أن يعملوا التفافـات ثقافيـة على كـل

[1] استفدت النص الوارد هنا من مقال رائع للشيخ حسـن بن فرحـان المـالكي بعنـوان: (ما لم يدونه التاريخ عن الإمام علي بن أبي طالب)

خصائص أهل البيت فيفرقوها في القبائل وينتجوا ثقافة مضادة.

هذه الثقافة القرشية الأموية المضـادة لا تجـد فضـيلة لأهـل البيت إلا أشركت الجميع فيها، ولا خطيئة لغيرهم إلا أدخلوا أهل البيت فيها. ولذلك لا تكاد قريش - وممثلهم ابن تيمية – يجـدون فضـيلة للإمـام علي إلا وقـد أوجـدوا حولهـا تشويشـاً كثـيراً من أحاديث معارضة أو تفريغ الفضيلة من الداخل.

ولذلك تجد أعلام هذه الثقافة - كابن تيمية - لا يقـر للإمـام علي بـأي فضـيلة ينفـرد بهـا، فلابـد أن يُشـارك فيهـا، وكـل ذم لآخرين لابد أن يدخل فيه.

وهذه ثقافـة العصـبية الـتي توعـد الشـيطان أن يغـوي بهـا الناس فالعصبية من فروع الكبر، والكبر الإبليسي يعــترض على الله ولا يرضى بأوامره حسداً وبغيا، بـل وصـل الأمـر بهـؤلاء أن قال بعض المعاصرين من تلاميذ ابن تيمية، كسليمان الخراشـي (مـا من ذنب ارتكبـه معاويـة إلا وهـو في علي) وأقـره الشـيخ صالح الفوزان إلى هذا الحد!

والغـريب أن الغلاة من القبائـل المختلفـة يتبعـون (ثقافـة قريش) الـتي أنكـرت النبـوة نفسـها حسـداً، وأنكـرت خصـائص الإمام علي وأهل البيت حسداً أيضاً.

والأغرب أن الإمام علي ليس له أية إساءة لهذه القبائل، لا في قتال مانعي زكـاة ولا غيرهـا، وإنمـا حربـه لقـريش في بـدر وأحد والخندق وصفين!

فأخذت بعض الغلاة من المنتسبين إلى هذه القبائل، أخذوا ثقافـة قـريش الـتي تحـدرت إلى بـني أميـة ثم إلى ابن تيميـة وحسدوا الإمام علي أن ينفرد بشيء، بـل لم يرتضـوا أن ينجـوا من أي جريمـة فعلهـا معاويـة فزعمـوا - تبعـاً لابن تيميـة - تلـك الفرية التي سطرها الخراشي وقدم لها الفـوزان... هـذا نصـب بلاشك.

بـل إن هـذا التضـييق على فضـل محمـد وآل محمـد بـدت

بوادره من أيام النبوة نفسها، حت اضطر النبي ﷺ للدفاع عن أهل بيته وهو حي، فقد ورد في الحديث الذي صححه الألباني: (ما تريدون من علي؟ إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي)[1]

فقوله: (ما تريدون من علي) دليل على كثرة إزعاجهم له بمحاولاتهم تنقص علي وذمه وحرصهم على استخراج أي نقد من النبي له، وهذه عصبية قرشية.. وكأن القصة تكررت وتأذى الإمام علي من ذلك، فطمأنه النبي ﷺ بقوله (أنت مني وأنا منك) كما في صحيح البخاري.. ومن هذا الباب قوله ﷺ: (لا يحب علياً إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق)[2] ، والسبب واضح، وهو أن عليا (بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة) كما تواتر في الصحيحين وغيرهما، فمن زعم أنه يحب موسى عليه السلام لكنه يتقص هارون فقد كذب ونافق.

1() السلسلة الصحيحة (5 / 222)

2() رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

ثالثا ـ دعوة ابن تيمية إلى قطع صلة الأمة عن نبيها

بعد أن ساق العلماء ما ساقوا من البينات والشواهد على تلاعب ابن تيمية بالسنة إرضاء للثقافة القرشية التي ورثها من الطلقاء الذين يعتبرهم سلفه الصالح، والذين من أجلهم حقر الأنبياء ووهن من شأنهم، ورمى رسول الله ﷺ بالعظائم، تقدم الإسكندري، وقال: بعد أن تبين لكم – سيدي القاضي – من خلال الدليل الثاني تلاعب ابن تيمية بالسنة المطهرة، واستعمالها فيما ما يتناسب مع مزاجه، قبولا ورفضا.. سنبين لك في هذا الدليل كيف استعمل ابن تيمية كل الوسائل ليقطع الأمة عن نبيها، فلا تبقى من صلة بينه وبينها إلا تلك الأحاديث التي تحكم فيها وتلاعب بها.

قال القاضي: هلا وضحت أكثر..

قال الإسكندري: اعلم – سيدي القاضي – أن العلاقة المفترضة بين النبي ﷺ وأمته لا تقتصر فقط على الطاعة والاتباع، فكلاهما حسنان، ولكن هناك علاقة أخرى وردت بها النصوص المقدسة، لكن التيار الأموي وزعيمه ابن تيمية حاولا بكل جهدهما أن يهونا هذا النوع من العلاقة، بل يبدعا الكثير من مظاهرها، وينشرا بين الناس أن العلاقة مع رسول الله ﷺ تقتصر فقط على الاتباع المجرد.

قال القاضي: وما هذا النوع من العلاقة؟

قال الإسكندري: هو يشمل أمورا كثيرة مبناها على حب رسول الله ﷺ والتواصل معه والحنين إليه، والشعور وكأننا نصاحبه، وأنه حي بيننا يمكننا أن نلجأ إليه كلما احتجنا، ونستشفع به إلى ربنا كما كان من معه في حياته يفعلون.

قال القاضي: وهل لكم أدلة على كل ذلك؟

قال الإسكندري: أجل سيدي القاضي.. وقد حاول ابن

تيمية وفريقه من الأمويين أن يفندوا كل دليـل نسـتدل بـه على هـذا النـوع من العلاقـة، حـتى ولـو اضـطروا لتكـذيب النصـوص وتأويلها.. وقد أنشأ ذلك في واقعنا، وفي البيئة التي يتحكم فيها هذا النوع من الفكر جفـاء لرسـول اللـه ﷺ وبـرودا في العلاقـة معه.

قـال القاضـي: أنت تعلم أننـا في مجلس قضـاء.. وليس للقاضي أن يتكلم بهواه.. بل يحتاج إلى شواهد وبينـات، وإلا فلا يحق له أن يحكم بشيء.

قـال الإسـكندري: الشـواهد والبينـات أكـثر من أن تعـد أو تحصى.. ولكني سأقتصر لك على أربعة منها.

قال القاضي: فما هي.. وما وجه الاستدلال بها.

قـال الإسـكندري: الشـاهد الأول هـو موقـف ابن تيميـة ومدرسته المتشدد من كل مظاهر الارتبـاط الشـعوري برسـول الله ﷺ من الحزن عليه والمحبة له والحنين إليه، ونحو ذلك.

قال القاضي: هذا الشاهد الأول.. فما الثاني؟

قال الإسكندري: الشـاهد الثـاني هـو موقـف ابن تيمـة من زيارة رسول الله ﷺ، والتي هي تعبـير عن مـدى الشـوق الـذي يشعر به المشتاق نحـو حبيبـه ﷺ، وتعلقـه بكـل أثـر من آثـاره.. وقد اعتبر ابن تيمية كل ذلك بدعة.

قال القاضي: هذا الشاهد الثاني.. فما الثالث؟

قال الإسكندري: الشاهد الثـالث هـو موقـف ابن تيمـة من استشفاع الأمة برسولها ﷺ، ولجوئها إليه كلما احتـاجت اعتقـادا منها بحياته وبقاء علاقتها معه مثلما كانت في حياته مع أصـحابه سواء بسواء.

قال القاضي: هذا الشاهد الثالث.. فما الرابع؟

قال الإسكندري: الشـاهد الرابـع هـو موقـف ابن تيمـة من إحياء الأمة للمناسـبات المختلفـة الـتي عاشـها رسـول اللـه ﷺ

لتبقى حياته ممتدة في حياته.. فتفرح لفرحه، وتحزن لحزنه.

قال القاضي: وعيت هذا.. ووعيت علاقتة بالدليل الذي ذكرتم.. ولكني أحتاج أن تبرهنوا لي على كل ذلك من خلال كتبه أو كتب المدرسة التي أسسها.

قال الإسكندري: لك ذلك سيدي.. ونعوذ بالله أن نقوله ما لم يقل، أو ندعي عليه بما لم يفعل.

1 ـ موقف ابن تيمية من مظاهر الارتباط الشعوري برسول الله ﷺ

قال القاضي: فهات الشاهد الأول.

قال الإسكندري: الشاهد الأول هو موقف ابن تيمية ومدرسته من جميع المشاعر والعواطف التي تتوجه بها القلوب نحو رسول الله ﷺ من المحبة له والحنين إليه والحزن على فقده، ونحو ذلك، وذلك لأنه يقصر دور رسول الله ﷺ على التبليغ، ويقصر دور الأمة على الاتباع.. ولذلك تراه يبدع كل الصوفية أو الشيعة الذي يدعون إلى إقامة هذا النوع من العلاقة مع رسول الله ﷺ، ويرون أن العلاقة به لا ينبغي أن تحد في الاتباع المجرد عن العاطفة.

قال القاضي: قبل أن تذكر لي موقف ابن تيمية من هذا، أخبرني عن حججكم في هذا الارتباط العاطفي، فقد يكون ابن تيمية صادقا فيما ذهب إليه.

قال الإسكندري: اعلم – سيدي القاضي – أن النصوص الصحيحة الصريحة الكثيرة تطفح بالأدلة على أن العلاقة مع رسول الله ﷺ لا تقتصر على الاتباع المجرد.. بل تدل على أن العلاقة تبدأ بالحب والشوق والعاطفة الجياشة.. وبعدها يكون الاتباع نتيجة لذلك.. بل هي تدل على أن كمال الدين لا يتحقق إلا بتلك العواطف الجياشة.

قال القاضي: هلا ضربت لي أمثلة تدل على ذلك.

قال الإسكندري: الأمثلة كثيرة سأكتفي لك بأربعة منها.

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الإسكندري: لقد ورد في الأحاديث الكثيرة ما يدل على العلاقة العاطفية العميقة بين رسول الله ﷺ والمنتجبين من أصحابه، ومن ذلك ما رواه المحدثون أن رجلا جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك لأحبُّ إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك وعرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيئين، وإني إذا دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69][1]

وعن أنس قال:(بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ:(ما أعددت لها؟) قال:(ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله)، قال:(فأنت مع من أحببت)[2]

وروي أن امرأة من الأنصار، قُتِل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُدٍ، مع رسول الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله؟ قالوا: خيرًا، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرُونيهِ حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل. أي: هينة[3].

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الإسكندري: لقد ورد في الأحاديث الكثيرة ما يدل

1() حديث حسن أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه الطبراني في الأوسط والصغير وحسنه ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي وهو ثقة. انظر أسباب النزول للإمام السيوطي ص 128..

2() رواه الطبراني في الكبير.

3() ابن هشام في السيرة.

على أن هذه العلاقة غير مرتبطة بحياة النـبي ﷺ فقـط، بـل إن هذه الأشواق تشمل المؤمـنين في حياتـه ﷺ وبعـد وفاتـه، وقـد روي من ذلـك الروايـات الكثـيرة عن المنتجـبين من أصـحاب رسول الله ﷺ، فقد روي في ترجمةِ بلال أنه لمـا احتُضـر نـادَت امرأتُه: وا ويلاه، وا حزناه، فنادى هو قائلاً: (وا فَرحاه، واطرباه، غدًا نلقى الأحبّة، محمّدًا وحِزبه)[1]

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الإسـكندري: لقـد ورد في الأحـاديث الكثـيرة مـا يـدل على أن هذه العلاقة ليست خاصـة بمن عـاش مـع رسـول اللـه ﷺ، بل هي تشمل جميع المؤمنين بـه، بـل هي تـدل على مـدى صـدقهم في اتباعـه، وأن الاتبـاع الصـحيح لا يكـون إلا عن هـذه العلاقة.

فقد ورد في الحديث عن النـبي ﷺ قـال: (من أشـد أمـتي لي حبا ناس يكونون بعدي، يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله)[2]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: (إن أشـدَّ أمـتي لي حبـا قــوم يكونــون أو يجــيئون، وفي روايــة - يخرجــون بعــدي- يــودّ أحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني)[3]

وفي حـديث آخـر أن النـبي ﷺ قـال: (ليـأتين على أحـدكم زمان لأن يراني أحبُّ إليه من مثل أهله وماله)[4]

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قال الإسـكندري: لقـد ورد في الأحـاديث الكثـيرة مـا يـدل على أن هذه العلاقة علاقة متبادلة بين رسـول اللـه ﷺ وأمتـه.. فهو يحبها، ويشتاق إليها، ويبادلها مشـاعرها في جميـع الأزمنـة،

1() سير أعلام النبلاء (1. 359).

2() رواه مسلم.

3() رواه أحمد.

4() رواه البخاري.

ففي الحـــديث أن رســـول اللـــه ﷺ قـــال: (وددت أني لقيت إخواني)، فقال أصـحاب النـبي ﷺ: أوليس نحن إخوانـك؟ قـال: (أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)[1]

وفي روايــة لأحمــد، وأبي يعلى: (ومــتى ألقى إخــواني؟)، قالوا: يا رسول الله، ألسـنا إخوانـك؟ قـال: (بـل أنتم أصـحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)

قــال القاضــي: وعيت هــذا.. فمــا فعــل ابن تيميــة بهــذه الناحية؟

قال الإسكندري: لقد حاول ابن تيمية بكل أنواع الحيلــة أن يزيح هذا النوع من العلاقة مع رسول الله ﷺ وإن لم يجرؤ على التصريح به، ولهذا فإن كل مـا سـنذكره في هـذا الـدليل شـاهد على هذا، فمنع ابن تيمية للتوسل بـالنبي ﷺ ومنعـه من زيارتـه، ومنعه من الاستغاثة به واللجوء إليه، ومنعه من الفرح لفرحه أو الحزن لحزنـه كـل ذلـك دليـل على موقفـه هـذا، لأن كـل تلـك السلوكات هي مظاهر لمشاعر الود الذي أبدته الأمة نحـو نبيهـا ﷺ.

قــال القاضــي: هلا ذكـرت لي مثـالا يخص هـذا الـذين نحن فيه.

قال الإسـكندري: من أقـرب الأمثلـة على هـذا موقفـه من الحزن على رسول الله ﷺ بعد وفاته، فقد جـره بغضـه للشـيعة وحقده عليهم أن يعتبر هذا الحزن قصورا وضـعفا، وأن الكمـال في عدم الحزن، مع أن رسـول اللـه ﷺ قـال في الحـديث: (إذا أصــيب أحــدكم بمصــيبة فليــذكر مصــيبته بي فإنهــا من أعظم المصائب)[2]

وفي حديث آخر: (يا أيها الناس أيما أحد من النــاس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصـيبته بي عن المصـيبة الـتي

1() مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 66).

2() رواه ابن سعد (2 / 275) والدارمي (1 / 40)

تصيبه بغيري؛ فإن أحدا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعـدي أشـد عليه من مصيبتي)[1]

قال القاضي: هلا ذكرت لي ما قال ابن تيمية بالضبط؟

قـال الإسـكندري: لقـد قـال في كتابـه المملـوء بالعـدواة والنصب، والذي سماه منهاج السنة النبوية، وكان الأحرى به أن يسميه منهاج السنة الأموية: (ثم إن هـؤلاء الشـيعة - وغـيرهم - يحكون عن فاطمة من حزنها على النبي ﷺ ما لا يوصـف، وأنهـا بنت بيت الأحزان، ولا يجعلون ذلك ذمـا لهـا مـع أنـه حـزن على أمر فائت لا يعود، وأبو بكر إنما حزن عليـه في حياتـه خـوف أن يقتل وهو حزن يتضمن الاحتراس، ولهذا لما مات لم يحزن هـذا الحزن لأنه لا فائدة فيه)[2]

أرأيت سيدي القاضي أشد من هـذه الـبرودة تجـاه رسـول الله ﷺ.. وهل يمكن لمؤمن في الدنيا أن يتخيل أن الحزن على رسول الله ﷺ لا فائدة فيه؟

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق سيدي القاضي.. بل إني من خلال تجربتي مـع ابن تيميـة ومدرسـته رأيتـه يكـاد يقصـر العلاقـة العاطفيـة مـع رسول اللـه ﷺ في الصـحابة فقـط، أمـا سـائر الأمـة، فعلاقتهـا ليست علاقة مباشرة برسول اللـه ﷺ وإنمـا تحتـاج إلى المـرور عبر المعابر الكثيرة من التابعين والصحابة وهكذا.. وبالتالي فإنه يصرح في كل كتبه هو ومدرسته بأن أقـرب النـاس إلى رسـول الله ﷺ هم الصحابة بالترتيب الذي اخترعه هو وسـلفه، أمـا من بعدهم فلا حظ لهم إلا أن يكونوا في آخر القافلة.

حتى أنه يفضل المحاربين لرسول الله ﷺ والطاعنين في آل بيته، والمغيرين لسنته على الصالحين من هذه الأمة، يقـول في منهاج السنة: (ولهـذا يقـول من يقـول من السـلف: غبـار دخـل

1() رواه ابن ماجة.

2() منهاج السنة النبوية (8/ 459)

أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل عمر بن عبد العزيز)[1]

ولست أدري أي غبار هذا الذي فضل به معاوية على عمر بن عبد العزيز الذي حاول بكل جهده أن يرد بعض البدع التي طمس بها معاوية سنة رسول الله ﷺ؟

وقد تناسى ابن تيمية بذلك الأحاديث الكثيرة التي تتناسب مع العدالة الإلهية مع الخلق جميعا، والتي تجعل التفضيل مرتبطا بالعمل، لا بمجرد رؤية رسول الله ﷺ.

قال القاضي: هل حقا وردت أحاديث تدل على هذا؟

قلت: أجل.. ولكن ابن تيمية يريد رسولا على هواه.. فلذلك لم يلتفت لهذه الأحاديث، ولم يهتم بها، ولم يبن عليها رؤيته حول الأمة وعلاقتها برسول الله ﷺ.

قال القاضي: فهلا أوردت لي بعضها.

قلت: أجل سيدي القاضي، منها ما حدث به عمر قال: كنت مع النبي ﷺ جالسا فقال: (أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيمانا؟) قالوا: يا رسول الله، الملائكة، قال: (هم كذلك، يحق لهم ذلك، وما يمنعهم من ذلك وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها، بل غيرهم؟)، قالوا: يا رسول الله، الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالته والنبوة. قال: (هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنعهم من ذلك وقد أنزلهم الله بالمنزلة التي أنزلهم بها)، قالوا: يا رسول الله، الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء، قال: (هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة، بل غيرهم)، قالوا: فمن يا رسول الله؟! قال: (أقوام في أصلاب الرجال، يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا)[2]

[1] () منهاج السنة النبوية (6/ 227).

[2] () رواه أبو يعلى والبزار.

وفي رواية: (أخبروني بأعظم الخلق عند الله منزلة يوم القيامة)، قالوا: الملائكة، قال: (وما يمنعهم مع قربهم من ربهم، بل غيرهم؟). قالوا: الأنبياء، قال: (وما يمنعهم والوحي ينزل عليهم، بل غيرهم). قالوا: فأخبرنا يا رسول الله! قال: (قوم يأتون بعدكم، يؤمنون بي ولم يروني، يجدون الورق المعلق فيؤمنون به، أولئك أعظم الخلق عند الله منزلة - أو أعظم الخلق إيمانا - عند الله يوم القيامة)).

وفي رواية عن أبي جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله، أحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك؟ قال: (نعم. قوم يكونون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني)[1]

وقال ﷺ: (طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات)[2]

وروي أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: (طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني)، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: (شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها)[3]

وفي رواية: (طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني. سبع مرات)[4]

بل ورد في الحديث ما يشير إلى تحقق المعية لجميع الصادقين مع الأمة مع رسول الله ﷺ وعدم اقتصاردها على من عاصره، ففي الحديث أن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ:

1() رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد أحمد رجاله ثقات.

2() رواه أحمد، وأبو يعلى.

3() رواه أحمد، وأبو يعلى.

4() رواه أحمد، والطبراني بأسانيد، ورجالها رجال الصحيح غير أيمن بن مالك الأشعري، وهو ثقة.

(أرأيت من آمن بك ولم يرك وصدقك ولم يرك؟ قال: (طوبى لهم، ثم طوبى لهم، أولئك منا، أولئك معنا)[1]

إن هذا الحديث يفسر سيدي القاضي تلك الآية الكريمة التي يستعملها ابن تيمية وأتباعه ليحارب من خالفهم من المسلمين، وهي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: 29]، فكل من اتصف بهذه الصفات فهو مع رسول الله ﷺ سواء كان من الذين عاصروه أو من غيرهم.

قال القاضي: ولكن كيف غابت كل هذه المفاهيم عن الأمة؟

قلت: عندما دخلت المتاجرة باسم الصحابة في تصديع الأمة وإثارة الفتن فيها أبدعوا في الدين هذا الأصل الجديد ليفرقوا بين الناس على أساس مواقفهم من أعيان الصحابة، لا من مواقفهم من أصول الدين وفروعه.

لكن الصحابة المنتجبين كانوا واعين بهذا، ولهذا كانوا يبشرون التابعين بمثل هذه الأحاديث، ففي الحديث عن صالح بن جبير قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس ليصلي فيه، ومعنا رجاء بن حيوة يومئذ، فلما انصرف خرجنا معه لنشيعه، فلما أردنا الانصراف قال: إن لكم علي جائزة، وحقا أن أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قلنا: هات - رحمك الله - فقال: كنا مع رسول الله ﷺ معنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، قلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم منا أجرا؟ آمنا بك واتبعناك. قال: (ما يمنعكم من ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهركم؟! يأتيكم الوحي من السماء. بلى قوم يأتون من بعدكم، يأتيهم كتاب بين لوحين، فيؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا، أولئك أعظم منكم أجرا، أولئك أعظم منكم أجرا)[2].

1() رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 67)

وفي حديث آخر عن عمار بن ياسر أنه قال يخاطب بعض التابعين: (والله لأنتم أشد حبا لرسول الله ﷺ ممن رآه، أو من عامة من رآه)[1]

قارن سيدي هذه الأحاديث الكثيرة مع ما يوافقها من القرآن الكريم والعقل والمنطق بما يقوله ابن تيمية وأهل مدرسته.

إن القرآن الكريم يخبرنا أن أساس التفاضل هو العمل والتقوى والمشاعر القلبية، والتي يمكن أن تحصل من أي إنسان في أي عصر وفي أي بيئة.. لكن ابن تيمية وأتباعه يأبون إلا أن يحاربوا عدالة الله، فيجعلون التفاضل مرتبطا بمجرد الرؤية، حتى لو فعل ما فعل الرائي من الكبائر والآثام والتشويه للدين، وحتى لو خلا قلبه من أي مشاعر تجاه رسول الله ﷺ..

انظر حماستهم في الدفاع عن الطلقاء الذين شوهوا الدين في نفس الوقت حربهم الشديدة لمن ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: (أشد أمتي لي حبا قوم يكونون - أو يخرجون - بعدي، يود أحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه يراني)[2] ، وقال: (إن قوما يأتون من بعدي يود أحدهم أن يفتدي برؤيتي أهله وماله)[3]

قال القاضي: ولكني سمعتهم يذكرون حديثا في هذا يبنون عليه مقولتهم تلك، وهو قوله ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه)[4]

قلت: صدق رسول الله ﷺ.. ومورد هذا الحديث يدل على

2() رواه الطبراني.

1() رواه البزار، والطبراني.

2() رواه أحمد.

3() رواه البزار.

4() رواه البخاري ومسلم.

المراد منه، وهو مراد عام يشمل الأمة جميعا ويفسره قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: 10]، ويفسره قوله ﷺ: (إن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم، قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟! قال بل أجر خمسين منكم)[1]

قال القاضي: ما تعني؟

قلت: إن سنة الله تعالى في الابتلاء تقتضي أن يضاعف الأجر بقدر مضاعفة البلاء.. ولذلك كان لكل من عاش فترة البلاء من الأجر بقدره نصبه فيها.. وقد ورد في مورد الحديث ما يدل على هذا، فقد حصل خلاف بين عبد الرحمن بن عوف وهو من السابقين من الصحابة، وخالد بن الوليد وهو ممن تأخر إسلامه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه)، أي أن إنفاق خالد ومن أسلم معه في وقت الرخاء، لا يعادل إنفاق من أسلم وقت البلاء.. وهو يشمل كل العصور.. وبذلك تستقيم الأحاديث جميعا مع الرؤية القرآنية والعدالة الإلهية التي لا تفرق بين زمن وزمن، ولا شعب وشعب، ولا بلد وبلد.

التفت القاضي إلى الإسكندري، وقال: ما تقول؟

قال الإسكندري: لقد ذكرتني بموقف لابن تيمية رد به قوله ﷺ: (من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة)[2] مستعملا مزاجه

---

[1] () رواه البزار والطبراني وغيرهما، وقال الألباني عن إسناد الطبراني: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال مسلم. (السلسلة الصحيحة المجلد الأول حديث رقم 494)

[2] () الدارقطني في سننه (2/278)، البيهقي في شعب الإيمان (3/488) والمحاملي والساجي كما في الميزان، وعلقه بن عبد البر في الاستذكار.قال ممدوح: وليكن الضعف في هذا الحديث غير شديد، بل ضعفه قريب ويحتج الفقهاء بمثله في إثبات مشروعية أمر ما، ودونك كتب الفقه لتتحقق من صحة مقولتي، فكيف ولأحاديث الزيارة طرق

كالعادة فيما يخالف هواه، فقد قال في كتابه (التوسل والوسيلة): (هذا كذب ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من زاره في حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه، ولا سيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) أخرجاه في الصحيحين، والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج، والجهاد، والصلوات الخمس، والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين؟)[1]

2 ـ موقف ابن تيمية من زيارة رسول الله ﷺ

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثاني.

قام الهندي، وقال: لم يكتف ابن تيمية بقطع تلك العلاقة العاطفية الجميلة للأمة عن نبيها ﷺ، بل راح يمنع بكل ما أوتي من وسائل من أمر فطري تعارفت عليه البشرية، ودلت عليه النصوص الكثيرة.

قال القاضي: وما هو؟

قال الهندي: زيارة قبر رسول الله ﷺ.. فقد حاول ابن تيمية بكل ما أوتي من أسلحة التبديع والتضليل أن يحول من زيارته التي تحن لها القلوب، إلى معصية من المعاصي، بل بدعة من البدع، مع أن ذلك مما تعارفت عليه الأمة الإسلامية سلفها وخلفها، بل ما تعارفت عليه الأمم من قبلها حتى لا تنقطع صلتها بمن ترجع إليهم في شؤون دينها ودنياها، وحتى لا تزول آثارهم التي تدل عليهم.

بالإضافة إلى ما في ذلك من المعاني التربوية العظيمة، والصلة الوجدانية العميقة، وهي مما يجدها كل من تشرف

بعضها من شرط الحسن.

[1] () التوسل والوسيلة ص 74.

بزيارة تلك المقامات الشريفة.

قال القاضي: كلامك صحيح.. والواقع يدل عليه.. فهل أنكر ابن تيمية هذا؟

قال الهندي: أجل سيدي القاضي.. فمن المعروف لكل من درس تراث السابقين أن ابن تيمية انفرد في القرن السابع الهجري بمنع إنشاء السفر لزيارة النبي ﷺ، وقد وردت عنه في هذا الفتاوى الكثيرة، وقد أحدث ذلك لغرابته ردة فعل شديدة في المجتمع الإسلامي الذي كان يقدس زيارة رسول الله ﷺ ويعتبر الجدل فيها سوء أدب معه ﷺ.

لقد قال الحافظ ابن حجر يشير إلى الفتنة التي حصلت بسبب فتاوى ابن تيمية في ذلك: (والحاصل أنهم ألزموا ابن تيمية بتحريم شدِّ الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ.. وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية)[1]

وقال الحافظ أبو زرعة العراقي في بعض أجوبته المسماة (الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية) عند الكلام على المسائل التي انفرد ابن تيمية بها: (وما أبشع مسألتي ابن تيمية في الطلاق والزيارة، وقد رد عليه فيهما معاً الشيخ تقي الدين السبكي، وأفرد ذلك بالتصنيف فأجاد وأحسن)[2]

وقال في (طرح التثريب): (وللشيخ تقي الدين ابن تيمية هنا كلام بشع عجيب يتضمن منع شد الرحل للزيارة، وأنه ليس من القرب، بل بضد ذلك، ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في شفاء السِّقام فشفى صدور قوم مؤمنين)[3]

وذكر الحافظ العلائي المسائل التي انفرد بها ابن تيمية، ومنها هذه المسألة، فقال: (ومنها أنَّ إنشاء السفر لزيارة نبينا

1() الفتح (5/66).

2() الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية ص96–98.

3() طرح التثريب (6 / 43)

ﷺ معصية لا تقصر فيها الصلاة، وبالغ في ذلك ولم يقل به أحد من المسلمين قبله)

قال القاضي: أنت تعلم أننا في مجلس قضاء، وأنه لا يكفي فيه شهادات المخالفين والخصوم.. بل نحتاج إلى أدلة أكثر قوة وثبوتا ودلالة.

قال الهندي: أجل سيدي القاضي.. أردت فقط أن أذكر لك استبشاع العلماء لتلك الفتاوى التي أصدرها، وكيف صدمت الأمة بها، لأنها لم تكن تتصور أن هناك من يتجرأ على مثل ذلك.

قال القاضي: لكن مع ذلك لا مناص لنا من أن نستمع لابن تيمية نفسه.. هكذا تقتضي العدالة.

قال الهندي: لقد ذكر ابن تيمية هذه المسألة في مواضع كثيرة من كتبه، ومنها فتواه لمن سأله عن قوله ﷺ: (مَن زار قبري وجبت له شفاعتي)، و(من زار البيت ولم يزرني فقد جفاني)، وهل زيارة النبي ﷺ على وجه الاستحباب أو لا؟

فأجاب: (أمّا قوله: (مَن زار قبري وجبت له شفاعتي) فهذا الحديث رواه الدارقطني ـ فيما قيل ـ بإسناد ضعيف، ولهذا ذكره غير واحد من الموضوعات، ولم يروه أحد من أهل الكتب المعتمد عليها من كتب الصحاح والسنن والمسانيد، وأمّا الحديث الآخر قوله: (مَن حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، فهذا لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، بل هو موضوع على رسول الله ﷺ ومعناه مخالف للإجماع، فإنّ جفاء الرسول ﷺ من الكبائر.. وأمّا زيارته فليست واجبة باتّفاق المسلمين، بل ليس فيها أمر في الكتاب ولا في السنّة، وإنّما الأمر الموجود في الكتاب والسنّة بالصلاة عليه والتسليم. وأكثر ما اعتمده العلماء في الزيارة قوله في الحديث الذي رواه أبو داود: (ما من مسلم يسلّم عليّ، إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام)[1]

1() مجموع الفتاوى: 27/25.

بل إن الأمر وصل به إلى هذا الجفاء الذي عبر عنه بقولـه: (أن إتيان مسجد رسول الله ﷺ وقصد ذلك والسفر لـذلك أولى من إتيان قبره لو كانت الحجرة مفتوحـة والسـفر إليـه بإجمـاع المسلمين. فإن الصحابة كانوا يأتون مسجده في اليـوم والليلـة خمس مرات والحجرة إلى جانب المسجد لم يدخلها أحـد منهم لأنهم قد علموا أنه نهاهم أن يتخذوا القبور مسـاجد وأن يتخـذوا قبره عيدا أو وثنا.. وكذلك قد علموا أن صلاتهم وسـلامهم عليـه في المسـجد أولى من عنـد قـبره. وكـل من يسـافر للزيـارة فسفره إنما يكون إلى المسجد سواء قصـد ذلـك أو لم يقصـده والسفر إلى المسجد مستحب بالنص والإجماع)[1]

وقال: (لو كان قبر نبينا يـزار كمـا تـزار القبـور لكـان أهـل مدينته أحق الناس بذلك كما أن أهل كل مدينة أحق بزيـارة من عندهم من الصالحين فلما اتفـق السـلف وأئمـة الـدين على أن أهل مدينتـه لا يـزورون قـبره بـل ولا يقفـون عنـده للسـلام إذا دخلوا المسجد وخرجوا وإن لم يسمى هذا زيارة ، بل يكره لهم ذلك عند غير السـفر!! كمـا ذكـر ذلـك مالـك وبين أن ذلـك من البدع التي لم يكن صـدر هـذه الأمـة يفعلونـه علم أن من جعـل زيـارة قـبره مشـروعة كزيـارة قـبر غـيره فقـد خـالف إجمـاع المسلمين)[2]

وقال في (الرد على الأخنـائي): (ولهـذا كـان الصـحابة في عهد الخلفاء الراشدين إذا دخلـوا المسـجد.. لم يكونـوا يـذهبون إلى ناحية القبر فيزورونه هناك ولا يقفون خارج الحجرة كما لم يكونوا يدخلون الحجرة أيضا لزيارة قبره.. ولا كانوا أيضـا يـأتون من بيوتهم لمجرد زيارة قبره ﷺ بل هذا من البدع الـتي أنكرهـا الأئمــة والعلمــاء وإن كــان الزائــر ليس مقصــوده إلا الصــلاة والسلام عليه وبينوا أن السلف لم يفعلوها)[3]

1() مجموع الفتاوى (27/ 309).

2() مجموع الفتاوى 27/ 243.

3() الرد على الأخنائي ص 385.

وقال في نفس الكتاب: (ومعلوم أن أهل المدينة لا يكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم... ولكن قبر النبي ﷺ خص بالمنع شرعا وحسا كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة كما تزار سائر القبور فيصل الزائر إلى عند القبر ، وقبر النبي ﷺ ليس كذلك فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن) [1]

أرأيت سيدي القاضي أكثر من هذا الجفاء؟

بل إنه لم يكتف بهذا، بل راح يحرم السفر لزيارة رسول الله ﷺ، ويعتبره بدعة، ويحرم قصر الصلاة لمن فعل هذا، وكأن الذي يريد أن يزور رسول الله ﷺ يريد أن يفعل معصية.

لقد أفتى الفتاوى الكثيرة في ذلك، منها قوله: (وأما إذا كان قصده بالسفر زيارة قبر النبي دون الصلاة في مسجده، فهذه المسألة فيها خلاف، فالذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أن هذا غير مشروع ولا مأمور به، لقوله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)[2]

ومنها قوله في (مجموع الفتاوى): (السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسنة ولإجماع الأئمة)[3]

ومنها قوله في تبديع أشواق المسلمين لزيارة رسول الله ﷺ عند الهم بالحج: (حتى أن أحدهم إذا أراد الحج لم يكن أكثر همه الفرض الذي فرضه الله عليه وهو حج بيت الله الحرام، وهو شعار الحنيفية ملة إبراهيم إمام أهل دين الله بل يقصد

1() الرد على الأخنائي ص 386.

2() الفتاوى الكبرى 5/ 146.

3() مجموع الفتاوى 27/ 220.

المدينـــة. ولا يقصـــد مـــا رغب فيـــه النـــبي ﷺ من الصـــلاة في مسجده.. بل يقصد من زيارة قبره أو قبر غيره ما لم يأمر اللـه به ورسوله ولا فعله أصـحابه ولا استحسـنه أئمـة الـدين. وربمـا كان مقصوده بالحج من زيـارة قـبره أكـثر من مقصـوده بـالحج وربما سـوى بين القصـدين وكـل هـذا ضـلال عن الـدين باتفـاق المسلمين بل نفس السفر لزيارة قبر من القبور - قـبر نـبي أو غيره - منهي عنه عند جمهور العلماء حتى أنهم لا يجوزون قصد الصلاة فيه بناء على أنه سفر معصـية.. وكـل حـديث يـروى في زيارة القبر فهو ضعيف بل موضوع)[1]

قال القاضي: يكفي مـا ذكـرت من النصـوص.. لكـني أرى ابن تيمية يستدل بضـعف الأحـاديث الـواردة في هـذا أو كـذبها، ويستدل بمواقف جمهور العلماء.. فكيف تردون عليه في هذا؟

قال الهندي: من خلال تتبعنا لكلام ابن تيميـة في المسـألة وجدناه يحرم أربعة أمور، هي: زيـارة القـبر الشـريف، والـدعاء عنده، والتمسح به، وشـد الرحـال إليـه، وهـو يعتـبر ذلـك بدعـة ومخالفة لجمهور العلماء، ويكذب كل ما ورد فيها من النصوص، ونحن هنا سنجيبك عن ذلك، مستعينين بما قال المحدثون الكبار الذين تعتمدهم الأمة، وسترى من خلال ذلك سيدي القاضي مـا أشرنا إليه سابقا من مزاجية ابن تيمية في التعامل مع الحديث، فهو يقبل منه ما يوافق هواه، ويرفض ما يخالفه.

الزيارة:

قـال القاضـي: فحـدثنا عن نفس الزيـارة، وهـل هنـاك مـا يثبتها، فقد ذكرت من كلام ابن تيمية ما يـدل على أن الأحـاديث الواردة في ذلك تتراوح بين الضعف والوضع.

قال الهندي: لو لم يكن في أحـاديث الزيـارة إلا مـا اتفقت الأمـة – بمـا فيهم ابن تيميـة - على قبولـه لكفى، فقـد ورد في الحـديث بصـيغ مختلفـة قولـه ﷺ: (قـد كنت نهيتكم عن زيـارة

---

[1] () مجموع الفتاوى (4/ 519)

القبور، فزوروها)[1]

فهذا الحديث يرغب ترغيبا عاما في زيارة القبور من غير تحديد لقبر منها، ومن المستغرب أن نقيد ما أطلقه رسول الله ﷺ، أو نخصص ما عممه، كما فعل ابن تيمية حين اشترط نصا خاصا بزيارة رسول الله ﷺ.

قال القاضي: أتعني أنه ليس هناك نص خاص بالزيارة، أو أن ما قاله ابن تيمية فيها صحيح؟

قال الهندي: لقد ذكرنا لك – سيدي القاضي – مدى تلاعب

ابن تيمية بالأحاديث النبوية، ولا يستغرب منه هنا موقفه من الأحاديث التي وردت في فضل زيارة قبره ﷺ لأنها لا تتناسب مع مزاجه الأموي[2].. وقد ذكرنا لك سابقا أن العبرة عنده بما يضعه من المعاني، لا باستسلامه لما يقوله ﷺ.. ولهذا فهو ينكر كل حديث لا يتقبله هواه.

قال القاضي: هل من دليل من كلام ابن تيمية على ما تقول؟

قال الهندي: أجل.. فالأمثلة عن ذلك أكثر من أن تحصر، سأقتصر لك منها على ما قاله في (الفتاوى الكبرى)، فقد جاء فيها: (وأما قوله: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)، فهذا الحديث رواه الدارقطني فيما قيل بإسناد ضعيف، ولهذا ذكره غير واحد من الموضوعات، ولم يروه أحد من أهل الكتب المعتمد عليها من كتب الصحاح، والسنن، والمسانيد. وأما الحديث الآخر: قوله: (من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، فهذا لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، بل هو موضوع على رسول الله ومعناه مخالف الإجماع فإن جفاء الرسول ﷺ من

1() صحيح مسلم:977،.

2() استفدنا ما يتعلق بتخريج الحديث والكلام عليها من كتاب (رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة)، للعلامة المحدث محمود سعيد ممدوح، وقد اقتصرنا في اقتباساتنا على ما يمكن أن يفهمه القارئ العادي، أما المسائل التخصصية كالكلام في الرجال وغيره، فيمكن الرجوع للكتاب، ففيه تفاصيل كثيرة، وإجابات على كل ما أورده ابن تيمية ومدرسته.

الكبائر، بل هو كفر ونفاق)[1]

هذان مثالان فقط – سيدي القاضي – على تسرع ابن تيمية في تكذيبه للحديث، مع أن كلام المحدثين في هذا يختلف عنه تماما.

قال القاضي: أحتاج إلى إثبات لما تقول.

قال الهندي: لا يكفي هذا المقام لبسط التفاصيل الكثيرة المرتبطة بالمحدثين والرواة، ولكني سأحكي لك كلام علم من أعلام المحدثين المتأخرين، راح ينتقد رجلا من مدرسة ابن تيمية ألف كتابا يدافع به عن موقف ابن تيمية من زيارة رسول الله ﷺ.. وستعرف من خلاله أنواع المغالطات التي مارسها ابن تيمية، وعلمها لتلاميذه.. فهم يقبلون من الحديث ما شاءوا، وشاءت لهم أهواؤهم، ويرفضون ما شاءوا، وشاءت لهم أهواؤهم.

لقد قال العلامة المحدث محمود سعيد ممدوح في كتابه (رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة): (شاع بين كثير من الناس أن أحاديث الزيارة كلها ضعيفة، بل موضوعة وهو خطأ بلا ريب، ومصادمة لقواعد الحديث بلا مين، ويكفى اللبيب قول الذهبى الحافظ الناقد عن حديث الزيارة: طرقه كلها لينة لكن يتقوى بعضها ببعض لأن ما فى روايتها متهم بالكذب، نقله عنه السخاوى، وأقره فى المقاصد الحسنة، ومنشأ هذا الخطأ هو الاعتماد على كتاب (الصارم المنكى فى الرد على السبكى) للحافظ أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى.. وكنت أرى الإحالة على هذا الكتاب من كثير من الكتاب سواء من المشتغلين بالحديث أو غيرهم فأكتفى بالسكوت رغبة فى اغتنام فرصةٍ لتحقيق مدى صحة هذه المقولة.. وبعد النظر فى (الصارم المنكي) وتحقيق أحاديث الزيارة، رأيت الهول في هذا الكتاب، فتراه يتعنت أشد التعنت فى رد الأحاديث عند كلامه على الرجال، ويطول الكلام جداً على الرجال ناقلاً ما يراه يؤيد رأيه وهو الجرح، ولا يذكرمن التعديل إلا ما يوافقه كما فعل مع

[1] () الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 147)

عبد الله بن عمر العمري، وتطويله للكلام يخرجه عن المقصود إلى اللغو والحشو مع التكرار الممل.. وهو يذكر أبحاثاً خارجة عن المقصود كالبحث المتعلق بالمرسل وطرق الحديث الذى فيه حفص بن سليمان القاري.. ويطيل الكتاب جداً بذكر فتوى فى الزيارة لابن تيمية عقب كل حديث فى الزيارة، وحاصلها مكرر ومعروف.. وأحياناً يأتى بتعليلات للأحاديث خارجة عن قواعد الحديث، كقوله عند محاولة تضعيف بعض الأحاديث: لم يخرّجه أحد من أصحاب الكتب الستة ولا رواه الإمام أحمد فى مسنده ... إلخ، وغير خفي أنّ هذا التعليل فيه نظر فالعبرة بالإسناد ولو كان الحديث فى جزء غير مشهور)[1]

قال القاضي: هلا أوردت لي بعض الأحاديث، وكلام العلماء فيها حتى أتأكد من مدى صدقكم.

قال الهندي: سأذكر لك سيدي خمسة أحاديث.. يقوي بعضها بعضا تدل على فضل الزيارة، وأنها من المناسك التي جاءت بها الشريعة، وأنها تتوافق مع ما يستدعيه جناب الرسول ﷺ من التعظيم.. خلافا لما يقوله ابن تيمية في ذلك.

قال القاضي: فهات الحديث الأول.

قال الهندي: الحديث الأول وهو أول ما رده ابن تيمية من أحاديث الزيارة، وهو قوله ﷺ: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)، فقد روى هذا الحديث الدارقطني في سننه، والحكيم والترمذي في النوادر، وغيرهما، وأقل ما يقال في هذا الحديث أنه حسن، وقد قال الحافظ السيوطي في المناهل (208): (له طرق وشواهد حسَّنه لأجلها الذهبي، وقال المناوي في (فيض القدير) (6/140): (قال الذهبي: طرقه لينة، لكن يقوي بعضه بعضاً)، وقال الملا علي القاري في (شرحه على الشفا 3/842): (حديث ابن عمر له طرق وشواهد حسنه الذهبي لأجلها، وصححه جماعة من أئمة الحديث)

وأمّا سند الحديث فقد تكلّم فيه تقي الدين علي بن عبد

1() رفع المنارة في تخريج أحاديث التوسل والزيارة ص 10 - 11.

الكافي السبكي الشافعي في (شفاء السقام) ردا على ابن تيمية، فقال: (إنّ الأحاديث التي جمعناها في الزيارة بضعة عشر حديثاً ممّا فيه لفظ الزيارة غير ما يستدلّ به لها من أحاديث أُخر، وتضافر الأحاديث يزيدها قوة، حتى أنّ الحسن قد يرتقي بذلك إلى درجة الصحيح.. وبهذا بل بأقلّ منه، يتبيّن افتراء مَن ادّعى أنّ جميع الأحاديث الواردة في الزيارة، موضوعة، فسبحان الله!! أما استحيا من الله ومن رسوله في هذه المقالة التي لم يسبقه إليها عالم ولا جاهل؟ لا من أهل الحديث، ولا من غيرهم؟ ولا ذكر أحدٌ موسى بن هلال ولا غيره من رواة حديثه هذا بالوضع، ولا اتّهمه به فيما علمنا! فكيف يستجيز مسلم أن يطلق على كلّ الأحاديث التي هو واحد منها: (أنّها موضوعة)، ولم يُنقل ذلك عن عالم قبله، ولا ظهر على هذا الحديث شيء من الأسباب المقتضية للمحدّثين للحكم بالوضع، ولا حُكم متنه ممّا يخالف الشريعة، فمن أي وجه يحكم بالوضع عليه لو كان ضعيفاً؟ فكيف وهو حسن أو صحيح؟)[1]

أرأيت – سيدي القاضي – جرأة ابن تيمية على الحديث..

لو أن هذا الحديث كان في التجسيم أو في تشويه الأنبياء لسارع لتصحيحه وقبوله، بل جعله أصلا من أصول الدين، لكنه لما خالف مزاجه سارع إلى تكذيبه.

قال القاضي: وعيت هذا، فهات الحديث الثاني.

قال الهندي: الحديث الثاني هو قوله ﷺ: (من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له شهيداً يوم القيامة)

وقد قال العلامة المحدث محمود سعيد ممدوح بعد أن تكلم على رواته: (فالحاصل مما تقدم أن هذا الإسناد فيه راوٍ غاية ما فيه أنه مجهول وتفرد بهذا الحديث، وآخر اختلف فيه: وثقة الدارقطني وصحح له ابن حبان، ووثقه وأخرج له أصحاب السنن: النسائي، وأبو داود، والترمذي، وقال عنه الحافظ: لين الديث.وقال الذهبي: وثق.. فإذا كان الأمر كذلك فهذا الإسناد

[1] () شفاء السقام في زيارة خير الأنام: 79.

ضعيف فقط بسبب فضالة بن سعيد بن زميل المأربي فقط، ويمكن أن ينجبر، بغيره بل يمكن أن يكون مشبه بالحسن على رأي جماعة من الحفاظ، وهو وحده يقضي على قولهم المتهافت: أحاديث الزيارة كلها ضعيفة بل موضوعة، فكيف ولهذا الحديث نظائر أقوى منه)[1]

قال القاضي: وعيت هذا، فهات الحديث الثالث.

قال الهندي: الحديث الثالث هو قوله ﷺ: (من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة)، وقد أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3/488)، وحمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (ص434) ومن طريقه السبكي في شفاء السقام (ص35)، وابن أبي الدنيا في (كتاب القبور)

قال القاضي: وعيت هذا، فهات الحديث الرابع.

قال الهندي: الحديث الرابع هو قوله ﷺ: (من زار قبري أو - قال من زارني - كنت له شفيعاً أو شهيداً)، وقد أخرجه أبو داود الطيالسي، والبيهقي في السنن الكبرى (5/245)، وفي شعب الإيمان (3/488).

قال القاضي: وعيت هذا، فهات الحديث الخامس.

قال الهندي: الحديث الخامس هو قوله ﷺ: (ليهبطن عيسى بن مريم حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً أو بنيتيهما، وليأتين قبري حتى يسلم علي ولأردن عليه)، وقد رواه الحاكم في المستدرك (2/595)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وسلمه الذهبي.

وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده (حديث رقم 6584) قوله ﷺ: (والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى بن مريم، إماماً مقسطًا، وحكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليصلحن ذات البين، وليذهبن الشحناء، وليعرضن

1() رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة.

عليه المال فلا يقبله، ثم لئن قام على قبري فقال: يا محمد لأجبته)، ورجاله ثقات، وقد قال الهيثمي في تخريجه في (مجمع الزوائد: 8/211): (رجاله رجال الصحيح)، وقد بحثت في الحديث فوجدت أنه حسن على الأقل. خاصة مع وجود الطريق الذي في مسند أبي يعلى الموصلي، ولم يقف عليه الألباني فقصر كلامه على الحديث في ضعيفته على إسناد الحاكم فقط فأخطأ.

بل إن الألباني مع سعيه المستميت في إنكار أحاديث الزيارة ولو بالتحاكم إلى تشدد وشذوذ ابن عبد الهادي، رأيته تنازل، فأورد الحديث من رواية أبي يعلى الموصلي في صحيحته (2733) وقال عنه: وهذا إسناد جيد.

ثم قال بعد كلام: (والجملة الأخيرة لها طريق أخرى عنه بلفظ: وليأتين قبري حتى يسلم علي، ولأردن عليه.. أخرجه الحاكم وصححه الذهبي وغيرهما من المتأخرين، وفيه علتان بينتهما في الضعيفة تحت الحديث (5540)، لكن لعله يصلح شاهداً للطريق الأولى)، وإذا كان كذلك فهذا مصير منه إلى تقوية ما ضعفه، فعليه أن يخرج هذا القوي من ضعيفته.

وهذا الحديث وحده كافٍ لرد دعوى ابن تيمية ومن شايعه كابن عبد الهادي في زعم وضع أحاديث الزيارة، حتى وإن سلمنا بضعفه – وهو بعيد جداً – فما بالك إذ ضم للأحاديث المتقدمة.

قال القاضي: لقد ذكر ابن تيمية جمهور العلماء، وأنهم متفقون على هذا.

قال الهندي: وهذا من تسرعه في الأحكام وفي ادعاء الإجماع ونحوه.. ولو أنك سيدي رحت إلى كتب المذاهب الإسلامية المختلفة لوجدت الأمر مختلفا تماما، فكلهم ينصون على استحباب زيارة قبر رسول الله ﷺ، بل فيهم من يرى وجوبها، وقد قال القاضي عياض في (الشفا بتعريف حقوق المصطفى): (زيارة قبره ﷺ سنَّة من سنن المسلمين مجمع

عليها وفضيلة مرغب فيها)[1]

وقال العلامة أبو الحسنات محمد عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي في (إبـراز الغي الواقـع في شـفاء العيّ): (وأمـا نفس زيارة القبر النبوي فلم يذهب أحد من الأئمة وعلمـاء الملـة إلى عصـر بن تيميـة إلى عـدم شـرعيته، بـل اتفقـوا على أنهـا من أفضل العبادات وأرفع الطاعـات، واختلفـوا في نـدبها ووجوبهـا، فقال كثير منهم بأنها مندوبة، وقـال بعض المالكيـة والظاهريـة: إنها واجبة وقال أكثر الحنفيـة أنهـا قريبـة من الـواجب، وقـريب الواجب عندهم في حكم الواجب، وأول من خـرق الإجمـاع فيـه وأتى بشئ لم يسبق إليه عالم قبله هو ابن تيمية)

أما الشوكاني، وهـو من العلمـاء المعتمـدين لـدى مدرسـة ابن تيمية، فقد قـال في كتابـه (نيـل الأوطـار)، وهـو من الكتب التي يرجعون إليها كثيرا: (واحتج أيضاً من قال بالمشروعية بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمـان على تباين الديار، واختلاف المذاهب الوصول إلى المدينـة المشـرفة لقصد زيارته، ويعدون ذلك من أفضل الأعمال فكان إجماعاً)[2]

وقد استدل الشوكاني للزيارة بقولـه تعـالى: ﴿وَمَنْ يَخْـرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَـاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْـهُ الْمَـوْتُ فَقَـدْ وَقَـعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 100]، فقال: (والهجـرة إليـه ﷺ في حياتـه الوصـول إلى حضـرته وكـذلك الوصول بعد موته)[3]

واستدل لهـا بقولـه تعـالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]، فقال: (ووجه الاسـتدلال بهـا أنـه ﷺ حي في قبره بعد موته كما في حديث: الأنبيـاء أحيـاء في قبـورهم ،

1() الشفا بتعريف حقوق المصطفى) (2 / 74)

2() نيل الأوطار (5 /110)

3() نيل الأوطار 3/ 105.

وقد صححه البيهقي وألف في ذلك جزءا)[1]

بل إن هذه الآية استدل بها فقهاء الصحابة، فقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: (إن في النساء لخمس آيات ما يسرني بهن الدنيا وما فيها ، وقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها وذكر منها: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64])[2]، ففرح ابن مسعود بهذه الآية ظاهر في أنها عامة.

الدعاء:

قال القاضي: حدثتنا عن النصوص الواردة في نفس الزيارة، فحدثنا عن الدعاء عند القبر، والذي اعتبره ابن تيمية بدعة.

قال الهندي: لقد ذكرنا لك سابقا سيدي القاضي تقسيم ابن تيمية الزيارة إلى زيارة شرعية وزيارة بدعيّة، واعتباره الدعاء عند القبر من الزيارة البدعية، وقوله: (إنّ هذا ليس مشروعاً باتّفاق أئمة المسلمين)

قال القاضي: أجل.. فكيف تردون على هذا؟

قال الهندي: نرد عليه بفعل رسول الله ﷺ في الأحاديث الصحيحة التي لا يمكنه أن يرفضها، ومنها ما رواه مسلم عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى المقابر يعلمهم أن يقولوا: (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فَرَط، ونحن لكم تَبَع، نسأل الله لنا ولكم العافية)

أو ليس قوله ﷺ: (نسأل الله لنا ولكم العافية)، دعاءً للنفس عند قبور المؤمنين.

1() نيل الأوطار 3/ 105.

2() معجم الطبراني 9/ـ 220، قال الهيثمي 7/ـ 71: (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح).

ومثله ما ورد في الحديث الذي رواه مسلم: (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين والمستأخرين)

بالإضافة إلى هذا، فإن الأمر بالدعاء في الكتاب والسنّة مطلق يعمّ كلّ الأمكنة، وهو – كما يرى ابن تيمية – من مقتضيات التوحيد، فكيف يتحول عند قبر رسول الله ﷺ إلى شرك؟

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد الأمر الإلهي باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، أي يصلى فيه، ويدعى عنده، كما قال المفسرون، وما ذلك إلا لأجل التبرّك بالمقام، الذي بورك بموطئ قدم إبراهيم عليه السلام، فإذا جاز التبرّك بالقيام (أو الدعاء) في مقام إبراهيم عليه السلام، فكيف لا يجوز التبرك بالقيام والدعاء في مكان دفن فيه النبي ﷺ؟ أفلا يكون الدعاء عنده أرجى للإجابة؟

بالإضافة إلى هذا، ما ورد عن السلف الذين يعظمهم ابن تيمية، ويحارب بهم من يخالفه، من الأدلة الكثيرة على أنهم كانوا يدعون عند قبره ﷺ، ويعتبرونه محلا مباركا تتحقق فيه الإجابة.

فقد روى الدارمي عن أوس بن عبد الله، قال: قُحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوّاً إلى السماء، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا فمُطرنا مطراً، حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمّي عام الفتق[1].

وروى ابن حبّان والطبراني بإسناد صحيح عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: رأيت أُسامة.. ورأيته يصلّي عند قبر رسول الله ﷺ فخرج مروان بن الحكم، فقال: تصلّي عند قبره؟ قال: إنّي أُحبّه. فقال له قولاً قبيحاً، ثم أدبر. فانصرف أُسامة فقال لمروان: إنّك آذيتني، وإنّي سمعت رسول الله ﷺ

1() سنن الدارمي:1/56.

يقــول: (إنّ اللــه يبغض الفــاحش المتفحّش، وإنّــك فــاحش متفحّش)[1]

أرأيت – سـيدي القاضـي – كيـف أنّ المسـلمين بصـفاء قلوبهم كانوا يقصدون قبر النبي ﷺ بالصـلاة والـدعاء لديـه، وأنّ الظلمـة من الأمـويين وعلى رأسـهم مـروان بن الحكم كـانوا يمنعون من هذا العمل.. هل رأيت – سيدي القاضي – صدق مـا ذكرنــاه لــك عن علاقــة ابن تيميــة بــالفهم الأمــوي للــدين، والمؤسس على الحقد على رسول الله ﷺ، بنـاء على النعـرات الجاهلية.

ليس ذلك فقـط مـا ورد من الآثـار، فقـد روى الحـاكم في مسـتدركه وصـحّحه (ووافقـه الـذهبي)، عن داود بن أبي صـالح قال: أقبـل مـروان يومـاً فوجـد رجلاً واضـعاً وجهـه على القـبر، فأخذ برقبته، فقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم، فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري، فقال: جئت رسول الله ولم آت الحجـر. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله)

وروى الحاكم والبيهقي عن أُمّ علقمـة أنّ امـرأة دخلت بيت عائشة، فصلّت عند بيت النبي ﷺ وهي صـحيحة، فسـجدت فلم ترفع رأسها حتى ماتت. فقالت عائشة: الحمد للـه الـذي يحـيي ويميت. إنّ في هذه لعبرة لي في عبد الرحمن بن أبي بكر رقد في مقيل له قاله، فذهبوا يوقظونه فوجدوه قد مات[2].

إن هذه النصـوص وغيرهـا تـدلّ دلالـة واضـحة على أنّ مـا نسـبه ابن تيميـة إلى السـلف الصـالح لا يسـتند إلا إلى محض الهـوى والمزاجيـة الأمويـة الـتي ورثهـا من مـروان بن الحكم وإخوانه من بني أمية.

ولهذا فإن عامة من ردوا على ابن تيميـة في هـذه المسـألة

1() صحيح ابن حبان:12/506، برقم 5694; المعجم الكبير:1/166.

2() المستدرك: 4 / 475 ـ 476 ; شعب الإيمان: 7 / 256، برقم 10222..

يستدلون له بما ورد عن السلف فيها، ومنهم الحصني الذي قال في كتابه الذي رد فيه على ابن تيمية (دفع شبه مَن تشبّه وتمرّد): (أمّا الدعاء عند القبر فقد ذكره خلق، ومنهم الإمام مالك وقد نصّ على أنّه يقف عند القبر، ويقف كما يقف الحاج عند البيت للوداع ويدعو، وفيه المبالغة في طول الوقوف والدعاء، وقد ذكره ابن المواز في الموازية، فأفاد ذلك أنّ إتيان قبر النبي ﷺ والوقوف عنده والدعاء عنده من الأُمور المعلومة عند مالك، وأنّ عمل الناس على ذلك قبله وفي زمنه، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لأنكره، فضلاً عن أن يفتي به، أويقرّ عليه.. وقال مالك في رواية ابن وهب: إذا سلّم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة، ويدعو ويسلّم،ولا يمسّ القبر بيده.. وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله السامري في كتاب (المستوعب) في باب زيارة قبر النبي ﷺ: (وإذا قدم مدينة رسول الله ﷺ يستحب له أن يغتسل لدخوله، ثم يأتي مسجد رسول الله ﷺ ويقدّم رجله اليمنى في الدخول... إلى أن يقول: ثم ذكر كيفية السلام والدعاء وأطال، ومنه: اللهم إنّك قلت في كتابك... وذكر دعاء طويلاً، ثم قال: وإذا أراد الخروج عاد إلى القبر فودّع)[1]

وعقد النووي في مناسكه وغيره فصلا في زيارة قبر النبي ﷺ، قال فيه: (فإذا صلّى تحيّة المسجد أتى القبر، فاستقبله واستدبر القبلة على نحو أربعة أذرع من جدار القبر، وسلّم مقتصداً لا يرفع صوته)، وذكر كيفيّة السلام، ثم قال: (ويجتهد في إكثار الدعاء، ويغتنم هذا الموقف الشريف)

بل قد ورد عن أهل الحديث الذين يعظمهم ابن تيمية، ويقصر السنة عليهم ما يدل على ما هو أكبر من ذلك، فقد كانوا يأتون قبور الأولياء والصالحين وأهل البيت الطاهرين ويدعون عندهم.

ومنها ما رواه الحافظ ابن حجر في ترجمة الإمام الرضا عن الحاكم في تاريخ نيسابور قال: وسمعت أبا بكر محمد بن

---

[1] دفع الشبه عن الرسول والرسالة (أو دفع شبه من تشبّه وتمرد):201ـ202.

المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضا(عليه السلام) بطوس، قال: فرأيت من تعظيمه ـ يعني ابن خزيمة ـ لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرّعه عندها ما تحيّرنا)[1]

وقال ابن حبّان، وهو يتحدّث عن زياراته لقبر الإمام الرضا: قد زرتُه مراراً كثيرةً، وما حلّت بي شدّة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جدّه وعليه، ودعوت الله إزالتها عنّي، إلاّ استجيب لي، وزالت عني تلك الشدّة، وهذا شيء جربته مراراً فوجدته كذلك[2].

شد الرحال:

قال القاضي: وعيت هذا، فحدثنا عن المسألة الثالثة التي أنكرها ابن تيمية، وهي شد الرحال لزيارة رسول الله ﷺ.

قال الهندي: لقد ذكرنا لك سابقا سيدي القاضي أن هذه المسألة من المسائل التي بالغ فيها ابن تيمية في الرد على الزيارة، لأن شد الرحال لزيارة قبر رسول الله ﷺ، لم يكن مجرد سفر فقط، وإنما كان رحلة ممتلئة بالمعاني الإيمانية العميقة التي تربط الأمة بنبيها، فقد كانوا أثناء شد الرحال إلى ذلك المقام الشريف يذكرون رسول الله ﷺ ويمدحونه، ويهيجون الأشواق إلى لقائه، وقد روي عنهم في ذلك الأشعار الطويلة الكثيرة التي لا تزال تنشد.

وقد ذكر السبكي – أثناء رده على ابن تيمية - واقع المسلمين في ذلك، فقال: (هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا، وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وكلّهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافةً بعيدة وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنّ

1() تهذيب التهذيب:7/339..

2() كتاب الثقات:8/457، ترجمة علي بن موسى الرضا(عليه السلام).

ذلـك قربـةٌ وطاعـةٌ، وإطبـاق هـذا الجمـع العظيم من مشـارق الأرض ومغاربهـا على مـرّ السـنين وفيهم العلمـاء والصـلحاء وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ، وكلُّهم يفعلون ذلـك على وجـه التقرّب به إلى الله عزّ وجـلّ، ومَن تـأخّر فإنّمـا يتـأخر بعجـز أو تعويق المقادير مع تأسُّفه عليـه وودّه لـو تيسّـر لـه، ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطـأ، فهـو المخطئ. ومـا ربّما يقال من أنّ سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبـادة أُخـرى وهو الصلاة في المسجد، باطلٌ جداً، فإنّ المنازعة فيما يقصـدُه الناس مكابرةٌ في أمر البديهـة، فمن عَـرف النـاس عـرف أنّهم يقصـدون بسـفرهم الزيـارة يعرّجـون إلى طريـق المدينـة، ولا يخطر غير الزيارة من القُرُبات إلاّ ببـال قليـل منهم، ولهـذا قـلَّ القاصدون إلى الـبيت المقـدَّس مـع تيسّـر إتيانـه، وإن كـان في الصلاة فيـه من الفضـل مـا قـد عُـرف، فالمقصـود الأعظم في المدينـة الزيـارة، كمـا أنّ المقصـود الأعظم في مكّـة الحجّ أو العمرة، وصاحب هذا السؤال إن شـكّ في نفسـه فليسـأل كـلّ من توجّه إلى المدينة ما قَصَد بذلك؟)[1]

ومثله ذكـر النـووي شـرف الزيـارة وأحـوال الزائـرين ومـا يستشعرونه، فقـال: (واعلم أنّ زيـارة قـبر رسـول اللـه ﷺ من أهمّ القربـات وأنجح المسـاعي، فـإذا انصـرف الحجّـاج والمعتمرون من مكة استحبّ لهم اسـتحباباً متأكـداً أن يتوجّهـوا إلى المدينة لزيارته ﷺ وينوي الزائر من الزيـارة التقـرّب وشـدّ الرحل إليه والصلاة فيه، وأنّ الذي شرفت به ﷺ خـير الخلائـق، وليكن من أوّل قدومه إلى أن يرجع مستشعراً لتعظيمـه ممتلئ القلب من هيبته كأنّه يراه، فإذا وصل باب مسـجده ﷺ ثم يـأتي القبر الكريم فيسـتدبر القبلـة ويسـتقبل جـدار القـبر ويبعـد من رأس القبر نحو أربع أذرع)[2]

وقـد روي في الآثـار مـا يـدل على أن هـذا الـذي ذكـره السبكي والنووي كان من الـزمن الأول، فقـد روى ابن عسـاكر

1() شفاء السقام:211ـ212..

2() المجموع:8/201ـ202..

في ترجمة بلال أنه رأى في منامه النبيّ ﷺ وهو يقول له: ما هذه الجَفْوة يا بلال، أما آن لك أن تزورني يا بلال؟ فانتبه حزيناً، وجِلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبيّ ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرّغ وجهه عليه، فأقبل الحسنُ والحسين فجعل يضمُّهما ويقبّلهما فقالا له: يا بلال نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذّن به لرسول الله ﷺ، ففعل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلمّا أن قال: (الله أكبر ـ الله أكبر) ارتجّت المدينة، فلما أن قال: (أشهد أن لا إله إلاّ الله) ازدادت رجّتها، فلما أن قال: (أشهد أنّ محمّداً رسول الله) خرجت العواتق من خدورهن فقالوا: أبُعِث رسول الله!؟ فما رُئي يوم أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم[1].

ومثله روي أنّ عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرئ النبيّ ﷺ السلام ثمّ يرجع.

وقد قال السبكي معلقا على هذا: (إنّ سفر بلال في زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبد العزيز في زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة، لم يكن إلاّ للزيارة والسلام على النبيّ ﷺ ولم يكن الباعثُ على السفر ذلك من أمر الدنيا ولا من أمر الدين ولا من قصد المسجد ولا من غيره)[2]

قال القاضي: أنا أريد منكم ردودا علمية عليه، فلا يكفي ما ذكرته.

قال الهندي: لك ذلك سيدي القاضي، وأول ما نرد به عليه هو ما ذكرناه لك سابقا من النصوص الدالة على شرعية الزيارة، فإنه إذا دلّت الروايات على استحباب زيارة النبي الأكرم ﷺ تكون زيارته من القربات التي يثاب الإنسان عليها إذا فعلها، ويكون السفر إلى ذلك قربة لا يختلف عن الزيارة نفسها، لأنه يستحيل عقلا أن تكون الزيارة مستحبة أو واجبة،

1() مختصر تاريخ دمشق: 5/265، وأُسد الغابة:1/208.

2() شفاء السقام:251..

ويكون السفر الذي هو الوسيلة لتحقيقها حراما.

قال القاضي: وما تقولون في الحديث الذي استدل بـه ابن تيمية على حرمة السفر للزيارة، وهو قوله ﷺ بحديث: (لا تشـدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساـجد: مسـجدي هـذا، ومسـجد الحـرام، ومسجد الأقصى)[1]

قال الهنـدي: لـو نظرنـا إلى نص الحـديث نفسـه من حيث اللغة، فإنـا نجـده لا يسـاعد ابن تيميـة على الاسـتدلال بـه على حرمة زيارة رسول الله ﷺ، وقد قال الفقيه اللغوي مجد الـدين الفـيروز آبـادي في كتابـه (الصـلات والبشـر) يوضـح هـذا: (أمـا حديث لا تشد الرحـال إلا إلى ثلاثـة مسـاجد فلا دلالـة فيـه على النهي عن الزيارة، بل هو حجـة في ذلـك، ومن جعلـه دليلاً على حرمـة الزيـارة فقـد أعظم الجـراءة على اللـه ورسـوله وفيـه برهان قاطع على غباوة قائله، وقصـوره عن نيـل درجـة كيفيـة الاستنباط والاستدلال)[2]

قال القاضي: هذا لا يكفي في القضاء.. فقـد يـأتون بعـالم لغوي آخر، ويقول عكس ما ذكر الفيروز آبادي.

قال الهندي: صدقت سيدي القاضي، ولـذلك سأشـرح لـك مـا اتفـق عليـه كـل اللغويـون في هـذا، فالمسـتثنى منـه في الحـديث كمـا تعلم محـذوف، والمقصـود منـه لا يخلـو من أحـد أمرين:

إما أن يكـون المقصـود: (لا تشـدّ الرحـال إلى مسـجد من المساجد إلاّ إلى ثلاثة مساجد)

وإما أن يكـون المقصـود: (لا تُشـدّ الرحـال إلى مكـان من الأمكنـة إلاّ إلى ثلاثـة مسـاجد)، وفي كلتـا الحـالتين لا يمكنـه الاستدلال بالحديث على حرمة الزيارة.

لأنه إن كان المقصود هو الأول، كان معـنى الحـديث النهي

1() مجموع الفتاوى:27/199.

2() الصلات والبشر (ص 127).

عن شدّ الرحال إلى أيّ مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شدّ الرحال إلى أيّ مكان من الأمكنة إذا لم يكن المقصود مسجداً، فالحديث يكون غير متعرض لشدّ الرحال لزيارة الأنبياء والصالحين، لأنّ موضوع الحديث إثباتاً ونفياً هو المساجد، وأمّا غير ذلك فليس داخلاً فيه، فالاستدلال به على تحريم شدّ الرحال إلى غير المساجد باطل.

وأمّا إن كان المقصود هو الثاني، فإن ذلك يؤدي إلى محال لم يأت به الشرع، ذلك أنه يلزم منه كون جميع الأسفار محرّمة، سواء كان السفر لأجل زيارة المسجد أو غيره من الأمكنة، وهذا ممّا لا يلتزم به أحد من الفقهاء.

قال القاضي: فكيف غاب هذا المعنى عن ابن تيمية مع وضوحه ودلاله اللغة عليه؟

قال الهندي: هو لم يغب على ابن تيمية، بل أقر به، ولكنه حاول الفرار منه بما هو أخطر من قوله ذلك.. فقد قال في مجموع الفتاوى: (فإن هذا استثناء مفرغ، والتقدير فيه أحد أمرين: إما أن يقال: لا تشد الرحال إلى مسجد إلا المساجد الثلاثة فيكون نهيا عنها باللفظ، ونهيا عن سائر البقاع التي يعتقد فضيلتها بالتنبيه والفحوى وطريق الأولى؛ فإن المساجد والعبادة فيها أحب إلى الله من العبادة في تلك البقاع بالنص والإجماع، فإذا كان السفر إلى البقاع الفاضلة قد نهي عنه فالسفر إلى المفضولة أولى وأحرى)[1]

وهذا كلام خطير جدا، ذلك أن البقعة الشريفة التي ضمت جسده ﷺ أفضل من المساجد الثلاثة، ولا يقارن مسلم عاقل بين أي مكان في العالم وبين بقعة ضمت جسد النبي ﷺ الذي هو أشرف خلق الله، وعلى هذا جماهير العلماء حتى من الحنابلة الذين يعظمهم ابن تيمية، فقد روى ابن القيِّم تلميذ ابن تيمية عن الإمام ابن عقيل الحنبلي تحت عنوان: (هل حجرة النبي أفضل أم الكعبة) قول ابن عقيل: (سألني سائل أيما أفضل حجرة النبي ﷺ أم الكعبة؟ فقلت: إن أردت مجرد

1() مجموع الفتاوى (27/ 247)

الحجـرة فالكعبـة أفضـل، وإن أردت وهـو فيهـا فلا واللـه ولا العرش وحملته ولا جنه عـدن ولا الأفلاك الـدائرة، لأن بـالحجرة جسدا لو وزن بالكونين لرجح)[1]

وقد حكى الكثير من العلماء الإجماع على هـذا، ومن ذلـك مـا نقلـه الشـيخ الخفَّاجي عن الإمـام السـبكي والعـز بن عبـد السلام ويقرهم على قولهم. (قال القاضي عياض اليحصـبي في كتابه الشفا: ولا خلاف أن موضع قبره ﷺ أفضـل بقـاع الأرض)، فعلَّق عليه الشـيخ الخفَّاجي بقولـه: (بـل أفضـل من السـموات والعرش والكعبة كما نقله السبكي رحمة الله)[2]

وقال الإمام الحصفكي الحنفي في الدر المختـار، وهـو من أشهر كتب الحنفية: (لا حرم للمدينة عنـدنا، ومكـة أفضـل منهـا على الـراجح، إلا مـا ضـم أعضـاءه عليـه الصـلاة والسـلام فإنـه أفضل مطلقا حتى من الكعبة والعرش والكرسي)[3]

وقال الشـيخ محمـد بن أحمـد عليش المـالكي في شـرحه على مختصـر الخليـل: (ومحـل الخلاف في غـير الموضـع الـذي ضمه ﷺ فإنه أفضـل من الكعبـة والسـماء والعـرش والكرسـي واللوح والقلم والبيت المعمور)[4]

وقال الإمام السخاوي في التحفـة اللطيفـة: (مـع الإجمـاع على أفضلية البقعة التي ضمته ﷺ، حتى على الكعبـة المفضـلة على أصل المدينة، بل على العرش، فيمـا صـرح بـه ابن عقيـل من الحنابلة، ولا شك أن مواضع الأنبيـاء وأرواحهم أشـرف ممـا سواها من الأرض والسماء، والقبر الشريف أفضلها، لمـا تتـنزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة، التي لا يعملها إلا مانحها، ولساكنه عند الله من المحبة والاصطفاء ما تقصـر العقـول عن

1() بدائع الفوائد ج3 ص655.

2() نسيم الرياض ج 3 ص 531.

3() الدر المختار ج 2 ص 689..

4() منح الجليل شرح مختصر الخليل ج5 ص 481.

إدراكه)[1]

وقال الإمام البهوتي في (شـرح منتهى الإرادات): (الكعبـة أفضـل من مجـرد الحجـرة فأمـا والنـبي ﷺ فيهـا فلا واللـه ولا العرش وحملته والجنة، لأن بالحجرة جسـدا لـو وزن بـه لـرجح)[2]

وغيرهـا من الأقـوال الكثـيرة الـتي تخـالف ابن تيميـة في قوله هذا.

قـال القاضـي: وعيت هـذا، ولكن لم خص هـذه المسـاجد بالذكر؟

قال الهندي: الحديث واضح في الدلالة على ذلك، ذلك لأنّ المســاجد الأُخــرى لا تختلــف من حيث الفضــيلة، فالمســاجد الجامعة كلّهـا متسـاوية في الفضـيلة، فمن العبث تـرك الصـلاة في جـامع هـذا البلـد والسـفر إلى جـامع بلـد آخـر مـع أنّهمـا متماثلان.

وقد قال الغزالي يشير إلى هذا المعـنى، وهـو يتحـدث عن أغراض السفر الشرعي: (.. أن يسافر لأجل العبادة إمّـا لحجّ أو جهاد... ويدخل في جملته زيارة قبـور الأنبيـاء (عليهم السـلام)، وزيارة قبور الصحابة والتـابعين وسـائر العلمـاء والأوليـاء. وكـلّ من يُتبّرك بمشاهدته في حياته يُتبّرك بزيارته بعد وفاته، ويجــوز شدّ الرحال لهـذا الغـرض، ولا يمنـع من هـذا قولـه ﷺ: (لا تشـدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هـذا، والمسـجد الحـرام، والمسجد الأقصى) لأنّ ذلـك في المسـاجد; فإنّهـا متماثلـة (في الفضيلة) بعد هذه المساجد)[3]

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد في النصوص مـا يـدل على أن النهي عن السفر لغير هذه المساجد الثلاثـة ليس أمـراً محرّمـاً،

1() التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة السخاوي الصفحة 12.

2() شرح منتهى الإرادات (2/525)

3() إحياء علوم الدين:2/247.

بل هو إخبار لمن يرهق نفسه ابتغاء المزيد من الأجر من أن المساجد كلها متشابهة في هذا.

ومن النصوص الواردة في ذلك ما رواه أصحاب الصحاح والسنن: (كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قُبا، راكباً وماشياً، فيصلّي فيه ركعتين)[1] ، وهذا يعني أنّ النهي عن شدّ الرّحال لغير المساجد الثلاثة ليس على التحريم، لكون النبيّ ﷺ كان يأتي مسجد قباء راكباً.

وقد قال ابن حجر في هذا: (ومن فضائل مسجد قُباء، ما رواه عمر بن شَبّة في (أخبار المدينة) بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقّاص، قال: لأن أصلّي في مسجد قباء ركعتين أحبّ إليّ من أن آتي بيت المقدس مرّتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل)[2]

التمسح بالقبر:

قال القاضي: وعيت هذا، فحدثنا عن المسألة الرابعة التي أنكرها ابن تيمية، وهي التمسح بقبره ﷺ.

قال الهندي[3]: اعلم – سيدي القاضي - أنّ من السنن الجارية بين العقلاء، الاعتزاز بما يتركه أحباؤهم من أشياء.. ومن مظاهر ذلك الاعتزاز، الاحتفاظ بها، وإدامة النظر إليها لاستذكار أصحابها، وغير ذلك من وجوه التعبير عن مشاعر الحبّ والوفاء لهم، كتقبيل الولد لصورة والده، أو لما كتبه بخطّه.

وبما أنّ النبي الأكرم ﷺ هو أحبّ الخلق إلى المسلمين، ففي حال حياته كانوا يتبرّكون بماء وضوئه وشعره وكلّ ما له صلة به، وبعد رحيله صاروا يتبرّكون بمنبره وقبره وآثاره،

1() فتح الباري:3/69..

2() فتح الباري:3/69..

3() الكلام الوارد هنا في تعليل التمسح مقتبس بتصرف من كتاب (ابن تيمية فكرا ومنهجا) للعلامة جعفر السبحاني، بتصرف.

والباعث على كلّ ذلك هو الحبّ والولاء لرسولهم ﷺ، أو الرغبة في التبرّك بآثاره، من دون أن يكون فيه أي رائحة للشرك، لأن التبرك بآثاره في حال حياته، هو نفس التبرك بآثاره بعد رحيلـه، فإنّ الداعي إذا كان هـو الحب فهـو مشـترك بين الحـالين، وإن كان الداعي هو التبرك أي ترقّب رحمة الله سبحانه عن طريـق آثاره ﷺ، فهو أيضاً كذلك. وعلى كلا الأمـرين، فـالمؤثر هـو اللـه سبحانه، والتبرّك بالآثار تمسُّك بالسبب.

قال القاضي: كلامك جميل وواقعي.. ولكنـك تعلم أننـا في مجلس قضاء، والقضـية خطـيرة، ولـذلك نحتـاج إلى أدلـة أكـثر قوة.

قال الهندي: أول من يرد على ابن تيمية في هذه المسـألة هو الإمام الذي يعتز به ابن تيمية كثيرا، بل يعتبره إمـام السـنة، وممثل السلف، وهو إمام الحنابلة أحمد بن حنبل، فإنـه إن كـان الذي يتمسح بالقبر مشركا، فإن إمـام جميـع من يـزعم لنفسـه أنه السنة والسلف مشرك على حسب قـولهم.. يلزمـون بـذلك إلزاما لا يستطيعون الفرار منه.

فقد ذكر ولده عبد الله بن أحمد ذلـك عنـه، فقـال: سـألته عن الرجل يمسُّ منبر النبي ﷺ ويتـبرّك بمسِّـه، ويُقَبّلـه، ويفعـل بالقبر مثل ذلك، يريد بذلك التقرب إلى الله عزّ وجلّ؟ فقال: لا بأس بذلك[1].

ونقل ذلك الذهبي عن عبد الله بن أحمد قولـه: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها على فيهِ يُقبِّلها، وأحسب أني رأيتـه يضـعها على عينـه، ويغمسـها في المـاء ويشـربه، يستشفي به.

وعلّق عليه بقولـه: (أين المتنطِّع المنكـر على أحمـد، وقـد ثبت أنّ عبد اللـه سـأل أبـاه عمّن يلمس رُمّانـة منـبر النـبي ﷺ ويمسّ الحجرة النبويـة، فقـال: لا أرى بـذلك بأسـاً. أعاذنـا اللـه

[1] () العلل ومعرفة الرجال، لأحمد بن حنبل:2/492، برقم 3243.

وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع)[1]

وقد أخبر الحافظ أبو سـعيد بن العلا، قـال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قـديم عليـه خـط ابن ناصـر وغـيره من الحفّاظ: أنّ الإمام أحمد سُئل عن تقبيـل قـبر النـبي ﷺ وتقبيـل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك. قال: فأريناه التقي ابن تيمية فصار يتعجّب من ذلـك، ويقـول: عجبت من أحمـد عنـدي جليـل، هـذا كلامه أو معنى كلامه. وقال: وأي عجب في ذلك وقـد روينـا عن الإمام أحمـد أنّـه غسـل قميصـاً للشـافعي وشـرب المـاء الـذي غسله به[2].

ومع هذا نجد ابن تيمية يدعي ادعاء عريضـا حين يخـبر عن اتفاق الأئمة على أن قـبر النـبي ﷺ لا يمس خوفـا من الشـرك، فقد قال في (مجموع الفتاوى): (واتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر النبي ﷺ ولا يقبله. وهـذا كلـه محافظـة على التوحيـد. فـإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد)[3]

قال القاضي: وعيت هـذا.. ولكن مـع ذلـك لا يمكن اعتبـار الإمام أحمد وحده ممثلا للسلف.. أنت تحتاج إلى أدلة أخرى.

قال الهندي: لقد رويت آثار كثيرة عمن هم أجل من أحمـد وغيره من الفقهاء ما يدل على مشروعية ذلك:

ومن ذلك ما روي أنّ فاطمة الزهراء بنت رسـول اللـه ﷺ، وسيدة نساء العالمين حضرت عند قبر أبيها، وأخذت قبضـة من تراب القبر، وراحت تشمّها وتبكي وتقول:

ماذا على مَنْ شمّ تربة أحمد   ألاّ يشمّ مدى الزمان غواليا[4]

1() سير أعلام النبلاء:11/212، الترجمة 78.

2() ذكره ابن الجوزي في مناقب أحمد:455، وابن كثير في تاريخه:10/331..

3() مجموع الفتاوى (27/ 223.

4() وفاء الوفا: 4 / 1405.

ومنها ما روي أنّ بلالاً مؤذّن رسول الله ﷺ أقام في الشام بعد وفاة النبي ﷺ فرأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول: (ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال)، فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرّغ وجهه عليه[1].

وكان عبدالله بن عمر يضع يده اليمنى على قبر النبي ﷺ [2].

وروى أحمد والحاكم عن داود بن أبي صالح قال: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم، فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب، فقال: نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله)[3]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول، فإن القضية خطيرة؟

قلت: صدق الهندي سيدي القاضي.. وبين يدي كتاب (العلل ومعرفة الرجال)، وفيه فتوى أحمد بن حنبل بجواز مسّ منبر النبي ﷺ، وقد تعجبت من محاولة المحقق الفرار منها – بحسب الأساليب التي تعلمها من ابن تيمية - بقوله: (هذا لمّا كان منبره الذي لامس جسمه الشريف، وأمّا الآن بعد ما تغيّر لا يقال بمشروعية مسّه تبركاً به)

وأنا أعجب من هذا، فلو كان جواز المسّ مختصّاً بالمنبر الذي لامسه جسم النبي الشريف دون ما لم يلامسه كان على الإمام المفتي أن يذكر القيد، ولا يطلق كلامه، حتى ولو افترضنا أنّ المنبر الموجود في المسجد النبوي في عصره كان نفس المنبر الذي لامسه جسم النبي الأكرم، وهذا لا يغيب عن ذهن

---

[1] أُسد الغابة: 1 / 208.

[2] وفاء الوفا:4/1405.

[3] مسند أحمد: 5 / 422، مستدرك الحاكم: 4 / 560.

المفتي، إذ لو كان تقبيل أحد المنبرين نفس التوحيد، وتقبيل المنبر الآخر عين الشرك، لما جاز للمفتي أن يَغفل عن التقسيم والتصنيف.

بالإضافة إلى أنّ ما يفسده هذا التحليل أكثر ممّا يصلحه، وذلك لأنّ معناه أنّ لجسمه الشريف تأثيراً على المنبر ومن تبرّك به، وهذا يناقض التوحيد الربوبي من أنّه لا مؤثر في الكون إلاّالله سبحانه، فكيف يعترف بأنّ لجسمه الشريف تأثيراً في الجسم الجامد، وأنّه يجوز للمسلمين أن يتبرّكوا به عبر القرون؟

3 ـ موقف ابن تيمية من التوسل بالنبي ﷺ

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثالث.

قام الميلاني، وقال: لم يكتف ابن تيمية بقطع تلك العلاقة العاطفية الجميلة للأمة عن نبيها ﷺ، ولم يكتف بمنعها من زيارة نبيها والتبرك به وبآثاره، بل راح يمنع استفادتها منه ﷺ في شؤون حياتها بجعله وسيلتها إلى الله تطبيقا لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 35]، علما منها أنه أقرب الخلق إلى الله، وأنه كما كان في حياته وبين أصحابه يغيث كل من يلتجئ إليه، فهو كذلك في حياته البرزخية التي لا تقل عن حياته الدنيا إن لم تكن أكمل منها، يشفع فيمن استشفع به، ويغيث من استغاث به، لأن وفاته لم تتعد جسده الشريف، أما روحه فهي حية باقية لا أثر للموت فيها.

لكن ابن تيمية وبدعوى الشرك راح يحرم كل ذلك، ويبدع فاعله، بل يرميه بالشرك، فصار رسول الله ﷺ في أذهان أتباعه صنما من الأصنام يحذر منه، لا نبي كريم له جاه عند الله، ومقام محمود، ومنزلة رفيعة.

لقد غفل ابن تيمية[1] عن أن كون الله هو المؤثر والمجيب،

---

[1] () الكلام الوارد هنا في تعليل التوسل مقتبس بتصرف من كتاب (ابن تيمية فكرا ومنهجا) للعلامة جعفر السبحاني، بتصرف.

وأنّه لا تـأثير في عـالم الوجـود إلاّ لـه، لا يعـني أنـه - من بـاب حكمته ولطفه - لم يضـع أسـبابا تحمـل رحمتـه، وتجـري نعمتـه وكرمه وإحسانه عن طريق تلك العلل.

وقد تعلّقت إرادته سبحانه ومشيئته على نزول الرحمة عن طريق العلل والأسباب التي جعلها عللاً إعدادية للمسببات.

ومن تلـك الأسـباب العظمى لرحمتـه مكانـة الرسـول ﷺ وقداسته التي تنزل رحمتُه سبحانه من خلالها، ولا بُعد في ذلك، كما هو الحال في طلب الدعاء والاستغفار من النـبي في حـال حياته، فإنّ دعاء النبي ﷺ أحد أسباب استجابة الدعاء.

ومن قرأ القرآن الكريم وتدبره وجـد هـذا المعـنى واضـحا فيـه.. فهـذه الأرض والنباتـات تعيش بسـبب المـاء النـازل من السماء، فللماء تـأثير في حيـاة الأرض والنبـات، كمـا في قولـه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ أَزْوَاجًـا مِنْ نَبَـاتٍ شَتَّى﴾ [طه: 53]، وبنـاء عليـه لا مـانع من اتّخـاذ ذات النـبي ﷺ وسيلة إلى الله سبحانه حـتى تجـري رحمتـه من خلال دعائـه أو لأجل قداسته وقربه من الله.. فالتوسّل بنـبيّ التوحيـد هـو عين التوحيد، والتعلّق به هو تعلّق بالله سبحانه.

قال القاضي: وعيت هـذا.. ولكن سـؤالا يتبـادر إلى ذهـني، وهو: لماذا لا ندعو اللـه سـبحانه مباشـرة فإنـه أقـرب إلينـا من حبل الوريد.. فلماذا نحتاج الوسائط لندعوه.

قال الميلاني: لم يقل أحد بأننا نحتاج الوسائط لندعو الله.. فالله يمكن دعاؤه مباشرة، ويمكن التوسل إليـه بـالمقربين من عبـاده.. ولا يمكننـا أن نجمـع بين حقـائق القـرآن الكـريم إلا أذا جمعنـا بين قولـه تعـالى: ﴿وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غـافر: 60]، وقولـه: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًـا﴾ [النســاء: 64]، وإلا كنــا من الــذين يؤمنــون ببعض الكتــاب، ويكفرون ببعض.

قال القاضي: هلا وضحت أكثر.

قال الميلاني[1]: اعلم سيدي القاضي أن من مقاصد الدعاء الحضور مع الله، والتحقق بحقائق الإيمان، زيادة على ما يطلبه الداعي من تحقيق أغراضه، ولهذا سن لنا النبي ﷺ تقديم حمد الله والصلاة عليه على ما نطلبه من حاجات، فقد قال ﷺ لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه ﷺ: (عجل هذا)، ثم دعاه، فقال:(إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على النبي، وليدع بعد بما شاء) [2]

ففي تقديم الثناء على الله معرفة بالله، تدعو إلى محبته وإيثاره والثقة فيه، وفي الصلاة على رسول الله ﷺ تقرب منه ومحبة له تصفي القلب وتطهره، فإذا ما صفا القلب بهذه الصورة كان أهلا لقضاء حاجته.

ولهذا سن لنا النبي ﷺ المقدمات الطويلة لبعض الأدعية لتناسبها مع نوع الدعاء، فذكر ﷺ أن سيد الاستغفار أن نقول: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) [3]

فإن مقدمات هذا الدعاء تتناسب تماما مع نوعه، فقد قدم الدعاء بمخاطبة الله التي تستدعي حضور القلب معه، ثم الإقرار بالوحدانية، والتي تدل على تصحيح الإيمان، أو تشير إلى أن الذنب لا يتعلق بالتوحيد، لأن الله وعد أن يغفر غير الشرك، ثم تجديد العبد العهد مع الله بحسب الاستطاعة، ثم الاستعاذة بالله من الذنب وشره، مع الإقرار بنعمة الله، وفي الأخير طلب المغفرة المشفوع بمعرفة أن المتفرد بمغفرة الذنب هو الله تعالى.

وهكذا في كل الأدعية نجد الحقائق الإيمانية التي تناسبها،

1() اقتبسنا بعض المعاني الواردة هنا من كتابنا (أسرار الأقدار)

2() رواه أبو داود الترمذي وصححه.

3() رواه الترمذي.

ومن ذلك قوله ﷺ:(إذا خفت سلطانا أو غيره، فقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلا أنت، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك) [1]، فهذه الصيغة تتناسب تماما مع نوع الحاجة.

ومن هذا الباب كان التوسل برسول الله ﷺ، وهو نوع من الحضور معه، والشعور بمعيته، وله تأثير كبير في ربط القلب بمحبته، وهو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

فالتوسل بذلك، والذي يستحضر فيه قلب السائل رسول الله ﷺ، ثم يستشفع به إلى الله، مع الخلو من اعتقاد الوساطة الشركية، والامتلاء بالشعور بالمنة، يملأ القلب شعورا برسول الله ﷺ، وذلك لا يفيد السائل فقط في تحقيقه ما أراده، بل يزيده قربا من رسول الله ﷺ.

والقول بذلك يحرم الأمة جميعا من هذا الخير الجزيل، فلا يتمتع به على مقتضى هذا القول إلا المصاحبون لرسول الله ﷺ.

زيادة على ذلك، فإنا نتوسل برسول الله ﷺ في كل الأحكام الشرعية، فنرجع إليه لنعلم أحكام الله، بل الله تعالى هو الذي أمرنا بالرجوع إليه مطلقا حيا أو ميتا، كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [النساء: 59]، وليس هناك من يقول بأن هذا خاص بحياته ﷺ.

ثم من قال بأن موت رسول الله ﷺ يغاير حياته، فإن كان الشهداء، وهم أدنى بآلاف آلاف الدرجات من رسول الله ﷺ قد نفى الله موتهم، ونهى عن اعتقاد ذلك، فقال تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران:169)، فكيف برسول الله ﷺ وهو سيد الشهداء والعارفين والنبيين؟

---

[1] () رواه ابن السني عن ابن عمر.

ثم إن رسول الله ﷺ أخبر بأن أعمال أمته تعرض عليه، وأنه يدعو لهم، فقال ﷺ:(حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فـإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم، تعرض علي أعمـالكم فـإن رأيت خيرا حمدت الله تعالى وإن رأيت شرا استغفرت لكم) [1]

فإن شك في هذا الحديث، فقد قال تعالى: وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَى عَـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبة:105)

فإن قيل: بأن هذه رؤية وليست دعاء أو شـفاعة، فنقـول: إن كـان اللـه تعـالى أخـبر بـدعوة الملائكـة ــ عليهم السـلام ـ للمؤمنين، كما قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُـونَ الْعَـرْشَ وَمَنْ حَوْلَـهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْـتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنَـا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَـبِيلَكَ وَقِهِمْ عَـذَابَ الْجَحِيمِ (غـافر: 7)، فـإن كـان هـذا مـع حملـة العرش، فكيف برسول الله ﷺ، ومع أمته الـتي كلـف بهـا، وهـو أحرص الخلق عليها؟

وقـد أخـبر ﷺ أن أعمـال الأحيـاء تعـرض على الأمـوات من الأقربـاء والعشـائر في الـبرزخ، فقـال ﷺ:(إن أعمـالكم تعـرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غـير ذلـك قـالوا: اللهم لا تمتهم حـتى تهـديهم كمـا هديتنا) [2]

فـإن جـاز هـذا للعشـائر والأقـارب، وهم أفـراد من الأمـة، فكيف لا يجوز لرسول الله ﷺ، وهو أحن على أمتـه من آبـائهم، وأمهاتهم، وقد قال تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (الأحزاب: 6)

قال القاضي: فكيـف غـابت كـل هـذه النصـوص والمعـاني على ابن تيمية؟

1() رواه ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلا.

2() رواه أحمد والطيالسي.

قال الميلاني: هي لم تغب سيدي القاضي عنه، وإنما هو الذي أراد أن يغيبها، لأنه يتصور أنه هو الذي يقرر ما يكون الدين، لا النصوص المقدسة التي تقرر ذلك، ولذلك راح يطلق أيقونته المعهودة في تكذيب النصوص التي لا تتناسب مع هواه الأموي، فقال في كتابه الذي خصصه لهذا الغرض (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة): (السؤال به، فهذا يجوّزه طائفة من الناس، ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف، وهو موجود في دعاء كثير من الناس، لكنَّ ما روي عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيفٌ بل موضوع، وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة، إلا حديث الأعمى الذي علَّمه أن يقول: (أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة)، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه، فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته، وهو طلب من النبي ﷺ الدعاء، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول: (اللهم شَفِّعْه فيَّ) ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي ﷺ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي ﷺ ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدْعُ لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله)[3]

أرأيت سيدي القاضي كيف يتلاعب ابن تيمية بالنصوص، فهو يتسرع في تكذيبها، كما يتسرع في تأويلها وصرفها عن معانيها؟

قال القاضي: كلامك هذا يحتاج إلى بينات توضحه.

قال الميلاني: بما أن ابن تيمية أنكر النصوص الدالة على التوسل، وأول حديث الأعمى، فسنذكر لك سيدي القاضي جوابا له ببينتين، نوضح لك في الأولى ورود الأحاديث الكثيرة بالتوسل، ونوضح لك في الثانية تهافت التأويلات التي أول بها حديث الأعمى.

البينة الأولى:

قال القاضي: فهات البينة الأولى.

3() قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (1/ 122)

قال الميلاني: البينة الأولى سيدي القاضي تتعلق بتكذيب ابن تيمية للنصوص الواردة في التوسل، وسنورد لك سبعة أمثلة عن الأحاديث في هذا الباب ترد عليه.

قال القاضي: فهات الحديث الأول.

قال الميلاني: الحديث الأول هو حديث الأعمى الذي لم يستطع ابن تيمية الفرار منه، ولذلك راح يتلاعب به بصنوف التأويل، ونص هذا الحديث هو أن رجلاً ضريراً أتى إلى النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يعافيني، فقال ﷺ: إن شئت دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ وهو خير؟ قال: فادعُهُ، فأمره ﷺ أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه ويُصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبي الرحمة يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى، اللهمّ شفّعه فيّ)، قال الراوي: فوالله ماتفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضُرّ[1].

فنص الحديث واضح في الدلالة على أنّ النبي ﷺ أرشد الأعمى إلى التوسّل به في دعائه الذي علّمه إيّاه:

ففي قوله: (بنبيّك) متعلّق بفعلين: أسألك بنبيّك.. وأتوجّه إليك بنبيّك.. والمسؤول به وما يتوجّه به إلى الله هو نفس النبي الأطهر ﷺ، لا دعاؤه – كما يذكر ابن تيمية - وإلاّ كان عليه أن يقول: اللهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بدعاء نبيّك.

وفي قوله: (محمد نبي الرحمة) دلالة على أنّ المسؤول به نفس النبي ﷺ لا دعاؤه.

وفي قوله (يا محمد إنّي أتوجه بك إلى ربي) دليل على أن الأعمى بحكم هذا الدعاء اتّخذ قداسة النبي ﷺ ومنزلته ونفسه الطيّبة وسيلة لاستجابة دعائه، وأين هو من توسّله بدعائه؟!

1() رواه أحمد في المسند (4 / 138)، والترمذي (تحفة 10 / 132، 133)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 417)، وابن ماجة في السنن (1 /ـ 441) والبخاري في التاريخ الكبير (6 / 210). والطبراني في المعجم الكبير (9 /19)، وفي الدعاء أيضاً (2 /ـ 1289) والحاكم في المستدرك (1 /ـ 313،ـ 519) وصححه وسلمه الذهبي والبيهقي في دلائل النبوة (6 / 166)، وفي الدعوات الكبير.

وبذلك يتّضح أنّ رسول الله ﷺ بشخصه ونفسه الكريمة، هو محور الدعاء كلّه، وليس فيه أي دليل على التوسّل بدعائه ﷺ أصلاً.

وكلّ من يزعم أنّ ذلك الرجل الضرير قد توسّل بدعاء النبي ﷺ لا بشخصه وشخصيّته، فإنّما تغافل عن نصوص الرواية وتجاهلها.

قال القاضي: وعيت هذا.. وستحدثني عنه كما وعدت بتفصيل في المثال الثاني.. فهات الحديث الثاني.

قال الميلاني: الحديث الثاني هو ما رواه المحدثون أنه: لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب دخل عليها رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها فقال: (رحمك الله يا أمي كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة).. ثم دخل رسول الله ﷺ قبرها، فاضطجع فيه ثم قال: (الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين)[1]

وهو حديث حسن، والشاهد فيه واضح على توسله ﷺ بنفسه وبالأنبياء من قبله: (بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي)

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الحديث الثالث.

قال الميلاني: الحديث الثالث هو قوله ﷺ: (حياتي خير لكم، تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض على أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت لكم)

وهو حديث قبله المحدثون واستدلوا به – خلافا لابن تيمية-

1() رواه الطبراني في المعجم الكبير (24/352) وفي الأوسط (1 / 152)، ومن طريقه أبونعيم في الحلية (3 / 121)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (1 / 268)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (9 / 257): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح وثقة ابن حبان، والحاكم، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

فقد قال الحافظ العراقي في (طرح التثريب): إسناده جيد [1]، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح)[2]

وقد ألف فيه العلامة المحقق السيد عبد الله بن الصديق الغماري الحسني جزءا مفيدا سماه (نهاية الآمال، في شرح وتصحيح حديث عرض الأعمال)

والدلالة فيه على شرعية التوسل واضحة، وهي أن رسول الله ﷺ يطلع على أعمال أمته بعد وفاته، ويدعو لهم، على عكس ما ذهب إليه منكرو التوسل من انقطاع صلة الرسول ﷺ بأمته.. وهذا يدل على ما ذكرناه لك سيدي القاضي من أن الأمة جميعا تستفيد من رسول الله ﷺ سواء عايشته في حياته أو لم تعايشه، لأن علاقته بها ممتدة، وليست مرتبطة بحياته الدنيوية.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الحديث الرابع.

قال الميلاني: الحديث الرابع هو قوله ﷺ: (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمع وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك)

وإسناد هذا الحديث من شرط الحسن، وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطي في (المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح)[3] ، والحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ

1() طرح التثريب) (3 / 297)

2() مجمع الزوائد) (9/24.

3() المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح) (ص471_472).

الحافظ المنذري[1]، وغيرهما[2].

فهؤلاء الحفاظ كلهم صححوا أو حسنوا الحديث وقولهم حقيق بالقبول، والوقوف عنده، والإذعان إليه.

ودلالة الحديث على التوسل واضحة، فإن رسول الله ﷺ توسل فيه بحق السائلين على الله، وهو عين التوسل.

قال القاضي: فهات الحديث الخامس.

قال الميلاني: الحديث الخامس هو ما رواه الطبراني في معجمه الكبير: (كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين)[3]

وقد قال الحافظ الهيثمي في سنده: (رواه الطبراني ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح)[4]

والدلالة فيه على التوسل واضحة، لأن معنى الاستفتاح هو التوسل.. فإن كان التوسل بصعاليك المهاجرين شرعيا، فكيف بالتوسل برسول الله ﷺ.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الحديث السادس.

قال الميلاني: الحديث السادس هو ما رواه الطبراني وأبو يعلى في مسنده وابن السني في (عمل اليوم والليلة)، ورواه من بعدهم الكثير من المحدثين مقرين له، داعين إلى العمل به، وهو أن رسول الله ﷺ قال: (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا علي، يا عباد الله احبسوا علي، فإن لله في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم)

1() الترغيب والترهيب (3/273)

2() ومنهم الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الحياء (1/291)، والحافظ بن حجر العسقلاني في أمالي الأذكار (1/272)، وقال الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة (1/99): رواه ابن خزيمة في صحيحه، من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده..

3() الطبراني في معجمه الكبير (1/292)

4() مجمع الزوائد (10/262).

وفي رواية أخرى للحديث: (إذا ضل أحدكم شيئا، أو أراد أحدكم غوثا، وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله أغيثوني، يا عباد الله أغيثوني، فان لله عبادا لا نراهم)

ورواه البزار عن ابن عباس بلفظ: (إن لله تعالى ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصابت أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله أعينوني)، وقد قال الحافظ تعليقا على الحديث: (هذا حديث حسن الإسناد غريب جدا، أخرجه البزار، وقال: لا نعلم يروى عن النبي ﷺ بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد)[1]

وفي هذا الحديث – برواياته المختلفة - نسف لكل ما يدعيه ابن تيمية وأتباعه من اعتبار الاستغاثة بغير الله شرك.. وإلا اعتبرنا رسول الله ﷺ يدعونا في هذا الحديث إلى الشرك.

قال القاضي: لقد ذكرت أن المحدثين أقروا بالحديث، ودعوا إلى العمل به.. فهلا ذكرت دليل ذلك.

قال الميلاني: أجل – سيدي القاضي – فقد روي العمل به عن كثير من كبار المحدثين، ومنهم الإمام أحمد الذي يزعم ابن تيمية أنه ممثل السنة وناصرها، ففي المسائل، وشعب الإيمان للبيهقي: قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج منها اثنتين راكباً، وثلاثة ماشياً، أو ثنتين ماشياً وثلاثة راكباً، فضللت الطريق في حجة وكنت ماشياً فجعلت أقول: يا عباد الله دلونا على الطريق، فلم أزل أقل ذلك حتى وقعت على الطريق، أو كما قال أبي[2].

ومثله أبو القاسم الطبراني، فقد قال بعد أن روى الحديث في معجمه الكبير: وقد جرب ذلك[3].

1() كما في شرح ابن علان (5 / 151).

2() رواه البيهقي في الشعب (2 / 455 / 2) وابن عساكر (3 / 72 / 1).

3() معجمه الكبير (17/117)

وقـال النـووي في الأذكـار بعـد أن ذكـر الحـديث:حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنه انفلتت لـه دابـة أظنهـا بغلـة، وكان يعرف هذا الحديث فقاله، فحبسها الله عليهم في الحـال، وكنت أنا مرةً مع جماعة فانفلتت منا بهيمة وعجزوا عنها فقلتـه فوقفت في الحال بغير سوى هذا الكلام[1].

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول، فإن الحديث خطير؟

قلت: أجل – سيدي القاضـي – وقـد رأيت أتبـاع ابن تيميـة المعاصرين لي يتخبطون عند ذكره، ويتمنـون لـو محـوه ومحـوا أثـره من داودين الإسـلام.. وقـد زاد طينتهم بلـة مـا روي عن الإمام أحمد حوله، لأن ذلك سيزيد الحديث قوة، وقد قرأت عن بعضهم قوله في بعض المنتديات مغتاظا حانقا: (لا يوجد فيه أي نوع من الاستغاثة التي يذكرها الوثنيون المعاصرون ويحتجـون - من ضمن ما يحتجون به هـذا الحـديث- فالحـديث يتضـمن نـداء ملائكة أحياء يسمعون ويجيبون بنص الحديث -إن صح- في أمـر مقـدور عليـه عنـدهم.. بالإضـافة إلى أنـه أمـر مـأذون بـه بنص الحديث.. وليس في الحديث نداء من في القبور ولا الاستشفاع بهم عند اللـه تعـالى ولا جعلهم واسـطات.. وإلا فمـا علاقـة دل الطريـق أو إعـادة الدابـة بالاسـتغاثة وجعـل الوسـائط بين اللـه تعالى وعبـاده؟! ومن الـذي أذن لهم باتخـاذ الشـفعاء إلى اللـه تعالى؟! وأين في الحديث الذبح والنذر لهم أو السجود والتمسح بهم؟! فالحديث لا يؤيد الوثنيين الذين يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله!!)[2]

أرأيت – سـيدي القاضـي – كيـف يتخبطـون، ويتلاعبـون بتأويل النصوص بدل التسليم لها، ومراجعة الأخطاء من خلالها؟

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الحديث السابع.

قال الميلاني: الحديث السابع هو ما ورد من الآثار الكثـيرة

1() الأذكار (ص133)

2() انظر هذا التعليق في ملتقى أهل الحديث، وهو أكبر منتدى للسلفيين.

على أن الصحابة كانوا يتوسلون برسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته، ولو كان ذلك محرما أو بدعـة أو شـركا مـا فعلـوه، وابن تيمية يقر بذلك، بل إنه يبدع ويكفر من يتهمهم بذلك.

ومن الأحـاديث الدالـة على توسـلهم بـه ﷺ في حياتـه الحديث الذي رواه البخاري وغـيره، وهـو أن عمـر بن الخطـاب كـان إذا قُحطُـوا استسـقى بالعبـاس بن عبـد المطلب، فقـال: اللّهم إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبينا فتسـقينا، وإنّـا نتوسّـل إليـك بعمّ نبينا فاسقنا، فيسقون.

فالحديث يدلّ على أنّ إمـام النـاس في صـلاة الاستسـقاء (عمر بن الخطاب)كان نفسه هو الـداعي، وأنّـه كـان يقـول في دعائه ذلك القول: (إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا وإنّا نتوسّل إليك بعم نبينا فاسقنا)

فالإمـام الـداعي يـذكر – بصـراحة ووضـوح - أنّهم كـانوا يتوسّلون بالنبيّ ﷺ نفسه وبذاته وكرامته وقداسته لا بدعائه ﷺ، وأنّهم يتوسّلـون الآن بشخـص العبـاس لا بدعائـه رحمـه اللـه، وعلى ذلك فتقدير كلمة (بدعائه) تخرّص على الغيب.

ويؤيد هذا أنّ ابن حجر قال ضـمن تفسـيره لهـذا الحـديث: (إنّ بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة جاء إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسـول اللـه استسـق لأُمّتـك فـإنّهم قـد هلكـوا، فـأتى الرجل في المنام فقيل له: (ائت عمـر)، الحديث)[1]

وأمّا توسّـل عمـر بشـخص العبـاس دون النـبي ﷺ فوجهـه واضح، وهو أنّه أراد أن يتوسّل بشخص يشارك القوم في الحياة ومشاكلها من الشدّة والضرّاء، قـائلاً بأنّـا إذا لم نكن مسـتحقين لنزول الرحمة، لكن عمّ الرسول ﷺ مسـتحقّ لـذلك، فليشـملنا أيضاً.

ومن الأحاديث الدالة على توسلهم به ﷺ بعد موتـه مـا رواه ابن عساكر، قـال: روى ابن عُيينـة عن إسـماعيل بن أبي خالـد،

1() فتح الباري:2/496.

قـال: خطب عمـر بن الخطـاب أمّ كلثـوم بنت أبي بكـر إلى عائشة فأطمعته، وقـالت: أين المـذهب بهـا عنـك؟ فلمّـا ذهبت قالت الجارية: تزوجيني عمر وقد عرفت غيرته وخشونة عيشه، والله لئن فعلت لأخرجنّ إلى قبر رسول اللـه ﷺ ولأصـيحنّ بـه، إنّما أُريد فتى من قريش يصبّ عليّ الدنيا صـبّاً[1].. وواضـح أنّ الضمير في (به) راجع إلى رسول الله ﷺ.

ومنهـا مـا رواه الطـبري وابن كثـير عن قـرّة بن قيس التميمي، قال: (لا أنس قول زينب ابنة فاطمة حين مرّت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول: يا محمداه، يا محمداه، صلّى عليـك ملائكة السـماء، هـذا الحسـين بـالعراء، مرمّـل بالـدماء، مقطـع الأعضاء..)

البينة الثانية:

قال القاضي: عرفت البينة الأولى، ووعيتهـا.. فهـات البينـة الثانية.

قال الميلاني: البينة الثانية سيدي القاضي تتعلق بمحاولات ابن تيمية المستميتة من أجل تأويل حديث الأعمى الصـريح في التوسل وصرفه عن المقصد منه..

ومن التأويلات التي ذكرها للحـديث حـتى يحـرم الأمـة من الاستفادة منـه ذكـره أنّ التوسّـل كـان في حضـور النـبي لا في غيابه، وبذلك فإنه لا يصح التوسل بالنبي ﷺ في حال غيابـه، مـع أن الحـديث نصّ على أنّ الضـرير توسّـل بـالنبي ﷺ في غيابـه، بشهادة ذيل الحديث حيث يقول الراوي وهو ابن حنيف:(فواللـه ما تفرّقنا وطال بنا الحديث، حـتى دخـل علينـا كـأن لم يكن بـه ضرٌّ)، فإنّ قوله: قـد دخـل علينـا، دال عن أنّ الأعمى قـد ذهب إلى التوضّؤ والصلاة في مكان بعيد عن محضر النبي ﷺ وعمـل بما أمر به النبي ﷺ ثم جاء إليه وقد ذهب ضرّه.

ومن تأويلات ابن تيمية للحديث ذكره أنّ التوسّل كـان في

---

[1]() تاريخ دمشق:25/96.

حياة النبي ﷺ وإن لم يكن في محضره، وبذلك لا يصح عنده التوسل برسول الله ﷺ بعد وفاته، وهذا مخالف للواقع فقد ورد من الروايات ما يدل على أن الراوي للحديث فهم منه شموله لفترة حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته، فقد روى الطبراني عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً كان يختلف على عثمان بن عفان في حاجته، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين وقل: اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي. وتذكر حاجتك ورُح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال:ما كانت لك من حاجّة، فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلّمتَه فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمتُه فيك، ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ... إلى آخر الحديث[1].

ولهذا نجد المحدثين في كتبهم يروونه في الأبواب المرتبطة بالدعاء وصلاة الحاجة، فهكذا ذكره النسائي، وابن السُّني في عمل اليوم والليلة، والترمذي في الدعوات، والطبراني في الدعاء، والحاكم في المستدرك، والمنذري في الترغيب والترهيب، والهيثمي في مجمع الزوائد في صلاة الحاجة ودعائها، والنووي في الأذكار، وابن الجزري في (العدة) في باب صلاة الضرِّ والحاجة، وقد قال الشوكاني فى (تحفة الذاكرين): (وفي هذا الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل مع اعتقاد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنه المعطى المانع ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم

1() المعجم الكبير للطبراني:9/30 و31.

يكن)[1]

بالإضافة إلى هذا – سيدي القاضي – فإن التفريق بين حياة رسول الله ﷺ ووفاته عين الشرك، ذلك أن الله هو الفاعل في الجميع، ورسول الله ﷺ مجرد واسطة، فالتفريق بين الحياة والموت يدل على أن الشخص له من القدرة والتأثير في الحياة ما ليس له في المماة، مع أن الأمر لله جميعا.

بالإضافة إلى ذلك – سيدي القاضي – ما ورد من الأدلة الكثيرة على حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم، ومن ذلك قوله ﷺ: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون)[2] ، وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: (مررت على موسى وهو قائم يصلي في قبره)[3]

أفترى – سيدي القاضي – يتاح لموسى عليه السلام من الكرامة والفضل ما لا يتاح لرسول الله ﷺ.

وقد قال ابن القيم – وهو تلميذ ابن تيمية النجيب - في نونيته عند الكلام على حياة الرسول بعد مماتهم[4]:

والرسل أكمل حالة منه بلا	شك وهذا ظاهر التبيان
فذلك كانوا بالحياة أحق من	شهدائنا بالعقل والبرهان
وبأن عقد نكاحه لم ينفسخ	فنساؤه في عصمة وصيان

1() تحفة الذاكرين (ص 162).

2() رواه البيهقي في حياة الأنبياء (ص15). وأبو يعلى في مسنده (6/147)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (2/44)، وابن عدي في الكامل (2 /ـ 739)، وقال الهيثمي في المجمع (8/ 211): (ورجال أبي يعلى ثقات).

3() مسلم (4/1845)، وأحمد (3 /120) والبغوي في شرح السنة (13 /ـ 351) وغيرهم.

4() (النونية مع شرح ابن عيسى 2 / 160)

ولأجل هذا لم يحل لغـيره منهن واحدة مدى الأزمان
أفليس في هذا دليل أنـــــه حـــي لمن كانت له أذنـــان

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد في الروايات الكثيرة التي يقـر بها ابن تيمية أن النبي ﷺ قد صلى إماماً بالأنبيـاء عليهم السـلام في الإسـراء، وهـذا متـواتر، وكـانوا قـد مـاتوا جميعـاً، وراجعـه موسى عليه السلام في الصـلوات ورأى غـيره في السـماوات، فمن كان هذا حاله فكيف يقال بالتفريق بين حياته وموتـه، وقـد قال ﷺ في الحديث الذي سـقناه لـك سـابقا: (حيـاتى خـير لكم تُحدثون ويُحْـدَثُ لكم، ووفـاتي خـير لكم تعـرض عليَّ أعمـالكم فما رأيت من خير حمدت اللـه عليـه ومـا وجـدت من غـير شـرٍ استغفرت لكم)، وهو حديث صحيح، وقد ذكرنا لك سابقا ما قال الحفاظ عنه.

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: صدق – سـيدي القاضـي – فقـد اسـتعمل ابن تيميـة وأتباعـه كـل الوسـائل ليخرجـوا بالحـديث عن دلالتـه الواضـحة الصريحة، ومن أعجب مـا قـرأت في ذلـك قولـه ابن تيميـة في كتابه (قاعدة جليلة في التوسل والوسـيلة): (ولـو توسـل غـيره من العميـان الـذين لم يـدعُ لهم النـبي ﷺ بالسـؤال بـه لم تكن حالهم كحاله)[1] ، وقـد علـق على هـذا محقـق الكتـاب بقولـه: (وقد عمي بعض الصحابة بعد النبي ﷺ منهم ابن عبـاس وجـابر وكان ابن عباس راغباً في الشفاء، فلو كان التوسل بذات النبي ﷺ مشروعاً لتوسل بذاته ﷺ ولشفي وهـو أولى بـأن يجـاب من هـذا الصـحابي المجهـول بـل عمي عتبـان بن مالـك في حيـاة رسول الله ﷺ وكذلك ابن أم مكتوم)[2]

وقال في موضع آخر: (وكذلك لو كان كل أعمى توسل به،

---

[1] () قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (1/ 123)

[2] () قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (1/ 123).

ولم يدع له الرسول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه)[1]

ومثله قال الألباني: (لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه كما يفهم عامة المتأخرين لكان المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه ﷺ بل ويضمون إليه أحياناً جاه جميع الأنبياء المرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين وجاه كل من له جاه عند الله من الملائكة والإنس والجن أجمعين، ولم نعلم ولا نظن أحداً قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الطويلة بعد وفاته ﷺ إلى اليوم)[2]

وإيراد مثل هذا عجيب، وهو دليل على التلاعب بالنصوص والاحتيال عليها، والجواب عن هذا من جهتين:

الأولى هي أن من الصحابة من رضي بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضى بقسمة الله، بل في حديث الأعمى دليل على استحباب ذلك، وقد ورد في الحديث أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، وبها طيف، فقالت:(يا رسول اللّه إني أصرع، وأتكشف، فادع اللّه أن يشفيني)، فقال:(إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة)، فقالت:(بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع اللّه لي أن لا أتكشف)، فدعا لها فكانت لا تتكشف[3].

1() الرد على البكري، ابن تيمية، 1/268.

2() في توسله (ص 76).

والثانية أن اشتراط تأييد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالآثار الدالة على الفعل به من الصحابة، يكلفنا شططا، بل يلغي أكثر السنن، فلذلك يكتفي العلماء كلهم ـ بما فيهم ابن تيمية ـ بما ورد من الأحاديث، بل يرون أن في خلاف الصحابة للأحاديث دليل على عدم بلوغ الحديث لهم، لا دليلا على ضعف الحديث أو صرفه عن حقيقة معناه، وقد جعل ابن تيمية نفسه ـ هذا المعنى ـ من أسباب الخلاف الفقهي في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بل اعتبره أول الأسباب، فقال:(السبب الأول أن لايكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب قياس أو موجب استصحاب فقد يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث فان الاحاطة بحديث رسول لله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة)[1]

4 ـ موقف ابن تيمية من إحياء المناسبات النبوية

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الرابع.

قام الحنبلي، وقال: لم يكتف ابن تيمية بكل ما ذكرناه لك – سيدي القاضي – من قطع للأمة عن نبيها ﷺ بحجة الخوف عليها من الشرك، وإنما أضاف إلى ذلك تحريمه وتبديعه لما رآه في عهده، ولما سمع به في العهود السابقة من إحياء الأمة للمناسبات التي تربطها بكل الأحداث التي عاشها رسول الله ﷺ ابتداء من مولده الشريف.

ذلك أن الأمة التي اتخذت من رسولها ﷺ قدوة لها في

3() رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

1() مجموع الفتاوى:20/233.

حياتها حاولت أن ترتبط به بمشاعرها كما ارتبطت به بسـلوكها، وكان من أساليبها في ذلك تتبع الأحـداث الكـبرى الـتي مـر بهـا النبي ﷺ وإحيائها والفرح بها.

ومن بين تلـك المناسـبات الـتي كـانت تهتم بهـا اهتمامـا شديدا يـوم مولـد ﷺ، والـذي كـانت تتهيـأ لـه، وتقيم فيـه أنـواع الأفراح، لتحقـق بـذلك في الواقـع قولـه تعـالى: ﴿ وَرَفَعْنَـا لَـكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]

وقد وصف العلماء ما كـانت تظهـره الأمـة في شـهر ربيـع الأول من أفراح وأعمال صالحة، ومنهم القسـطلاني الـذي قـال في كتابـه (المـواهب اللدنيـة): (ولازال أهـل الإسـلام يحتفلـون بشهر مولده ﷺ ويعملون الولائم، ويتصـدقون في لياليـه بـأنواع الصدقات، ويظهـرون السـرور ويزيـدون في المـبرّات ويعتنـون بقـراءة مولـده الكـريم، ويظهـر عليهم من بركاتـه كـلّ فضـل عميم.. فرحم اللّه امرئً اتّخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً)[1]

وقال السـخاوي: (لا زال أهـل الإسـلام من سـائر الأقطـار والمـدن الكبـار يعملـون المولـد، ويتصـدقّون في لياليـه بـأنواع الصـدقات، ويعتنـون بقـراءة مولـده الكـريم ويظهـر عليهم من بركاته كل فضل عميم)[2]

وقال ابن عباد في رسـائله الكـبري: (وأمّـا المولـد فالـذي يظهر لي أنّه عيد من أعيـاد المسـلمين وموسـم من مواسـمهم وكلّ ما يفعـل فيـه ممّـا يقتضـيه وجـود الفـرح والسـرور بـذلك المولـد المبـارك، من إيقـاد الشـمع، وإمتـاع البصـر والسـمع، والتزيّن بلباس فاخر الثياب، وركوب فاره الـدواب، أمـر مبـاحلا ينكر عليه أحد)[3]

1() المواهب اللدنية 1: 27.

2() السيرة الحلبية 1: 137.

3() عنه في: مواهب الجليل للرعيني 3: 319.

وقال أبو شامة: (من أحسن ما أبتدع في زماننا، ما يُفعل كلّ عام في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات، والمعروف، وإظهار الزينة، والسرور، فإنّ ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مُشعر بمحبّته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكر اللّه علي ما منَّ به من إيجاد رسوله ﷺ الذي أرسله رحمةً للعالمين)[1]

وقال السيوطي في رسالته (حسن المقصد في عمل المولد): (عندي أنّ أصل عمل المولد، الذي هو اجتماع النّاس، وقراءة ما تيسّر من القرآن، ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبيّ ﷺ، وما وقع في مولده من الآيات، ثم يمدّ لهم سماطاً يأكلونه وينصرفون من غير زيادة على ذلك، هو من البدع الحسنة التي يُثاب عليها صاحبها، لما فيه من تعظيم قدر النبيّ ﷺ، وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف)[2]

وهكذا وصف الجميع ما كان يجري في الأمة من أفراح وأعمال صالحة احتفالا برسول الله ﷺ، وعرفانا لفضله، وارتباطا شعوريا به.

قال القاضي: فهل أنكر ابن تيمية هذا؟

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي.. وقد حاول أن يجد له قشة يتمسك بها في هذا التحريم والتبديع، كما وجد له قشة في تحريم الزيارة والتوسل وغيرها.

قال القاضي: لا مناص لنا، ونحن في مجلس القضاء أن نسمع كلامه وأدلته.. هذا ما تقتضيه العدالة.

قال الحنبلي: لك ذلك – سيدي القاضي – فقد ذكر قوله

في هذا، والقشة التي تمسك بها فيه في كتابه الخطير الذي سماه (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، والذي أراد من خلاله – كما يذكر – (التنبيه على قاعدة عظيمة

1() السيرة الحلبية 1: 137.

2() . سُبل الهدي والرشاد 1: 367.

من قواعـد الإسـلام وأصـوله، وهي: النهي عن التشـبه بالكفـار، والأمر بمجانبة هديهم على العمـوم، وأعيـادهم على الخصـوص، وبيـان حكمـة ذلـك، ومـا جـاءت بـه الشـريعة من مخالفـة أهـل الكتاب والأعاجم ونحوهم)[1]

أي أنـه يهـدف من خلال قاعـدة وضـعها في مخالفـة غـير المسلمين إلى محاربة كل ما تقتضـيه الفطـرة في هـذا، بقشـة سماها مخالفة أصحاب الجحيم.

مع العلم – سيدي القاضي – أن الذي يقول هذا هـو نفسـه الـذي يـرى جـواز أخـذ العقائـد المرتبطـة باللـه من كتب أهـل الكتاب كما ذكرنا لك ذلك في التهمة السابقة.

بل إنه في كتابه (شرح حديث النزول) استدل باتفاق الأمم على ما يراه من المكان والتجسـيم للـه تعـالى، فقـال: (والأمم كلها ـ عجمها وعربها ـ تقول: إن الله ـ عز وجـل ــ في السـماء، ما تركت على فطرتها، ولم تنقل عن ذلك بالتعليم)[2]

ولم يكتف بذلك، بل راح ينقل نصا من الإنجيل يستدل بــه، ويـذكر أن هنـاك شـواهد غـيره فيـه، فقـال: (وفي الإنجيـل: أن المسيح ـ عليه السلام ـ قال: (لا تحلفوا بالسـماء فإنهـا كرسـي الله. وقال للحواريين: إن أنتم غفرتم للناس فإن أبـاكم ــ الـذي في السماء ـ يغفر لكم كلكم، انظروا إلى طير السـماء، فـإنهن لا يزرعن، ولا يحصدن، ولا يجمعن في الأهواء، وأبوكم الذي في السماء هو الذي يرزقهم، أفلستم أفضل منهن؟) ومثل هـذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب)[3]

قال القاضـي: وعيت هـذا.. وقـد اسـتوعبتموه شـرحا في التهمــة السـابقة.. فـاذكر لنـا قولـه في هـذه المسـألة على

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 34).

2() شرح حديث النزول (ص: 60).

3() شرح حديث النزول (ص: 60).

الخصوص.

قال الحنبلي: لقد عقد ابن تيمية في كتابه ذلك فصلا سماه (الأعياد الزمانية المبتدعة) قال فيه: (وللنبي ﷺ خطب وعهود ووقائع في أيام متعددة: مثل يوم بدر، وحنين، والخندق، وفتح مكة، ووقت هجرته، ودخوله المدينة، وخطب له متعددة يذكر فيها قواعد الدين. ثم لم يوجب ذلك أن يتخذ أمثال تلك الأيام أعيادًا. وإنما يفعل مثل هذا النصارى الذين يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى عليه السلام أعيادًا، أو اليهود، وإنما العيد شريعة، فما شرعه الله اتبع. وإلا لم يحدث في الدين ما ليس منه)[1]

كان في إمكانه – سيدي القاضي – أن يذكر هنا الاستدلال الذي ذكره عندما راح يرشد المسلمين إلى كتب اليهود، ليتعرفوا أكثر على صورة إلههم وأنواع تصرفاته، فقال: (ومما يوضح الأمر في ذلك أن النبي ﷺ قد ظهر وانتشر ما أخبر به من تبديل أهل الكتاب وتحريفهم وما أظهر من عيوبهم وذنوبهم وتنزيهه لله عما وصفوه به من النقائص والعيوب كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181] وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: 64]، فلو كان ما في التوراة من الصفات التي تقول النفاة إنها تشبيه وتجسيم - فإن فيها من ذلك ما تنكره النفاة وتسميه تشبيهاً وتجسيماً بل فيها إثبات الجهة وتكلم الله بالصوت وخلق آدم على صورته وأمثال هذه الأمور- فإن كان هذا مما كذبته اليهود وبدلته كان إنكار النبي ﷺ لذلك وبيان ذلك أولى من ذكر ما هو دون ذلك، فكيف والمنصوص عنه موافق للمنصوص في التوراة، فإنك تجد عامة ما جاء به الكتاب والأحاديث في الصفات موافقاً مطابقاً لما ذكر في التوراة..)[2]

كان في إمكانه أن يقول هنا أيضا: لو أن هذه الأعياد محرمة ومبتدعة لنبه القرآن عليها، وحذر منها.. لكن بما أنه لم

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 123).

2() درء التعارض 7/86- 90.

يفعل، فلا حرج فيها.. لكنه لم يفعل، لأن دينه يبنيه على مزاجه لا على ما تقتضيه الحقائق التي تنطق بها النصوص المقدسة.

قال القاضي: فهل استدل بغير هذا؟

قال الحنبلي: من أراد أن يتلاعب بالنصوص يمكنه أن يجد ما يشاء من الأهواء التي يسميها أدلة.. وقد كان ابن تيمية يستعمل الكثير منها كلما أعوزته الحاجة، ومن ذلك اعتباره للسلف، وأنهم هم الممثلون الوحيدون للدين، فما فعلوه هو الشريعة، وما تركوه لا حظ له من الشريعة حتى لو دلت عليه كل الأدلة، وقد قال يبين ذلك: (ما يحدثه بعض الناس ــ إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام، وإما محبة للنبي ﷺ، وتعظيماً.. فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه لو كان خيراً. ولو كان هذا خيراً محضًا، أو راجحاً لكان السلف أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص)[1]

ولست أدري – سيدي القاضي – من أخبر ابن تيمية أن السلف أكثر تعظيما للرسول ﷺ من الخلف، مع قيام النصوص الكثيرة التي ذكرناها لك، والتي تجعل ذلك للأمة جميعا وليس لزمن دون زمن.

ثم راح يبين أن العلاقة برسول الله ﷺ - كما يمثلها السلف في تصوره – تقتصر على العمل بالشريعة، فقال: (وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره، وإحياء سنته باطناً وظاهراً، ونشر ما بُعِث به، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان. فإن هذه طريقة السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان)[2]

ولسنا ندري العلاقة بين هذا وذاك.. وهل أننا إذا عظمنا

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 123)

2() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 124)

رسول الله ﷺ وأحيينا المناسبات المختلفة المرتبطة به نكون قد قصرنا في العمل بسنته، أم أن الكمال هو الجمع بينها جميعا؟

وحتى لو فرضنا أن الأمة قصرت في سنته، فما المانع أن تكون هذه المناسبات وسيلة لربطها بنبيها، ومن ثم ربطها بدينها؟

قال القاضي: وعيت هذا.. ولكني أريد أدلتكم على مشروعية إحياء هذه المناسبات..

قال الحنبلي: هذه المناسبات – سيدي القاضي – تدخل في صميم الفطرة الإنسانية، والإسلام دين الفطرة، ولم تأت أي شريعة منه تناقضها، ولهذا نجد النصوص القرآنية تعطي قيمة للزمن الذي حدثت فيه الأحداث العظيمة، ومن ذلك ما ورد في بركة وفضل شهر رمضان، والتي عبر عنها قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]

ومنه ما ورد في البركة النازلة في ليلة القدر، وارتباطها بزمن نزول القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 1 - 3]

وهكذا نجد في السنة النبوية الشريفة تعظيمها للأيام التي حصلت فيها الأحداث العظيمة، ومن ذلك ما رواه مسلم في فضل يوم الجمعة عن رسول الله ﷺ قال: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خُلِق آدم وفيه أُدخل الجنّة)

فإذا كان المنشأ في تقديس الأيّام يعود للحدث الإلهي المبارك الذي حصل فيها؛ فلماذا لا يكون يوم مولد النبيّ ﷺ، يوماً مباركاً يستحق التقديس ويكون الإحتفال به من هذا

القبيل؟

خاصة وقد ورد الأمر الإلهي بالتذكير بأيام الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: 5]

ومن المتيقّن [1] أنّ كلّ الأيّام هي أيّام اللّه إلاّ أنّ (أيّام اللّه) قد أُطلقت في الآية الكريمة علي أيّام خاصّة، للدلالة علي عظمتها وأهميتها، فأيّام اللّه هي جميع الأيّام العظيمة في تاريخ الإنسانية. فكلّ يوم سطعت فيه الأوامر الإلهيّة وجعلت بقية الأُمور تابعة لها، هي من أيّام اللّه، وكلّ يوم يفتح فيه فصل جديد من حياة النّاس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبيّ فيه، أو سقوط جبّار وفرعون ـ أو كلّ طاغٍ ـ ومحوه من الموجود فهو من أيّام اللّه.

ومعني ذلك أنّ التذكير بأيّام اللّه أمر مطلوب ومحبوب عند اللّه، إذ لا يختصّ ذلك بموسي وأُمّته، لأن الحوادث الكبري (أيّام اللّه) هي مصاديق لفاعلية سنن اللّه في المجتمعات البشرية، لذا يكون التذكير بها من مهمات الرسول ﷺ، وجانباً من تبليغه وتربيته لأُمّته.

ولم يكن التذكير والوعظ هنا بأيّام اللّه العظيمة كيفما اتّفق، وإنّما التذكير كان مطلوباً بأيّام معروفة في حوادثها. ومعني الآية: عِظهم يا رسول اللّه بالترغيب والترهيب، فالترغيب أن يذكّرهم بما أنعم اللّه عليهم، وعلي مَن كان قبلهم ممّن آمن بالرسل فيما سلف من الأيّام المقرونة بالحوادث العظيمة مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم. وأن أيّام اللّه في حقّ موسي منها أيّام محنة وبلاء، ومنها أيام نعمة وانتصار. وقد ذكر القرآن الكريم بأنّ العلّة من وراء التذكير بهذه الأيام لغرض كونها دروساً وآيات لكل صبار شكور.. فهي ذات نتائج إيجابية وتربوية في طريق إيجاد أناس صابرين وشكورين، فبهم تنجح

[1] () اقتبسنا الكلام الوارد هنا من مقال بعنوان [الإحتفال بمولد النبيﷺ بدعة أم من صميم الدين؟] للشيخ حسين أنصاريان، بتصرف.

الأُمة وتنتصر علي أعدائها وتفوز بتطبيق الرسالة الإلهية بشـكل صحيح.

والأُمة الإسـلامية في تاريخهـا، قـد مـرّت بحـوادث ووقـائع كبري، كانت محلاًّ للعبرة والإتّعاظ، فمنها أيّام نعمة، ومنهـا أيّـام محنة وبلاء، ويوم ولادة النبيّ ﷺ في حياة المسـلمين يُعـد حـدثاً عظيماً ومن الأيّام التي أنعم اللّـه بهـا لا علي المسـلمين فقـط، وإنّما علي الإنسـانية جمعـاء، كبـاقي الأيّـام الـتي تكـون مـورداً للتذكير، فيأتي الإحتفال كممارسة عبادية ومصـداقاً لـذكر النعم التي منَّ اللّه بها علينا وتطبيقاً لمضمون الآية الكريمة.

وقد أشـار القـرآن الكـريم إلى كـون يـوم الـولادة في حيـاة الأنبيـاء يومـاً مهمّـاً ومباركـاً – على عكس مـا يـورد ابن تيميـة وأتباعه الذين يقللون من شأنه، ويعتبرون انتصارات المسـلمين في غزواتهم أفضل منه - فقـد سـلّم اللّـه علي نبيّـه يحـيي في هذا اليوم، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مـريم: 15]، ونبيّنـا أفضـل الأنبيـاء، فلابـدّ أن يكـون يـوم ولادته أشرف من يوم ولادة غيره من الأنبياء، والتذكير به يكون أكبر حجماً وعطاءً من التـذكير بـولادة غـيره، فإنّـه اليـوم الـذي أنعم اللّه به علي البشرية بخاتم الأنبياء علي الإطلاق.

بل قد ورد في النصوص ما يبين أهمية وعظمة اليوم الذي ولد فيـه رسـول اللـه ﷺ، ففي الحـديث الـذي رواه مسـلم في صحيحه في بـاب الصـيام عن أبي قتـادة الأنصـاري قـال: سـئل رسول الله ﷺ عن صوم يـوم الاثـنين فقـال: (ذلـك يـوم ولـدت فيه، وأنزل عليّ فيه)، فهذا الحديث يدل على أنه ﷺ كان يصوم يوم الاثنين لأنه ولد فيه ونبئ فيه.

وقد روى المحدثون[1] أن العباس عم النبي ﷺ رأى أخاه أبـا لهب بعد موته في النوم، فقال له: ما حالك؟ فقال: في النار إلا أنه خفف عني كل ليلة اثنين، وأسقى من بين إصبعيّ هاتين ماءً بقدر هذا- وأشار لرأسي إصبعيه- وإن ذلك بإعتاقي لثويبـة عنـد

1() ورواه عبد الرزاق الصنعاني في (المصنف 7 / 478) والحافظ البيهقي في (الدلائل)

ما بشّرتني بولادة محمد ﷺ وبإرضاعها له.

فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نـزل القـرآن بذمّـه جـوزي في النار لفرحه ليلة مولد محمد ﷺ فمـا حـال المسـلم الموحّـد من أمة محمد ﷺ ببشره بمولده وبذل ما تصـل إليـه قدرتـه في محبته؟ لعمـري إنمـا يكـون جـزاؤه من اللـه الكـريم أن يدخلـه بفضله جنة النعيم.

وقد أنشد الحافـظ شـمس الـدين محمـد بن ناصـر الـدين الدمشقي:

إذا كان هذا كافرٌ جاء ذمّه	وتبّت يداه في الجحيم مخلّدا
أتى أنّه في يوم الاثنين دائماً	يخفّف عنه بالسّرور بأحمدا
فما الظّنّ بالعبد الذي كان عمره	بأحمد مسروراً ومات موحدا

وقال العلامة الحافظ شمس الدين بن الجزري في (عرف التعريف بالمولد الشريف) بعد ذكره قصـة أبي لهب مـع ثويبـة: (فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النـبي ﷺ فمـا حـال المسـلم الموحـد من أمته عليه السلام، يسر ويفرح بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ؟ لعمـري إنمـا يكـون جـزاؤه من اللـه الكـريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم)[1]

وهذه الرؤيا – سيدي القاضي- كانت في زمن كله صـحابة، فلم نسمع بأحد منهم قـال: إنهـا أضـغاث أحلام، بـل يعتـبر هـذا إجماعا سـكوتيا على كـل مـا فيهـا، ولم ينكرهـا أحـد منهم بعـد وفاته، وقد تـداولها التـابعون بـالقبول والاستحسـان ولم نسـمع بأحد منهم اعترض عليها إلى يومنا هذا.

وأمـا من قـال: إن الـرائي والمخـبر هـو العبـاس في حـال

1() انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (1/ 366)

الكفر، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم، فإن هذا قول مردود، ذلك لأنه لم يقل أحد إن الرؤيا من باب الشهادة مطلقا، وإنما هي بشارة لا غير فلا يشترط فيها دين ولا إيمان، بل ذكر الله تعالى في القرآن معجزة يوسف عليه السلام عن رؤيا ملك مصر وهو وثني لا يعرف دينا سماويا مطلقا، ومع ذلك جعل الله تعالى رؤيته المنامية من دلائل نبوة يوسف عليه السلام وفضله وقرنها بقصته، ولو كان ذلك لا يدل على شيء لما ذكرها الله تعالى لأنها رؤيا مشرك وثني لا فائدة فيها لا في التأييد ولا في الإنكار.

بالإضافة إلى هذا، فإن هذا القول يدل على عدم المعرفة بعلم الحديث إذا المقرر في المصطلح أن الصحابي أو غيره إذا تحمل الحديث في حال كفره ثم روى ذلك بعد إسلامه، أخذ ذلك عنه، وعمل به، وانظر أمثلة ذلك في كتب المصطلح لتعرف بعد صاحب هذا القول عن العلم، وإنما الهوى هو الذي حمل المعترض على الدخول فيما لا يتقنه[1].

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول؟

قلت: لا أجد ما أقول لك سيدي القاضي إلا أن ابن تيمية استعمل كل الوسائل التي يحرم بها الأمة من إحياء مثل هذه المناسبات العظيمة والفرح فيها بفضل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: 58]، فالله تعالى أمرنا أن نفرح بالرحمة، والنبي ﷺ أعظم رحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء (107)]، ويؤيد هذا تفسير ابن عباس للآية، فقد قال فيها: (فضل الله العلم، ورحمته محمد ﷺ)، فالفرح به ﷺ مطلوب في كل وقت وفي كل نعمة، وعند كل فضل، ولكنه يتأكد في كل يوم اثنين، وفي كل عام في شهر ربيع الأول لقوة المناسبة وملاحظة الوقت.

وقد عجبت لابن تيمية إذ يعتبر اختلاف الناس في يوم

[1] النجوم الزاهرة في جواز الاحتفال بمولد سيد الدنيا والآخرة لفضيلة الشيخ أحمد عبد الباقي، 43.

مولده من مبررات عدم الاحتفال[2] مع أن هذا لا قيمة له، فلكل قوم أن يحتفلوا باليوم الذي يرونه، وقد تلافت الأمة – بحمد الله - هذا حين جعلت من كل شهر ربيع الأول عيدا لرسولها ﷺ.

رابعا ـ نصب العداوة لآل رسول الله ﷺ

بعد أن ساق العلماء ما ساقوا من البينات والشواهد على محاولة ابن تيمية قطع كل ما تمارسه الأمة من ممارسات يقتضيها ارتباطها الروحي والوجداني مع رسولها ﷺ حتى لو دلت عليها الفطرة الصافية، والشريعة النقية الخالصة، تقدم الميلاني، وقال: بعد أن تبين لكم – سيدي القاضي – من خلال الدليل الثالث موقف ابن تيمية المتشدد من كل ما اتفق عليه العقلاء وأصحاب المواجيد الرفيعة من سلوكات وممارسات دلت عليها النصوص المقدسة، ودلت عليها قبل ذلك العقول السليمة والفطر الطاهرة.. سنبين لك في هذا الدليل كيف استعمل ابن تيمية كل ما أوتي من حيلة ليقطع الأمة عن آل بيت نبيها ﷺ، حتى لا تبقى صلة بينهما إلا تلك المودة الفارغة المملوءة بالمشاعر الجوفاء التي هي أقرب إلى البغض منها إلى المودة.

قال القاضي: هلا وضحت أكثر..

قال الميلاني: اعلم – سيدي القاضي – أننا لو تدبرنا القرآن الكريم، وتدبرنا حديثه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى يعطي أهمية خاصة لذرية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويبين أن لهم مكانة كبيرة لا من الجانب العاطفي فقط، وإنما من جانب العملي أيضا،

2() يقول ابن تيمية في: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 123): مع اختلاف الناس في مولده..

باعتبار أن لهم اصطفاء خاصا، ودورا مهما في الرسالة وحفظها والوفاء بمقتضياتها.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى سنته في ذلـك، فقـال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَـالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُـهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمـران: 33، 34]

ومثلهـا قولهـا تعـالى عنـد تسـميته للأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام المـذكورين في القـرآن الكـريم: ﴿وَتِلْـكَ حُجَّتُنَـا آتَيْنَاهَـا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَـدَيْنَا وَنُوحًـا هَـدَيْنَا مِنْ قَبْـلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِـهِ دَاوُودَ وَسُـلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُـفَ وَمُوسَـى وَهَـارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِـنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَـى وَإِلْيَـاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُـونُسَ وَلُوطًـا وَكُلًّا فَضَّـلْنَا عَلَى الْعَـالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَـائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْـوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)﴾ [الأنعام: 83 - 87]

فهذه الآيات الكريمـة توضـح الصـلات النبسـية بين الأنبيـاء جميعا، وتـبين أن الاجتبـاء الإلهي شـملهم بهـذا الشـكل، ولا راد لاجتباء الله.

ولم يكتف القرآن الكـريم بهـذا التعميم، بـل ذكـر تفاصـيل كثيرة تدل عليه، حتى يترسـخ في الأذهـان أن اصـطفاء الأنبيـاء فضل إلهي باعتباره استمرارا للنهج الرسالي وتوحيدا لمسـيرته حتى لا تنحرف به الطرق والمناهج.

ومن تلك التفاصيل ما ذكره اللـه تعـالى من اصـطفائه لآل إبـراهيم عليهم السـلام في آيـات متعـددة، كقولـه تعـالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَجَعَلْنَـا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُـوَّةَ وَالْكِتَـابَ وَآتَيْنَـاهُ أَجْـرَهُ فِي الـدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِـرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت: 27]

بل إن القرآن الكريم يذكر أن إبراهيم عليه السـلام نفسـه

دعا الله أن يكون الخط الرسالي ممتدا في ذريته، فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124]

وقد صرح القرآن الكريم بانقسام ذريته إلى محسن وظالم في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 112، 113]

بل إن الله تعالى صرح بأن الأمر باق في عقبه، فقال: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28]

بل إن الله تعالى ذكر أن إبراهيم عليه السلام – كما سأل ربه أن يجعل ذريته أئمة للناس - سأله أيضا أن يوفق الناس لمودتهم والاقتداء بهم، فقال – على لسان إبراهيم عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]

ومن تلك التفاصيل ما ذكره الله تعالى من اصطفائه لآل موسى وآل هارون عليهم السلام، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في قصة طالوت: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248]

بل إننا نجد أن الله تعالى اختار هارون أخا موسى عليه السلام ليكون معينا له ووزيرا بناء على طلب موسى، فقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: 35]

ومن تلك التفاصيل ما ذكره الله تعالى من اصطفائه لآل يعقوب عليهم السلام، وهم وإن كانوا جزءا من آل إبراهيم، لكن القرآن خصهم بالذكر عند الحديث عن يوسف بن يعقوب

عليهما السلام في قوله تعـالى: ﴿وَكَـذَلِكَ يَجْتَبِيـكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُـكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْـكَ مِنْ قَبْـلُ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: 6]

وذكرهم عند الحديث عن زكريا عليه السلام حينما دعا الله عز وجـل وطلب الذريـة الصـالحة، فقـال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: 5، 6]

ومن تلك التفاصيل ما ذكره الله تعـالى من اصـطفائه لآل داود عليهم السـلام، والـذين ورد ذكـرهم في قولـه تعـالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُـكْرًا وَقَلِيـلٌ مِنْ عِبَـادِيَ الشَّـكُورُ ﴾ [سـبأ: 13]، وقـد بين القـرآن الكـريم أن سـليمان ورث داود، فقـال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16]

وهكـذا نجـد حـديث اللـه عن اصـطفائه لآل بيت أنبيائـه، وإعطائهم مكانة خاصة، وهي سنته فيهم، ورسول اللـه ﷺ أولى بذلك منهم، إن لم يكن نظيرا لهم فيـه، وقـد قـال تعـالى عنـه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9]

قال القاضي: الآيات واضحة فيمـا ذكـرت.. لكن مـا علاقـة هـذا بمـا نحن فيـه.. فنحن نتحـدث عن ابن تيميـة واتهـامكم لـه بنصب العداوة لآل بيت النبي ﷺ.

قال الميلاني: ما ذكرته لك يصب فيما نحن فيه.. فقـد راح ابن تيمية بسبب نصبه العداء لآل بيت النبي ﷺ يعتبر – قصـد أو لم يقصد- أن كل ما ذكره القرآن الكريم من ذلـك غـير صـحيح، فقد ذكر أن تقديم آل الرسول على غيرهم أثر من آثار الجاهلية في تقـديم أهـل بيت الرؤسـاء، وقـد نص على ذلـك بقولـه في (منهاج السنة) بقوله – بطريقته الخاصـة في التحايـل -: (وإنمـا قال من فيه أثر جاهلية عربية أو فارسية: إن بيت الرسول أحق بالولايـة. لكـون العـرب كـانت في جاهليتهـا تقـدم أهـل بيت

الرؤساء، وكذلك الفرس يقدمون أهل بيت الملـك، فنقـل عمن نقـل عنـه كلام يشـير بـه إلى هـذا، كمـا نقـل عن أبي سـفيان، وصاحب هذا الرأي لم يكن له غرض في علي، بل كان العبــاس عنده بحكم رأيه أولى من علي، وإن قدر أنه رجح عليا، فلعلمــه بأن الإسلام يقدم الإيمان والتقوى على النسب، فأراد أن يجمــع بين حكم الجاهلية والإسلام)[1]

وهذا نص واضح في اعتقـاد ابن تيميـة في كـون تقـديم آل بيت النبوة على غيرهم أثر من آثار الجاهلية.

قال القاضي: بغض النظـر عمـا ذكـره ابن تيميـة في هـذا، هل يمكنك أن تفسر لعقلي سر تقديم الله لذرية من اصطفاهم من أنبيائه ورسله؟

قال الميلاني: لذلك سببان كلاهما يدل عليه العقل والنقل.

قال القاضي: فهات السبب الأول.

قال الميلاني: السبب الأول سيدي القاضي هو نفس السر الذي بسـببه رفض إبليس السـجود لآدم عليـه السـلام، وهـو أن الأمم قـد تخضـع لأنبيائهـا بـدافع المعجـزات الـتي ظهـرت على أيـديهم، ولكنهـا تـرفض أن تخضـع لقـرابتهم من بعـدهم حسـدا وبغيا، كما ذكر القرآن الكريم ذلك، فقال: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ فَقَـدْ آتَيْنَـا آلَ إِبْـرَاهِيمَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًـا عَظِيمًـا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِـهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)﴾ [النساء: 54، 55]

قال القاضي: وعيت هذا.. فما السبب الثاني؟

قال الميلاني: السـبب الثـاني تـدل عليـه الفطـرة، فإنـه لا شك أن أقرب الناس تمثيلا للأنبياء واقتداء بهم وعلما بــأحوالهم هم أهلوهم الذين عاشوا معهم، وهـذا متـوفر لأهـل بيت النبـوة بحكم تـربيتهم في بيت النــبي ﷺ ، ومن ثم الأخــذ عنهم بصــفة مباشرة، ومن ثم انتقال العلم بينهم بالتوالي من المصدر تماماً.

---

[1] () منهاج السنة النبوية (6/ 455)

وأنت ترى سيدي القاضي أن الصانع الحرفي اليدوي الماهر ينقل سر صنعته ومهارته تلك إلى ابنه وحفيده.. والرياضي البارع هو في الغالب ابن رياضي بارع.. والسياسي الحاذق نجده قد تربى ونقل عن والدة نفس المهارة.. حتى الساحر والحاوي ينقل سر مهنته تلك عن أبيه، وبالمثل الطبيب الحاذق والموسقي المبدع والعالم الباحث...فهل هناك شك إذن في منطقية انتقال العلم بكاملة وتمامه من الأجداد إلى الأبناء وإلى الأحفاد.. هل هناك شك بعد هذا في توفر هذا الشرط وتلك الصفة فيهم، وأنهم الأولى بها بتمامها عقلياً ومنطقياً وبديهياً أكثر من غيرهم ممن لم يتربى في بيت النبوة والرسالة والعلم.

ألا يكفى آل البيت شرفا وفضلا أنهم من أسرة النبي ﷺ وهو جدهم الأعظم فأصله أصلهم وأسرته أسرتهم ومنبته منبتهم.. فهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهم ذُرية بعضها من بعض كما كان نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام...

قال القاضي: وعيت هذا.. ولكنه لا يكفي لاتهام ابن تيمية بالنصب.. أريد أدلة أقوى.

قال الميلاني: لك ذلك سيدي القاضي.. وقد حضرنا لك أربعة شواهد تبين لك مدى النصب والعداوة التي يكنها ابن تيمية تجاه آل بيت النبي ﷺ.

قال القاضي: فما أولها، وما وجه الاستدلال به؟

قال الميلاني: أولها هو نصرة ابن تيمية للنواصب، ودفاعه عنهم، وحرصه على تبرئتهم، وبيان فضلهم.. ولا يمكن أن يفعل ذلك إلا من يحمل نصبا وعداوة.. فصديق العدو عدو باتفاق العقلاء.

قال القاضي: صحيح ذلك.. فما الثاني؟

قال الميلاني: الثاني هو تلقين ابن تيمية للنواصب كيفية

مواجهة الموالين لآل البيت، ومناظرتهم.. فهو لم يكتف بمـوالاة النواصب، بل راح يلقنهم الحجج التي يواجهون بها خصومهم.

قال القاضي: فما الثالث؟

قـال الميلاني: الثـالث هـو إنكـاره وتمييعـه لمـا ورد في فضلهم من أحاديث.

قال القاضي: فما الرابع؟

قال الميلاني: الرابع هـو اسـتعماله كـل الوسـائل للتنقيص منهم وتجريحهم.

قال القاضي: وعيت هذا.. وما ذكرته من الشـواهد قـوي.. ولكني أريد إثباتات وبينات تؤكد لي صدق ما تدعونه، وإيـاكم أن تقولوه ما لم يقل، أو تدعوا عليه بما لم يفعل.

قال الميلاني: لك ذلك سيدي.. ونعوذ بالله أن نقوله مـا لم يقل، أو ندعي عليه بما لم يفعل.

1 ـ نصرة النواصب

قال القاضي: فهات الشاهد الأول.

قـام الحنبلي، وقـال: الشـاهد الأول هـو موقـف ابن تيميـة ومدرسته من النواصب الذين أعلنوا عداوتهم لآل بيت النبي ﷺ، فقد كان يستعمل في الدفاع عنهم كل ما يمتلك من قدرة على الجدل، يكافح عنهم، ويختلق لهم الأعذار، ويـبرر عـداءهم لأهـل البيت، ويكـذب لأجلهم أحـاديث الرسـول ﷺ وأئمـة السـلف من الصحابة والتـابعين، ويكـذب لأجلهم حقـائق التـاريخ الـتي تـواتر نقلها وأجمع عليها أهل العلم قاطبة، ويزور لأجلهم حقائق أخرى بأسلوب يتنزه عنه العلماء، بل حتى العوام والبسطاء..

قال القاضي: كل ما ذكرت دعاوى تحتاج إلى بينات.

قـال الحنبلي: البينـات على هـذا أكـثر من أن تعـد، ولكـني سأكتفي بثلاثة منها.

البينة الأولى:

قال القاضي: فهات البينة الأولى.

قـال الحنبلي: البينـة الأولى سـيدي القاضـي هي أن ابن تيمية مع كونه ينتمي إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويعتـبره إماما للسنة، ويثني عليـه كثـيرا، إلا أنـه يخالفـه في موقفـه من النواصب خلافا شديدا، فقد كان الإمـام أحمـد مجـاهراً بفضـائل أهل البيت، وخصوصـا إمـامهم علي بن أبي طـالب، ويـدل على ذلك نقله من فضائل علي في كتابه (فضائل الصحابة)

وقد حدث محمد بن منصور الطوسي قال: كنّا عنـد أحمـد بن حنبـل فقـال لـه رجـل: يـا أبـا عبـد اللـه، مـا تقـول في هـذا الحديث الذي يروى أنّ علياً قال: (أنا قسيم النـار)؟ فقـال: ومـا تنكرون من ذا؟ أليس روينا أنّ النبي ﷺ قال لعلي: (لايحبّـك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق)؟ قلنـا: بلى. قـال: فـأين المـؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار، قـال: فعليٌّ قسيم النار [1].

وقال أيضاً: سمعت أحمد بن حنبل يقول: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي) [2]

وكان موقف الإمام أحمد واضحا من النواصب الذين بارزوا الإمام عليا المحاربـة، وقـد حـدث عبـد اللـه بن أحمـد بن حنبـل قال: سألت أبي فقلت: ما تقول في علي ومعاوية؟ فـأطرق ثم قال:إيش أقول فيهما؟إنّ علياً كان كثير الأعداء، ففتش أعـداؤه له عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربـه وقاتلـه فـأطرَوه كياداً منهم له[3].

وقد علق ابن حجر على هذه الروايـة بقولـه: (فأشـار بهـذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل ممّا لا أصـل لـه، وقـد ورد

1() طبقات الحنابلة:1/320.

2() المستدرك على الصحيحين:3/107.

3() الموضوعات لابن الجوزي: 2/24..

في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصحّ من طريق الإسناد، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه والنسائي وغيرهما)[4]

قال القاضي: لم أفهم ما تقول.. هل تعني أن لابن تيمية سلفا آخر في هذا غير الإمام أحمد؟

قال الحنبلي: أجل سيدي القاضي، فقد كان الحنابلة – مثلما ذكرنا في تهمة التجسيم – على صنفين: أحدهما يميل إلى التجسيم والنصب والصراع والفتنة.. وهم الذين يمثلهم ابن تيمية، ويدافع عنهم.. والثاني: هم من ينتمي إليهم الكثير من الحنابلة، وأزعم أني واحد منهم، ولدينا من الروايات عن الإمام أحمد على أنه كان في صفنا، وأن ابن تيمية ومن معه من النواصب انشقوا عن المنهج الصحيح الذي سنه الإمام أحمد.

وكدليل على ذلك سيدي ما رواه ابن أبي يعلى عن دويزة الحمصي قال: دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل حين أظهر التربيع لعلي، فقلت: يا أبا عبد الله إنّ هذا لطعن على طلحة والزبير. فقال: بئسما قلت، وما نحن وحرب القوم وذكرها. فقلت: أصلحك الله إنّما ذكرناها حين ربّعت بعلي، وأوجبت له الخلافة، وما يجب للأئمة قبله، فقال لي: وما يمنعني من ذلك؟ قال: قلت: حديث ابن عمر؟ فقال لي: عمر خير من ابنه. قد رضي علياً للخلافة على المسلمين، وأدخله في الشورى، وعلي بن أبي طالب قد سمّى نفسه أمير المؤمنين، فأقول أنا: ليس للمؤمنين بأمير؟! فانصرفت عنه[1].

انظر سيدي القاضي كيف استغرب هذا الراوية أن يعتبر أحمد الإمام عليا خليفة من خلفاء المسلمين.. وهو ليس وحيدا في ذلك، فقد كان للكثير من الحنابلة هذه الرؤية التي شجعها ابن تيمية، وزاد طينها بلة، وقد قال ابن الجوزي الحنبلي منكرا على الحنابلة هذا الانشقاق الذي قاموا به على الإمام أحمد:

4() فتح الباري:7/104، باب ذكر معاوية.

1() طبقات الحنابلة:1/393.

(إيــاكم أن تبتــدعوا في مذهبــه مــا ليس منــه، ثم قلتم في الاحاديث، تحمل على ظاهرها وظاهر القدم الجارحة، فإنـه لمـا قيل في عيسى قرأ الاحاديث ونسكت، ما أنكر عليكم أحد، إنما حملكم إياهـا على الظـاهر قـبيح، فلا تـدخلوا في مـذهب هـذا الرجل الصالح السلفي ما ليس منه. ولقد كسيتم هـذا المـذهب شــينا قبيحــا حــتى صــار لا يقــال حنبلي إلا مجســم، ثم زينتم مذهبكم أيضا بالعصبية ليزيد بن معاوية، ولقد علمتم أن صاحب المذهب أجاز لعنته، وقد كان أبو محمد التميمي يقول في بعض أئمتكم: لقــد شــان المــذهب شــينا قبيحــا لا يغســل إلى يــوم القيامة)[1]

قــال القاضــي: إن اســتيعاب هــذه القضــية من الناحيــة القضائية يستدعي توضيحا أكثر.

قـال الحنبلي: لا بـأس سـيدي.. أنت تعلم أن العـادة فيمن ينتمي إلى جهة أو يعظمها أن يلـتزم آراءهـا ويحترمهـا حـتى لـو خرج عنها في بعض المسائل.

قال القاضي: ذلك صحيح.

قـال الحنبلي: لكن ابن تيميـة لم يفعـل هـذا.. فقـد انحـاز انحيازا كليا للمنحرفين عن إمامه، بل لو طبقنا عليـه المقـاييس التي يطبقها على أعدائه لجعلنـا إمامـه في زمـرتهم.. ذلـك أنـه كان يميل ميلا شديدا إلى النواصب من الحنابلة وأهل الحــديث، كما يميل إلى المجسمة منهم.

وإن أذنت لي سـيدي القاضـي سأضـرب لـك مثـالين على ذلك.. يعتبرهما ابن تيمية أئمة من أئمة الدين..

قال القاضي: هات الأول.

قال الحنبلي: المثال الأول[2] هو البربهاري، وهو رجـل من

---

[1] () دفع شبه التشبيه، ص102.

[2] () هذا المثال والتعليقات عليه مقتبسـة بتصـرف من كتـاب: قـراءة في كتب العقائـد - المذهب الحنبلي نموذجاً.

كبار الحنابلة وقد كان يقف موقفا سلبيا من آل البيت، حتى أنه لم يكن يعتبر الإمام عليا خليفة من خلفاء المسلمين، وقد قال في كتابه المسمى زورا وبهتانا (السنة): (والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان)[1]، ومعنى هذا أن علي بن أبي طالب ومن معه من البدريين والمهاجرين والأنصار ليسوا على الجماعة، بينما عد معاوية وفئته الباغية من أعاريب لخم وجذام هم الجماعة بعد صلح الحسن.

وقال أيضا: (واعلم أن الدين العتيق ما كان من وفاة رسول الله ﷺ إلى قتل عثمان بن عفان وكان قتله أول الفرقة وأول الاختلاف فتحاربت الأمة وتفرقت واتبعت الطمع والأهواء والميل للدنيا)[2] انظر – سيدي القاضي – كيف لم يستثن علياً ومن معه من البدريين والمهاجرين والأنصار!! وكانت الأغلبية الساحقة من هؤلاء مع علي وهم الجماعة يومئذٍ وهم الفئة العادلة لا الباغية كما لم يستثن البربهاري المعتزلين من الصحابة أيضاً.

ثم نجد البربهاري بعد هذا يوصي بالآثار وينسى مثل حديث عمار ونحوه وعندما أحس بأن الناس سيتهمونه بالنصب لإيراده من هذا التعصب ضد الإمام علي جاء بقاعدة تسكت هؤلاء، فقال: (واعلم إذا سمعت الرجل يقول: فلان ناصبي فاعلم أنه رافضي)[3]، وبهذا يكون قد قطع الطريق على من تسول له نفسه أن يتهمه بالنصب.. وليته أخبرنا عن الذي نسمعه يقول عن الرجل من أهل السنة: فلان رافضي، هل يكون القائل ناصبياً؟

وقال: (من وقف في عثمان وعلي ومن قدم علياً على

1() السنة للبربهاري ص105.

2() المصدر السابق ص106.

3() المصدر السابق ص118.

عثمان فهو رافضي قد رفض أصحاب رسول الله ﷺ!!)[1]

وهو بهذا يتهم عمار بن ياسر وأبا ذر والمقداد وغـيرهم من الصحابة بأنهم روافض لأنهم كانوا يـرون تفضـيل علي على أبي بكر وعمر فضلاً عن عثمان.

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الثاني.

قال الحنبلي: المثال الثاني[2] هو الخلال الحنبلي صـاحب كتاب السنة[3]، وهو أسـتاذ ابن تيميـة في نصـره معاويـة، فقـد كان يروي الموضوعات والمنـاكير في فضـل معاويـة، حـتى أنـه روى عن أحدهم قوله: كنا عنـد الأعمش فـذكروا عمـر بن عبـد العزيز وعدله، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاويـة؟ قـالوا: في حلمـه، قـال: لا واللـه بـل في عدلـه!!) مـع أن هـذه روايـة مكذوبة، فالأعمش من شيعة الكوفة الذين كانوا يذمون معاويـة ـ بل بعضهم يكفره ــ ولـذلك، فإنـه لن يقـول مثـل هـذا الكلام، بالإضافة إلى أنه لم يدرك معاويـة فقـد ولـد بعـد مـوت معاويـة بسنة فكيف أدركه؟

لقد سـرد الخلال – سـيدي القاضـي - كثـيراً من الآثـار في فضل معاوية، والتي تأثر بهـا ابن تيميـة بعـد ذلـك، كقـولهم: إن معاوية يشبه المهدي.. وأنـه أفضـل من عمـر بن عبـد العزيـز.. وأنه خال المؤمنين، وكاتب الوحي، وأنه أفضل من سـتمائة من أمثال عمر بن عبد العزيز، وأنـه أحلم النـاس، وأنـه أعطى ثلاث سفرجلات ليلقى بهن النبي ﷺ في الجنة، وأنه يـزاحم النـبي ﷺ على باب الجنة...

وهكذا سيدي القاضـي نجـد في الحنابلـة أمثـال محمـد بن عبـد الواحـد الحنبلي المعـروف بغلام ثعلب الـذي كـان لا يبـدأ

1() المصدر السابق ص134.

2() هذا المثال والتعليقات عليه مقتبسـة بتصـرف من كتـاب: قـراءة في كتب العقائـد - المذهب الحنبلي نموذجاً.

3() السنة للخلال (ص437).

درسه إلا بعد قراءة جزء فيه الأحاديث الموضوعة في فضل معاوية، فكان يلزم كل طالب من طلابه بقراءة ذلك الجزء أولاً [1].

البينة الثانية:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات البينة الثانية.

قال الحنبلي: البينة الثانية – سيدي القاضي – دفاعه الشديد عن النواصب الذين بارزوا أهل البيت بالمحاربة وخصوصا معاوية، بل محاولة إضفاء شرعية له ولتصرفاته من خلال الأحاديث النبوية المطهرة مع أنه لا يصح في فضائله ولا حديث واحد، بل الأحاديث الصحيحة على ذمه، وبيان خطورته على الإسلام المحمدي الأصيل.

وقد نقل ذلك الحافظ الذهبي عن إسماعيل بن راهويه الذي كان يقرن بالإمام أحمد[2].

وثبت عن النسائي صاحب السنن، الذي طلب منه أهل دمشق أن يكتب في فضائل معاوية فقال: ما أعرف له فضيلة إلا قوله ﷺ: (لا أشبع الله بطنه)[3]

بل ثبت عن الحسن البصري ما هو أكثر من ذلك، فقد قال: (أربع خصال كن في معاوية، لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخدامه بعده ابنه - يزيد - سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله ﷺ: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، وقتله حجر بن عدي وأصحاب حجر،

1() طبقات الحنابلة (2/68)
2() سير أعلام النبلاء 3: 132.

3() سير أعلام النبلاء 14: 125، وفيات الأعيان 1: 77.

فيا ويلا له من حجر، ويا ويلا له من حجر!!)[1]

بل ثبت في الآثار الكثيرة عن علي وسائر أئمة أهل البيت وابن عباس وأبي ذر وعمار وعبادة بن الصامت وغيرهم في طعن معاوية ما هو أكثر من ذلك بكثير..

ولكن ابن تيمية لم يهتم بذلك كله.. ولم يراعه.. مع أنه يزعم أنه يعظم السلف وأهل الحديث، ويأخذ عنهم.. ولكنه لا يأخذ عنهم إلا ما يشتهيه..

انظر إلى هذا الثناء الذي يثني به على معاوية وقارنه بما يقوله عن الإمام علي، لقد قال: (ومعاوية لم يعرف عنه قبل الإسلام أذى للنبي ﷺ لا بيد ولا بلسان، فإذا كان من هو أعظم معاداة للنبي من معاوية قد حسن إسلامه، وصار ممن يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فما المانع أن يكون معاوية كذلك؟.. وكان من أحسن الناس سيرة في ولايته، وهو ممن حسن إسلامه، ولولا محاربته لعلي وتوليه الملك، لم يذكره أحد إلا بخير، كما لم يذكر أمثاله إلا بخير. وهؤلاء مسلمة الفتح - معاوية ونحوه - قد شهدوا مع النبي عدة غزوات، كغزاة حنين والطائف وتبوك، فله من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله ما لأمثاله، فكيف يكون هؤلاء كفارا وقد صاروا مؤمنين مجاهدين تمام سنة ثمان وتسع وعشر، وبعض سنة إحدى عشرة؟)[2]

ويقول عن اغتصابه للخلافة: (فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خير من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرا منهم في زمن معاوية إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده.. وقد روى أبو بكر الأثرم ورواه ابن بطة.. عن قتادة قال لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم هذا المهدي.. وعن مجاهد قال لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهدي.. أبو هريرة المكتب قال: كنا عند الأعمش فذكروا عمر

1() الكامل في التاريخ 3: 487، تهذيب تاريخ دمشق 2: 384.

2() منهاج السنة النبوية (4/ 429)

بن عبد العزيز وعدله فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية قالوا: في حلمة قال: لا والله بل في عدله.. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق قال لما قدم معاوية فرض للناس على أعطيه آبائهم حتى انتهى الى فأعطاني ثلثمائة درهم)[1]

ثم أخذ يسوق النصوص الكثيرة عن سلفه وذكرهم لفضائل معاوية محاولا كل جهده تصحيح روايتها عنهم، ثم يقول بعدها: (وفضائل معاوية في حسن السيرة والعدل والإحسان كثيرة وفي الصحيح أن رجلا قال لابن عباس هل لك في أمير المؤمنين معاوية إنه أوتر بركعة قال: أصاب إنه فقيه.. وروى البغوي في معجمه بإسناده ورواه ابن بطة من وجه آخر كلاهما عن سعيد بن عبد العزيز عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر عن قيس بن الحارث عن الصنابحي عن أبي الدرداء قال: ما رأيت أحدا أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا يعني معاوية.. فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشاهد بالفقه ابن عباس وبحسن الصلاة أبو الدرداء وهما هما والآثار الموافقة لهذا كثيرة)[2]

انظر سيدي القاضي كيف يجمع الروايات المختلفة، وكيف يلفق بينها مع أنها ليست واردة عن المعصوم، بينما يرد الأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله ﷺ في حق علي، ويؤولها تأويلا بعيدا ليسلم له هذا الصنم الذي راح يعبده من دون الله، يقول: (وقوله: (اللهم انصُر من نصره، واخذل من خذله) خلاف الواقع؛ فإن الواقع ليس كذلك، بل قاتل معه أقوام يوم صفين فما انتصروا، وأقوام لم يقاتلوا معه فما خذلوا كسعد ابن أبي وقاص الذي فتح العراق لم يقاتل معه، وكذلك أصحاب معاوية وبني أمية الذين قاتلوه فتحوا كثيرا من بلاد الكفار ونصرهم الله تعالى.. وكذلك قوله: (والِ من والاه، وعادِ من عاداه) مخالف لأصول الإسلام؛ فإن القرآن قد بين أن

1() منهاج السنة النبوية (6/ 233)

2() منهاج السنة النبوية (6/ 232)

المؤمـــنين مـــع اقتتـــالهم وبغي بعضـــهم على بعض هم إخـــوة مؤمنـون.. فكيـف يجـوز أن يقـول النـبي ﷺ للواحـد من أمتـه: (اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه) والله تعالى قـد أخـبر أنـه ولي المؤمـنين والمؤمنـون أوليـاؤه وأن بعضـهم أوليـاء بعض، وأنهم إخوة وإن اقتتلوا وبغى بعضهم على بعض)[1]

ولم يكتف بذلك، بل راح يشكك في خلافة أمـير المؤمـنين علي، فقال: (إن النزاع في الإمامة لم يظهر إلا في خلافة علي، وأما على عهد الخلفاء الثلاثة فلم يظهر نـزاع إلا مـا جـرى يـوم السقيفة)[2]

ويقـول مشـككا في صـحة خلافتـه: (أهـل العلم بالحـديث يروون في صحة خلافة الثلاثة نصوصا كثيرة بخلاف خلافــة علي فإن نصوصها قليلـة، فـإن الثلاثـة اجتمعت الأمـة عليهم فحصـل بهم مقصود الإمامـة وقوتـل بهم الكفـار، وفتحت بهم الأمصـار، وخلافـة علي لم يقاتـل فيهـا كفـار، ولا فتح مصـر، وإنمـا كـان السيف بين أهل القبلة)[3]

ويقـــول: (ومن المعلـــوم بالضـــرورة أن حـــال اللطـــف والمصلحة التي كان المؤمنون فيهـا زمن الخلفـاء الثلاثـة أعظم من اللطف والمصلحة الـذي كـان في خلافـة علي زمن القتـال والفتنة والافتراق)[4]

ويقول: (ولم يكن في خلافة علي للمؤمـنين الرحمـة الـتي كانت في زمن عمر وعثمان، بل كانوا يقتتلـون ويتلاعنـون، ولم يكن لهم على الكفار سـيف بـل الكفـار كـانوا قـد طمعـوا فيهم وأخذوا منهم أموالا وبلادا)[5]

1() مجموع الفتاوى: (13/ 1237).
2() منهاج السنة النبوية (1/ 119)
3() منهاج السنة النبوية (1/ 546)
4() منهاج السنة النبوية (3/ 379)
5() منهاج السنة النبوية (4/ 485)

بل إنه عند مقارنته بين خلافة علي ومعاوية يفضل خلافة معاوية، فيقول: (فقد انتظمت السياسة لمعاوية ما لم تنتظم لعليّ؛ فيلزم أن تكون رعية معاوية خيراً من رعية عليّ، ورعية معاوية شيعة عثمان وفيهم النواصب المبغضون لعليّ، فتكون شيعة عثمان والنواصب أفضل من شيعة عليّ)[1].

بل إنه تجاوز ذلك، فراح يرمي بالتشيع كل من تكلم في معاوية، وأنت تعلم أن التشيع عنده مساو للكفر، بل هو أشد عنده من الكفر، لقد قال عن الحاكم: (هذا مع أن الحاكم منسوب إلى التشيع، وقد طلب منه أن يروي حديثا في فضل معاوية، فقال: ما يجيء من قلبي ما يجيء من قلبي، وقد ضربوه على ذلك فلم يفعل، وهو يروي في الأربعين أحاديث ضعيفة، بل موضوعة عند أئمة الحديث، كقوله بقتال الناكثين، والقاسطين)[2]

مع أن الحاكم من كبار المحدثين الذين شهدت لهم الأمة بذلك، وقد وصفه الذهبي مع تشدده مع الرجال، فقال: (وكان من بحور العلم، مع الفهم، والإتقان، والبصر، ونقد الرجال، وحسن التأليف. جال في طلب العلم في خراسان، والحجاز، ومصر، والعراق، والجزيرة، والشام، والثغور، ثم استوطن مصر، ورحل الحفّاظ إليه، ولم يبقَ له نظير في هذا الشأن)

ونقل كلمات الحفّاظ وأئمّة الجرح والتعديل في حقّه، فكان مما نقله عن الحافظ أبي علي النيسابوري أنه وصفه بـ: (الإمام في الحديث بلا مدافعة)، وعن الحافظ ابن طاهر عن سعد بن علي الزنجاني أنه قال عنه: (إن لأبي عبد الرحمن شرطاً في الرجال أشدّ من شرط البخاري ومسلم)، وعن أبي عبد الله بن مندة أنه قال: (الذين أخرجوا الصحيح وميَّزوا الثابت من المعلول، والخطأ من الصواب أربعة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأبو عبد الرحمن النسائي)، بل إن الذهبي نفسه قال عنه: (ولم يكن أحد في رأس الثلاثمئة أحفظ من النسائي، هو

1() منهاج السنة النبوية، : ج5، ص466.

2() منهاج السنة النبوية (7/ 373)

أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم، ومن أبي داود، ومن أبي عيسى، وهو جارٍ في مضمار البخاري وأبي زرعة)

لكن كل هذه الشهادات لم تنفعه عند ابن تيمية ما دام يحمل ذلك الموقف من معاوية.. وكأن معاوية هو قسيم الجنة والنار.. وكأن ما ورد في الأحاديث من رمي من يبغض عليا بالنفاق قالها رسول الله ﷺ في معاوية ولم يقلها في علي.

البينة الثالثة:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات البينة الثالثة.

قال الحنبلي: البينة الثالثة - سيدي القاضي - هي مبالغة ابن تيمية الشديدة في تعظيم المحاربين لآل بيت النبي ﷺ من أمثال يزيد وغيره من الأمويين حتى أنه يذكر أن رسول الله ﷺ بشر بهم.. بل بشرت بهم الكتب المقدسة.

ففي سياق حديثه عن مآثر بني أمية وظهور الإسلام وشرائعه في زمن دولتهم ومنَعة المسلمين وهيبتَهم في ظلالها يقول: (وهذا تصديق بما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: (لا يزال هذا الدين عزيزاً ما تولّى اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش)، وهؤلاء الاثنا عشر خليفة هم المذكورون في التوراة، حيث قال في بشارته إسماعيل: (وسيلد اثني عشر عظيماً)، ومن ظنّ أن هؤلاء الاثني عشر هم الذين تعتقد الرافضة إمامتهم فهو في غاية الجهل)[1]

بل إنه صرح بأسمائهم، فقال تعليقا على الحديث السابق: (وهكذا كان، فكان الخلفاء: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ثم تولى من اجتمع الناس عليه وصار له عزّ ومنعة: معاوية، وابنه يزيد، ثم عبد الملك وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، وبعد ذلك حصل في دولة الإسلام من النقص ما هو باقٍ إلى الآن؛ فإنّ بني أمية تولّوا على جميع أرض الإسلام، وكانت الدولة في زمنهم عزيزة)[2]

1() منهاج السنة النبوية، ج8، ص240-241.

وهو يعتبر بيعة يزيد بيعة شرعية، وخلافته شرعية مع أن كبار الصالحين قاموا في وجهه وعارضوه، وعلى رأسهم سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين، لكن ابن تيمية لم يبال بذلك كله، بل يذهب – كعادته في تلفيق الإجماعات - إلى أن كون يزيد ملك جمهور المسلمين وخليفتهم في زمانه أمر معلوم لكلّ أحد، ومن نازع في ذلك فهو مكابر، قائلاً: (إن يزيد بويع بعد موت أبيه معاوية، وصار متولّياً على الشام ومصر والعراق وخراسان وغير ذلك من بلاد المسلمين)[1]

والعجيب أنه يقول هذا في شأن يزيد في الحين الذي يغمز فيه في خلافة الإمام علي بالقول إن خلافته كانت في زمن فتنة واختلاف بين الأمّة، لم تتفق الأمة فيه لا عليه ولا على غيره كما ذكرنا ذلك سابقا[2].

وهو لا يكتفي بتصحيح ملكه على الناس عنوة وظلما واستبدادا، بل يحاول أن يرد كل ما تواتر من الأدلة على فسوقه وفجوره وانحلاله وبعده عن الدين بل محاربته له، فعند حديثه عن عجز الشيعة - كما يدّعي- عن إثبات إيمان عليّ وعدالته إلا إذا صاروا من أهل السنَّة يقول: (فإن احتجُّوا بما تواتر من إسلامه وهجرته وجهاده، فقد تواتر ذلك عن هؤلاء [الخلفاء الثلاثة]، بل تواتر إسلام معاوية ويزيد وخلفاء بني أمية وبني العباس، وصلاتهم وصيامهم وجهادهم للكفار)[3]

بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقرّر أن يزيد مغفور له بدعوة من رسول الله ﷺ يقول: (وقد استفاضت السنن النبوية بأنه يخرج من النار قوم بالشفاعة، ويخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.. وقد ثبت في صحيح البخاري

2() منهاج السنة، ج8، ص238.

1() منهاج السنة النبوية، ج4، ص522.

2() انظر: المنهاج، ج2، ص62.

3() ابن تيمية، منهاج السنة، : ج2، ص62.

عن النبي ﷺ قال: (أوّل جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم)، وأوّل جيش غزاهم كان أميرهم يزيد) [1]

بل إنه لأجل نصرة يزيد راح يدافع عن جريمة من الجرائم الكبرى التي فعلها يزيد، وهي وقعة الحرة، فقد قال عنها - وهو في سياق الردّ على استدلال ابن المطهر الحلّي بقوله ﷺ: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) على أهمية مسألة الإمامة -: (إنما الحديث المعروف مثل ما روى مسلم في صحيحه عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد ابن معاوية، فقال: أطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ يقوله: سمعت يقول: (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)، وهذا حدّث به عبد الله بن عمر لعبد الله بن مطيع بن الأسود لما خلعوا طاعة أمير وقتهم يزيدٌ، مع أنه كان فيه من الظلم ما كان، ثم إنّه اقتتل هو وهم، وفعل بأهل الحرّة أموراً منكرة، فعلم أن الحديث دلّ على ما دلّ عليه سائر الأحاديث الآتية من أنه لا يخرج على ولاة أمور المسلمين بالسيف، وإن من لم يكن مطيعاً لولاة الأمور مات ميتة جاهلية) [2]

مع العلم أن الذين وصفهم ابن تيمية بأن (من قتلهم يزيد في تلك الواقعة ماتوا ميتة جاهلية) كانوا من الصحابة وأولاد الصحابة الذين يتاجر بهم ابن تيمية متى شاء، ويبيعهم متى شاء.

وليته وقف عند ذلك الحد، بل إنه راح يطبق موقفه هذا على أعظم جريمة فعلها يزيد، بل أعظم جريمة وقعت في هذه الأمة، وهي قتل الإمام الحسين وأهل بيته الطاهرين، يقول في ذلك: (وإنْ أراد [ابن المطهر] باعتقادهم [أهل السنّة] إمامة يزيد، أنهم يعتقدون أنه كان ملك المسلمين وخليفتهم في زمانه

[1] () منهاج السنة النبوية، ج4، صص 571-572.

[2] () منهاج السنة النبوية، ج1، ص111.

وصاحب السيف، كما كان أمثاله من خلفاء بني أمية وبني العباس، فهذا أمر معلوم لكل أحد، ومن نازع في هذا كان مكابراً، فإن يزيد بويع بعد موت أبيه معاوية، وصار متولّياً على أهل الشام ومصر والعراق وخراسان وغير ذلك من بلاد المسلمين، والحسين (رضي الله عنه) استشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستّين، وهي أوّل سنة في ملك يزيد، والحسين استشهد قبل أن يتولّى على شيء من البلاد)[1]

انظر سيدي القاضي كيف يسوق تهمته للإمام الحسين بتلك الحيلة وذلك الدهاء، لقد ذكر أن (الحسين استشهد قبل أن يتولّى على شيء من البلاد)، فإذا ضممنا إليها ادعاءه أن (المتولّي على جميع بلاد المسلمين حين استشهد الحسين هو يزيد) نستنتج نتيجة واضحة، وهي: (أن الحسين خرج على وليّ الأمر والخليفة الشرعي في زمانه)

أما الحكم الشرعي لمن يفعل ذلك فهذا يمكن معرفته من النصوص الكثيرة التي حاول فيها ابن تيمية أن يؤسّس فكرياً إلى أن الخارج على وليّ الأمر هو صاحب فتنةٍ يشقّ بفعله عصا المسلمين ويفرِّق جماعتهم، وموته في هذا الطريق هو ميتة جاهلية.

وهو يصرّح في مواضع كثيرة من كتبه على أنّه قد حصل من الفساد في خروج الإمام الحسين ما لم يكن ممكناً أن يحصل لو قعد في بلده وجنَّب المسلمين ما يحصل لهم بخروجه من نقص الخير، والشرّ العظيم.

ومن ذلك قوله: (ولهذا لما أراد الحسين أن يخرج إلى أهل العراق، لمّا كاتبوه كتباً كثيرة، أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر وابن عباس وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن لا يخرج، وغلب على ظنِّهم أنه يُقتل، حتى أن بعضهم قال: أستودعك الله من قتيل، وقال بعضهم: لولا الشفاعة لأمسكتك ومنعتك عن الخروج. وهم في ذلك قاصدون نصيحته طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين. والله ورسوله

1 () منهاج السنة النبوية، ج4، ص522.

إنما يأمر بالصلاح لا بالفساد، لكن الرأي يصيب تارة ويخطئ تارة، فتبيَّن أن الأمر على ما قاله أولئك، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا.. وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشرّ بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك، وصار ذلك سبباً لشرّ عظيم. وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن)[2]

2 ــ تلقين النواصب كيفية مواجهة الموالين للعترة:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثاني.

قام الميلاني، وقال: الشاهد الثاني ـ سيدي القاضي ــ هو أن ابن تيمية ومدرسته لم يكتفوا بذلك الدفاع المستميت عن النواصب.. بل ضموا إليه ذكر مقولاتهم والاستشهاد بها والدفاع عنها.. بل وإضافة المزيد من الدعم لها.. وهو ما لم يجرأ على تسطيره كل الأمة ما عدا ابن تيمية ومدرسته من السابقين واللاحقين.

قال القاضي: هذه دعوى فما البينات الدالة عليها؟

قال الميلاني: البينات الدالة على ذلك كثيرة جدا سيدي القاضي، فكل كتابه [منهاج السنة] تنظير للنصب، وذكر لمقولات النواصب، بل إضافة المزيد من التنظير والتأكيد لها.. وقد أقر المتأخرون من أتباعه ـ عند دفاعهم عنه ـ بهذا..

فهذا أحدهم يبرر ذلك بقوله: (إن المتأمل لهذه الظروف التي عاشها شيخ الإسلام أمام هذا الكتاب يجد أن له خيارين.. الخيار الأول: وهو المشهور عند العلماء وأصحاب التآليف: هو أن يقوم شيخ الإسلام بدفع الطعون عن الصحابة ببيان كذبها وأنها مختلقة، فكلما رمى الرافضي بشبهة أو طعن على صحابي قام شيخ الإسلام بردها أو برده بكل اقتدار لينفيه عن هذا الصحابي. هذا هو الخيار الأول، وهو في ظني الخيار الذي كان الحافظ ابن حجر يريد لشيخ الإسلام أن يسلكه مع

2() منهاج السنة النبوية (4/ 530)

الرافضي، وهو خيار جيد ومقبول لو كان الخصم غير الرافضي.. الخيار الثاني: وهو الذي اختاره شيخ الإسلام لأنه يراه ذا مفعول فعال في مواجهة أكاذيب الروافض وغلوهم المستطير وهذا الخيار يرى أن أجدى طريقة لكف بأس الروافض هو مقابلة شبهاتهم بشبهات خصومهم من الخوارج والنواصب، أي مقابلة هذا الطرف بذاك الطرف المقابل له، ليخرج من بينهما الرأي الصحيح الوسط، فكلما قال الرافضي شبهة أو طعناً في أحد الخلفاء الثلاثة – أبي بكر وعمر وعثمان –قابلها شيخ الإسلام بشبهة مشابهة للنواصب والخوارج في علي.. فهذه (حيلة) ذكية من شيخ الإسلام ضرب بها النواصب بالروافض ليسلم من شرهم جميعاً، وهذا ما لم يفهمه أو تجاهل عنه من بادر باتهامه بتلك التهمة الظالمة) [1]

قال القاضي: وعيت هذا، فهلا ضربت لي أمثلة عن هذا.

قال الميلاني: سأضرب لك أربعة أمثلة على ذلك، وهي كافية لبيان مدى حقده على الإمام علي، ونصرته للنواصب في ذلك.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الميلاني: المثال الأول هو قوله: (فإذا قالت له الخوارج الذين يكفرون علياً أو النواصب الذين يفسقونه: إنه كان ظالماً طالباً للدنيا، وإنه طلب الخلافة لنفسه وقاتل عليها بالسيف، وقتل على ذلك ألوفاً من المسلمين حتى عجز عن انفراده بالأمر، وتفرق عليه أصحابه وظهروا عليه فقاتلوه، فهذا الكلام إن كان فاسداً ففساد كلام الرافضي في أبي بكر وعمر أعظم، وإن كان ما قاله في أبي بكر وعمر متوجهاً مقبولاً فهذا أولى بالتوجه والقبول)[2]

1() ابن تيمية ليس ناصبيا، ص23.

2() منهاج السنة النبوية (2/ 58)

وبعد أن نقل هذه التهم الخطيرة في حق الإمــام علي راح ينتصـر لهـا بكـل مـا أوتي من قـوة، فقـال: (لأنـه من المعلـوم للخاصة والعامـة أن من ولاه النـاس باختيـارهم ورضـاهم، ومن غير أن يضـرب أحـداً لا بسـيف ولا عصـا، ولا أعطى أحـداً ممن ولاه مالاً، واجتمعوا عليه فلم يول أحـداً من أقاربـه وعترتـه، ولا خلف لورثته مالاً من مال المسلمين، وكان لـه مـال قـد أنفقـه في سبيل الله فلم يأخذ بدله، وأوصى أن يرد إلى بيت مالهم ما كان عنـده لهم.. ثم مـع هـذا لم يقتـل مسـلماً على ولا يتـه، ولا قاتل مسلماً بمسلم، بل قاتل بهم المرتدين عن دينهم والكفـار، حـتى شـرع بهم في فتح الأمصـار، واسـتخلف القـوي الأمين العبقـري الـذي فتح الأمصـار ونصـب الـديوان وعمـر بالعـدل والإحسان، فـإن جـاز للرافضـي أن يقـول: إن هـذا كـان طالبـاً للمال والرياسة، أمكن الناصبي أن يقول: كان علي ظالماً طالباً للمـال والرياسـة، قاتـل على الـولاية حـتى قتـل المسـلمون بـعـضـهم بـعـضـاً ولـم يـقاتل كافراً، ولم يحصل للمسـلمين في مدة ولايته إلا شر وفتنة في دينهم ودنياهم.. فإن جاز أن يقـال: علي كان مريداً لوجه الله، والتقصير من غيره من الصـحابة، أو يقال: كان مجتهداً مصيباً وغـيره مخطئـاً مـع هـذه الحـال، فـأن يقال: كان أبو بكر وعمر مريدين وجه اللـه مصـيبين، والرافضـة مقصرون في معرفة حقهم، مخطئون في ذمهم بطريـق الأولى والأحـرى، فـإن أبـا بكـر وعمـر كـان بعـدهما عن شـبهة طلب الرياسة والمال أشـد من بعـد علي عن ذلـك، وشـبهة الخـوارج الذين ذموا علياً وعثمان وكفروهمـا أقـرب من شـبهة الرافضـة الـذين ذمـوا أبـا بكـر وعمـر وعثمـان وكفـروهم، فكيـف بحـال الصحابة والتابعين الذين تخلفوا عن بيعته أو قـاتلوه؟ فشـبهتهم أقوى من شبهة من قدح في أبي بكر وعمر وعثمان، فإن أولئك قالوا: ما يمكننا أن نبايع إلا من يعدل علينا ويمنعنا ممن يظلمنـا ويأخـذ حقنـا ممن ظلمنـاه، فـإذا لم يفعـل هـذا كـان عـاجزاً أو ظالماً، وليس علينا أن نبايع عاجزاً أو ظالماً) [1]

المثال الثاني:

1() منهاج السنة النبوية (2/ 59)

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الميلاني: لم يكتف ابن تيمية بكل تلك التهم التي صاغها على لسان النواصب، والتي تتهم عليا في فترة توليه الخلافة، والتي تعرض فيها لكل صنوف الأذى لحماية الدين من التحريف والتبديل.. بل راح يتهمه ـ على لسانهم ـ بما هو أخطر من ذلك.. وهو ما يتعلق بثبوت إيمانه وعدالته.. فقد قال في ذلك: (ومما يبين هذا أن الرافضة تعجز عن إثبات إيمان على وعدالته مع كونهم على مذهب الرافضة، ولا يمكنهم ذلك إلا إذا صاروا من أهل السنة، فإذا قالت لهم الخوارج وغيرهم ممن تكفره أو تفسقه: لا نسلم أنه كان مؤمناً بل كان كافراً أو ظالماً – كما يقولون هم في أبي بكر وعمر – لم يكن لهم دليل على إيمانه وعدله إلا وذلك الدليل على إيمان أبي بكر وعمر وعثمان أدل، فإن احتجوا بما تواتر من إسلامه وهجرته وجهاده، فقد تواتر ذلك عن هؤلاء، بل تواتر إسلام معاوية ويزيد وخلفاء بني أمية وبني العباس، وصلاتهم وصيامهم وجهادهم للكفار، فإن ادعوا في واحد من هؤلاء النفاق أمكن الخارجي أن يدعي النفاق، وإذا ذكروا شبهة ذكر ما هو أعظم منها، وإذا قالوا ما تقوله أهل الفرية من أن أبا بكر وعمر كانا منافقين في الباطن عدوين للنبي ﷺ أفسدا دينه بحسب الإمكان، أمكن الخارجي أن يقول ذلك في علي ويوجه ذلك بأن يقول: كان يحسد ابن عمه والعداوة في الأهل وأنه كان يريد فساد بينه فلم يتمكن من ذلك في حياته وحياة الخلفاء الثلاثة، حتى سعى في قتل الخليفة الثالث وأوقد الفتنة حتى تمكن من قتل أصحاب محمد وأمته بغضاً له وعداوة، وأنه كان مباطناً للمنافقين الذين ادعوا فيه الإلهية والنبوة، وكان يظهر خلاف ما يبطن لأن دينه التقية، فلما أحرقهم بالنار أظهر إنكار ذلك، وإلا فكان في الباطن معهم، ولهذا كانت الباطنية من أتباعه، وعندهم سره، وهم ينقلون عنه الباطن الذين ينتحلونه)[1]

وهو يؤكد هذا الكلام الخطير بكل صنوف التأكيد حتى أنه يعقب عليه بقوله: (ويقول الخارجي مثل هذا الكلام الذي يروج

[1] منهاج السنة النبوية (2/ 59)

على كثير من الناس أعظم مما يروج كلام الرافضة في الخلفاء الثلاثـة، لأن شـبه الرافضـة أظهـر فسـاداً من شـبه الخـوارج والنواصب، والخوارج أصح منهم عقلاً وقصداً، والرافضـة أكـذب وأفسد ديناً) [1]

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الميلاني: المثال الثالث سيدي القاضي هو انتصـار ابن تيميـة للنـاكثين لبيعـة الإمـام علي، على الـرغم ممـا ورد في الأحاديث النبوية من التحذير منها، فقد قال: (فإن جاز للرافضي أن يقدح فيهما ـ أي في طلحة والزبير ـ يقول: بأي وجـه تلقـون رسول الله ﷺ مع أن الواحد منا لو تحدث مع امرأة غـيره حـتى أخرجها من منزلها وسافر بها، مـع أن ذلـك إنمـا جعلهـا بمنزلـة الملكة التي يـأتمر بأمرهـا ويطيعهـا، ولم يكن إخراجهـا لمظـان الفاحشة، كان للناصبي أن يقول: بأي وجه يلقى رسول اللـه ﷺ من قاتل امرأته وسلط عليهـا أعوانـه حـتى عقـروا بهـا بعيرهـا، وسقطت من هودجها، وأعداؤها حولهـا يطوفـون بهـا كالمسـبية التي أحاط بها من يقصد سباءها؟ ومعلوم أن هذا مظنة الإهانـة لأهـل الرجـل وهتكهـا وسـبائها وتسـليط الأجـانب على قهرهـا وإذلالها وسبها وامتهانها، أعظم من إخراجها من منزلهـا بمنزلـة الملكة العظيمة المبجلـة الـتي لا يـأتي إليهـا أحـد إلا بإذنهـا، ولا يهتك أحد سترها، ولا ينظر في خدرها)[2]

وهكـذا راح يـدافع عن خروجهـا، وعمن أخرجهـا في نفس الوقت الذي يكيل فيه التهم للإمام علي وأصـحابه الـذين راحـوا يحـافظون على وحـدة الأمـة ويواجهـون النـاكثين والمـارقين والقاسـطين الـذين ورد النص بحـربهم للإمـام علي، وبـأن عليـا يؤدي ما أخبره رسول الله ﷺ أنه يحصل له.

ففي الحـديث عن أبي سـعيد الخـدري قـال: كنـا جلوسـا

1() منهاج السنة النبوية (2/ 59)

2() منهاج السنة النبوية (4/ 354)

ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج إلينا قد انقطع شسع نعلـه، فـرمى بـه إلى علي، فقـال: (إن منكم رجلا يقاتـل النـاس على تأويـل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، قال أبو بكر: أنـا، قـال: لا، قـال عمر: أنا، قال: لا، ولكن خاصف النعل)[1]

وفي نفس الوقت ورد من النصوص ما يدل على الانحراف الخطير الذي وقع فيه من حارب الإمـام علي، ولم يقـف بجانبـه في مواجهة البغي الذي تعرض له من الطلقاء وأبناء الطلقاء.

ومن تلك الأحاديث ما ورد من تحذير النبي ﷺ لعائشــة من الخروج على الجمل وهي كثـيرة جـداً، وقـد صـححها الكثـير من العلمـاء، وهي حقيقـة تاريخيـة ثابتـة لا يمكن إنكارهـا، حـتى أن الشيخ الألباني تلميذ ابن تيميـة النجيب صـحح مـا ورد في ذلـك من الأحـاديث[2]، ونقـل نفس الموقـف عن خمسـة من علمـاء الحــديث ومحققيهم، فقــال: (وعلى هــذا، فالحــديث من أصــح الأحاديث ولذلك تتابع الأئمة على تصحيحه قديماً وحــديثاً: الأول: ابن حبان، فقد أخرجه في (صحيحه) كما سبق.. الثاني: الحاكم، بإخراجه إياه في (المستدرك) كما تقدم، ولم يقع في المطبــوع منه التصريح بالتصحيح منه ولا من الذهبي، فالظاهر أنـه سـقط من الطابع أو الناسخ، فقد نقل الحافظ فريـد الفتح عن الحـاكم أنه صححه، وهو اللائق به، لوضوح صحته.. الثالث: الذهبي، فقد قال في ترجمة السيدة عائشـة من كتابـه العظيم: (سـير أعلام النبلاء): (هـذا حـديث صـحيح الإسـناد، ولم يخرجـوه).. الرابـع: الحافـظ ابن كثـير، فقـال في (البدايـة) بعـد أن عـزاه كالـذهبي لأحمـد في (المسـند): (وهـذا إسـناد على شـرط الشـيخين ولم يخرجوه).. الخامس: الحافـظ ابن حجـر، فقـد قـال في (الفتح) بعـد أن عـزاه لأحمـد وأبي يعلى والـبزار: (وصـححه ابن حبـان والحاكم، وسنده على شرط الصحيح)[3]

1() انظر: تهذيب الخصائص للنسائي، ص 88، فضائل الصحابة 2 /ـ 627، مسند الإمـام أحمد 3 / 82، المستدرك للحاكم 3 / 122.. وغيرها.

2() انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 846)

3() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 848)

وقـد علـق الألبـاني على هـذه المواقـف بقولـه: (فهـؤلاء خمسة من كبار أئمة الحديث صرحوا بصحة هذا الحديث، وذلـك ما يدل عليه النقد العلمي الحديثي كما سـبق تحقيقـه، ولا أعلم أحـدا خـالفهم ممن يعتـد بعلمهم ومعـرفتهم في هـذا الميـدان سوى يحيى بن سعيد القطان في كلمته المتقدمة، وقـد عـرفت جواب الحافظين الذهبي والعسقلاني عليه، فلا نعيده)[1]

ثم قال بعد أن رد على شبه من أنكره: (وجملة القول: أن الحديث صحيح الإسناد ولا إشكال في متنه، خلافاً لظن الأسـتاذ الأفغاني، فإنّ غاية ما فيه أن عائشة لما علمت بـالحوأب، كـان عليها أن ترجع، والحديث يدل أنها لم ترجـع! وهـذا ممّـا لا يليـق أن ينسب لأمِّ المؤمنين، وجوابنا على ذلك: أنه ليس كل ما يقـع من الكمّـل يكـون لائقـاً بهم، إذ المعصـوم من عصـمة اللـه، والسني لا ينبغي لـه أن يغـالي فيمن يحترمـه حـتى يرفعـه إلى مصاف الأئمة الشيعة المعصومين عندهم!.. ولا نشك أنّ خـروج أم المؤمـنين كـان خطـأً من أصـله ولـذلك همَّت بـالرجوع حين علمت بتحقق نبوءة النبي ﷺ عند الحـوأب، ولكن الزبـير أقنعهـا بترك الرجوع بقوله: (عسى الله أن يصـلح بـك بين النـاس)، ولا نشك أنه كان مخطئاً في ذلك أيضاً، والعقل يقطع بأنه لا منـاص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين للمتقاتلين اللتين وقع فيهمـا مئات القتلى، ولا شكَّ ان عائشة هي المخطئـة، لأسـباب كثـيرة وأدلة واضحة ومنها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدلُّ على أن خطأها من الخطأ المغفـور بـل المأجور)[2]

ثم ذكر الأخبار التي تدل على ندمها، وذكر بعـد ذلـك قـول قيس بن أبي حـازم عن خـروج عائشـة بقولـه: (قـالت عائشـة وكانت تحدّث نفسها أن تدفن في بيتها فقالت: إني أحدثت بعـد رسول الله ﷺ حدثاً أدفنوني مع أزواجـه، فـدفنت بـالبقيع قلت: تعني بالحـدث مسـيرها يـوم الجمـل، فإنهـا نـدمت ندامـة كليـة

1() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 849).

2() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 854)

وتابت من ذلك)[1]

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قـال الميلاني: المثـال الرابـع سـيدي القاضـي أخطـر من السابق، فهو يتعلق بانتصار ابن تيمية للبغاة من الطلقـاء الـذين حاربوا الإمام علي، بل اسـتعملوا كـل جهـودهم لتحريـف الـدين والقيم التي جاء بها، والتي كان الإمام علي ممثلها الأكبر.

فقد قال ابن تيمية ينتصر لمعاوية ـ على لسان النواصب ـ: (قالوا ومعاوية أيضاً كان خيراً من كثير ممن اسـتنابه علي، فلم يكن يستحق أن يعزل ويولى من هـو دونـه في السياسـة، فـإن علياً استـناب زيــاد بــن أبيـه، وقـد أشـاروا على علي بتوليـة معاوية. قالوا: يا أمير المؤمـنين توليـه شـهراً واعزلـه دهـراً. ولا ريب أن هذا كان هـو المصـلحة، إمـا لا سـتحقاقه وإمـا لتأليفـه واستعطافه.. فإذا قيـل: إن عليـاً كـان مجتهـداً في ذلـك، قيـل: وعثمان كان مجتهداً فيما فعل، وأين الاجتهاد في تخصيص بعض الناس بولاية أو إمارة أو مال، من الاجتهاد في سفك المسلمين بعضـهم دمـاء بعض، حـتى ذل المؤمـنين وعجـزوا عن مقاومـة الكفار، حتى طمعوا فيهم وفي الاستيلاء عليهم؟ ولا ريب أنه لو لم يكن قتال، بل كان معاوية مقيمـاً على سياسـة رعيتـه،وعلي مقيمـاً على سياسـة رعيتـه، لم يكن في ذلـك من الشـر أعظم مما حصـل بالاقتتـال، فإنـه بالاقتتـال لم تـزل هـذه الفرقـة ولم يجتمعــوا على إمــام، بــل ســفكت الــدماء، وقــويت العــداوة والبغضاء، وضعفت الطائفة التي كـانت أقـرب إلى الحـق، وهي طائفة علي، وصاروا يطلبون من الطائفة الأخرى من المسالمة ما كانت تطلبه ابتداء، ومعلوم أن الفعـل الـذي تكـون مصـلحته راجحة على مفسدته، يحصـل بـه من الخـير أعظم ممـا يحصـل بعدمه، وهنا لم يحصل بالاقتتال مصلحة، بل كان ألامر مع عــدم القتال خيراً وأصلح منه بعد التقـال، وكـان علي وعسـكره أكـثر وأقــوى، ومعاويــة وأصــحابه أقــرب إلى موافقتــه ومســالمته

[1] () سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 855)

ومصالحته، فإذا كان مثل هذا الاجتهاد مغفوراً لصاحبه، فاجتهاد عثمان أن يكون مغفوراً أولى وأحرى)[1]

ولم يكتف ابن تيمية بهذه النصائح التي وجهها للإمام علي ومن معه من كبار الصحابة، والذين وردت الأحاديث الكثيرة الدالة على فضلهم، وعلى فضل جهادهم في ذلك العصر بالذات.. بل راح يدافع عن معاوية، وينتصر له، ويقول: (وأما معاوية وأعوانه فيقولون: إنما قاتلنا علياً قتال دفع عن أنفسنا وبلادنا، فإنه بدأنا بالقتال فدفعناه بالقتال ولم نبتدئه بذلك ولا اعتدينا عليه. فإذا قيل لهم: هو الإمام الذي كانت تجب طاعته عليكم ومبايعته وأن لا تشقوا عصا المسلمين. قالوا ما نعلم أنه إمام تجب طاعته، لأن ذلك عند الشيعة إنما يعلم بالنص، ولم يبلغنا عن النبي ﷺ نص بإمامته ووجوب طاعته. ولا ريب أن عذرهم في هذا ظاهر، فإنه لو قدر أن النص الجلي الذي تدعيه الإمامية حق، فإن هذا قد كتم وأخفى في زمن أبي بكر وأصحابه مثل ذلك لو كان حقا، فكيف إذا كان باطلاً؟)[2]

بل راح يقرنه بمعاوية، ويقيسه به، فيقول: (اجتماع الناس على مبايعة أبي بكر كانت على قولكم أكمل، وأنتم وغيركم تقولون: إن علياً تخلف عنها مدة. فيلزم على قولكم أن يكون علي مستكبراً عن طاعة الله في نصب أبي بكر عليه إماماً، فيلزم حينئذ كفر علي بمقتضى حجتكم، أو بطلانها في نفسها. وكفر علي باطل، فلزم بطلانها)[3]

3 ـ إنكار ما ورد في فضل العترة من أحاديث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثالث.

قال الميلاني: الشاهد الثالث ـ سيدي القاضي ـ هو أن ابن تيمية ومدرسته لم يكتفوا بذلك الدفاع المستميت عن

[1] () منهاج السنة النبوية (4/ 462)

[2] () منهاج السنة النبوية (4/ 464)

[3] () منهاج السنة النبوية (4/ 515)

النواصب.. ولا بذكر مقولاتهم والاستشهاد بها والدفاع عنها.. بل راحـوا يكـذبون كـل مـا ورد في الأحـاديث في فضـل العـترة الطاهرة، وخصوصا في يعسوب الـدين أمـير المؤمـنين علي بن أبي طالب، والذي استأثر ـ بشـهادة المحـدثين الكبـار بمـا فيهم الإمـام أحمـد ــ بـأكبر نصـيب من الأحـاديث الدالـة على فضـله وإمامته ومرجعيته للأمة، باعتباره التلميذ الأكبر لرسول الله ﷺ، والممثل الأعظم للشخصية المسلمة بكل جوانبها.

قال القاضي: فما البينات الدالة على ذلك؟

قال الميلاني: كثيرة هي سيدي القاضي.. فابن تيمية يتجرأ على تكـذيب كـل حـديث لا يستسـيغه عقلـه ومزاجـه.. وإن لم يستطع تكذيبه، فإنـه يتلاعب بمعنـاه ليصـرفه عن ظـاهره بكـل صنوف التأويل.

قال القاضي: لقد سبق أن ذكرت لي أمثلة على ذلك..

قال الميلاني: أجل.. وزيادة على ذلـك سـأذكر لـك مثـالين يكفيان كل عاقل في الدلالة على مـدى حقـد ابن تيميـة ونصـبه لآل بيت النبوة.

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الميلاني: المثال الأول تكذيبه مـا ورد في نـزول قولـه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12]، فقـد قـال ابن تيميـة في ذلك: (إنـه حـديث موضـوع باتفـاق أهـل العلم)[1] ، مـع أن الحـديث رواه جملـة من أعلام المفسـرين من السـلف الـذين يرجع إليهم ابن تيمية في العقائد وقصص الأنبياء وغيرها..

فقد روى الطبري في تفسير الآيـة [2] أن رسـول اللـه ﷺ قرأ الآية الكريمـة، ثم التفت إلى علي، فقـال: (سـألت اللـه أن يجعلها أذنك)، قال علي: (فما سمعت شيئا من رسـول اللـه ﷺ فنسيته)

1() منهاج السنة 7 / 522.

2() هذه الروايات في تفسير الطبري (23/ 579)

وروى عن بريدة قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقـول لعلي: (يا علي؛ إن الله أمرني أن أدنيـك ولا أقصـيك، وأن أعلمـك وأن تعي، وحق على الله أن تعي)، قال: فنزلت ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12]

وروى عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي: (إن الله أمرني أن أعلمك، وأن أدنيك، ولا أجفوك ولا أقصيك)، ثم ذكر مثله.

وقد ورى أمثال هذه النصـوص بالإضـافة لمحمـد بن جريـر الطبري أبو بكر البزار في مسنده، وسعيد بن منصور في سننه، وابن أبي حاتم في تفسيره، وابن المنـذر، وابن مردويـه.. ورواه من المحــدثين: أبــو نعيم في حليتــه، والضــياء المقدســي في المختارة، وابن عساكر، وغيرهم[1].. ومع ذلك لم يعر ابن تيمية كـل هـؤلاء أدنى اهتمـام، ولـو كـان الحـديث في غـيره لاعتـبره متواترا، ولرمى بالبدعة والضلال كل من تكلم فيه.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الميلاني: المثال الثـاني تكذيبـه لقولـه ﷺ: (أنـا مدينـة العلم وعلي بابها)، والذي قال فيه: (وحـديث: «أنـا مدينـة العلم وعلي بابها» أضعف وأوهى، ولهـذا إنمـا يعـد في الموضـوعات، وإن رواه الترمذي، وذكـره ابن الجـوزي، وبين أن سـائر طرقـه موضوعة، والكذب يعرف من نفس متنه، فإن النبي ﷺ إذا كـان مدينة العلم، ولم يكن لها إلا باب واحـد، ولم يبلـغ عنـه العلم إلا واحد، فسـد أمـر الإسـلام، ولهـذا اتفـق المسـلمون على أنـه لا يجـوز أن يكـون المبلـغ عنـه العلم واحـدا، بـل يجب أن يكـون المبلغون أهل التواتر الذين يحصل العلم بخبرهم للغائب)[2]

وهذه جـرأة عظيمـة على هـذا الحـديث، بـل وتعقيب على رسول الله ﷺ في قوله له في حق الإمـام علي، ولـو أنـه قالـه في حـق غـيره، لكتب فيـه الرسـائل المدافعـة عنـه، والمبينـة لتواتره وصحته.

1() انظر: مجمع الزوائد 1 / 131، حلية الأولياء 1 / 67.

2() منهاج السنة النبوية (7/ 515).

مع أن الحديث قال بحسنه ولو في بعض طرقه الكثير من الأعلام من أمثال الترمذي - على ما نقل عنه الدهلوي في شرح المشكاة - والعلائي، والزركشي، والمجد الشيرازي، وابن حجر العسقلاني، والسخاوي، والسيوطي، والسمهودي، والصالحي الشامي، وابن عراق، وابن حجر المكي، وعلى القاري، والمناوي، والعزيزي، والزرقاني، والشوكاني، وغيرهم..

بل إن إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين لم يكتف بتحسينه، بل ذهب إلى القول بصحته [1]..

4 ـ تنقيص العترة وتجريحهم:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الرابع.

قال الميلاني: الشاهد الرابع ـ سيدي القاضي ـ هو أن ابن تيمية ومدرسته من بعده لم يكتفوا بكل ما سبق، بل راحوا يستعملون كل ما أوتوا من مكر وحيلة للاستنقاص من العترة الطاهرة مع ما ورد في فضها من نصوص.

قال القاضي: مع ما يقيني بما ذكرت بسبب ما طرحته من آرائه في هذا، إلا أن وظيفتي تتطلب مني ألا أقبل منك قولا عاريا عن البينة.. فما البينة على ما تقول؟

قال الميلاني: البينات على ذلك سيدي أكثر من أن تحصى أو تستقصى.. ولهذا سأكتفي لك بأربعة أمثلة شافية كافية تتعلق بموقفه من الإمام علي، والذي لم يدع مناسبة للتحقير من شأنه إلا استغلها[2].

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

1() انظر دراسة مفصلة حول الحديث بعنوان (حديث أنا مدينة العلم - دراسة نقدية لآراء ابن تيمية والمعلمي)، د. يحيى عبد الحسن الدوخي، منشورة على النت في الموقع الرسمي للدكتور الدوخي.

2() استفدنا بعض الردود هنا من كتاب: دراسات في منهاج السنة لمعرفة ابن تيمية، مدخل لشرح منهاج الكرامة، للسيد علي الميلاني.

قال الميلاني: المثال الأول سيدي القاضي يتعلق بموقفه من إسلام الإمام علي وما ورد من النصوص الدالة على صلاته قبل الناس.. فمع أن النصوص الكثيرة تدل على أن عليا هو أول من أسلم، لكونه كان في بيت رسول الله ﷺ.. وكان رسول الله ﷺ هو كافله ومربيه من صغره الباكر.. ومع كون هذا مما اعترف به كبار الأئمة المتقدمين على ابن تيمية والمتأخرين عنه[1] إلا أن ابن تيمية يجتهد بكل ما أوتي من حيلة لينكر هذه الفضيلة العظيمة، ويضطرب في ذلك اضطرابا شديدا..

فقد قال تعليقا على قول الإمام علي: (صليت ستة أشهر قبل الناس): (فهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة، فإن بين إسلامه وإسلام زيد وأبي بكر وخديجة يوما أو نحوه، فكيف يصلي قبل الناس بستة أشهر)[2] ، فهو في هذا النص يعترف بإسلامه قبل أبي بكر، ولا ينقل قولا على الخلاف.

وفي موضع آخر يشكك في ذلك ويقول: (وتنازعوا في أول من نطق بالإسلام بعد خديجة، فإن كان أبو بكر أسلم قبل علي، فقد ثبت أنه أسبق صحبة كما كان أسبق إيمانا، وإن كان علي أسلم قبله فلا ريب أن صحبة أبي بكر للنبي كانت أكمل وأنفع من صحبة علي ونحوه)[3] ، فيردد الأمر - مع التصريح بدعوى كون إسلامه بعد خديجة - ثم يفضل إسلام أبي بكر على كل تقدير.

وفي موضع ثالث ينسب القول بتقدم إسلام أبي بكر إلى أكثر الناس، فيقول: (قول القائل: علي أول من صلى مع النبي، ممنوع، بل أكثر الناس على خلاف ذلك، وأن أبا بكر صلى قبله)[4]

1() انظر: الدرر الكامنة 1 / 155.

2() منهاج السنة 5 / 19.

3() منهاج السنة 8 / 389.

4() منهاج السنة 7 / 273.

بل إنه بالإضافة لكل هذا الاضطراب يشكك في أصل قبول إسلامه، فيقول: (.. وهذه الفضيلة لم تثبت لغيره من الصحابة ممنوع، فإن الناس متنازعون في أول من أسلم، فقيل: أبو بكر أول من أسلم، فهو أسبق إسلاما من علي، وقيل: إن عليا أسلم قبله، لكن علي كان صغيرا وإسلام الصبي فيه نزاع بين العلماء، ولا نزاع في أن إسلام أبي بكر أكمل وأنفع، فيكون هو أكمل سبقا بالاتفاق، وأسبق على الإطلاق على القول الآخر، فكيف يقال:علي أسبق منه بلا حجة تدل على ذلك) [1]

ولا يكتفي ابن تيمية بكل بهذا، بل يستعمل كل ما أوتي من حيلة لإثبات كفر الإمام علي قبل إسلامه، والتشكيك في إسلامه قبل بلوغه، غافلا عن كون الإمام علي ربي في حجر رسول الله ﷺ وأن كل إساءة له هي إساءة لتربية رسول الله ﷺ نفسها، فيقول: (قبل أن يبعث الله محمدا لم يكن أحد مؤمنا من قريش، لا رجل ولا صبي ولا امرأة، ولا الثلاثة ولا علي! وإذا قيل عن الرجال: إنهم كانوا يعبدون الأصنام. فالصبيان كذلك، علي وغيره، وإن قيل: كفر الصبي ليس مثل كفر البالغ. قيل: ولا إيمان الصبي مثل إيمان البالغ. فأولئك يثبت لهم حكم الإيمان والكفر وهم بالغون، وعلي يثبت له حكم الكفر والإيمان وهو دون البلوغ. والصبي المولود بين أبوين كافرين يجري عليه حكم الكفر في الدنيا باتفاق المسلمين، وإذا أسلم قبل البلوغ فهل يجري عليه حكم الإسلام قبل البلوغ؟ على قولين للعلماء. بخلاف البالغ فإنه يصير مسلما باتفاق المسلمين. فكان إسلام الثلاثة مخرجا لهم من الكفر باتفاق المسلمين. وأما إسلام علي فهل يكون مخرجا له من الكفر؟ على قولين مشهورين، ومذهب الشافعي أن إسلام الصبي غير مخرج له من الكفر) [2]

المثال الثاني:

1() منهاج السنة 7 / 155.

2() منهاج السنة 8 / 285.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الميلاني: المثال الثاني يتعلق بما تواتر من النصــوص والأدلة على تلك الشجاعة العظيمة التي كان عليها الإمام علي، والتي هي ثمرة تربية رسول الله ﷺ له.. والتي جعلتــه بطلا في كـل المعـارك الـتي خاضـها مـع رسـول اللـه ﷺ حـتى أن كبـار المشركين قتلوا على يديه.

قــال القاضــي: هــذا من المعلــوم بالضــرورة.. ولا تــزال مجتمعاتنا تردد هذا، وتعترف به.

قال الميلاني: وقد آلم هـذا ابن تيميـة كثـيرا، فـراح يدفعـه بكل الوسائل.. فقد قال تعليقا على قول العلامـة الحلي ــ عنـد ذكره لفضـائل الإمـام علي، والـتي أهلتـه للإمامـة ــ: (إنـه كـان أشجع النـاس، وبسـيفه ثبتت قواعـد الإسـلام، وتشـيدت أركـان الإيمان، ما انهزم في موطن قط): (أما قولـه: إنـه كـان أشـجع الناس، فهذا كذب، بل كان أشجع الناس رسول اللهﷺ)[1]

وهذه إجابة عجيبة.. فالحلي لم يكن يقصـد أن الإمـام علي أشجع من النبي ﷺ.. وكيف يقصد ذلك.. وهو يـردد كـل حين أن عليا ليس سوى ثمرة طيبة من ثمـار التربيـة النبويـة.. لكن ابن تيميـة يغالـط بمثـل هـذه الأغلوطـات، ليشـوه الإمـام علي في نفوس المسلمين باعتباره منافسا لرسول الله ﷺ.. لا ثمرة من ثماره الطيبة.

ولم يكتف بهـذا، بـل راح يغـير مفهـوم الشـجاعة المرتبـط بالمعارك، لأنه لم يجد في تاريخ أحد من الصحابة من يعدل عليا في شجاعته وجهـاده.. فقـال: (وإذا كـانت الشـجاعة المطلوبـة من الأئمة شجاعة القلب، فلا ريب أن أبـا بكـر كـان أشـجع من عمر، وعمر أشجع من عثمان وعلي وطلحة والزبير.. وكان يوم بدر مع النبي في العريش)[2]

1() منهاج السنة 8 / 76.

2() منهاج السنة 8 / 79.

ولم يكتف بهذا، بل راح يكذب كل الأدلة التاريخية التي تثبت الأدوار الكبرى التي قام بها الإمام علي في مواجهة المعتدين على المسلمين، سواء في (غزاة بدر) و(أحد) و(الأحزاب) و(خيبر) و(حنين) وغيرها[1].. وفي المقابل أنكر كل ما ورد من الأدلة التاريخية على فرار الكثير من الصحابة بل كبارهم في الغزوات المختلفة..

وهكذا يتعامل ابن تيمية مع التاريخ بمثل ما تعامل مع السنة بمزاجيته التي تجعله يقبل ما يشاء له هواه، ويرفض ما يشاء.

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الميلاني: المثال الثالث موقفه من خلافة علي، ورده كل ما حصل فيها من فتن إليه، وكأنه هو من أشعل نيران الفتن، لا من سعى لإطفائها، والحفاظ على الدين الذي راح الطلقاء وأبناء الطلقاء يتلاعبون به، فقد قال مقارنا بين الفترة التي تولاها الإمام علي والفترة التي سبقته: (..من المعلوم لكل من عرف سيرة القوم أن اتفاق الخلق ومبايعتهم لأبي بكر وعمر وعثمان، أعظم من اتفاقهم علي بيعة علي.. وكل أحد يعلم أنهم اتفقوا على بيعة عثمان أعظم مما اتفقوا على بيعة علي. والذين بايعوا عثمان في أول الأمر أفضل من الذين بايعوا علياً، فإنه بايعه علي وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وعبدالله بن مسعود والعباس بن عبد المطلب وأبي بن كعب، وأمثالهم، مع سكينة وطمأنينة بعد مشاورة المسلمين ثلاثة أيام، وأما علي فإنه بويع عقيب قتل عثمان والقلوب مضطربة مختلفة، وأكابر الصحابة متفرقون)[2]

وهكذا.. وبعد أن شكك في البيعة التي حصلت له راح يعتبره سببا في كل ما حصل للأمة في عهده من اضطراب،

1() منهاج السنة 8 / 94 - 127.

2() منهاج السنة النبوية (1/ 534)

فقال: (من المعلوم بالضرورة أن حال اللطف والمصلحة التي كان المؤمنون فيها زمن الخلفاء الثلاثة، أعظم من اللطف والمصلحة الذي كان في خلافة علي زمن القتال والفتنة والافتراق، فإذا لم يوجد من يدعي الإمامية فيه أنه معصوم، وحصل له سلطان بمبايعة ذي الشوكة إلا علي وحده، وكان مصلحة المكلفين واللطف الذي حصل لهم في دينهم ودنياهم في ذلك الزمان أقل منه في زمن الخلفاء الثلاثة، علم بالضرورة أن ما يدعونه من اللطف والمصلحة الحاصلة بالأئمة المعصومين باطل قطعاً)[1]

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قال الميلاني: المثال الرابع هو حقده على علي وأهل بيت النبوة الذي عبر عنه بقوله: (.. إن علياً لم ينزهه المخالفون، بل القادحون في علي طوائف متعددة، وهم أفضل من القادحين في أبي بكر وعمر وعثمان، والقادحون فيه أفضل من الغلاة فيه، فإن الخوارج متفقون على كفره، وهم عند المسلمين كلهم خير من الغلاة الذين يعتقدون إلاهيته أو نبوته، بل هم – والذين قاتلوه من الصحابة والتابعين – خير عند جماهير المسلمين من الرافضة الاثنى عشرية، الذين اعتقدوه إماماً معصوماً، وأبو بكر وعمر وعثمان ليس في الأمة من يقدح فيهم إلا الرافضة، والخوارج المكفرون لعلي يوالون أبا بكر وعمر ويترضون عنهما، والمروانية الذين ينسبون علياً إلى الظلم، ويقولون: إنه لم يكن خليفة يوالون أبا بكر وعمر مع أنهما ليسا من أقاربهم، فكيف يقال مع هذا: إن علياً نزهه المؤالف والمخالف بخلاف الخلفاء الثلاثة.. ومن المعلوم أن المنزهين لهؤلاء أعظم وأكثر وأفضل، وأن القادحين في علي حتى بالكفر والفسوق والعصيان طوائف معروفة، وهم أعلم من الرافضة وأدين، والرافضة عاجزون معهم علماً ويداً، فلا يمكن الرافضة أن تقيم عليهم حجة تقطعهم بها، ولا كانوا معهم

[1] () منهاج السنة النبوية (3/ 379)

في القتال منصورين عليهم، والذين قدحوا في علي وجعلوه كافراً وظالماً ليس فيهم طائفة معروفة بالردة عن الإسلام، بخلاف الذين يمدحونه ويقدحون في الثلاثة.. بخلاف من يكفر علياً ويلعنه من الخوارج، وممن قاتله ولعنه من أصحاب معاوية وبني مروان وغيرهم، فإن هؤلاء كانوا مقرين بالإسلام.. بل إذا اعتبر الذين كانوا يبغضونه ويوالون عثمان والذين كانوا يبغضون عثمان ويحبون علياً، وجد هؤلاء خيراً من أولئك من وجوه متعددة، فالمنزهون لعثمان القادحون في علي أعظم وأدين وأفضل من المنزهين لعلي القادحين في عثمان كالزيدية مثلاً، فمعلوم أن الذين قاتلوه ولعنوه وذموه من الصحابة والتابعين وغيرهم هم أعلم وأدين من الذين يتولونه ويلعنون عثمان، ولو تخلى أهل السنة عن موالاة علي وتحقيق إيمانه ووجوب موالاته، لم يكن في المتولين له من يقدر أن يقاوم المبغضين له من الخوارج والأموية والمروانية، فإن هؤلاء طوائف كثيرة)[1]

وهذا الكلام وحده كاف للدلالة على مدى حقده على الإمام علي.. ولا يحتاج مني أي توضيح.

قال القاضي: ولكن كيف يقول هذا، وقد ورد في الحديث عن علي: (والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي إلي: أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق)[2] ؟

قال الميلاني: لو كان في إمكان ابن تيمية أن يحذف هذا الحديث الصحيح من دواوين السنة لفعل لكنه ـ عند عجزه عن ذلك ـ راح يتلاعب بمعناه ليفرغه من محتواه، فقد قال فيه: (المقصود هنا أنه يمتنع أن يقال: لا علامة للنفاق إلا بغض علي، ولا يقول هذا أحد من الصحابة، لكن الذي قد يقال: إن بغضه من علامات النفاق، كما في الحديث المرفوع: «لا يبغضني إلا منافق»، فهذا يمكن توجيهه، فإنه من علم ما قام به علي من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، ثم أبغضه على ذلك،

1() منهاج السنة النبوية (5/ 7)

2() رواه مسلم رقم (78)، والترمذي رقم (3737)، والنسائي 8 / 117.

فهو منافق، ونفاق من يبغض الأنصار أظهر ; فإن الأنصار قبيلة عظيمة لهم مدينة، وهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين، وبالهجرة إلى دارهم عز الإيمان، واستظهر أهله، وكان لهم من نصر الله ورسوله ما لم يكن لأهل مدينة غيرهم، ولا لقبيلة سواهم، فلا يبغضهم إلا منافق. ومع هذا فليسوا بأفضل من المهاجرين، بل المهاجرون أفضل منهم. فعلم أنه لا يلزم من كون بغض الشخص من علامات النفاق أن يكون أفضل من غيره. ولا يشك من عرف أحوال الصحابة أن عمر كان أشد عداوة للكفار والمنافقين من علي، وأن تأثيره في نصر الإسلام وإعزازه وإذلال الكفار والمنافقين أعظم من تأثير علي، وأن الكفار والمنافقين أعداء الرسول يبغضونه أعظم مما يبغضون عليا. ولهذا كان الذي قتل عمر كافرا يبغض دين الإسلام، ويبغض الرسول وأمته فقتله بغضا للرسول ودينه وأمته. والذي قتل عليا كان يصلي ويصوم ويقرأ القرآن، وقتله معتقدا أن الله ورسوله يحب قتل علي، وفعل ذلك محبة لله ورسوله - في زعمه - وإن كان في ذلك ضالا مبتدعا. والمقصود أن النفاق في بغض عمر أظهر منه في بغض علي) [1]

وهكذا أصبح الحديث في نظر ابن تيمية منطبقا على عمر لا على علي.. أو أن الشيعة هم الذين حذفوا اسم عمر واستبدلوه باسم علي.

1() منهاج السنة النبوية (7/ 152)

التهمة الثالثة.. الصراع والفتنة

كان اليوم الثالث من المحاكمة خاصا بالتهمة التي لا نـزال نعيش آثارهـا، وهي مـا نشـره ابن تيميـة من قيم الصـراع بين مـذاهب الأمـة ومدارسـها وطوائفهـا وشـعوبها وأديانهـا.. والـتي أزالت عن الإسلام صـورته السـمحة الجميلـة، وحولتـه إلى دين عنف وقتل ومصادرة للحريات.

وقد كنت متأكدا تماما من مدى انطبـاق هـذه التهمـة على ابن تيمية، فقد كان تلاميذه في قريتي الصـغيرة، نمـاذج مثاليـة لهذه النار المشتعلة، وكانوا يصدعون رؤوسنا كل حين بمقـالات ابن تيمية في كل قضية أو مسـألة نطرحهـا.. وكـانوا لكبريـائهم وغرورهم لا يسمعون لأي رد أو نقد.. بل يعتبرون الناقد أو الراد جريئا على الصنم الذي يعتقدون أنه يمثل الإسلام.

عقدت الجلسة، وقعد القاضي على كرسي كبـير في أعلى مكـان في المحكمـة كعادتـه في اليـومين السـابقين.. وبعـد أن اسـتقرت القاعـة بمن فيهـا، قلب القاضـي بعض الأوراق الـتي كانت بجانبه، ثم قال: التهمة التي سنبحث فيها اليـوم هي تهمـة (الصـراع والفتنـة).. وأنـا أريـد من المـدعين على ابن تيميـة أن يوضــحوا لي مــرادهم منهــا قبــل أن يــذكروا الأدلــة المثبتــة لدعاواهم.

تقـدم الخليلي، وقـال: ليس هنـاك سـيدي القاضـي تهمـة ندعيها على ابن تيميـة أخطـر من هـذه التهمـة، ولا أكـثر جرمـا منها.. ذلك أن كـل مـا ذكرنـاه سـابقا من تهم قـد يبقى حـبيس العقول التي تفكر بالطريقة التي يفكر بهـا ابن تيميـة وسـلفه.. وكل ذلك يـدخل ضـمن مـا أتـاح اللـه للإنسـان من حريـات في التفكير واتخاذ القـرارات المتناسـبة مـع اختيـاره.. لكن مشـكلة ابن تيمية وسلفه والخلف الـذي تتلمـذوا على يديـه هـو أنهم لم يكتفوا بما اعتقـدوه من عقائـد، أو مـا ارتضـوه من سـلوك، بـل راحوا يفرضون عقائـدهم وفقههم فرضـا، ويبـدعون ويكفـرون.. بل ويفتـون بقتـل كـل من خـالفهم.. حـتى صـار الـدين مسـاويا

للجريمة.. وصارت العقيدة وسيلة لسفك الدماء.. وصارت الأمة شطرين: شطرا يمثلونهم هم بعنجهيتهم وكبريائهم.. وشطرا تمثله سائر الأمة بمذاهبها وطوائفها.

قال القاضي: ما ذكرته قد يكون صحيحا بحكم ما سبق أن سمعت من نصوص من كلام ابن تيمية.. ولكن ذلك لا يكفيني كقاض لتصديق هذه التهمة الخطيرة.

قال الخليلي: لك ذلك سيدي القاضي.. ولذلك اجتمعنا لنذكر لك من الأدلة ما يبين صدق ما ندعيه.. وقد اكتفينا منها بأربعة تكفي كل عاقل في بيان خطورة طروحات ابن تيمية وأثرها في حصول الفتنة بين المسلمين.. ولذلك سجنه فقهاء عصره..

قال القاضي: لقد سمعت أنهم سجنوه لأجل فتاواه في الطلاق ونحوها..

قال الخليلي: ذلك ما أشاعوه.. وما كان لفقهاء الأمة أن يسجنوه لأجل ذلك فقط.. فقد كان الفقهاء في كل زمان يفتون، بل يشذون في بعض الفتاوى، ولا يتعرض لهم أحد.. ولكن ابن تيمية لم يكن يكتفي بالكلام بل كان يضم إليه بيانات الصراع الشديدة، والتي كان يتبعه فيها بعض تلاميذه.. وسنذكر لك في الأدلة ما يثبت لك ذلك.

قال القاضي: لقد تعودت أن أسمع منكم سرد الأدلة مجملة قبل تفصيلها.

قال الخليلي: أجل سيدي القاضي.. وقد رأينا أننا لا يمكن استقراء كل ما يتعلق بهذه التهمة.. لأن كتب ابن تيمية كلها صراع.. ولهذا اكتفينا بأربعة أدلة تثبت لك سيدي أن منهج ابن تيمية كمنهج سلفه وتلاميذه قائم على الصراع والفتنة.

قال القاضي: فما الدليل الأول منها؟

قال الخليلي: الدليل الأول هو صراع ابن تيمية مع المدارس العقدية المختلفة التي كانت في زمانه وغيرها، بل

وتكفيره لها، وقد ورث ذلك التكفير كل من تبعه من الذين أثاروا الفتن بين المسلمين واستحلوا دماءهم.

قال القاضي: هذا خطير.. وهو وحده كاف لإدانته.. فهل تستطيعون إثباته؟

قال الخليلي: أجل سيدي القاضي.. بل ما أسهل إثباته.

قال القاضي: فما الدليل الثاني؟

قال الخليلي: صراعه مع الفقهاء والمدارس الفقهية.. والذي أورث بعد ذلك ما نراه من تميز السلفية عن سائر المسلمين في مظاهرهم وسلوكاتهم وكبريائهم.

قال القاضي: فما الدليل الثالث؟

قال الخليلي: صراعه مع الصوفية.. والذي أورث بعد ذلك ما نراه من تكفير الصوفية واستحلال دمائهم.

قال القاضي: ولكني سمعت أن له موقفا طيبا من الصوفية.

قال الخليلي: هو موقف محدود بزمن محدود.. وبطائفة محدودة.. يرى أنها تتفق معه في التجسيم والتشبيه.. أما من عداهم وهم كل صوفية الأمة، فهم عنده حلولية وملاحدة وكفرة..

قال القاضي: فما الدليل الرابع؟

قال الخليلي: صراعه مع غير المسلمين الذين يعيشون بيننا كإخوة لنا في الإنسانية.. والذين أمرنا بأن نتسامح معهم، ونلين لهم، ونؤلف قلوبهم.. لكن ابن تيمية ملأ القلوب حقدا عليهم، وصراعا معهم.

قال القاضي: أهذه هي أدلتكم على هذه التهمة؟

قال الخليلي: أجل سيدي القاضي.. وإن شئتم المزيد زدنا.. فقد ذكرت لك أن إثبات هذه التهمة من أسهل الأمور

علينا لأننا لم نختلف معه ولم نطالب بحبس أفكاره إلا لأجلها.

قال القاضي: لا.. هي كافية.. بل لعله يكفيني ما هو أدنى منها.. فلا ينبغي للعدالة أن تتساهل مع المحرضين على الفتنة والصراع.

قال الخليلي: فأذن لنا سيدي القاضي في أن نبدأ في سرد البينات والشواهد على كل ما ذكرنا من قضايا.

قال القاضي: لكم ذلك.

أولا ـ الصراع مع المدارس العقدية

قام الكوثري، وقال: ليسمح لي سيدي القاضي أن أذكر الدليل الأول.. وهو صراع ابن تيمية مع المدارس العقدية.. ولي على ذلك شهود كثيرون، أكتفي باثنين منهم.

قال القاضي: فما الشاهد الأول؟

قال الكوثري: هو تحقير ابن تيمية لجميع المدارس العقدية، ورميها جميعا بالضلالة والبدعة والكفر.

قال القاضي: وما الشاهد الثاني؟

قال الكوثري: دعوته لنشر الفتنة والفرقة والصراع بين المسلمين بسبب مواقفهم العقدية، فقد نقل الفتاوى الكثيرة التي تدعو إلى هجر المخالفين والإساء لهم، بل تدعو إلى استحلال دمائهم، وإقرارها لها، وهو ما أورث بعد ذلك كل ما نراه من فتن.

قال القاضي: إن ما تقوله خطير..

قال الكوثري: ولدينا بحمد الله كل الأدلة المثبتة له.

1 ـ تحقير ابن تيمية للمدارس العقدية:

قال القاضي: فهات الشاهد الأول.

قال الكوثري: الشاهد الأول ـ سيدي القاضي ــ هـو تحقـير ابن تيمية للمدارس العقدية المخالفة له ولسلفه.. وقد سبق أن ذكرنا بعض مـا يـدل على ذلـك أثنـاء ذكرنـا للتهمـة الأولى حين ذكرنا موقفـه من المفوضـة والمؤولـة.. ونضـيف إليـه هنـا ثلاث بينات على ذلك.

البينة الأولى:

قال القاضي: فما البينة الأولى؟

قـال الكـوثري: هـو اعتبـار ابن تيميـة الحـق المجـرد في طائفته السلفية، وكل من عداهم على ضلالة، فلذلك لا يعتبرهم في الخلاف، بل يتعامـل معهم باسـتعلاء، كمـا يتعامـل مـع أهـل الملل المختلفة.. وفي ذلك أكبر إهانة لجميع الأمة..

قال القاضي: هذه دعوى خطيرة.

قال الكوثري: ولدي الأدلة الكثيرة عليهـا.. فقـد صـرح ابن تيمية في مواضع كثيرة من كتبـه على أن سـلفه ممن يسـميهم أهل الحديث هم أخص النـاس برسـول اللـه ﷺ، وهم الممثلـون الوحيدون له، ومن ذلك قوله: (ومن المعلوم: أن أهـل الحـديث والسنة أخص بالرسول وأتباعه. فلهم من فضل الله وتخصيصـه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر مـا ليس لغـيرهم كمـا قـال بعض السـلف: (أهـل السـنة في الإسـلام كأهـل الإسـلام في الملل)، فهذا الكلام تنبيه على ما يظنـه أهـل الجهالـة والضـلالة من نقص الصحابة في العلم والبيـان أو اليـد والسـنان. وبسـط هذا لا يتحمله هذا المقـام. والمقصـود: التنبيـه على أن كـل من زعم بلسان حاله أو مقاله: أن طائفة غير أهـل الحـديث أدركـوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية في أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وأمر الإيمان بالله واليوم الآخـر وتعـرف واجب الوجـود والنفس الناطقـة والعلـوم والأخلاق الـتي تزكـو بهـا النفـوس وتصلح وتكمل دون أهل الحـديث فهـو - إن كـان من المؤمـنين بالرسل - فهو جاهل فيه شعبة قوية من شعب النفـاق وإلا فهـو منـافق خـالص من الـذين ﴿إِذَا قِيـلَ لَهُمْ آمِنُـوا كَمَـا آمَنَ النَّاسُ

قَـالُوا أَنُـؤْمِنُ كَمَـا آمَنَ السُّـفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّـفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ [البقـرة: 13]، وقـد يكـون من ﴿الَّذِينَ يُجَـادِلُونَ فِي آيَـاتِ اللَّهِ بِغَيْـرِ سُـلْطَانٍ أَتَـاهُمْ ﴾ [غـافر: 35]، ومن ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَـا اسْـتُجِيبَ لَـهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَـةٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَـبٌ وَلَهُمْ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ﴾ [الشـورى: 16] وقـد يبين ذلك بالقياس العقلي الصحيح الذي لا ريب فيـه - وإن كـان ذلـك ظـاهرا بـالفطرة لكـل سـليم الفطـرة - فإنـه مـتى كـان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقـومهم قـولا وحـالا: لـزم أن يكـون أعلم النـاس بـه أعلم الخلـق بـذلك وأن يكـون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق)[1]

فهذا الكلام الخطير من ابن تيمية، والذي ادعى فيه احتكار أهل الحديث للسنة النبوية، بل اعتبرهم الفرقة الناجية الوحيدة، هـو نص في تكفـير كـل المخـالفين.. وقولـه (أهـل السـنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملـل) وحـده كـاف في بيـان تكفـير ابن تيمية الجماعي للأمة جميعا ما عدا سلفه.

وابن تيميـة بهـذا النص يحمـل أتباعـه على مراجعـة تـراث السلف ممن يسمون أنفسهم أهل الحـديث، وهـو تـراث ممتلئ بتزكية الطائفة واحتقار من عداها، بل تكفيره وتضليله.

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت في هذا؟

قلت: صدق سيدي القاضي، فـإن ابن تيميـة يشـيد بـالكثير من أعلام السـلف الـذين يعتـبرون أنفسـهم الممثلين الوحيـدين للدين، ولا يقبلون أي مخالف لهم.. ولهذا ورث كل تلاميذه هـذه الخصلة من الغرور والكبريـاء، فهم يـرددون كـل حين مـا ذكـره سلفهم ابن بطة: (من لم يكن معنا فهو علينا)[2]

وهم لهذا وضعوا قيودا كثيرة تمـيز المسـلم من غـيره، لم يرد بها الدليل لا من الكتاب ولا من السـنة المطهـرة.. وكمثـال على ذلك ما قاله أبو محمد الحسن البربهاري، وهو من كبار من

1() الفتاوى (4/140)

2() الإبانة الكبرى، ج2، ص 474.

تأثر بهم ابن تيمية ودعا إلى التزام منهجهم.. فقد ألف رسالة في (شرح السنة)، قال في خاتمتها: (فمن أقر بما في هذا الكتاب وآمن به واتخذه إماما، ولم يشك في حرف منه، ولم يجحد حرفا واحدا، فهو صاحب سنة وجماعة، كامل، قد كملت فيه السنة، ومن جحد حرفا مما في هذا الكتاب، أو شك في حرف منه أو شك فيه أو وقف فهو صاحب هوى. ومن جحد أو شك في حرف من القرآن، أو في شيء جاء عن رسول الله ﷺ، لقي الله تعالى مكذبا، فاتق الله واحذر وتعاهد إيمانك)[1]

وقال في موضع آخر من الكتاب: (وجميع ما وصفت لك في هذا الكتاب، فهو عن الله، وعن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه وعن التابعين، والقرن الثالث إلى القرن الرابع، فاتق الله يا عبد الله، وعليك بالتصديق والتسليم والتفويض والرضى لما في هذا الكتاب، ولا تكتم هذا الكتاب أحدا من أهل القبلة، فعسى يرد الله به حيرانا عن حيرته، أو صاحب بدعة من بدعته، أو ضالا عن ضلالته، فينجو به.. فاتق الله، وعليك بالأمر الأول العتيق، وهو ما وصفت لك في هذا الكتاب، فرحم الله عبدا، ورحم والديه قرأ هذا الكتاب، وبثه وعمل به ودعا إليه، واحتج به، فإنه دين الله ودين رسول الله ﷺ، فإنه من انتحل شيئا خلاف ما في هذا الكتاب، فإنه ليس يدين لله بدين، وقد رده كله، كما لو أن عبدا آمن بجميع ما قال الله تبارك وتعالى، إلا أنه شك في حرف فقد رد جميع ما قال الله تعالى، وهو كافر، كما أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تقبل من صاحبها إلا بصدق النية وخالص اليقين، كذلك لا يقبل الله شيئا)[2]

وهكذا ذكر كل من أشاد بهم ابن تيمية ممن يسميهم أهل الحديث أو السلف، وقد روى أبو القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي عن شعيب بن حرب قال: قلت لأبي عبد الله سفيان بن سعيد الثوري: حدثني بحديث من السنة ينفعني الله عز وجل به، فإذا وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى وسألني عنه.

1() شرح السنة، ص: 132.

2() شرح السنة، ص: 103.

فقال لي: «من أين أخـذت هـذا؟» قلت: «يـا رب حـدثني بهـذا الحديث سفيان الثوري، وأخذتـه عنـه فـأنجو أنـا وتؤاخـذ أنت». فقال: يا شعيب هذا توكيد وأي توكيد، اكتب: بسم الله الـرحمن الرحيم القرآن كلام الله غير مخلوق، منـه بـدأ وإليـه يعـود، من قال غير هذا فهو كافر، والإيمان قول وعمل ونية، يزيـد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يجوز القـول إلا بالعمـل، ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنيـة إلا بموافقة السـنة. قـال شـعيب: فقلت لـه: يـا أبـا عبـد اللـه ومـا موافقة السنة؟ قال: تقدمة الشيخين أبي بكر وعمر، يا شـعيب لا ينفعك ما كتبت حتى تقدم عثمان وعليـا على من بعـدهما، يـا شعيب بن حرب لا ينفعك ما كتبت لك حتى لا تشهد لأحـد بجنـة ولا نـار إلا للعشـرة الـذين شـهد لهم رسـول اللـه وكلهم من قريش، يا شـعيب بن حـرب لا ينفعـك مـا كتبت لـك حـتى تـرى المسـح على الخفين دون خلعهمـا أعـدل عنـدك من غسـل قدميك، يا شعيب بن حرب ولا ينفعك ما كتبت حتى يكون إخفاء بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة أفضل عندك من أن تجهر بهما.. يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفـاجر، والجهـاد ماضـيا إلى يـوم القيامـة، والصـبر تحت لـواء السلطان جار أم عدل. قال شعيب: فقلت لسفيان: يـا أبـا عبـد الله: «الصلاة كلهـا؟» قـال: لا، ولكن صـلاة الجمعـة والعيـدين، صل خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فـأنت مخـير، لا تصـل إلا خلف من تثق به، وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة، يا شعيب بن حـرب إذا وقفت بين يـدي اللـه عـز وجـل فسـألك عن هـذا الحـديث فقـل: يـا رب حـدثني بهـذا الحـديث سـفيان بن سـعيد الثوري ثم خل بيني وبين ربي عز وجل)[1]

وهكـذا نلاحـظ في كـل الكتابـات السـلفية سـواء من المتقدمين أو المتأخرين، فهم يرون أنهم في الأصـول والفـروع من أصحاب الحق المطلق، ومن خـالفهم فهـو ضـال مبتـدع، أو كافر مرتد، ويبنون على هذا الكثير من الأحكام الخطيرة.

البينة الثانية:

1() شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج1، ص170.

قال القاضي: وعيت هذا.. فما البينة الثانية ؟

قال الكوثري: لم يكتف ابن تيمية باعتبار نفسه وطائفته أصحاب الحق المجرد، بل راح يفتي ويكتب الكتب الكثيرة التي تجعل من الأمة جميعا ــ ما عدا طائفته ــ كفرة ومبتدعة ومنحرفين، وهو ما لا نزال نرى آثاره الخطيرة إلى اليوم.

قال القاضي: هذا خطير.. فهل من أدلة عليه؟

قال الكوثري: كل كتب ابن تيمية مشحونة به.. فيستحيل على من قرأ كتب ابن تيمية وتأثر بها أن يبقى سليم الصدر على المسلمين.. كيف هو يراهم جميعا جهمية ومعطلة وحلولية وملاحدة..

ومن أقواله في ذلك ـ وهو يتحدث عن العلاقة بين الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ويدخل معهم طبعا الماتريدية ــ: (من رزقه الله معرفة ما جاءت به الرسل وبصرا نافذا وعرف حقيقة مأخذ هؤلاء علم قطعا أنهم يلحدون فى أسمائه وآياته وأنهم كذبوا بالرسل وبالكتاب وبما أرسل به رسله، ولهذا كانوا يقولون ان البدع مشتقة من الكفر وآيلة اليه ويقولون: إن المعتزلة مخانيث الفلاسفة والأشعرية مخانيث المعتزلة، وكان يحيى بن عمار يقول المعتزلة الجهمية الذكور والأشعرية الجهمية الاناث ومرادهم الأشعرية الذين ينفون الصفات الخبرية، وأما من قال منهم بكتاب الابانة الذى صنفه الاشعرى فى آخر عمره ولم يظهر مقالة تناقض ذلك فهذا يعد من أهل السنة لكن مجرد الانتساب الى الأشعرى بدعة)[1]

وهكذا يقول في موضع آخر ببذاءته وصلفه: (فالمعتزلة فى الصفات مخانيث الجهمية، وأما الكلابية في الصفات وكذلك الأشعرية ولكنهم كما قال أبو إسماعيل الأنصارى الأشعرية الإناث هم مخانيث المعتزلة ومن الناس من يقول المعتزلة مخانيث الفلاسفة لأنه لم يعلم أن جهما سبقهم الى هذا الأصل

1() مجموع الفتاوى (6/359)

أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه) [1]

وقد ذكر ابن تيمية أثناء ذمه للأشاعرة أن أمر المعتزلة واضح، وأن العلماء من سلفه كفوه شأنهم، فقال: (كما يقال الأشعرية مخانيث المعتزلة والمعتزلة مخانيث الفلاسفة لكن لما شاع بين الأمة فساد مذهب المعتزلة ونفرت القلوب عنهم صرتم تظهرون الرد عليهم في بعض المواضع مع مقاربتكم أو موافقتكم لهم في الحقيقة وهم سموا أنفسهم أهل التوحيد لاعتقادهم أن التوحيد هو نفي الصفات، وأنتم وافقتموهم على تسمية أنفسكم أهل التوحيد وجعلتم نفي بعض الصفات من التوحيد وسموا ما ابتدعوه من الكلام الفاسد إما في الحكم وإما في الدليل أصول الدين وأنتم شاركتموهم في ذلك وقد علمتم ذم السلف والأئمة لهذا الكلام بل علم من يعرف دين الإسلام وما بعث الله به نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ما فيه من المخالفة لكتب الله وأنبيائه ورسله وقد بسطنا الكلام على فساد هذه الأصول في غير هذا الموضع)[2]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت؟

قلت: صدق سيدي القاضي، وأحب أن أذكر لك فقط بأن ذلك الكلام الذي قاله ابن تيمية فيه قذف عظيم، وسب شنيع، فقد ذكر المخانيث في كتبه الأخرى، فقال: (فكيف بما هو حرام خارج عن العبادة كالنظر إلى البغي والمباشرة لها فكيف بالنظر إلى المردان الصباح المخانيث وغير المخانيث والمباشرة لهن ثم هذا قد يفعل لمجرد شهوة النظر فيكون قبيحا مكروها خارج العبادة فكيف في حال العبادة)[3]

وقال في تعريف المخنثين: (الوجه الخامس تشبيه الرجال بالنساء فإن المغاني كان السلف يسمونهم مخانيث لأن الغناء من عمل النساء ولم يكن على عهد النبي ﷺ يغني في

1() مجموع الفتاوى (8/227)

2() الفتاوى الكبرى (5/325)

3() الاستقامة (1/316).

الأعراس إلا النساء كالإماء والجواري الحديثات السن فإذا تشبه بهم الرجل كان مخنثا وقد لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، وهكذا فيمن يحضرون في السماع من المردان الذين يسمونهم الشهود فيهم من التخنث بقدر ما تشبهوا بالنساء وعليهم من اللعنة بقدر ذلك وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر بنفي المخنثين وقال أخرجوهم من بيوتكم)[1]

وقال: (وأحدث بعد أولئك أيضا الاستماع من المخانيث المعروفين بالغناء لأهل الفسوق والزنا وربما استمعوه من الصبيان المُرْدان أو من النسوان الملاح كما يفعل أهل الدساكر والمواخير وقد يجمعون في السماع أنواع الفساق والفجار)[2]

وقد صرح ابن القيم بهذا المعنى الذي استفاده من شيخه ابن تيمية، فقال في نونيته التي لا تزال تحفظ[3]:

أهون بذا الطاغوت لا عز اسمه	طاغوت ذي التعطيل والكفران
كم من أسير بل جريح بل قتيل	تحت ذا الطاغوت في الأزمان
وترى الجبان يكاد يخلع قلبه	من لفظه تبا لكل جبان
وترى المخنث حين يقرع سمعه	تبدو عليه شمائل النسوان
ويظل منكوحاً لكل معطل	ولكل زنديق أخي كفران

البينة الثالثة:

1() الاستقامة (1/319).

2() الاستقامة (1/306).

3() شرح قصيدة ابن القيم 2/320.

قال القاضي: وعيت هذا.. فما البينة الثالثة؟

قال الكوثري: لم يكتف ابن تيمية بتلك التلميحات، ولا بذلك السباب، بل كان يصرح بتكفير المخالفين إما بلسانه أو بلسان من يعتمده من سلفه، ومن ذلك قوله: (كان الشيخ أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفراييني إمام الأئمة الذي طبق الأرض علما وأصحابا اذا سعى الى الجمعة من قطعية الكرج الى جامع المنصور يدخل الرباط المعروف بالزوزي المحاذي للجامع ويقبل على من حضر ويقول اشهدوا على بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قاله الإمام ابن حنبل لا كما يقوله الباقلاني وتكرر ذلك منه جمعات)[1]

وهو يشير بهذا إلى أن الباقلاني ــ وهو إمام من أئمة الأشاعرة الكبار ـ يقول بخلق القرآن.. وهو ينقل مع هذا القول ما يدعيه من إجماعات في تكفير من يقول بخلق القرآن.

وهكذا نراه في [مجموع الفتاوى] يقول: (فقال الشيخ كمال الدين لصدر الدين ابن الوكيل: قد قلت فى ذلك المجلس للشيخ تقى الدين أنه من قال إن حرفا من القرآن مخلوق فهو كافر، فأعاده مرارا، فغضب هنا الشيخ كمال الدين غضبا شديدا ورفع صوته، وقال هذا يكفر أصحابنا المتكلمين الأشعرية الذين يقولون: إن حروف القرآن مخلوقة مثل امام الحرمين وغيره، وما نصبر على تكفير أصحابنا)[2]

وهكذا نراه في مسألة الرؤية، والتي اتفق السلفية على تكفير جاحدها، فقد قال ابن تيمية: (أئمة أصحاب الأشعري لما تأملوا ذلك عادوا في الرؤية إلى قول المعتزلة وفسروها بزيادة العلم كما يفسرها الجهمية وهذا في الحقيقة تعطيل للرؤية)[3]

وهكذا نراه ينقل كثيرا عن الشيخ أبي إسماعيل الهروي

1() درء تعارض العقل والنقل (2/96)

2() مجموع الفتاوى (3/ 173)

3() بيان تلبيس الجهمية 2/434.

(المتوفى: 481هـ) ومن كتابه في [ذم الكلام وأهله]، وهو كتاب مشحون بتكفير الأشاعرة، وقد نقل ابن تيمية الكثير منه مستحسنا له، ومن ذلك قوله في [بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية]: (وقال شيخ الاسلام أبو اسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري في كتاب ذم الكلام في آخره لما عقد بابا في ذكر هؤلاء الأشعرية المتأخرين فقال: باب في ذكر كلام الأشعري: (ولما نظر المبرزون من علماء الأمة وأهل الفهم من أهل السنة طوايا كلام الجهمية وما أودعته من رموز الفلاسفة ولم يقع منهم الا على التعطيل البحت، وأن قطب مذهبهم ومنتهى عقدتهم ما صرحت به رؤوس الزنادقة قبلهم، والفلك دوار والسماء خالية، وأن قولهم إنه تعالى في كل موضع وفي كل شيء ما استثنوا جوف كلب ولا جوف خنزير ولا حشا فرارا من الإثبات وذهابا عن التحقيق.. وقال أولئك ليس له كلام إنما خلق كلاما وهؤلاء يقولون تكلم مرة فهو متكلم به منذ تكلم لم ينقطع الكلام، ولا يوجد كلامه في موضع ليس هو به، ثم يقولون ليس هو في مكان، ثم قالوا ليس له صوت ولا حروف، وقالوا هذا زاج وورق وهذا صوف وخشب وهذا إنما قصد النفس وأريد به التفسير، وهذا صوت القاري إما يرى حسن وغير حسن وهذا لفظه أو ما تراه مجازا به حتى قال رأس من رؤوسهم: أو يكون قرآن من لبد وقال آخر من خشب، فراوغوا، فقالوا هذا حكاية عبر بها عن القرآن والله تكلم مرة ولا يتكلم بعد ذلك، ثم قالوا غير مخلوق، ومن قال مخلوق كافر، وهذا من فخوخهم يصطادون به قلوب عوام أهل السنة، وإنما اعتقادهم أن القرآن غير موجود لفظية الجهمية الذكور بمرة والجهمية الإناث بعشر مرات)[1]

وقد أقر ابن تيمية كلام الهروي، وأن الأشاعرة جهمية في باب صفة الكلام، وأنهم بذلك وقعوا في هذه البدعة المكفرة بإجماعهم.

وقد ذكر الشيخ الهروي سلفه في هذا، فقال: (ورأيت يحيى بن عمار ما لا أحصي من مرة على منبره يكفرهم

1() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (4/405)

ويلعنهم، ويشهد على أبي الحسن الأشعري بالزندقة، وكذلك رأيت عمر بن إبراهيم ومشائخنا)[1]

قال القاضي: بمناسبة ذكرك للأشاعرة.. لقد سمعت من بعض المصادر أن ابن تيمية أثنى عليهم، وذكر أنه يثني عليهم، بل يذكر أنهم أقرب إلى أهل السنة.

ابتسم الكوثري، وقال: ذلك من خدعه الكبرى سيدي القاضي، لأن الأشاعرة في زمنه كانت لهم الغلبة والسلطة، فلذلك خشي منهم، فاستبدل التصريح بكفرهم بالتلميح..

قال القاضي: نحن لا يمكننا الحكم من خلال التلميحات.. بل نحتاج للتصريحات.

قال الكوثري: صدقت سيدي القاضي.. وسأذكر لك قول بعض تلاميذ ابن تيمية المتأخرين في بيان معنى ما ذكرته من قول ابن تيمية.. فقد قال: (ليس معنى هذا تزكيتهم وأنهم من أهل السنة، بل معناه أنهم خير من الجهمية والمعتزلة على سوئهم الشديد كالقول إن النصارى أقرب إلى الإسلام من اليهود، فليس معنى هذا أن النصارى مسلمون فالله الذي قال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82] قد نص على أن النصارى كفار كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: 73])[2]

ورد كذلك على ما (شاع في هذا الزمن عند كثيرين إدخال الأشاعرة في أهل السنة معتمدين في هذا على كلام لابن تيمية وهو أن لأهل السنة اطلاقين: إطلاقاً عاماً وهو ما يقابل الرافضة، وإطلاقاً خاصاً والمراد بهم أهل الحديث، فعلى الإطلاق الأول تكون الأشاعرة من أهل السنة، وإذا أرادوا تعليل إدخال الأشاعرة في أهل السنة قالوا: هم أهل السنة فيما وافقوا فيه أهل السنة)[3]

1() ذم الكلام 1315.

2() تأكيد المسلمات السلفية، ص19.

وبين أن من فعل هذا من أصحاب المنهج التكفيري الخفي وقع في خطئين[1]:

الأول: في فهم كلام ابن تيمية فإنه لما ذكره أراد في استعمال عامة الناس، لا في استعمال الشرع، (وكلام العامة لاينبني عليه شرع، وإنما يذكر من باب الإخبار ببغض الناس للرافضة، ثم على فهم هؤلاء لكلام ابن تيمية تكون المعتزلة من أهل السنة)

الثاني: أنه يلزم على تعليلهم إدخال الرافضة في أهل السنة فيما وافقوا فيه أهل السنة، وقد أورد للدلالة على هذا نصوصا من كلام ابن تيمية يوضح بها مراده، منها قوله: (فالمقصود هنا أن المشهورين من الطوائف بين أهل السنة والجماعة العامة بالبدعة ليسوا منتحلين للسلف، بل أشهر الطوائف بالبدعة الرافضة، حتى إن العامة لا تعرف من شعائر البدع إلا الرفض، والسنى في اصطلاحهم من لا يكون رافضيا، وذلك لأنهم أكثر مخالفة للأحاديث النبوية ولمعاني القرآن وأكثر قدحا في سلف الأمة وأئمتها وطعنا في جمهور الأمة من جميع الطوائف، فلما كانوا أبعد عن متابعة السلف كانوا أشهر بالبدعة)[2]

وقال في موضع آخر: (فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة.وهذا الرافضي ـ يعنى المصنف ـ جعل أهل السنة بالإصطلاح الأول، وهو اصطلاح العامة كل من ليس برافضي قالوا هو من أهل السنة، ثم أخذ

3() تأكيد المسلمات السلفية، ص20.

1() تأكيد المسلمات السلفية، ص20.

2() مجموع الفتاوى (4/ 155)

ينقل عنهم مقالات لا يقولها إلا بعضهم مع تحريفه لها فكان في نقله من الكذب والإضطراب ما لا يخفى على ذوي الألبـاب وإذا عرف أن مراده بأهل السنة السنة العامة)[1]

وهذا رد قوي من ابن تيمية على الذين ينقلـون من كلامـه مـا يخـدم التقيـة الـتي يمارسـونها، ويقتـدون بـابن تيميـة في ممارستها.

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت؟

قلت: صـدق سـيدي القاضـي.. فكتب ابن تيميـة مشـحونة بتكفير من يقول بما تقول به الأشاعرة والماتريدية وغيرهما من المدارس الإسلامية، وذلك وحده كاف لتكفيرهم..

قال القاضي: فهلا ضربت لي أمثلة على ذلك.

قلت: من ذلك نقله عن ابن خزيمة قوله: (من لم يقل بأن الله فوق سمواته، وأنه على عرشـه، بـائن من خلقـه، وجب أن يستتاب، فإن تـاب وإلا ضـربت عنقـه، ثم ألقي على مزبلـة لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة)، وقال: (من لم يقـر بأن الله على عرشه قد استوى، فوق سـبع سـمواته فهـو كـافر حلال الدم، وكان ماله فيئا)[2]

وقد نقل ابن تيمية الإجماع على ما قاله ابن خزيمـة، حيث قال في (درء تعـارض العقـل والنقـل): (وجـواب هـذا أن يقـال القول بأن الله تعالى فوق العالم معلوم بالاضطرار من الكتـاب والسنة وإجماع سلف الأمة.. ولهـذا كـان السـلف مطبقين على تكفير من أنكر ذلك، لأنه عندهم معلـوم بالاضـطرار من الـدين)[3]

وقال في (مجموع الفتـاوى) كعادتـه في نقـل إجمـاع أهـل

1() منهاج السنة (2/221)

2() انظر: درء تعارض العقل والنقل 6/ 264.

3() درء تعارض العقل والنقل، (7/27)

الملل والنحل: (وقد اجتمع أهل الأديان مـع المسـلمين على أن الله تعـالى على العـرش، وقـالوا هم ليس على العـرش شـىء وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امـام الأئمـة من لم يقـل: إن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يسـتتاب فان تـاب والا ضـربت عنقـه ثم ألقى على مزبلـة لئلا يتـأذى بـه اهل القبلة ولا أهل الذمة...)[1]

2 ـــ تحـــريض ابن تيميـــة على المـــدارس العقدية:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثاني.

قال الكوثري: الشاهد الثاني ـ سيدي القاضي ـ هو تحريض ابن تيمية على أتباع المـدارس العقديـة المخالفـة لـه ولسـلفه، بكـل أنـواع التحـريض، ابتـداء من الهجـر والقطيعـة، وانتهـاء بالاستتابة والقتل.

قال القاضي: إن ما تذكره خطير.

قال الكوثري: وأنا مسؤول عنه.. ولي الأدلة الوافية عليه.

قال القاضـي: يكفيـني أن تـذكر تصـريحا واحـدا يـدل على هذا..

قال الكوثري: تصريحاته في هذا كثيرة جـدا.. منهـا قولـه ـ عنـد ذكـره للشـيخ أبي حامـد الإسـفرائني ــ: (قـال الشـيخ أبـو الحسن: وكان الشيخ أبو حامـد الإسـفرايني شـديد الإنكـار على الباقلاني وأصحاب الكلام، قال ولم يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويسـتنكفون أن ينسـبوا إلى الأشـعري، ويتـبرؤون ممـا بـنى الأشعري مذهبه عليـه، وينهـون أصـحابهم وأحبـابهم عن الحـوم حواليه على ما سمعت عدة من المشايخ والأئمة منهم الحافـظ المؤتمن بن أحمد بن على الساجي يقولون: سمعنا جماعـة من المشايخ الثقات قالوا كان الشيخ أبو حامد أحمـد بن أبي طـاهر الإسفرايني إمـام الأئمـة الـذي طبـق الأرض علمًـا وأصـحابا إذا

1() مجموع الفتاوى، (5/138)

سعى إلى الجمعة من قطعية الكرج إلى جـامع المنصـور يـدخل الربـاط المعـروف بـالزوزي المحـاذي للجـامع ويقبـل على من حضر ويقول اشهدوا على بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كمـا قاله الإمام ابن حنبل، لا كمـا يقولـه البـاقلاني وتكـرر ذلـك منـه جمعات فقيل له في ذلك، فقال: حـتى ينتشـر في النـاس وفي أهل الصلاح ويشيع الخبر في أهل البلاد أني بريء مما هم عليه ـ يعني الأشعرية ـ وبريء من مذهب أبي بكر بن البـاقلاني فـإن جماعــة من المتفقهــة الغربــاء يــدخلون على البــاقلاني خفيــة ويقرؤون عليه فيفتنون بمذهبه، فإذا رجعـوا إلى بلادهم أظهـروا بدعتهم لا محالة فيظن ظان أنهم منى تعلموه قبله، وأنا ما قلته وأنا بريء من مذهب البلاقلاني وعقيدته)[1]

وقد ذكر ابن تيمية مستحسنا المعاناة الشـديدة الـتي كـان يعانيها الباقلاني من طـرف الإسـفرايني وتلاميـذه من السـلفية، فقال: (.. قال الشـيخ أبـو الحسـن وسـمعت الفقيـه الإمـام أبـا منصور سعد بن علي العجلي يقول: سمعت عـدة من المشـايخ والأئمة ببغداد أظن الشيخ أبا إسحاق الشـيرازي أحـدهم قـالوا: كـان أبـو بكـر البـاقلانى يخـرج إلى الحمـام متبرقعـاً خوفـاً من الشيخ أبي حامد الإسفرايني)[2]

وهكـذا نـراه يضـع قواعـد التعامـل مـع المبتدعـة، والـذين يشملون عنده وعند أصحاب مدرسته كل المسلمين المخـالفين لهم، ومن ذلك قوله: (فإن الدعاة إلى البدع لا تُقبل شـهادتهم، ولا يُصــلى خلفهم، ولا يؤخــذ عنهم العلم، ولا يُنــاكَحون، فهــذه عقوبة لهم حتى ينتهوا، ولهذا يفرّقون بين الداعية وغير الداعية، لأن الداعيــة أظهــر المنكــرات فاســتحق العقوبــة، بخــــلاف الكــاتم)[3]

قال القاضي: مع خطورة ما ذكرته إلا أن الذي يعنيـني هـو

---

[1] () درء تعارض العقل والنقل (2/96)

[2] () الإصفهانية، 58.

[3] () مجموع الفتاوى (28/ 205)

سفك الدماء والقتل..

قال الكوثري: تصـريحاته وتلميحاتـه في ذلـك أكـثر من أن تعد أو تحصى.. ومن ذلك قوله في [الفتاوى الكبرى]: (والداعي إلى البدعة مستحق العقوبة باتفاق المسـلمين، وعقوبتـه تكـون تارة بالقتل، وتارة بما دونه، كما قتل السـلف جهم بن صـفوان، والجعـد بن درهم، وغيلان القـدري، وغـيرهم، ولـو قـدر أنـه لا يسـتحق العقوبـة أو لا يمكن عقوبتـه فلا بـد من بيـان بدعتـه والتحذير منها، فإن هذا من جملـة الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمر الله به ورسوله)[1]

ثم بين نوع البدع التي يقتـل على أساسـها هـذا النـوع من الناس، فقال: (والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهـواء مـا اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتـاب والسـنة: كبدعـة الخـوارج، والـروافض، والقدريـة، والمرجئـة، فـإن عبـد اللـه بن المبـارك، ويوسـف بن أسـباط، وغيرهمـا قـالوا: أصـول اثنـتين وسـبعين فرقـة هي أربـع. الخـوارج، والـروافض، والقدريـة، والمرجئة. قيل لابن المبارك: فالجهمية؟ قـال: ليسـت الجهميـة من أمة محمد. والجهمية نفاة الصفات الـذين يقولـون: القـرآن مخلوق، وأن الله لا يـرى في الآخـرة، وأن محمـدا لم يعـرج بـه إلى الله، وأن الله لا علم له ولا قدرة ولا حياة، ونحـو ذلـك كمـا يقوله المعتزلة والمتفلسفة ومن اتبعهم) [2]

وهذا الوصف ينطبق على جميع المدارس العقدية مـا عـدا المدرسة التي ينتمي إليها ابن تيمية.

وهكذا أفـتى بقتـل كـل من يقـول بخلـق القـرآن أو بخلـق لفظـه.. وهـو مـا تقـول بـه جميـع المـدارس العقديـة مـا عـدا المدرسة السلفية، فقد سئل في رجـل قـال: (إن اللـه لم يكلم موسـى تكليمـا. وإنمـا خلـق الكلام والصـوت في الشـجرة، وموسى عليه السلام سمع من الشـجرة، لا من اللـه، وإن اللـه

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (4/ 194).

2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (4/ 194).

عــز وجــل لم يكلم جبريــل بــالقرآن، وإنمــا أخــذه من اللــوح المحفوظ، فهل هو على الصواب أم لا؟)[1]

فأجاب بقوله: (ليس هذا الصواب، بل هو ضال مفتر كاذب باتفاق الأمة وأئمتها. بل هــو كــافر يجب أن يســتتاب، فــإن تــاب وإلا قتل، وإذا قال: لا أكذب بلفظ القرآن وهو قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] بل أقر بأن هذا اللفظ حق، لكن أنفي معناه وحقيقته، فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهــل الأهــواء والبــدع، حــتى أخــرجهم كثير من الأئمة عن الاثنين وســبعين فرقــة، وأول من قــال هــذه المقالة في الإسلام كــان يقــال لــه: جعــد بن درهم، فضــحى بــه خالد بن عبد الله القسري يوم أضحى، فإنه خطب الناس فقــال في خطبته: ضحوا أيها الناس يقبل الله ضــحاياكم، فــإني مضــح بالجعد بن درهم، إنــه زعم أن اللــه لم يتخــذ إبــراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعــد علــوا كبــيرا ثم نزل فذبحه وكان ذلك في زمن التابعين، فشكروا ذلك) [2]

وقال في [مجموع الفتاوى]: (.. وقال عبد الله بن المبارك - الذي أجمعت فرق الأمة على إمامته وجلالتــه حــتى قيــل: إنــه أمير المؤمنين في كل شيء. وقيل: ما أخــرجت خراســان مثــل ابن المبارك وقد أخذ عن عامة علماء وقته: مثل الثوري ومالــك وأبي حنيفة والأوزاعي وطبقتهم - قيــل لــه: بمــاذا نعــرف ربنــا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه. وقال محمــد بن إســحاق بن خزيمــة - الملقب إمــام الأئمــة وهــو ممن يعــرج أصحاب الشافعي بما ينصره من مذهبه ويكاد يقــال: ليس فيهم أعلم بــذلك منــه -: من لم يقــل: إن اللــه فــوق ســمواته على عرشه باين من خلقه: وجب أن يســتتاب فــإن تــاب وإلا ضــربت عنقه وألقي على مزبلة؛ لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل الملة ولا أهل الذمة وكان ماله فيئا)[3]

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 29)

2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 29)

3() مجموع الفتاوى (33/ 179)

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت؟

قلت: صدق سيدي القاضي، وبين يدي كتب ابن تيمية، وهو يصرح فيها في مواضع كثيرة جدا بقتل كل من يقول بقول الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرهم.. بل إنه عقد فصلا طويلا في كتابه [الفتاوى الكبرى] يجمع فيه كل ما روي في تكفيرهم وقتلهم.

وقد نقل فيه مستحسنا ما ذكره اللالكائي من العقوبات الجائرة التي قام بها الخلفاء الموالين لأهل الحديث من التنكيل بالمخالفين، وقتلهم، فقال: (واستتاب أمير المؤمنين القادر بالله، حرس الله مهجته وأمد بالتوفيق أموره ووفقه من القول والعمل لما يرضى مليكته فقهاء المعتزلة الحنفية في سنة ثمان وأربعمائة فأظهروا الرجوع وتبروا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام والسنة وأخذ خطوطهم بذلك، وأنهم مهما خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به. وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود يعني ابن سبكتكين، أعز الله نصره أمر أمير المؤمنين القادر بالله واستن بسننه في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر باللعن عليهم على منابر المسلمين، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع، وطردهم عن ديارهم، وصار ذلك في الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وجرى ذلك على يد الحاجب أبي الحسن علي بن عبد الصمد في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة عمم الله ذلك وثبته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين)[1]

وهكذا نقل عن آخر قوله ـ يحكي فترة من الفترات التي تولى فيها الموالين للسلفية ـ: (ولما من الله الكريم على أهل الإسلام بزمام الملك المعظم المحكم بالقوة السماوية في

---

[1] () الفتاوى الكبرى لابن تيمية (6/ 650)

رقاب الأمم الملك الأجل شاهنشاه يمين خليفة الله وغياث عباد الله ظفرلنك أبي طالب محمد بن ميكائيل وقام بإحياء السنة والمناضلة عن الملة حتى لم يبق من أصناف المبتدعة إلا سل لاستئصالهم سيفا عضبا وإذاقتهم ذلا وخسفا، وعقب لآرائهم نسفا، حرجت صدور أهل البدع عن تحمل هذه النقم وضاق صبرهم عن مقاساة هذا الألم، وغموا بلعن أنفسهم على رؤوس الأشهاد بألسنتهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت بانفرادهم بالوقوع في مهواة محبتهم)[1]

ثانيا ـ الصراع مع المدارس الفقهية

بعد أن ساق الكوثري ما ساقه من الأدلة على تكفير ابن تيمية للمدارس العقدية وتحريضه عليها، قام الهندي، وقال: أظن أن ما ذكرناه من أدلة على تكفير ابن تيمية للمدارس العقدية، وتحريضه عليها، كاف في إقناع سيدنا القاضي بذلك.. وإن لم يكن كافيا ذكرنا له المزيد.. فقد ترك لنا ابن تيمية من الفتاوى والكتب ما يجعلنا في فسحة من شأننا.

قال القاضي: أنا مقتنع بكل ما ذكرتموه.. فيكفينا في القضاء التصريح الواحد.. بالإضافة إلى أني اطلعت على بعض ما ذكره، فوجدته يؤكد ما تقولون.. فهلم بالدليل الثاني، والمتعلق بصراعه مع الفقهاء.

قال الهندي: كما حول ابن تيمية ــ هو وسلفه وخلفه ـ العقيدة الإسلامية إلى ساحة للصراع.. فقد حول الفقه المتعلق بالأمور العملية حتى في فروعه البسيطة إلى ساحة للصراع.. وهو ما ورثه أتباعه من بعده، والذين كفروا المسلمين وقتلوهم من أجل فروع فقهية بسيطة تتعلق بالدعاء أو زيارة القبور ونحوها.

قال القاضي: هذه دعوى.. ونحتاج إلى ما يثبتها.

قال الهندي: البينات الدالة على ذلك كثيرة جدا، ولعل أهمها وأكثرها خطورة مسارعة ابن تيمية للحكم بالقتل على

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (6/ 652)

الواقعين في الخلافات أو القضايا الفرعية البسيطة، ولهذا نجده يردد في كتبه وفتاواه كثيرا قوله: (استتيب فإن تـاب وإلا قتـل) [1]

قـال القاضـي: فهلا ضـربت لي أمثلـة على ذلـك تؤكـد مـا تقول.

قال الهندي: الأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.. ولكـني سأكتفي بعشرة منها.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الهندي: من ذلك مثلا قولـه تعقيبـا على قولـه تعـالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾: (يقتضي وجوب الوضوء على كل مصل مرة بعد مرة، فهو يقتضي التكرار وهـذا متفـق عليـه بين المسلمين في الطهارة.. ولو صلى صـلاة بوضـوء، وأراد أن يصلي سائر الصلوات بغير وضوء: استتيب فـإن تـاب وإلا قتـل) [2]

فقد كان في إمكانه أن يذكر الحكم الشرعي، ويكتفي بـه، أو يبين الحكمة منه، ولكنه لحبه للصراع، راح يهـدد ويتوعـد مـع أن القرآن الكريم في آية الوضوء نفسها ربـط الحكم الشـرعي برفع الحرج، ولم يربطه بأي تهديد.

المثال الثاني:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قال الهندي: من أمثلة ذلك أنه سئل: (عمن يبــوس الأرض دائما هل يأثم؟ وعمن يفعل ذلـك لسـبب أخـذ رزق وهـو مكـره كذلك؟)، وهي عادة في بعض البلاد، ولدى بعض الأعـراف، وقـد

1() عد بعضهم هذا وأمثاله، فوجد 429 موضعا.

2() مجموع الفتاوى (21/ 379)

يقصد منها احترام محل معين، أو شخص معين، مثلما ذكر القرآن الكريم عن سجود إخوة يوسف عليه السلام لأخيهم تعظيما له.

لكن ابن تيمية لم يلتفت لهذا، بل راح يجرم هذا التصرف، ويحكم بالقتل على فاعله من غير التماس أي عذر له، حيث قال: (أما تقبيل الأرض ورفع الرأس ونحو ذلك مما فيه السجود مما يفعل قدام بعض الشيوخ وبعض الملوك: فلا يجوز؛ بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضا كما قالوا للنبي ﷺ الرجل منا يلقى أخاه أينحني له؟ قال: لا.. وأما فعل ذلك تدينا وتقربا فهذا من أعظم المنكرات، ومن اعتقد مثل هذا قربة وتدينا فهو ضال مفتر بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة فإن أصر على ذلك استتيب فإن تاب وإلا قتل)[1]

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثالث.

قال الهندي: من أمثلة ذلك قوله ـ وهو يشير إلى الصوفية والشيعة وغيرهم ممن يعظمون الأولياء، ويتوسلون بهم إلى الله في قضاء حوائجهم ـ: (فمن اعتقد في بشر أنه إله؛ أو دعا ميتا؛ أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه أو سجد له فإنه يستتاب. فإن تاب وإلا ضربت عنقه. ومن فضل أحدا من المشايخ على النبي ﷺ أو اعتقد أن أحدا يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ استتيب. فإن تاب وإلا ضربت عنقه. وكذلك من اعتقد أن أحدا من أولياء الله يكون مع محمد ﷺ كما كان الخضر مع موسى عليه السلام فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.. فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله)[2]

وقد كانت هذه الفتاوى وغيرها أداة بعد ذلك لابن عبد الوهاب وتلاميذه ليكفروا المسلمين، ويضربوا أعناقهم،

1() مجموع الفتاوى (1/ 372).

2() (مجموع الفتاوى (3/ 422)

مستشهدين لكل ذلك بأمثال هذه الفتاوى.

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الرابع.

قال الهندي: من أمثلة ذلك تشدد ابن تيمية مع الغناء، وخصوصا ما كان يمارسه الصوفية من الغناء والإنشاد المهيج للمحبة الإلهية أو للشوق لرسول الله ﷺ، ونحو ذلك من المعاني التي لا تزال تردد في المجالس الصوفية.. فلم يكتف ببيان موقف من حرمها والانتصار له، بل راح يفتي بقتل من يفعل ذلك..

فقد قال في [مجموع الفتاوى]: (فأما السماع المشتمل على منكرات الدين فمن عده من القربات استتيب فإن تاب وإلا قتل. وإن كان متأولا جاهلا بين له خطأ تأويله وبين له العلم الذي يزيل الجهل. هذا من كونه طريقا إلى الله. وأما كونه محرما على من يفعله على وجه اللهو واللعب لا على وجه القربة إلى الله فهذا فيه تفصيل فأما المشتمل على الشبابات والدفوف المصلصلة فمذهب الأئمة الأربعة تحريمه..)[1]

وهو بفتواه الخطيرة هذه يحكم بقتل كل الصوفية الذين يعتمدون في هذا على ما ذكره سلفهم من العلماء كأبي حامد الغزالي والسيوطي وغيرهم، والذين يرون إباحة هذا، بل استحبابه، باعتباره نوعا من أنواع ذكر الله، ووسيلة من وسائل الدعوة إلى محبة الله والقرب منه.

وقد كان في إمكان ابن تيمية أن يراجع ما ذكره الغزالي الذي كتب كتابا كاملا في السماع الصوفي، وبين أهميته، وذكر الأدلة الكثيرة على مشروعيته.. لكن ابن تيمية لا يهتم بالخلاف، ولا يراعيه.. لأن الغزالي عنده مبتدع، والمبتدع لا عبرة بخلافه.

المثال الخامس:

1() مجموع الفتاوى (11/ 535)

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الخامس.

قال الهندي: من أمثلة ذلك قوله في بيان بعض أحكام الرضاع: (ولا فرق باتفاق المسلمين بين أولاد المرأة الذين رضعوا مع الطفل وبين من ولد لها قبل الرضاعة وبعد الرضاعة: باتفاق المسلمين. وما يظنه كثير من الجهال أنه إنما يحرم من رضع معه: هو ضلال على صاحبه إن لم يرجع عنه، فإن أصر على استحلال ذلك استتيب كما يستتاب سائر من أباح الإخوة من الرضاعة فإن تاب وإلا قتل)[1]

المثال السادس:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السادس.

قال الهندي: من أمثلة ذلك فتواه حول سؤال بسيط عن أثر متداول بين عامة الناس يقول: (من علمك آية من كتاب الله فكأنما ملك رقك إن شاء باعك وإن شاء أعتقك)، وقد كان في إمكانه أن يذكر المعنى المراد من النص، وأنه قصد به المبالغة، ويبين من خلاله قيمة التعليم وأهميته.. لكن ابن تيمية، وللصراع الذي تعلمه من سلفه راح يقول: (ليس هذا في شيء من كتب المسلمين؛ لا في الستة ولا في غيرها؛ بل مخالف لإجماع المسلمين؛ فإن من علم غيره لا يصير به مالكا إن شاء باعه وإن شاء أعتقه ومن اعتقد هذا فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل)[2]

المثال السابع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال السابع.

قال الهندي: من أمثلة ذلك قوله في حكم فرعي بسيط يتعلق ببعض مسائل السفر: (ومن قال إنه يجب على كل مسافر أن يصلي أربعا فهو بمنزلة من قال: إنه يجب على

1() مجموع الفتاوى (34/ 32)

2() مجموع الفتاوى (18/ 345)

المسافر أن يصوم شهر رمضان، وكلاهما ضلال، مخالف لإجماع المسلمين، يستتاب قائله، فإن تاب وإلا قتل)[1]

وقد كان في إمكانه أن يشرح الحكمـة الشـرعية من هـذا، ويبين من خلالها رحمة الله بعباده، ولكنه ـ لحبه للصراع ــ صـار يحول من الرخصة وسيلة لسفك الدماء.

المثال الثامن:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثامن.

قـال الهنـدي: من أمثلـة ذلـك قولـه جوابـا لمن سـأله عن الفرق بين الطلاق والحلف: (الصـيغ الـتي يتكلم بهـا النـاس في الطلاق والعتـاق والنـذر والظهـار والحـرام ثلاثـة أنـواع: النـوع الأول: صـيغة التنجـيز مثـل أن يقـول: امـرأتي طـالق. أو: أنت طالق. أو: فلانة طالق. أو هي مطلقة. ونحو ذلك: فهذا يقـع بـه الطلاق ولا تنفع فيه الكفارة بإجمـاع المسـلمين. ومن قـال: إن هذا فيه كفارة فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وكذلك إذا قـال: عبدي حر. أو علي صـيام شـهر. أو: عتـق رقبـة. أو: الحـل علي حــرام. أو: أنت علي كظهــر أمي: فهــذه كلهــا إيقاعــات لهــذه العقود بصيغ التنجيز والإطلاق)[2]

المثال التاسع:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال التاسع.

قـال الهنـدي: من أمثلـة ذلـك قولـه في حكم الرضـعات الخمس، وهي مسـألة خلافيـة، لأن هنـاك من يقـول بـالتحريم بعشر رضعات: (إذا أرضعتها الداية خمس رضعات في الحــولين صارت بنتا لها؛ فجميع أولاد المرضعة حرام على هذه المرضعة؛ وإن ولد قبـل الرضـاع أو بعـده. وهـذا باتفـاق المسـلمين. ومن

1() مجموع الفتاوى (22/ 31).

2() مجموع الفتاوى (33/ 57)

استحل ذلك فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل)[1]

وهكذا قال فيمن يرى وجوب أخـذ أخـذ الأجـرة على بعض الأعمـال كـالآذان وتعليم القــرآن ونحــوه: (فلم يقــل أحــد من المسلمين أن عمل هذه الأعمال بغير أجـر لا يجـوز. ومن قـال: إن ذلك لا يجوز؛ فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل)[2]

المثال العاشر:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال العاشر.

قال الهندي: من أمثلة ذلك أنه سئل (عن رجل قيل لــه: لا يجوز الجهر بالنية في الصلاة ولا أمر به النبي ﷺ فقـال: صـحيح أنه ما فعله النبي ﷺ ولا أمر به لكن ما نهى عنه ولا تبطل صلاة من جهر بها. ثم إنه قال: لنـا بدعـة حسـنة وبدعـة سـيئة واحتج بالتراويح..)[3]

فأجاب بقوله: (الجهر بالنية في الصـلاة من البـدع السـيئة ليس من البدع الحسنة، وهذا متفق عليه بين المسلمين لم يقل أحد منهم إن الجهر بالنيـة مسـتحب ولا هـو بدعـة حسـنة، فمن قال ذلك فقد خـالف سـنة الرسـول ﷺ وإجمـاع الأئمـة الأربعـة وغيرهم. وقائل هذا يستتاب فإن تاب وإلا عوقب بمـا يسـتحقه)[4]

وقد وضح نوع هذه العقوبـة، فقـال في [الفتـاوى الكـبرى] عندما سئل عن مثـل هـذه المسـألة: (الجهـر بلفـظ النيـة ليس مشروعا عند أحد من علماء المسلمين، ولا فعله رسول الله ﷺ ولا فعله أحد من خلفائه وأصـحابه، وسـلف الأمـة وأئمتهـا، ومن ادعى أن ذلك دين الله، وأنه واجب، فإنه يجب تعريفه الشريعة،

1() مجموع الفتاوى (34/ 48)

2() مجموع الفتاوى (30/ 206)

3() مجموع الفتاوى (22/ 232)

واستتابته من هذا القول، فإن أصر على ذلك قتل)[1]

وخطــورة هــذه الفتــوى لا تكمن فقــط في هــذا الحكم الفرعي البسيط الذي وقع فيه الخلاف بين المسـلمين، بـل في تشريعه قتل كل مجتهد بما لا يجوز السلفية الاجتهاد فيه..

وتطبيق هذه الفتوى على أتبـاع المـذاهب الأربعـة وحـدهم كفيـل بقتـل جميعهم، أو قتـل أكـثرهم، لتصـبح المسـاجد محلا لقطع الرؤوس، ولاستحلال الدماء.

التفت القاضي إلي، وقال: أحقا ما يقول؟

قلت: أجل ـ سيدي القاضـي ــ فقـد استحسـن الكثـير من الفقهاء من المذاهب الأربعـة وغـيرهم التلفـظ بالنيـة لتأكيـدها، وأقلهم من لم ير في ذلك بأسا.. وابن تيميـة يصـارع بـذلك كـل من يقول بذلك، ويعتبره مخالفـا للشـرع، ويجب تعريفـه بـه، ثم قتله بعد ذلك.

قال القاضي: فهلا ذكـرت لي من أقـوال الفقهـاء مـا يـدل على ذلك.

قلت: أجل سيدي القاضي.. فمن أقـوال الحنفيـة في ذلـك ما ذكره الحصكفي في الدر المختار عند كلامه عن نية الوضوء، فقـد قـال: (والجمـع بين نيـة القلب وفعـل اللسـان هـذه رتبـة وسطى بين من سن التلفظ بالنيـة ومن كرهـه لعـدم نقلـه عن السلف)

وقال ابن عابـدين في حاشـيته تعليقـا على ذلـك: (قولـه: (هذه) يعـني الطريقـة الـتي مشـى عليهـا المصـنف حيث جعـل التلفظ بالنية مندوباً لا سُنة ولا مكروها)

وقــال الإمــام عثمــان الــزيلعي الحنفي في كتابــه [تبــيين الحقائق شرح كنز الدقائق]: (والشرط أن يعلم بقلبـه أي صـلاة

4() مجموع الفتاوى (22/ 232)

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (2/ 98)

يصلي) وأدناه أن يصير بحيث لو سُئل عنها أمكنــه أن يجيب من غير فكرة، وأما التلفظ بها فليس بشرط ولكن يحســن لاجتمـاع عزيمته)

ومن أقوال المالكية حول المسألة ما قاله العلامة الــدردير في [الشرح الكبير]: (ولفظه: أي تلفظ المصلي بما يفيــد النيــة كأن يقول نويت صلاة فرض الظهر مثلا (واسع) أي جائز بمعنى خلاف الأولى. والأولى أن لا يتلفــظ لأن النيــة محلهــا القلب ولا مدخل للسان فيها)

وقــال الدســوقي في حاشــيته على الشــرح الكبــير: (لكن يستثنى منه الموسوس فإنه يستحب له التلفـظ بمـا يفيـد النيـة ليذهب عنه اللبس)

ومن أقوال الشافعية فيها ما نص عليــه النــووي بقولــه في [المجمــوع]: (النيــة الواجبــة في الوضــوء هي النيــة بــالقلب ولا يجب اللفظ باللسان معهــا، ولا يجــزئ وحــده وإن جمعهمـا فهـو آكد وأفضل، هكذا قاله الأصحاب واتفقوا عليه)

وقال زكريا الأنصاري في [أسنى المطالب] وهو يعدد سنن ومســتحبات الوضــوء: (والتلفــظ بهــا: ليســاعد اللســان القلب، وللخروج من خلاف من أوجبه (سرا)

قــال ابن علان الصــديقي الشــافعي في كتابــه [الفتوحـات الربانية على الإذكار النووية]: (يسن النطق بها ليساعد اللســان القلب ولأنه ﷺ نطق بها في الحج فقسنا عليــه ســائر العبــادات، وعدم وروده لا يدل على عدم وقوعه، وأيضا فهــو ﷺ لا يــأتي إلا بالأكمل، وهو أفضل من تركه والنقل الضروري حاصــل بأنــه ﷺ لم يواظب على تــرك الأفضــل طــول عمــره، فثبت أنــه أتى في نحو الوضوء والصلاة بالنية مع النطق ولم يثبت أنه تركه والشك لا يعارض اليقين، ومن ثم أجمع عليه الأمة في سائر الأزمنة)

ومن أقــوال الحنابلــة فيهــا مــا نص عليــه المــرداوي في [الإنصــاف] من قولــه: (لا يســتحب التلفــظ بالنيــة على أحــد الوجهين.. الوجه الثاني: يستحب التلفظ بها سرا، وهو المذهب،

قدمه في الفروع، وجزم به ابن عبيـدان، والتلخيص، وابن تميم، وابن رزين. قال الزركشي: هو الأولى عند كثير من المتأخرين)

وقال البهوتي في [كشاف القناع]: (واسـتحبه) أي التلفـظ بالنيـة (سـرا مـع القلب كثـير من المتـأخرين) ليوافـق اللسـان القلب قال في الإنصاف: والوجه الثاني يستحب التلفظ بها سرا وهو المذهب)

وهكذا ترى سيدي القاضي كل هؤلاء.. وهم أعلام المذاهب الإسـلامية الكـبرى.. لم يتجـرأ أحـد منهم على الحكم على من فعـل ذلـك بالقتـل إلا ابن تيميـة.. فهـو لم يكتـف بتخطئتهم في المسألة، وإنما راح يحكم عليهم بما ورثه من سلفه من صراع.

ثالثا ـ الصراع مع الصوفية

بعد أن ساق الهنـدي مـا سـاقه من الأدلـة على تكفـير ابن تيمية للمدارس العقدية وتحريضه عليها، قام الإسكندري، وقال: أظن أن ما ذكرناه من أدلـة على مواقـف ابن تيميـة من الفقـه والفقهاء، وتحويله الشريعة السمحة إلى وسيلة للتهديد وسـفك الدماء كافية في إقناع سيدنا القاضي بذلك.. وإن لم تكن كافية ذكرنا له المزيد.. فما أكثر فتاوى ابن تيمية الداعية لهدر الـدماء لأجل أبسط الأمور، وأقل الشؤون..

قال القاضي: بل أنا مقتنع بمـا ذكـرتكم.. فـانتقلوا بنـا إلى الدليل الثالث.

قال الإسكندري: الدليل الثالث ـ سيدي القاضـي ــ مرتبـط بنا معشر الصوفية.. فقد نفث فينا كل أحقاده، ونشر بين أتباعه ما يشوهنا ويحولنا إلى حلولية وملاحدة.. بل ترك من التراث ما تحول من بعـده ــ وخصوصـا في عهـد تلميـذه النجيب ابن عبـد الوهاب ـ إلى سيوف ورماح تقطع أوصالنا.

قال القاضي: لكنني سمعت أن ابن تيمية كان متسامحا مع الصوفية.. بل كان يثني على كبارهم.

قال الإسكندري: أجل.. ذلك صحيح.. ونحن لا نشـكك فيـه،

ولكن ذلك كان مجرد طلاء وزخرف لا أثر له في علاقته بنا.

قال القاضي: لم أفهم.. ما تقصد بذلك؟

قال الإسكندري: أرأيت سيدي القاضي لو أن جيشا من الجيوش هم باقتحام بلدة، فجاء شيخ من الشيوخ ليتوسط لأهلها، فقال مخاطبا قائد الجيش: انتظروا قبل أن تقتحموا هذه البلدة، فإن أسلافهم وأجدادهم كانوا من الصالحين، وكانوا متمسكين بالسنة، وكانوا يقولون بأقوالنا في كل شيء.. فقال له قائد الجيش: فهل تنصحنا بعدم اقتحامها؟.. فقال له الشيخ: أنا لم أطلب منكم ذلك.. بل ذكرت لكم أن أسلافهم كانوا كما وصفت.. أما هؤلاء فقد بدلوا وغيروا وحرفوا.. وهم يستحقون كل ما تفعلون بهم.. بل إنكم تتقربون إلى الله بالتنكيل بهم جزاء على تغييرهم وتحريفهم وتبديلهم.

فهل تعتبر هذا سيدي القاضي شافعا وناصحا لأهل تلك البلدة، أم تراه عدوا من أعدائها.

قال القاضي: بل هو عدو من أعدائها.. بل هو لا يقل عن قائد الجيش نفسه.

قال الإسكندري: فهكذا فعل ابن تيمية مع الصوفية.. وما ذكرته لك من المثال هو الواقع الذي حصل للصوفية بسبب ابن تيمية.. فقد استعمل ابن عبد الوهاب تلميذ ابن تيمية النجيب كل ما في تراث ابن تيمية من تكفير ليقتلنا ـ معشر الصوفية ـ وينكل بنا، ويتهمنا بكل أنواع التهم.

قال القاضي: إن ما ذكرته خطير.. وهو يحتاج شهودا يدلون عليه.

قال الإسكندري: لك ذلك سيدي القاضي.. وقد أحضرت لك شاهدين عدلين يدلان عليه.

قال القاضي: فما أولهما؟

قال الإسكندري: أولهما موقف ابن تيمية من ممارسات

الصـوفية وسـلوكاتهم ومنـاهجهم الـتي اجتهـدوا فيهـا بنـاء على فهمهم للشــريعة وقــراءتهم لهــا.. وهي مواقــف عدائيــة تبــدأ بالتبديع والتضليل، وتنتهي بالتكفير والتقتيل.

قال القاضي: فما الثاني؟

قال الإسكندري: الثاني هو موقفه من المعـارف الصـوفية، والفتوح التي فتح الله بها عليهم.. وهي مواقــف تنتهي بــالتكفير الذي يشمل الصوفية بجميع أعلامها ومدارسها.

1 ـ ابن تيمية والممارسات الصوفية:

قال القاضي: فهات الشاهد الأول.

قـال الإسـكندري: الشـاهد الأول ــ سـيدي القاضـي ــ هـو موقــف ابن تيميــة المتشــدد من الممارســات الــتي ارتضــاها الصوفية لأنفسهم، بناء على فهمهم للشريعة السمحة وقراءتهم لها.

قال القاضي: هلا وضحت لي هذا الفهم، وبينت لي حقيقــة هذه القـراءة حـتى أفهم بعـدها موقـف ابن تيميـة منهـا، فلعلـه يكون له بعض الصواب في موقفه.

قال الإسكندري: اعلم ـ سيدي القاضـي ــ أن أصـحابنا من الصــوفية يفرقــون بين أمــرين مهمين في فهمهم للإســلام، وتعاملهم معه، يعبران عنهما بمصطلحين: الشريعة والطريقــة.. أو الأحكام الشرعية، وكيفية تنزيلها وتطبيقها في الواقع بحسب كل شخص.

وهم يقرون، بل يذكرون كـل حين أن الشـريعة تحتـاج إلى نـبي مرسـل معصـوم، وأنـه لا يجـوز أن يضـاف إليهـا شـيء أو يحذف منها شيء، وأن البدعة في أحـداث شـيء في الـدين لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ.

أما الطريقة، وهي المنهج العملي الذي تطبق به الشريعة،

وخاصة في أحكامها الروحية والتربوية، فهي محل للاجتهاد والنظر والتجربة.. فما يصلح لتربية شخص، قد لا يصلح لغيره.

ولذلك ينص الصوفية على أن الشريعة واحدة بينما الطرق لا حد لها، كما لا حد للطبائع الإنسانية، أو كما قال الشيخ محي الدين بن عربي: (الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق)[1]

وبذلك فإن الطرق الصوفية مع مشربها الواحد، وهو الشريعة إلا أنها تختلف في تطبيقها باعتبارين:

الاعتبار الأول: هو رؤية الشيخ لكيفية التربية، فالبعض يغلب في تسليكه للمريدين طريقة المجاهدة، وآخرون يستعملون طرقا أخرى، ومن هنا نجد في الطرق الصوفية وصف بعض الطرق بكونها طريقة مجاهدة، أو طريقة شكر، أو غير ذلك.

الاعتبار الثاني: هو اختلاف طبائع المريدين وحاجاتهم، وهذا من يجعل الشيخ يبحث في الشريعة عما يتناسب مع حاجة هذا المريد أو ذاك، كما عبر عن ذلك الشيخ عبد القادر عيسى، فقال عند حديثه عند تعدد الأوراد في الطرق: (وبما أن صيغ الأذكار كثيرة متنوعة، ولكل صيغة تأثير قلبي خاص ومفعول نفسي معين، فإن مرشدي السادة الصوفية - أطباء القلوب وورَّاث الرسول الأعظم ﷺ في الدعوة والتوجيه والتربية - يأذنون لمريديهم بأذكار معينة تتناسب مع أحوالهم وحاجاتهم، وترقيهم في السير إلى رضوان الله تعالى، وذلك كما يعطي الطبيب الجسماني للمريض أنواعاً من الأدوية والعلاجات تتلاءم مع علله وأسقامه، ثم يبدل له الدواء حسب تقدمه نحو الشفاء، ولهذا لا بد للمريد السالك أن يكون على صلة بالمرشد، يستشيره ويذاكره، ويعرض عليه ما يجده في الذكر من فوائد روحية، وأحوال قلبية، وحظوظ نفسية، وبذلك يترقى في السير، ويتدرج في السمو الخُلقي والمعارف الإلهية)[2]

1() ابن عربي، الفتوحات المكية، 2/317.

2() الشيخ عبد القادري عيسى، حقائق عن التصوف، ص92.

وبناء على هذا تعددت طرائق المربين، وانتهجوا المناهج المختلفة التي يجذبون بها قلوب المريدين للحضرة الإلهية والحضرة النبوية.. وعلى أساسها يقومون سلوكهم وأخلاقهم.

وقد أشار أبو حامد الغزالي عند بيان ضرورة الشيخ للسلوك إلى هذا، فقال: (.. إن كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع، فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية، فيأمره أولا بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه.. وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة، فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما، فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه)[1]

وهكذا يذكر أبو حامد – كما يذكر الصوفية جميعا – أن للشيخ المربي أن يستعمل أحيانا من الحيل ما يستطيع أن يهذب به مريديه، فإذا كان المريد – مثلا – (لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها.. فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل

---

[1] إحياء علوم الدين (3/ 61)

الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم، كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة، فلينقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيءالأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه)[1]

وهكذا يذكر الشيخ أبو حامد وهو الفقيه الأصولي أن للشيخ أن يمنع بعض المباحات عن المريد أو يكلفه ببعض ما لم يوجبه الشرع لتستقيم نفسه بذلك، ولعل ما ذكره القرآن الكريم من نهي طالوت لجنده من شرب الماء مع توفره، بل مع كثرته إشارة إلى هذا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [البقرة: 249]، وذلك لأن الجندي الذي لا يطيق أن يصبر على الماء لا يمكنه أن يصبر على مواجهة جالوت، وكم في النفس من (جالوت)

قال القاضي: وعيت هذا.. وهو واضح لا حرج فيه، فهل أنكر ابن تيمية مثل هذا؟

قال الإسكندري: ليته اكتفى بالإنكار.. بل ليته اكتفى بتحريم ما يمارسه الصوفية لتهذيب المريدين ونشر القيم الروحية والأخلاقية في المجتمع.. بل ليته اكتفى بتبديعهم في ذلك.

قال القاضي: فهل هناك أكثر من هذا؟

قال الإسكندري: أجل.. سيدي القاضي.. فقد أفتى الفتاوى الكثيرة التي تجرم ما يفعلونه، وتبيح دماءهم لذلك، مثلما فعل مع تلك الفروع الفقهية البسيطة.. فما أسهل أن يفتي ابن

---

[1] () إحياء علوم الدين (3/ 62)

تيمية بقطع الرقاب..

وقد كان ذلك ذريعة لكل من حارب الصوفية.. فقد جعلوا من كلمات ابن تيمية بيانات وفتاوى تبيح لهم ذلك.. ولعلك تعرف سيدي ما فعله ابن عبد الوهاب بصوفية زمانه، بل وعوامهم.. فقد قتلهم وشردهم وسباهم وحكم بردتهم.. وكل ذلك تحت مظلة ابن تيمية.

قال القاضي: فهلا ذكرت لي بينات تثبت ذلك.

قال الإسكندري: ما أكثر البينات الدالة على ذلك.. ولكني سأقتصر لك منها على ثلاثة.

البينة الأولى:

قال القاضي: فهات البينة الأولى.

قال الإسكندري: البينة الأولى سيدي القاضي هي موقفه من كل الوسائل التي استعملها الصوفية لجذب المريدين، وخاصة العوام منهم للتدين، وللتعلق بالله ورسوله.. فقد حارب كل تلك الوسائل واعتبرها بدعا.

قال القاضي: فهل ضربت لي مثالا على ذلك ييسر لي فهم قصدك.

قال الإسكندري: من الأمثلة على ذلك موقفه من السماع الصوفي أو الإنشاد أو الغناء الروحي، وهو ما استعمله الصوفية لترغيب المريدين وعامة الناس في التعلق بالله ورسوله والأولياء والصالحين وكل المعاني الإيمانية.

قال القاضي: عجبا.. هل أنكر ابن تيمية هذا؟

قال الإسكندري: أجل.. هو وكل مدرسته راحوا يشنعون

على هذا، ويسخرون من فاعليه، بل يكفرونهم لأجـل أي بيت أو قصيدة يتغنون فيها بالمعاني الإيمانية والقيم الروحية.

وسأضرب لك مثلا على ذلك بفتـوى طويلـة لابن تيميـة [1] أجاب فيها على سؤال مهم حـول رجـل من الصـالحين أراد أن يدعو جماعة من المنحرفين إلى اللـه، ولم يـر حلا لـذلك سـوى (أن يقيم لهم سماعاً ـ أي غناء ـ يجتمعون فيه بهذه النيـة، وهـو بدف بلا صلاصل، وغناء المغني بشعر مبـاح بغـير شـبابة، فلمـا فعل هـذا تـاب منهم جماعـة، وأصـبح من لا يصـلي ويسـرق ولا يــزكي يتــورع عن الشــبهات، ويــؤدي المفروضــات، ويجتنب المحرمات، فهل يباح فعل هـذا السـماع لهـذا الشـيخ على هـذا الوجه لما يترتب عليه من المصالح مع أنه لا يمكنــه دعــوتهم إلا بهذا؟)[2]

فمع أن السائل ذكر سـوء حـال المـدعوين قبـل هـدايتهم، وأنهم كانوا مرتكبين لذنوب كبائر متعدية كالقتل وسـرقة المـال وقطع الطـرق.. ومـع أن الداعيـة الـذي قـام بـذلك ــ كمـا ذكـر السائل ـ كان شيخاً معروفاً بالخير واتباع السنة.. ومع أنه قصــد من فعلـه الخـير.. ومـع أنـه لم يمكنـه إلا اتخـاذ هـذه الطريقـة لهدايتهم.. ومع أنه لم يقع معهم في محرمات كبـائر، وإنمـا دف بلا صلاصل وغناء بشعر مباح بغير شبابة.. ومـع أنـه تـرتب على هذه الطريقـة مصـلحة كبـيرة وخـير عظيم. (ومـع هـذا كلـه لم تغلب ابن تيمية عاطفتـه ولم ينكسـر لهـا، بـل بـنى فتـواه على الأدلة الشرعية والقواعد المرعية)[3] كما يـذكر السـلفية، وهـو التشدد مع هذا لمخالفته السنة.

ولطول جواب ابن تيمية على المسـألة، وإيـراده النصـوص الكثيرة على ذلك، فسأختصر جوابه هنا، فقـد قـال: (.. إذا تـبين هــذا فنقــول للســائل: إن الشــيخ المــذكور قصــد أن يتــوب

---

[1] طبعت هذه الفتوى ضمن مجمـوع الفتـاوى (11/620-635)وقـد أفـردت في كـتيب صغير بعنوان: الطرق الشرعية والطرق البدعية في المسائل الدعوية.

[2] مجموع الفتاوى (11/ 620)

[3] الإمام ابن تيمية وجماعة التبليغ، ص16.

المجتمعين على الكبائر، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة، أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية، فلا يجوز أن يقال: إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالإضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية، التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي؛ بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان –وهم خير أولياء الله المتقين من هذه الأمة – تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية. وأمصار المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية لا بهذه الطرق البدعية. فلا يمكن أن يقال: إن العصاة لا تمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية، بل قد يقال: إن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية، عاجزاً عنها، ليس عنده علم بالكتاب والسنة، وما يخاطب به الناس، ويسمعهم إياه، مما يتوب الله عليهم، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية. إما مع حسن القصد. إن كان له دين وإما أن يكون غرضه الترأس عليهم وأخذ أموالهم بالباطل.. فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل،أو عجز، أو غرض فاسد) [1]

وهكذا حول ابن تيمية هذا الشيخ الصالح الذي استطاع أن يخلص المجرمين من إجرامهم بتلك الوسائل الشرعية المباحة التي استعملها، إلى مبتدع ضال.. لأن كل مبتدع عندهم ضال، وكل ضال في النار.

بل إنه أومأ إلى اتهامه في نيته نفسها بأن يكون قصده الرئاسة عليهم، وقد استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

[1] () مجموع الفتاوى (11/ 625)

آمَنُـوا إِنَّ كَثِـيرًا مِنَ الْأَحْبَـارِ وَالرُّهْبَـانِ لَيَـأْكُلُونَ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 34]

ولم يستند في هـذا إلى حجـة عقليـة أو نقليـة، وإنمـا كـل حججه هي أولئك السلف المعصومين الذين أحـل بهم مـا حـرم الله، وحرم بهم مـا أحـل اللـه، يقـول ابن تيميـة: (ولم يكن في السلف الأول سماع يجتمع عليه أهل الخير إلا هـذا. لا بالحجـاز، ولا باليمن، ولا بالشام ولا بمصر والعـراق وخراسـان والمغـرب، وإنما حدث السماع المبتدع بعد ذلك)[1]

وبما إن ابن تيمية وإمعانا منـه في بغض الصـوفية والحقـد عليهم أباح السـماع والغنـاء إذا كـان في الأعـراس ونحوهـا من باب اللهو واللعب، أمـا أن يتحـول إلى وسـيلة للتعبـد، والـدعوة إلى الله، فلم يـر صـحة ذلـك، بـل وقـف في وجهـه، كمـا يقـف السلفية كل حين في وجه كل مشروع لخدمة الأمة ورقيها.

يقول ابن تيمية: (وقول السائل وغـيره: هـل هـو حلال؟ أو حـرام؟ لفـظ مجمـل فيـه تلـبيس. يشـتبه الحكم فيـه، حـتى لا يحسن كثير من المفـتين تحريـر الجـواب فيـه؛ وذلـك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين: (أحدهما) أنـه هـل هو محرم؟ أو غير محرم؟ بـل يفعـل كمـا يفعـل سـائر الأفعـال الـتي تلتـذ بهـا النفـوس. وإن كـان فيهـا نـوع من اللهـو واللعب كسماع الأعراس وغيرها. مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله، و(النوع الثـاني) أن يفعـل على وجه الديانة والعبادة وصلاح القلـوب وتجريـد حب العبـاد لـربهم وتزكية نفوسهم وتطهير قلوبهم وأن تحرك من القلوب الخشـية والإنابـة والحب ورقـة القلـوب وغـير ذلـك ممـا هـو من جنس العبـــادات والطاعـــات لا من جنس اللعب والملهيـــات.. فيجب الفرق بين سـماع المتقـربين،وسـماع المتلعـبين، وبين السـماع الـــذي يفعلـــه النـــاس في الأعـــراس والأفـــراح ونحـــو ذلـــك من العادات، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلـوب والتقـرب إلى رب السموات، فإن هذا يسأل عنه: هل هو قربـة وطاعـة؟وهـل

1() مجموع الفتاوى (11/ 627)

هو طريق إلى الله؟وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم وتحريك وجدهم لمحبوبهم وتزكية نفوسهم وإزالة القسوة عن قلوبهم ونحو ذلك من المقاصد التي تقصد بالسماع كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع في كنائسهم على وجه العبادة والطاعة لا على وجه اللهو واللعب)[1]

وبناء على هذا كله، فقد ذكر أن (من حضر السماع للعب واللهو لا يعده من صالح عمله، ولا يرجو به الثواب، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه ديناً، وإذا نهى عنه كان كمن نهى عن دينه، ورأى أنه قد انقطع عن الله وحرم نصيبه من الله تعالى إذا تركه. فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين، ولا يقول أحد من أئمة المسلمين: إن اتخاذ هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى أمر مباح؛ بل من جعل هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى فهو ضال، مفتر، مخالف لإجماع المسلمين. ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم)[2]

بل إن تيمية لم يكتف بذلك، بل راح يصعد في موقفه من هذا الشيخ الطيب الذي استعمل هذه الوسيلة المباحة لهداية المنحرفين، فقال: (فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب)

هذه هي قاعدته في هذا الموضوع، والتي يستعملها تلاميذه كما يستعملون النصوص المقدسة لتحريم كل عمل إسلامي لا يتوافق مع ما فعله السلف.. الذين هم أعلم الناس وأطهر الناس وأبر الناس قلوبا وأصدقهم حديثا.. ولا يخالفهم ـ حسب تصورهم ـ إلا هالك.

ولم يكتف ابن تيمية بهذا، بل حمل حملة شديدة جدا على الصوفية بسبب هذا، فقد وصفهم في فتواه هذه بقوله: (فهؤلاء

1() مجموع الفتاوى (11/ 631)

2() مجموع الفتاوى (11/ 633)

جند الشيطان،وأعداء الرحمن، وهم يظنون أنهم من أولياء اللـه المتقين، وحالهم أشبه بحال أعداء الله المنافقين؛ فإن المـؤمن يحب ما أحبه الله تعالى، ويبغض ما أبغضه اللـه تعـالى، ويـوالي أولياء الله، ويعادي أعـداء اللـه، وهـؤلاء يحبـون مـا أبغض اللـه، ويبغضون ما أحب الله، ويوالون أعـداء اللـه، ويعـادون أوليـاءه؛ ولهذا يحصل لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مزامـير الشـيطان، وكلمـا بعـدوا عن اللـه ورسـوله وطريـق المؤمـنين قربوا من أعداء الله ورسوله وجند الشيطان)[1]

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت؟

قلت: صدق سيدي القاضي.. وقد كانت فتـاواه هـذه سـببا اسـتعمله من بعــده من تلاميــذه في تكفــير الصــوفية وإباحــة دمائهم.. ومن أبسط الأمثلة على ذلك موقفهم من البردة الـتي ينشدها الصوفية، والممتلئة بمدح رسول الله ﷺ والشوق إليـه.. فقد كفـر تلاميـذ ابن تيميـة من السـلفية قائلهـا، وحكمـوا عليـه بالشرك الجلي.. بـل كفـروا منشـدها وسـامعها والراضـي عنهـا والساكت عن تكفير الجميع.

فمن تصريحات تلميـذ ابن تيميـة النجيب الشـيخ محمـد بن عبد الوهاب قوله: (فمن عـرف هـذه المسـألة، وعـرف الـبردة ومن فتن بهــا، عــرف غربــة الإســلام، وعــرف أن العــداوة، واستحلال دمائنا وأموالنا ونسائنا، ليس عند التكفير والقتال؛ بل هم الذين بدؤونا بالتكفير والقتال، بل عند قوله: ﴿فَلا تَـدْعُو مَـعَ اللَّهِ أَحَــداً﴾ [الجن: 18]، وعنــد قولــه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَــدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسـراء: 57]، وقولـه: ﴿لَـهُ دَعْـوَةُ الْحَـقِّ وَالَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ لا يَسْـتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: 14])[2]

ويقول في بعض رسائلهِ الشخصية: (وأعجب من ذلك: مــا رأيت، وسمعت، ممن يـدعى أنـه أعلم النـاس، ويفسـر القـرآن

1() مجموع الفتاوى (11/ 635)

2() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (4/ 294)

ويشرح الحديث بمجلدات، ثم يشرح البردة، ويستحسنها، ويذكر في تفسيره وشرحه للحديث أنه شـرك! ويمـوت مـا عـرف مـا خرج من رأسه! هذا هو العجب العجاب، أعجب بكثير من نــاس لا كتاب لهم، ولا يعرفون جنة، ولا نارا، ولا رسولا، ولا إلها؛ وأمـا كون لا إله إلا الله، تجمع الدين كله، وإخراج من قالها من النـار، إذا كان في قلبه أدنى مثقال ذرة، فلا إشكال في ذلك)[1]

وهذا النص واضح في تكفيره للعلماء الذين قبلوا البردة أو شــرحوها.. وكأنــه يقــول لهم: لن تغــني عنكم كــل علــومكم وتصانيفكم ما دمتم استحسنتم البردة أو شرحتموها.

وهكـذا قـال علامتهم المجـدد عبـد الـرحمن بن حسـن في قول البوصيري:

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُ به	سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

ولَن يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بي	اذا الكريمُ تَجَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ

فقد علق على هذه الأبيـات بقولـه: (فناقضـوا الرسـول ﷺ في ارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقشـة، وشـاقوا اللـه ورسـوله أعظم مشــاقة، وذلــك أن الشــيطان أظهــر لهم هــذا الشــرك العظيم، في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه. وأظهر لهم التوحيد والإخلاص، الــذي بعثــه اللــه بــه في قــالب تنقصــه. وهــؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا فى تعظيمـه بمـا نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته. فلم يعبـؤوا بأقوالـه وأفعالـه، ولارضـوا بحكمـه ولاسـلموا لـه، وأنمـا يحصـل تعظيم الرسـول ﷺ بتعظيم أمـره ونهيـه. وهـؤلاء المشـركون عكسـوا الأمر فخالفوا ما بلَّغ به الأمة، وأخبر بـه عن نفسـه ﷺ فعـاملوه بما نهاهم عنه: من الشرك بالله، والتعلق على غير الله)[2]

1() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (2/ 65)

2() فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد: (1 / 381)

وهكذا قال علامتهم المحدث سليمان بن عبدالله، والذي علق على الأبيات السابقة وغيرها بقوله: (فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك.. منها: أنه نفى أن يكون له ملاذٌ إذا حلت به الحوادث، إلا النبي ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.. الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك في الإلهية.. الثالث: سؤاله منه أن يشفع له، وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه، وهو الجاه والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك، وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداء.. تناقض عظيم وشرك ظاهر، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً، وإلا فيا هلاكه. فيقال: كيف طلبت منه أولاً الشفاعة ثم طلبت منه أن يتفضل عليك، فإن كنت تقول: إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فكيف تدعو النبي ﷺ وترجوه وتسأله الشفاعة؟ فهلا سألتها من له الشفاعة جميعاً، الذي له ملك السموات والأرض، الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله)[3]

البينة الثانية:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات البينة الثانية.

قال الإسكندري: البينة الثانية ـ سيدي القاضي ـ هي إعلانه الحرب في كتبه الكثيرة على الأضرحة والمقامات المبنية على الأولياء والصالحين، والتي جرى عرف الأمة على احترامها وتعظيمها، لنشر قيم الصلاح، وحفظ تاريخ الصالحين، والتبرك بهم وبآثارهم..

وقد علمت سيدي القاضي موقفه من قبر رسول الله ﷺ وتبديعه لزائريه، بل اعتبار السفر لأجله معصية لا تقصر لها الصلاة.

3() تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص 621)

قال القاضي: أجل.. علمت ذلك منكم في التهمة الثانية.

قال الإسكندري: وهكذا تعامل مع الآثار التي يعظمها المؤمنون، والتي تربطهم بالصالحين، والتي وردت الأدلة الكثيرة على جوازها، بل على الترغيب فيها، وقد كتب فقهاؤنا من الصوفية الكثير من الرسائل والكتب الدالة على ذلك.. لكن ابن تيمية لم يأبه لذلك كله.. فراح يجرم ذلك، ويفتي فتاواه المتشددة في شأنها.

ومن ذلك قوله في [مجموع الفتاوى]: (وأما بناء المشاهد على القبور والوقف عليها فبدعة؛ لم يكن على عهد الصحابة؛ ولا التابعين؛ ولا تابعيهم؛ بل ولا على عهد الأربعة. وقد اتفق الأئمة على أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد على القبور؛ ولا الإعانة على ذلك بوقف ولا غيره؛ ولا النذر لها؛ ولا العكوف عليها؛ ولا فضيلة للصلاة والدعاء فيها على المساجد الخالية عن القبور؛ فإنه يعرف أن هذا خلاف دين الإسلام المعلوم بالاضطرار المتفق عليه بين الأئمة؛ فإنه إن لم يرجع فإنه يستتاب)[1]

والاستتابة عنده يعقبها القتل.. كما رأينا ذلك سيدي القاضي في مواقفه المختلفة..

وقد كان هذا الموقف مددا للوهابية ابتداء من شيخهم ابن عبد الوهاب في إعلان حربهم على المسلمين، حيث نجد ابن عبد الوهاب وحفدته وتلاميذه كلهم ينقلون من كلام ابن تيمية ما يؤيدون به جرائمهم في حق الأمة.

ومن ذلك ما أورده في بعض رسائله من كلام ابن تيمية ليثبت لهم أن ما يقوم به الصوفية من الذبح في الموالد والمناسبات المختلفة شرك أكبر يخرج عن دين الإسلام، فقد نقل عن ابن تيمية قوله في كتابه [اقتضاء الصراط المستقيم] تعليقا على قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [المائدة: 3]: (ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله، مثل أن يقال: هذا ذبيحة لكذا،

1() مجموع الفتاوى (31/ 11)

وإذا كان هذا هو المقصود: فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحـريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيـه: باسـم المسـيح، ونحوه، كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلى الله سبحانه كـان أزكى وأعظم مما ذبحنـاه للحم، وقلنـا عليـه: باسـم اللـه، فـإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسـك لـه أعظم من الاسـتعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسـك لغيره أعظم شركا من الاستعانة باسمه في فواتح الأمـور. فـإذا حرم ما قيل فيه: باسم المسيح، أو الزهرة؛ فلأن يحرم ما قيـل فيه: لأجل المسيح والزهرة أو قصد بـه ذلـك، أولى. وهـذا يـبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غـير اللـه، ولم يحـرم مـا ذبح لغير الله، كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم، بل لـو قيـل بـالعكس لكـان أوجـه، فـإن العبـادة لغـير اللـه أعظم كفـرا من الاستعانة بغير الله. وعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقربا به إليـه لحرم وإن قال فيه: بسم اللـه، كمـا يفعلـه طائفـة من منـافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الأولياء والكواكب بالـذبح والبخـور ونحو ذلك، وإن كان هـؤلاء مرتـدين لا تبـاح ذبيحتهم بحـال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان)[1]

وقد علـق على هـذا النص الصـريح بـالتكفير بقولـه: (وهـو الذي ينسب إليه بعض أعداء الدين أنـه لا يكفـر المعين، فـانظر أرشـدك اللـه إلى تكفـيره من ذبح لغـير اللـه من هـذه الأمـة، وتصريحه أن المنافق يصير مرتداً بذلك، وهـذا في المعين، إذ لا يتصور أن تحرم إلا ذبيحة المعين) [2].

وهكذا يورد نصاً لابن القيم ـ تلميذ ابن تيمية النجيب ـ يؤكد فيـه على أن مـا ذكـره ابن تيميـة من الحكم بالشـرك على الصوفية الذين يحترمون الأولياء، ويعظمـون مـا يرتبـط بهم من آثار، فقد قال في ذلك: (وقـال ابن القيم في (إغاثـة اللهـفان) في إنكار تعظيم القبور: (وقـد آل الأمـر بهـؤلاء المشـركين إلى أن صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سـماه (مناسـك المشـاهد)

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 64)

2() مجموعة مؤلفات الشيخ 1/285.

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام).. وهذا الذي ذكره ابن القيم رجل من المصنفين يقال له: ابن المفيد: فقد رأيت ما قال فيه بعينه، فكيف ينكر تكفير المعين)[1]

وهكذا قال محمد بن ناصر التهامي بعد نقله نصوصا لابن تيمية وابن القيم، وعقب عليها بقوله: (فهذه نصوص ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قاضية بكفر من اعتقد النفع والضر في مخلوق ونذر له، أو دعا له، أو استغاث به، وهو صريح في ذلك كفر أكبر يحل الدم والمال، إذا عرفت هذا فقد انتفض على صاحب الرسالة ما طول به، وبذل فيه مجهوده أن أفعال هؤلاء من الشرك الأصغر، زاعماً أن ذلك صريح قول ابن القيم وشيخه ابن تيمية الذين قصد الذب عنهم بما هم فيه مصرحون بأنه شرك أكبر، والأدلة القرآنية قاضية بما صرحا به، ولو أراد إنسان أن يجمع ما ورد في هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلداً ضخماً ...)

التفت القاضي إلي، وقال: ما تقول أنت؟

قلت: صدق سيدي القاضي.. فابن عبد الوهاب وتلاميذه وحفدته من بعده ليسوا سوى تلاميذ لكتب ابن تيمية، ولولا تلمذتهم على ما فيها من تكفير وتضليل وتبديع للأمة، لما أقدموا على ذلك..

2 ـ ابن تيمية والمعارف الصوفية:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات الشاهد الثاني.

قال الإسكندري: الشاهد الثاني ـ سيدي القاضي ـ هو موقف ابن تيمية المتشدد من المعارف الصوفية الممتلئة بالتنزيه والتعظيم لله ورسوله.. ولذلك كفر أصحابها، وكفر كل من يقول بقولهم.. وقد أعطى ذلك الذريعة لتلاميذه من بعده ليكفروا جميع الصوفية متقدميهم ومتأخريهم.. ويستحلوا

[1] () مجموعة مؤلفات الشيخ 1/303.

دماءهم.

وسبب ذلك بسيط جدا، وهو أن الصـوفية لم يعتمـدوا على ما اعتمد عليه ابن تيمية في المعارف الإلهية من سـلفه الـذين تتلمذوا على اليهود وتلاميذ اليهود، والتي أدت بـه إلى التجسـيم والتشبيه..

بل إنهم رأوا أن معرفة الله أخطر من أن نسـلم فيهـا لأي كان ما عدا المصدر المقدس.. فذلك المصدر هو وحده الكفيـل بتعريـف اللـه إذا مـا هـذبت النفس وطهـر القلب ليصـبح محلا للمعرفة الإلهية.

قال القاضي: هلا وضحت لي ــ قبـل عرضـك لموقـف ابن تيمية ـ هذا.. فلا يمكن معرفة موقف ابن تيمية إلا بعد معرفته.

قـال الإسـكندري: اعلم سـيدي القاضـي أن الصـوفية يحرصون في كل تراثهم الذي بين أيدينا على أن ينبهـوا على أن عقائـدهم ومعـارفهم الإيمانيـة هي نفس العقائـد الموجـودة في القرآن الكريم، لكن الله فتح عليهم بمزيد من الفهم والتفصـيل والعمـق لم يتح للعـوام الحصـول عليـه بسـبب الحجب الحائلـة بينهم وبين الوصول إليها.

ولهذا ينبهون إلى ضـرورة مـا يسـمونه (السـلوك) لتحصـيل المعرفة، أو كما عبرت عن ذلك بقولي في بعض حكمي: (كيف يشرق قلب صور الأكـوان منطبعـة في مرآتـه؟ أم كيـف يرحـل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمـع أن يـدخل حضـرة الله وهو لم يتطهـر من جنابـة غفلاتـه؟ أم كيـف يرجـو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟)[1]

وحـتى أقـرب لـك هـذا المعـنى أستشـهد لـه بمثـال يتعلـق بمعارف البشـرية عن الكـون قبـل اخـتراع التلسـكوب، وبعـده، فقبـل اخـتراع التلسـكوب كـانت المعـارف بسـيطة محـدودة، وأحيانـا خاطئـة، لكنـه بـاختراع التلسـكوب وغـيره من الأجهـزة المتطـورة تغـيرت النظـرة للكـون، وتعمقت، وهكـذا كلمـا زاد

[1] () شرح الحكم العطائية (ص: 26)

تطور الأجهزة كلما زادت صورة الكون عمقا ودقة.

وهكــذا الأمــر بالنســبة للمقصــود من الســلوك وعلاقتــه بالمعرفـة الإلهيـة، فـدور السـلوك العملي هـو تطـوير الأجهـزة الاستكشافية في الإنسان للتوصل إلى الحقائق بدقة وعمق.

فالحقــائق موجــودة، ولكن الحوائــل النفســية تحــول بين الإنسان والوصول إليها، ولهذا ذكر الغزالي عند حديثه عن علوم المكاشفات التي توصل إليها بعد ممارسة السلوك المتمثل في الخلوات وأنواع المجاهـدات والرياضـات، كيـف عـرف الحقـائق بصورتها الحقيقية بعد أن كـانت مجـرد ألفـاظ وحـروف، فقـال: (علم المكاشفة هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيتـه من صـفاته المذمومـة وينكشـف من ذلـك النـور أمـور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتـوهم لهـا معـاني مجملـة غير متضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بـذات الله سبحانه وبصـفاته الباقيـات التامـات وبأفعالـه وبحكمـه في خلق الدنيا)[1]

ثم بين العلاقــة بين المعــارف العموميــة الســابقة، وهــذه المعارف التي لا تتجلى إلا بعد تطهير القلب الذي هـو تلسـكوب الحقائق، فقال: (إذ للناس في معاني هذه الأمور بعـد التصـديق بأصولها مقامات شتى فبعضهم يـرى أن جميـع ذلـك أمثلـة وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـر وأنـه ليس مـع الخلـق من الجنـة إلا الصفات والأسماء، وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقهـا المفهومـة من ألفاظهـا وكـذا يـرى بعضـهم أن منتهى معرفة الله عز وجـل الاعـتراف بـالعجز عن معرفتـه، وبعضـهم يدعي أمورا عظيمة في المعرفة بالله عز وجل وبعضـهم يقـول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العـوام وهـو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم)[2]

1() إحياء علوم الدين (1/ 19)

2() إحياء علوم الدين (1/ 20)

بناء على هذا المعنى المتفق عليه عند الصوفية، فـإن الـذي يريد أن يجادل الصـوفية في الحقـائق الـتي يوردونهـا ويتفقـون عليها ينبغي أولا أن يتحصل على الجهاز الذي حصلوه، وإلا فإنــه من مخالفة المنهج العلمي أن يجادل العامي الفلكي في حقائق الكواكب والمجرات.

قد يقال بأن حقائق الدين واضحة، وقد تكفل القرآن الكريم ببيانها، وهكذا يقـال كـذلك بـأن السـماء واضـحة، ولكن الفلكي يرى في السماء ما لا يرى فيها العامي، وهكـذا القـرآن الكـريم يـرى فيـه الصـوفي العـارف المحقـق مـا لا يـرى فيـه العـامي البسيط.

ولذلك فإن الباحث الذي يحترم نفسـه يقـع بين خيـارين إمـا أن يسلم للصوفية بما ذكروه من أن معارف البـاطن لا تتنـاقض مع معارف الظاهر، وإنما هي عمـق من أعماقهـا، ولـذلك يحكم لهم بما يحكم لسائر المسلمين من الإيمان.

وإمـا أن لا يكتفي بهـذه المرتبـة، وهـو في هـذه الحالـة بين خيارين كذلك: إما أن يستعمل الأجهزة التي اسـتعملوها، ليصـل إلى الحقـائق الـتي وصـلوا إليهـا، وذلـك يقتضـي منـه السـلوك والسير إلى الله والمجاهدة في ذلك، وإما أن يسلم لأمـر اتفـق عليه الآلاف المؤلفة من الصالحين في كل زمان ومكان.

وهناك خيـار ثـالث بعـد هـذا، وهـو أن يتوقـف فلا يحكم لهم بإسلام، ولا يحكم لهم بالكفر.

أمـا الخيـار الأخطـر فهـو أن يتجـرأ فيحكم عليهم بالإلحـاد والحلول والكفر، ليطهر الأمة من كل الذاكرين والصـالحين، ولا يبقى في الجبة إلا السطحيون والسلفيون، وهـذا مـا فعلتـه ابن تيمية حين أعلن حربه على الصوفية.

قـال القاضـي: وعيت هـذا.. فهلا ذكـرت لي من البينـات مـا يثبت موقف ابن تيمية من المعارف الصوفية.

قال الإسكندري: بما أن الإقرار سـيد الأدلـة، فسـأذكر لـك ـ

سيدي القاضي ـ أربع تصريحات مما ذكره في صوفية زمانه، والذين ينطبق عليهم ما ينطبق على غيرهم من صوفية كل الأزمنة، وأبين لك ـ سيدي ـ أن من حيل ابن تيمية الخطيرة في هذا أنه مثلما ضرب آل البيت بالنواصب، فهو كذلك راح يضرب الصوفية الصادقين ببعض المنحلين والمنحرفين الذين لم يورد أسماءهم.. ولكن راح يعمم أحوالهم على كل الصوفية.

قال القاضي: فهات التصريح الأول.

قال الإسكندري: التصريح الأول هو قوله ـ بعد ذكره لبعض المنحرفين ممن ينتسبون للتصوف ــ: (ومن قال: إن لقول هؤلاء سرا خفيا وباطن حق وإنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص خواص الخلق: فهو أحد رجلين - إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال. فالزنديق يجب قتله؛ والجاهل يعرف حقيقة الأمر فإن أصر على هذا الاعتقاد الباطل بعد قيام الحجة عليه وجب قتله. ولكن لقولهم سر خفي وحقيقة باطنة لا يعرفها إلا خواص الخلق. وهذا السر هو أشد كفرا وإلحادا من ظاهره؛ فإن مذهبهم فيه دقة وغموض وخفاء قد لا يفهمه كثير من الناس. ولهذا تجد كثيرا من عوام أهل الدين والخير والعبادة ينشد قصيدة ابن الفارض ويتواجد عليها ويعظمها ظانا أنها من كلام أهل التوحيد والمعرفة وهو لا يفهمها ولا يفهم مراد قائلها؛ وكذلك كلام هؤلاء يسمعه طوائف من المشهورين بالعلم والدين فلا يفهمون حقيقته فإما أن يتوقفوا عنه أو يعبروا عن مذهبهم بعبارة من لم يفهم حقيقة؛ وإما أن ينكروه إنكارا مجملا من غير معرفة بحقيقته ونحو ذلك وهذا حال أكثر الخلق معهم. وأئمتهم إذا رأوا من لم يفهم حقيقة قولهم طمعوا فيه وقالوا: هذا من علماء الرسوم وأهل الظاهر وأهل القشر وقالوا: علمنا هذا لا يعرف إلا بالكشف والمشاهدة وهذا يحتاج إلى شروط وقالوا: ليس هذا عشك فادرج عنه ونحو ذلك مما فيه تعظيم له وتشويق إليه وتجهيل لمن لم يصل إليه. وإن رأوه عارفا بقولهم نسبوه إلى أنه منهم وقالوا: هو من كبار العارفين. وإذا أظهر الإنكار عليهم والتكفير قالوا: هذا قام

بوصف الإنكار لتكميل المراتب والمجالي)[1]

فهذا التصريح ـ سيدي القاضي ـ كاف منه في تكفيره لكل الطرق الصوفية التي لا تزال تنشد قصائد ابن الفـارض وغـيره، وتتواجد للمعاني السامية التي تشير إليها..

وهو كاف كذلك في حكمه عليهم بالقتل، كعادته في الجمع بين التكفير والتقتيل، وهو مـا ورثـه خلفـه من بعـده من الـذين استباحوا دماء الصوفية.

قـال القاضـي: وعيت هـذا.. وهـو واضـح في الدلالـة على حكمه عليهم بالكفر والقتل.. فهات التصريح الثاني.

قال الإسكندري: التصريح الثاني هو قوله ـ سيدي ـ: (فـإن إنكـار هـذا المنكـر السـاري في كثـير من المسـلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى الذي لا يضل به المسـلمون لا سـيما وأقوال هؤلاء شـر من أقـوال اليهـود والنصـارى وفرعـون ومن عـرف معناهـا واعتقـدها كـان من المنـافقين الـذين أمـر اللـه بجهادهم بقوله تعـالى: جَاهِـدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَـافِقِينَ وَاغْلُـظْ عَلَيْهِمْ والنفاق إذا عظم كان صاحبه شرا من كفار أهل الكتـاب، وكـان في الدرك الأسفل من النار. وليس لهذه المقـالات وجـه سـائغ، ولو قدر أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صـحيحا فإنمـا يحمـل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها، وهؤلاء قد عرف مقصودهم كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضـة، ولهم في ذلـك كتب مصـنفة وأشـعار مؤلفـة وكلام يفسـر بعضـه بعضـا، وقـد علم مقصودهم بالضرورة فلا ينازع في ذلك إلا جاهـل لا يلفت إليـه، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها وخيـف عليـه أن يحسـن الظن بهـا أو أن يضـل فـإن ضـررها على المسلمين أعظم من ضرر السـموم الـتي يأكلونهـا ولا يعرفـون أنها سموم، وأعظم من ضرر السراق والخونة الذين لا يعرفـون أنهم سراق وخونة. فإن هؤلاء: غاية ضـررهم مـوت الإنسـان أو ذهاب ماله وهذه مصيبة في دنياه قـد تكـون سـببا لرحمتـه في الآخرة وأما هؤلاء: فيسقون النـاس شـراب الكفـر والإلحـاد في

[1] () مجموع الفتاوى (2/ 378)

آنية أنبياء الله وأوليائه ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله وهم في الباطن من المحاربين لله ورسوله ويظهرون كلام الكفار والمنافقين في قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمنا وليا لله فيصير منافقا عدوا لله)[1]

قال القاضي: وعيت هذا.. وهو واضح في الدلالة على حكمه عليهم بالكفر والقتل.. فهات التصريح الثالث.

قال الإسكندري: التصريح الثالث هو قوله ـ سيدي القاضي ـ: (وأقوال هؤلاء شر من أقوال النصارى وفيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى؛ ولهذا يقولون بالحلول تارة وبالاتحاد أخرى وبالوحدة تارة فإنه مذهب متناقض في نفسه؛ ولهذا يلبسون على من لم يفهمه. فهذا كله كفر باطنا وظاهرا بإجماع كل مسلم ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين)[2]

فأنت ترى ـ سيدي القاضي ـ أنه لم يكتف بتكفيرهم، بل راح يكفر من توقف في تكفيرهم، أو شك في ذلك.. وليس بعد ذلك تكفير.

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات التصريح الرابع.

قال الإسكندري: التصريح الرابع سيدي القاضي هو قوله ـ بعد ذكره لبعض الصوفية ومقولاتهم التي لم يفهم مقاصدها ـ: (ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد أو جاهل ضال. وهؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته حال في كل مكان ولكن أهل وحدة الوجود: حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية)[3]

---

[1] () مجموع الفتاوى (2/ 359)

[2] () مجموع الفتاوى (2/ 368)

[3] () مجموع الفتاوى (2/ 367)

وهذا القول ـ سيدي ـ يدلك على سر إنكاره على المعارف الصوفية.. فهو يعتقد ـ كسلفه ـ بينونة اللـه عن خلقه بالمكـان، وأن اللـه في تصـوره ليس سـوى جـرم من الأجـرام السـماوية العلويـة، ولـذلك فهـو يعتـبر كـل مـنزه للـه عن الحـد والمقـدار والمكان والجسمية حلوليا واتحاديا.

رابعا ـ الصراع مع غير المسلمين

بعد أن ساق الإسكندري ما سـاقه من الأدلـة على موقـف ابن تيميـة من الصـوفية وتكفـيره لهم، وتحريضـه عليهم، قـام الخليلي، وقال: أظن أن مـا ذكرنـاه من أدلـة على مواقـف ابن تيميـة من التصـوف والصـوفية، وتكفـيره لهم وتحريضـه عليهم كاف في إقناع سيدنا القاضي بـذلك.. وإن لم تكن كافيـة ذكرنـا له المزيد.. فما أكثر فتاوى ابن تيمية الداعية لهدر الدماء لأجــل أبسط الأمور، وأقل الشؤون..

قال القاضي: بل أنا مقتنع بمـا ذكـرتكم.. فـانتقلوا بنـا إلى الدليل الرابع.

قال الخليلي: الدليل الرابع ـ سيدي القاضي ـ مرتبط بمن أمرنا بأن نحسن إليهم ونؤلـف قلـوبهم، ونحببهم في ديننـا وفي نبينا، حتى لا نكـون حجابـا بينهم وبين التعـرف على الحقيقـة أو سلوك سبيلها.

قال القاضي: أتقصد غير المسلمين الذين يعيشون معنا.

قـال الخليلي: أجـل.. وأقصـد غـيرهم أيضـا من الـذين لا يعيشون معنا.. فكل إساءة نواجـه بهـا من يعيشـون معنـا ترتـد سلبا على البعيدين عنا..

قال القاضي: فما كان موقـف ابن تيميـة من هـؤلاء الـذين أوصى القرآن الكريم بتأليف قلوبهم والبر بهم.

قال الخليلي: لم يدع ابن تيمية وسيلة من التضــييق عليهم واحتقارهم وإذلالهم إلا قال بها ودعا إليها، وأثنى على الفــاعلين لها.

قال القاضي: أنت تعلم أني قاض.. ولا يكفيني الكلام المجرد.

قال الخليلي: ولدي البينات الكثيرة على ذلك.. فقد ألف ابن تيمية رسالة تنتشر في مجتمعاتنا كالنار في الهشيم، وهي عند تلاميذه من المسلحين وغيرهم أكبر وسيلة لقمع الأقليات وقهرها وإذلالها.. وهي الرسالة التي بسببها هدم تلاميذ ابن تيمية كنائس المسيحيين وأحرقوها.

قال القاضي: هل وصل به الصراع إلى هذا الحد؟

قال الخليلي: أجل.. سيدي القاضي.. فهو لم يترك أحدا إلا صارعه.. حتى الجن كان يصارعهم ويضربهم كما حدث بذلك عن نفسه[1]، وحدث عنه أصحابه.

قال القاضي: فحدثني عن البينات التي تستنبطها من هذه الرسالة، والتي تدل على ما ذكرت.

قال الخليلي: الرسالة كما ذكرت لك سيدي مصدر من

---

[1] () فقد كان ابن تيمية يدعو ـ عند الرقية التي ابتدعها أو نقلها عن سلفه ــ إلى ضرب الجن، وإلحاق مختلف العقوبات بهم، فيقول: (ولهذا قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب، فيضرب ضربا كثيرا جدا، والضرب إنما يقع على الجني، ولا يحس به المصروع حتى يفيق المصروع، ويخبر أنه لم يحس بشيء من ذلك، ولا يؤثر في بدنه، ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة وأكثر وأقل، بحيث لو كان على الإنسي لقتله، وإنما هو على الجني والجني يصيح ويصرخ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة كما قد فعلنا نحن هذا وجربنا مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين) [مجموع الفتاوى 19 / 60]

وقال: (وإذا ضرب بدن الإنسي؛ فإن الجني يتألم بالضرب ويصيح ويصرخ ويخرج منه ألم الضرب، كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى، ونحن قد فعلنا من ذلك ما يطول وصفه) [مجموع الفتاوى 10 / 349]

وقال: (فإنه يصرع الرجل؛ فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمل لأثَّر به أثراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب، ولا بالكلام الذي يقوله)[مجموع الفتاوى 24 / 277]

بل إن ابن تيمية نفسه استعمل هذه الوسيلة في عقاب الجن، فقد حكى ابن مفلح – وهو تلميذ لابن تيمية– فقال: (كان شيخنا – يعني شيخ الإسلام ابن تيمية – إذا أتي بالمصروع وعظ من صرعه وأمره ونهاه، فإذا انتهى وفارق المصروع أخذ عليه العهد أن لا يعود، وإن لم يأتمر ولم ينته ولم يفارق؛ ضربه حتى يفارقه)[الفروع 1 / 607]

أكـبر مصـادر الإرهـاب، وكـل مـا فيهـا تحـريض على الأقليـات المسـيحية.. ويقـاس عليهم غـيرهم.. لكن لضـرورة الاختصـار، فسأذكر لك أربعة أمثلة من ذلك التحريض.

المثال الأول:

قال القاضي: فهات المثال الأول.

قال الخليلي: المثـال الأول هـو فتـوى ابن تيميـة الموجهـة للسلطات الحاكمة بعدم إعطاء المسـيحيين المطـالبين بأبسـط حقوقهم الدينية الحق في تلك المطالبة، فقد كـان السـؤال في الرسالة حول (الكنائس التي بالقاهرة وغيرها التي أغلقت بـأمر ولاة الأمــور، إذا ادعى أهــل الذمــة: أنهــا غُلِّقت ظلمــاً، وأنهم يســتحقون فتحهــا، وطلبــوا ذلــك من ولي الأمــر، فهــل تقبــل دعواهم؟ وهل تجب إجابتهم أم لا؟!)[1]

هذا ملخص مختصر للسؤال المطول.. وكان الأجـدى بـابن تيمية أن يراجع ما ورد في القرآن الكريم فيمـا يرتبـط بالحريـة الدينية، بل فيما يرتبط بالكنائس نفسها، والتي قال اللـه تعـالى فيها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40]

لكن ابن تيميــة لم يفعــل ذلــك.. بــل راح يجيب بعنصــريته وكبريائه وصراعه قـائلا: (أمـا دعـواهم أن المسـلمين ظلمـوهم في إغلاقهــا فهــذا كــذبٌ مخــالفٌ لأهــل العلم.. فــإن علمــاء المسلمين من أهل المذاهب الأربعـة.. متفقـون على أن الإمـام لو هدم كل كنيسةٍ بأرض العنوة كأرض مصر والسـواد بـالعراق، وبر الشام ونحو ذلـك، مجتهـدًا في ذلـك، ومتبعًـا في ذلـك لمن يرى ذلك، لم يكن ذلك ظلمـاً منـه؛ بـل تجب طاعتـه في ذلـك. وإن امتنعــوا عن حكم المســلمين لهم، كــانوا ناقضــين العهــد، وحلت بذلك دماؤهم وأموالهم)[2]

1() مسألة في الكنائس، ص: 99.

2() مسألة في الكنائس، ص: 102.

وهذا أكبر تشـريع للقمـع والظلم الـذي لا علاقـه لـه بـدين الله، ولا بالسماحة التي جاء بها، بل إن نشر هذه الفتوى وحدها كاف في الصد عن دين الله، وفي منع العقـول من التفكـير في الدخول فيه.

قال القاضي: صدقت في هذا.. لكن ما دليله في ذلـك مـع صراحة النص القرآني الذي قرأته؟

قال الخليلي: أنت تعلم ــ سـيدي القاضـي ــ من خلال مـا ذكرناه لك سابقا أن ابن تيمية يتعامل مع الشريعة بمـا يقتضـيه مزاجه.. فهو في المسائل المتعلقـة بالتوسـل والقبـور والطلاق لم يبال بكل الخلافات التي خالف بها جمـاهير الفقهـاء، بـل راح يـدعو إلى تحكيم الكتـاب والسـنة واعتبارهمـا المرجـع الأكـبر للأحكـام، من دون النظـر لأي مخـالف لهمـا.. لكنـه في هـذه المسألة أو في أي مسألة تلبي نواحي الرغبة في الصراع تجـده يتهافت لأي قول، ويستند لأي جدار.

المثال الثاني:

قال القاضي: وعيت هذا.. فهات المثال الثاني.

قـال الخليلي: المثـال الثـاني سـيدي القاضـي مرتبـط بتحريضـه على مصـادرة الكنـائس الـتي بـنيت في الأرض الـتي فتحت عنوة.. فقد قال في ذلك: (بل إذا كان لهم كنيسة بـأرض العنوة، كالعراق ومصر ونحو ذلك فبنى المسلمون مدينة عليهـا، فـإن لهم أخـذ تلـك الكنيسـة؛ لئلا تـترك في مـدائن المسـلمين كنيسةٌ بعد عهـد.. والمدينـة الـتي يسـكنها المسـلمون، والقريـة التي يسكنها المسلمون، وفيها مسـاجد المسـلمين، لا يجـوز أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر: لا كنائس ولا غيرها)[1]

قال القاضي: فهل اكتفى بالتنظير.. أم ترك للحكام الحرية في التنفيذ؟

قـال الخليلي: ليتـه اكتفى بـذكر المسـألة دون الكلام في

1() مسألة في الكنائس، ص: 103.

تفاصيلها.. بل إنه راح يضع خارطة للكنائس الموجودة في البلاد الإسلامية، ويحرض على هدمها.. وهو مـا اسـتعمله تلاميـذه من بعده في هدم الكنائس وحرقهـا مسـتندين لهـذه الرسـالة الـتي تحول فيها ابن تيمية إلى مؤرخ وجغرافي، بـل إلى قائـد يرسـم لجنوده أهداف العدو، ويشير إليهم بضربها.

المثال الثالث:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الثالث.

قال الخليلي: لم يكتف ابن تيمية بالدعوة لمصادرة وإغلاق الكنـائس الـتي بـنيت في الأرض الـتي فتحت عنـوة، بـل راح يحرض على هدم الكنائس التي بنيت في عهد الدولة الفاطميـة باعتبارها عنده دولة غير شرعية، ولذلك لا عبرة بـالرخص الـتي أعطتها لبناء الكنائس في القاهرة ونحوها، وذلك مـا يفتح مجـالا كبيرا للظلم والعدوان على من ائتمننا رسول الله ﷺ عليهم.

لقد قال ابن تيمية في رسالته يعـبر عن ذلـك، ويشـكو من سـماحة الفـاطميين مـع المسـيحيين وغـيرهم من الأقليـات المتواجـدة في المجتمـع المصـري: (فلـو كـان بـأرض القـاهرة ونحوها كنيسةٌ قبل بنائها[1]، لكان للمسلمين أخذها، لأن الأرض عنـوةً فكيـف وهـذه الكنـائس محدثـة، أحـدثها النصـارى؟! فـإن القـاهرة بقي ولاة أمورهـا نحـو مـائتي سـنةٍ، على غـير شـريعة الإسـلام[2]، وكـانوا يظهـرون أنهم رافضـة، وهم في البـاطن إسماعيلية، ونصيرية، وقرامطة.. وقد عرف العـارفون بالإسـلام أن الرافضة تميل مع أعـداء الـدين.ولمـا كـانوا ملـوك القـاهرة، كان وزيرهم مرة يهودياً، ومرة نصرانياً أرمنياً وقـويت النصـارى بسبب ذلك النصراني الأرمني، وبنوا كنائس كثيرةً بأرض مصـر، في دولة أولئك الرافضة والمنافقين)[3]

1() لأن الذي بناها هم الفاطميون كما هو معلوم.

2() يقصد الفترة التي تولى فيهـا الفـاطميون، وفي هـذا دليـل على كـون ابن تيميـة من أوائـل من سـن تكفـير الأنظمـة والـدول، وتبعـه على ذلـك ابن عبـد الوهـاب وغـيره من السلفية، وأخذته عنهم بعد ذلك بعض الحركات الإسلامية.

المثال الرابع:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الرابع.

قـال الخليلي: لم يكتـف ابن تيميـة بـالتحريض على تلـك الكنائس التي بـنيت في عهـد الدولـة الفاطميـة، وإنمـا راح إلى غيرها من الكنائس التي بنيت قبل ذلك، والتي توجـد في صـعيد مصـر وأريافهـا يحتـال لهـدمها أيضـا، ويقـدم لـذلك المقـدمات الطويلة، ولذلك نختصر كلامـه اختصـارا، يقـول في ذلـك: (وقـد كـان في بـر مصـر كنـائس قديمـة، لكن تلـك الكنـائس أقـرهم المسـلمون عليهـا حين فتحـوا البلاد؛ لأن الفلاحين كلهم كـانوا نصـارى، ولم يكونـوا مسـلمين، وإنمـا كـان المسـلمون الجنـدَ خاصة، فأقرهم كما أقر النبي ﷺ اليهـود على خيـبر لمـا فتحهـا؛ لأن اليهود كانوا فلاحين، وكان المسلمون مشتغلين بالجهـاد. ثم إنه بعد هـذا في خلافـة عمـر بن الخطـاب لمـا كـثر المسـلمون واستغنوا عن اليهود، أجلاهم أمير المؤمنين عن خيبر.. حـتى لم يبق في خيبر يهودي. وهكـذا القريـة الـتي يكـون أهلهـا نصـارى وليس عنـدهم مسـلمون، ولا مسـجدٌ للمسـلمين، فـإذا أقـرهم المسـلمون على كنائسـهم الـتي فيهـا، جـاز ذلـك، كمـا فعلـه المسلمون، وأما إذا سكنها المسلمون وبنوا بها مساجدهم، فقد قال النبي ﷺ: (لا تصلح قبلتان بأرض).. والمسـلمون قـد كـثروا بالديار المصرية، وعمـرت في هـذه الأوقـات؛ حـتى صـار أهلهـا بقدْر ما كانوا في زمن صلاح الدين مراتٍ متعددة)[1]

وهو بهذا يشير إلى هـدم هـذه الكنـائس أيضـا.. وبـذلك لن تبقى كنيســة في مصــر، لأنــه لا توجــد بلــدة فيهــا إلا ويختلــط مسلموها بمسيحييها.

المثال الخامس:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال الخامس.

3() مسألة في الكنائس، ص: 116.

1() مسألة في الكنائس، ص: 118.

قـال الخليلي: لم يكتـف ابن تيميـة بـالتحريض على هـدم الكنائس، بل راح يحرض على المسـيحيين أنفسـهم، ويسـتعمل كل الطرق لدعوة الحكام والمجتمع لإذلالهم، بل وإخـراجهم من أرضـهم.. ويستشـهد لـذلك بمـا فعلـه صـلاح الـدين والأيوبيـون، فيقول: (وصلاح الـدين وأهـل بيتـه كـانوا يـذلون النصـارى، ولم يكونوا يستعملون منهم أحداً من أمرٍ من أمور المسلمين أصـلاً. ولهـذا كـانوا مؤيـدين منصـورين على الأعـداء مـع قلـة المـال والعدد. فيما قويت شوكة النصـارى والتتـار بعـد مـوت العـادل، أخي صلاح الدين، حتى إن بعض الملـوك أعطـاهم بعض مـدائن المسلمين) [1]

بل إنه يستنبط من التاريخ قاعدة عامـة وسـنة من السـنن الكـبرى الخطـيرة، فيقـول: (فكـان ولاة الأمـور الـذين يهـدمون كنائسهم ويقيمون أمر الله فيهم كعمر بن عبـد العزيـز وهـارون الرشيد ونحوهما مؤيدين منصورين، وكان الذين هم بخلاف ذلك مغلوبين مقهورين. وإنما كـثرت الفتن بين المسـلمين، وتفرقـوا على ملـوكهم من حين دخـل النصـارى مـع ولاة الأمـر بالـديار المصرية، في دولة المعز، ووزارة الفائز، وتفرق البحرية، وغـير ذلك)[2]

وهو يعتبر أمثـال هـؤلاء الحكـام الـذين يـذلون المسـيحيين والأقليات ويضطهدوهم هم الطائفة المنصـورة الـتي نص عليهـا الحـديث، فيقـول: (وقـد صـح عن النـبي ﷺ أنـه قـال: (لا تـزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى تقـوم السـاعة)، وكـل من عـرف سـير النـاس وملوكهم رأى كل من كان أنصـر لـدين الإسـلام، وأعظم جهـاداً لأعدائـه، وأقـوم بطاعـة اللـه ورسـوله، أعظم نصـرة وطاعـة وحرمة، من عهـد أمـير المؤمـنين عمـر بن الخطـاب وإلى هـذا الزمـان. وقـد أخـذ المسـلمون منهم كنـائس كثـيرةً من أرض العنـوة، بعـد أن أُقـروا عليهـا في خلافـة عمـر بن عبـد العزيـز،

1() مسألة في الكنائس، ص: 120.

2() مسألة في الكنائس، ص: 121.

وغيره من الخلفاء، وليس في المسلمين من أنكر ذلك)[1]

المثال السادس:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال السادس.

قال الخليلي: لم يكتف ابن تيمية بكل ذلك.. بل راح يشجع الحكام على تلك المواجهة مع الأقليات، ويخبرهم أنه لن يحصل لهم ضرر بسببها، فيقول: (ومن قال إن المسلمين يحصل لهم ضررٌ، إن لم يجابوا إلى ذلك؛ لم يكن عارفاً بحقيقة الحال، فإن المسلمين قد فتحوا ساحل الشام، وكان أعظم المصائب عليهم؛ أخذُ أموالهم، وهدم كنائسهم. وكان نوروز - رحمه الله - قد شرط عليهم الشروط، ووضع الجزية، وكان ذلك أعظم المصائب عليهم، ومع هذا لم يدخل على المسلمين بذلك إلا كل خير، فإن المسلمين مستغنون عنهم، وهم إلى ما في بلاد المسلمين أحوج من المسلمين إلى ما في بلادهم، بل مصلحة دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بما في بلاد المسلمين، والمسلمون -ولله الحمد والمنة- أغنياء عنهم في دينهم ودنياهم. فأما نصارى الأندلس فهم لا يتركون المسلمين في بلادهم إلا لحاجتهم إليهم، وخوفهم من التتار، فإن المسلمين عند التتار أعز من النصارى وأكرم، ولو قدروا، وإنهم قادرون على من عندهم من النصارى. والنصارى الذين في ذمة المسلمين فيهم من البتاركة، وغيرهم من علماء النصارى ورهبانهم، وليس عند النصارى مسلمٌ يحتاج إليه المسلمون ولله الحمد، مع أن إفكاك الأسارى من أعظم الواجبات، وبذل ذلك الموقوف وغيره في ذلك من أعظم القربات. وكل مسلمٍ يعلم أنهم لا يتجرون إلى بلاد المسلمين، إلا لأغراضهم، لا لنفع المسلمين؛ ولو منعهم ملوكهم من ذلك لكان حرصهم على المال يمنعهم من الطاعة. فإنهم أرغب الناس في المال، ولهذا يتقامرون في الكنائس. وهم طوائف مختلفون، وكل طائفة تضاد الأخرى)[2]

1() مسألة في الكنائس، ص: 122.

2() مسألة في الكنائس، ص: 124.

وهكذا راح يدعوهم إلى إحياء تلك الشروط الجائرة التي لا تتناسب مع العدالة الإلهية، مع أنه لم يدل عليها دليل نصي، بل هي في أحسن أحوالها اجتهاد مرتبط بواقع معين، وفي زمان معين.

فمن تلك الشروط (أن لا يتخذوا من مدائن الإسلام ديراً ولا كنيسة ولا قُليّة ولا صومعة لراهب، ولا يجددوا ما خرب منها.. ولا يمنعوا كنائسهم التي عاهدوا عليها أن ينزلها المسلمون ثلاثة أيام، يُطعموهم، ويؤووهم.. ولا يظهروا شِركاً ولا ريبة لأهل الإسلام.. 4- ولا يعلوا على المسلمين في البنيان.. ولا يعلموا أولادهم القرآن.. ولا يركبوا الخيل ولا البغال، بل يركبوا الحمير بالأكف عرضاً من غير زينة لها ولا قيمة. ويركبوا وأفخاذهم مثنية.. ولا يظهروا على عورات المسلمين.. ويتجنبوا أوساط الطرق؛ توسعة للمسلمين.. ولا ينقشوا خواتمهم بالعربية.. وأن يجذّوا مقادم رؤوسهم.. وأن يلزموا زيَّهم حيث ما كانوا.. ولا يستخدموا مسلماً في الحمام، ولا في أعمالهم الباقية.. ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يتكنوا بكناهم، ولا يتلقبوا بألقابهم.. ولا يركبون سفينة نوتيها مسلمٌ.. ولا يشترون رقيقاً مما سباه مسلم.. ولا يشترون شيئاً مما خرجت عليه سهام المسلمين.. ولا يلبسون عمامة صافية، بل يلبس النصراني العمامة الزرقاء عشرة أذرع، من غير زينة لها ولا قيمة.. ولا يشتركون مع المسلمين في تجارة، ولا بيع، ولا شراء.. ولا يخدمون الملوك، ولا الأمراء فيما يُجري أميرهم على المسلمين من كتابة، أو أمانة، أو وكالة، أو غير ذلك.. فإن خالفوا شيئاً مما أخذ عليهم فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق)[1]

المثال السابع:

قال القاضي: وعيت هذا، فهات المثال السابع.

قال الخليلي: لم يكتف ابن تيمية بكل ذلك.. بل راح يحرض الحكام على المستشارين الذين يدعونهم إلى رعاية

[1] () مسألة في الكنائس، ص: 134.

العدل وحقوق الأقليات، متهما إياهم بالنفاق والكفر، فقال: (ولا يشـير على ولي المسـلمين بمـا فيـه إظهـار شـعائرهم في بلاد الإسلام، أو تقويـة أمـرهم بوجـه من الوجـوه، إلا رجـل منـافقٌ، يظهر الإسلام، وهو منهم في الباطن، أو رجلٌ له غـرضٌ فاسـدٌ، مثل أن يكونوا برطلوه، ودخلوا عليـه برغبـةٍ، أو رهبـةٍ، أو رجـلٌ جاهلٌ في غاية الجهل، لا يعرف السياسة الشرعية الإلهية الـتي تنصر سلطان المسلمين على أعدائـه، وأعـداء الـدين. وإلا فمن كـان عارفـاً ناصـحاً لـه أشـار عليـه بمـا يـوجب نصـره، وثباتـه، وتأييده، واجتمـاع قلـوب المسـلمين عليـه، وفتحهم لـه، ودعـاء الناس له في مشـارق الأرض ومغاربهـا. وهـذا كلـه إنمـا يكـون بإعزاز دين الله، وإظهار كلمـة اللـه، وإذلال أعـداء اللـه تعـالى. وليعتبر المعتـبر بسـيرة نـور الـدين، وصـلاح الـدين، ثم العـادل، كيـف مكنهم اللـه، وأيـدهم، وفتح لهم البلاد، وأذل لهم الأعـداء، لمـا قـاموا من ذلـك بمـا قـاموا بـه؟! وليعتـبر بسـيرة من والى النصارى؛ كيف أذله الله، وكبته؟!)[1]

---

[1] () مسألة في الكنائس، ص: 127.

الخاتمة

بعد أن ذكر العلماء من المـذاهب المختلفـة مـا لـديهم من حجج وبينــات على التهم الــتي اتهمــوا بهــا ابن تيميــة، وقــف القاضـي، وقـال: يكفيـني مـا أوردتم من الأدلـة، وقـد سـجلتها جميعا، وأنا مقتنع بها تماما، لكن الحكم في مثل هـذه المسـائل يحتاج إلى تريث وهدوء، ويحتاج إلى بعض الاستشارات.. فلذلك موعدنا غدا.. فأحضروا من شئتم من العلماء أو غيرهم ليسـتمع للحكم، ولعلـه يـورد علينـا من الاعـتراض مـا نحتـاج فيـه إلى المراجعة والاستئناف.

قال ذلك، ثم انصرف، وانصرف العلماء.. وفي الغد اجتمـع جمع كبير جـدا من العلمـاء بمختلـف مـذاهبهم، ودخـل القاضـي قاعة المحكمة، ومعه جمع كبير من القضاة والمستشارين.

وفوق منصة المحكمة، وقف القاضــي، وطلب من الجميـع الهدوء، ثم راح يقول: بعد استماعي للأدلـة والبينـات على التهم الخطـيرة الـتي اتهمتم بهـا الشـخص المسـمى [تقي الـدين أبـا العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني].. وبعد استشارتي للمختصين في المجالات العلمية المرتبطة به.. وبعــد اطلاعي عن كثب على كتبــه، وتأثيرهــا في المجتمعــات الإسلامية على مـدار التـاريخ.. وبعـد إدراكي لخطورتهـا وآثارهـا في تشويه جميع القيم الإسلامية الكريمـة.. فـإنني ومن مكـاني هـذا أنطـق بـالحكم الـذي تقتضـيه العدالـة، ويقتضـيه الحـزم المرتبط بها..

اشرأبت الأعناق لسماع الحكم، وساد صمت عميـق أرجـاء القاعة.. لكن فجأة سمعنا ضـجة كبـيرة خـارج القاعـة.. وبعـدها سمعنا من خلال مكبرات الصوت هذا النــداء: أنتم محاصــرون.. والقاعة كلها مفخخة، وبإشارة واحدة من شـيخنا شـيخ الإسـلام ابن تيميـة، ومن قائـدنا خليفـة المسـلمين البغـدادي، سـتختلط لحــومكم ودمــاؤكم بالخرســانة المســلحة.. فــأعلنوا تــوبتكم وولاءكم لشــيخ الإســلام، ولخليفــة المســلمين، وإلا فالقتــل

نصيبكم، وجهنم موعدكم..

سأعد إلى ثلاثة.. فمن بقي منكم في القاعة، فسيفجر معها، ومن خرج إلينا، فقد أمن، بشرط واحد، وهو أن يكتب كتبا تمجد شيخ الإسلام، وترد على خصومه..

قال ذلك، ثم صاح بعد ثوان معدودة: واحد..

فرأيت جمعا كثيرا من القاعة من العلماء وغيرهم يسرع خارجها، وهو يرفع صوته ثناء على ابن تيمية، وعلى خليفته البغدادي.. ولم يبق في القاعة إلا القليل..

ثم صاح الصوت: اثنان.. فخرج جمع آخر.. وبقيت مترددا بين الخروج والبقاء.. فقد كنت مقتنعا بكل ما ذكروا، لكني كنت أيضا جبانا وخائفا من أن ينزل بي الموت قبل أن أهيئ نفسي لما بعده..

لكني ـ بعد جهد جهيد ـ استطعت أن أسيطر على نفسي، وأن أقنعها بأن هذه فرصة عظيمة للشهادة في سبيل الله.. وأن الله سيكافئني عليها، وسيعفو عن تقصيري..

وأخبرتها أنني إن خرجت مع الذين خرجوا فإن حالي لن يختلف عن حال القرني والخطيب والعفيف والتويجري، وسيصبح قلمي حينها صاروخا يدمر كل حي، ويقضي على كل شيء.

بعد أن خرج الجمع.. صاح الصوت: ثلاثة.. فرحت وكل من معي ننطق بالشهادتين.. وبعدها سمعت صوت انفجار عظيم.. لكني ــ للأسف ــ لم أمت ولم أستشهد، بل فتحت عيني، فرأيتني في فراشي، وفي بيتي.. وكان يجلس بجانبي صاحبي الوهابي التائب، فابتسم، وقال: لقد اخترت الخيار الصحيح.. وقد أمد الله في عمرك.. لتكتب كل ما رأيت وسمعت لينتفع به كل من غرقوا في أوحال ابن تيمية، أو سجنوا في سجونه.

قلت: أكنت معي في حلمي؟

قال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } [المائدة: 101]

قلت: لا بأس.. أأكتب كل شيء؟

قال: أجل..

قلت: فما أسميه؟

قال: سمه [شيخ الإسلام في قفص الاتهام]

قلت: لكن ابن تيمية لم يكن في قفص الاتهام.. بل كان كرسيه فارغا..

قال: ابن تيمية ليس جسدا ولا لحما ولا عظما.. ابن تيمية هو تلك السموم التي تجرعتها الأمة، فشوهتها وانحرفت بها كما انحرف السامري باليهود، وانحرف بولس بالنصارى.. وانحرف بكل دين دجال من الدجالين.

قلت: لكني لم أسمع حكم القاضي فيه.

قال: لقد جعل الله في عقل كل إنسان قاضيا يقضي بالحق، فاكتب التهم واكتب أدلتها كما سمعتها، واترك للقضاة الذين جعلهم الله في عقول خلقه ليتولوا الحكم بأنفسهم.. فحقيقة كل إنسان تنبع من الأحكام التي يحكم بها قضاة عقله.

هذا الكتاب

تحاول هذه الرواية من خلال الأدلة والوثائق الكثيرة إثبات الجنايات التي جناها ابن تيمية على الإسلام الأصيل، سواء من ناحية تشويهه للعقائد في الله التي هي أصل أصول الدين، والتي حولها إلى عقائد تجسيم وتشبيه ووثنية.. أو من ناحية تشويهه للرسالة والرسل ومن يتعلق بهم من أولياء الله وأصفيائه.. أو من ناحية صراعه مع الأمة بل مع البشرية، ونشره للفتن بينها..

ذلك أن ابن تيمية ليس مجرد رجل عاش في القرن السابع الهجري، ثم مات بعدها مثله مثل سائر الناس.. بل هو رجل لا يزال يعيش بيننا، نراه في كل محل، ونسمع به في كل مكان، وتتحدث عنه كل القنوات، وتغرد به كل الألسنة..